

تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم

(الجزء الأول)

الدكتور
عثمان قدرى مكانسي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

عرفته مريباً فاضلاً يتقاطر الشباب حوله لحضور حلقاته في منزلنا ، ويحرصون على تنفيذ ما يكلفهم به ، فهم يرون فيه قدوة ، وكان له في البيت أكثر من لقاء أسبوعي لمجموعات مختلفة من الشباب .

ومن مواقفه الطريفة في ذلك أن أحد مواعيد لقاءاته الأسبوعية كان يوم الجمعة فلم يتوان عن الالتقاء بطلابه صبيحة يوم عرسه ، وكان رأيه في ذلك أن الأولويات هي التي تحدد مسار الداعية . وهكذا كان ..

واضطرتنا الظروف للخروج من سورية لنبداً مرحلة الهجرة التي اخترناها ابتداءً لتحسين وضعنا المعيشي ، ثم تحولت إلى هجرة في سبيل الله بعد أن حدث ما حدث في أوائل الثمانينات في سورية .

وكان أينما حل يترك - بفضل الله - أثراً تربوياً مميزاً ، سواء أكان ذلك مع تلاميذه في سورية أم في الجزائر في ثانويات بجاية أم في علاقاته مع الجالية السورية هناك ، أم في مهجره الثاني في الأردن ، أم في عمله التربوي في ثانويات دبي ومساجد الشارقة .

وفي عمله في الإمارات نال درجتي الماجستير ثم الدكتوراه { أدب الفتوحات العثمانية } وذلك لشغفه باللغة العربية التي تغلب على حديثه مع أصدقائه وإخوانه ، .

كان كتابه التربوي الأول { صور من تأذي النبي صلى الله عليه وسلم } فاتحة كتبه التربوية ، تبعه بعد ذلك كتابه { التربية النبوية } الذي نال به جائزة جمعية المعلمين في الشارقة / الإمارات ، مما شجعه على الاستمرار في هذا النهج الذي أحبه ، فكان كتابه القيم { من أساليب التربية في القرآن الكريم } الذي اغترفه من معين الكتاب العظيم الخالد ، وكان كتابه هذا فتحاً في التربية القرآنية ، وأزعم أنه كان سباقاً في هذا المجال التربوي . وما كتابه { قصص رواها النبي ﷺ } وكتابه { قصص رواها الصحابة رضوان الله عليهم } إلا لبنتان في سلسلة الكتب التربوية لبناء الشخصية الإسلامية التي قدمها المخلصون من علماء أمتنا ، وقد تناول فيهما من القصص ما يركز على الطرق التربوية فيها لبناء مجتمع طاهر نظيف .

شارك المؤلف في كثير من المؤتمرات والمخيمات الإسلامية في أوروبا وأمريكا ، فكان له بعون الله الأثر الجيد في نفوس إخوانه وخاصة من الشباب ، وخلد هذه الزيارات في كتابه { أدب الرحلات } ، نشره في

حلقات في المواقع العنكبوتية الأدبية ، ثم طبع عام ٢٠١١ ميلادية .

أما كتابه هذا { تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم } فقد نشر مقالاته في حلقات على صفحات " انت " على مدى سنتين تداولتها عشرات المنتديات ولاقت استحساناً كبيراً ، يتناول فيها بعض الأساليب القرآنية في الدعوة إلى الله والتربية الإخوانية والأسرية مع بعض اللفات الأدبية والبلاغية . ثم طبع في عمّان ز

ولا يخلو كتابه الأدبي " رياض سندسية " من معان اجتماعية وفكرية وأدبية وسياسية نشرها في المجلات والمنتديات الالكترونية ، ولم يتسنّ طبعه حتى الآن، بيد أنه نُشر في مواقع النت .

توالت كتبه التربوية في غزات النبي صلى الله عليه وسلم فكتب في غزوات بدر وخيبر وتبوك وفتح مكة .. وغيرها من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم

بدأ أبو حسان - وهي الكنية التي يؤثرها على الألقاب الأكاديمية ويرتاح لها - نظراته وتأملاته التربوية في كتابه هذا بمقالات في " سورة مريم " التي يسميها سورة الأسرة ، ففيها قصة الأب زكريا وابنه يحيى، وقصة الأم مريم وابنها عيسى ، وقصة الأخوين موسى وهارون ، وقصة الولد الصالح إبراهيم مع أبيه آزر ، وقصة إسماعيل الأب المرابي الفاضل ، يذكر العلاقة بينهم والمحور الذي يلتفتون حوله ويسعون لإرضائه (إنه الله سبحانه وتعالى) ، ثم أتبعها بتأملات في " سورة طه " ، ولم تكن غايته أول الأمر أن يجعلها كتاباً ، لكن شاء الله سبحانه أن تُجمع هذه المقالات بين دفتين ينتفع بها المرءون إن شاء الله تعالى .

فالمسلمون الآن وتحت وطأة الهجمة التجهيلية أشد ما يكونون بحاجة إلى وسائل تربوية من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم يجعلونها النور الذي ينهلون منه الأخلاق والأدب ، فهو المعين الذي لا ينضب ولا يبلى على مر الدهور وكرّ العصور . خاصة بعد بعد أن انتشر اليوم من المرين أو مدعي التربية الحديثة من يعتمدون الاعتماد الكلي على الغربيين في أفكارهم وفي طرق تربيتهم ، وهم نوعان ، فمن كان منهم ذا أفكار سليمة إنما تتقارب أفكاره مع ما جاء به القرآن الكريم ... ومن كان غير ذلك فلا حاجة لنا إلى سمومه .. ولكن أمتنا التي تعاني الآن من التأخر والضعف أصبحت لا ترى من الجيد إلا ما كان قادمًا من وراء البحار ... فكان لا بد من أقلام مخلصّة تملأ الساحة من خلال ما يقبسون من أدب ديننا وأخلاقه ، ليقدموا للمرين البديل الأصيل والمعين السلسيل ويأخذوا بأيديهم لبناء جيل قرآني طاهر .

أسأل الله عز وجل أن يعلمنا ما ينفعنا ، وينفعا بما علمنا ، ويسدد خطانا ، وأن يجعلنا من دعائه
الذين قال فيهم { ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك
هم المفلحون } . والله وليّ التوفيق

إلهام محمد صبري بيّره جكلي

أم حسان

تأملات تربوية في سورة هود (١)

سورة هود : مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْآيَاتِ ١١٤ - ١٧ - ١٢ فَمَدِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ١٢٣ نَزَلَتْ بَعْدَ يُونُسَ

مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْحُسَيْنِ وَعِزَّةٍ وَعَطَاءٍ وَجَابِرٍ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ : إِلَّا الْآيَةَ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : " وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ . وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شَبَّتَ . قَالَ : " شَبَّيْتَنِي هُودٌ وَالْوَأَقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ " . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ سَفِيَانُ بْنُ وَكَيْعٍ : قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَاكَ قَدْ شَبَّتَ ! قَالَ : (شَبَّيْتَنِي هُودٌ وَأَخْوَاتُهَا) . فَالْفَرْعُ يُورِثُ الشَّيْبَ وَذَلِكَ أَنَّ الْفَرْعَ يُذْهِلُ النَّفْسَ فَيُنَشِّفُ رُطُوبَةَ الْجَسَدِ ، وَتَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ مَنَبَعٌ ، وَمِنْهُ يَعْرِقُ ، فَإِذَا انْتَشَفَ الْفَرْعُ رُطُوبَتَهُ يَبْسُتُ الْمَنَابِعَ فَيَبْسُ الشَّعْرَ وَابْيَضَّ ؛ كَمَا تَرَى الزَّرْعَ الْأَخْضَرَ بِسِقَائِهِ ، فَإِذَا ذَهَبَ سِقَاؤُهُ يَبْسُ فَاَبْيَضَّ ؛

وَإِنَّمَا يَبْيَضُّ شَعْرُ الشَّيْخِ لِذَهَابِ رُطُوبَتِهِ وَبُيُوسِ جِلْدِهِ ، فَالْنَّفْسُ تَذْهَلُ بِوَعِيدِ اللَّهِ ، وَأَهْوَالِ مَا جَاءَ بِهِ الْخَبْرَ عَنِ اللَّهِ ، فَتَذْبُلُ ، وَبُنَشِّفُ مَاءَهَا ذَلِكَ الْوَعِيدُ وَالْهَوَلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ ؛ فَمِنْهُ تَشْيِبُ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : " يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا " [الْمُرَّمَّلُ : ١٧] فَإِنَّمَا شَابُوا مِنَ الْفَرْعِ . وَأَمَّا سُورَةُ " هُودٌ " وَقَدْ شَبَّتَ هُودٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا حَلَّ بِالْأُمَّمِ مِنْ عَاجِلِ بَأْسِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَأَهْلُ الْيَقِينِ إِذَا تَلَوْهَا تَرَاءَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ قُوَّةٌ بَطْشُهُ بِأَعْدَائِهِ ، فَلَوْ مَاتُوا مِنَ الْفَرْعِ لَحَقَّ لَهُمْ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَلْطَفُ بِهِمْ . وَأَمَّا أَخْوَاتُهَا فَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ السُّورِ ؛ مِثْلُ " الْحَاقَّةِ " وَ " الْمَعَارِجِ " : وَ " التَّكْوِيرِ " وَ " الْفَارِعَةِ " ، فَفِي تِلَاوَةِ هَذِهِ السُّورِ مَا يَكْشِفُ لِقُلُوبِ الْعَارِفِينَ سُلْطَانَهُ وَبَطْشَهُ فَتَذْهَلُ مِنْهُ النُّفُوسُ ، وَتَشْيِبُ مِنْهُ الرُّؤُوسُ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الَّذِي شَبَّتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سُورَةِ " هُودٌ " قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنْهَا : " فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ " فَهُوَ أَمْرٌ بِالِاسْتِقَامَةِ وَالثَّبَاتِ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى الْاسْتِقَامَةِ إِلَّا عِظَمَاءُ الرِّجَالِ .

- وانظر معي إلى الأسلوب التربوي الأول في هذه السورة الذي نجد في الآية الأولى : التعظيم

للقرآن ، فهو " كتاب " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نزل به الروح الأمين بأمر الله تعالى

على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم قد " أحكمت آياته " كلَّها ، فلا خلل فيها ولا باطل ، نظمت نظاماً محكماً في اللوح المحفوظ ، فلا تناقض فيها ولا خطل ، جمعت الأمر والنهي ، فأحكمت المطلوب ، " ثم فُصِّلَت " بما فيها من الدلائل على وحدانية الله تعالى والنبوة والبعث وما إلى ذلك من الإيمانيات ، وذكرت الوعد والوعيد والثواب والعقاب . فليكن القرآن عظيماً في قلوبنا ، عظيماً في نفوسنا ، عظيماً في أعمالنا فنلتزمه فهماً وعملاً ، فنعظّم عند الله تعالى وعند الناس كما كان السلف الصالح رضوان الله عليهم .

- أما الأسلوب الثاني فهو التسلسل المنطقي ، فالإحكام والترتيب والتنظيم أولاً ، والتفصيل والتوضيح والبيان ثانياً . . ولا يكون العمل سليماً وناجحاً إلا بهذين الأمرين .

فما المطلوب بعد ذلك يا رب؟ إنه:

١- عبادة الله وحده فهو الخالق البارئ المستحق للعبادة .

٢- الإيمان بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً ، فهو البشير النذير .

٣- استغفار الله والتوبة إليه والعبودية له وحده .

٤- الاعتقاد بيوم القيامة ، والعمل للقاء الله تعالى ، فلا بد منه " إلى الله مرجعكم "

فإذا تم هذا كان العيش الهانئ في الدنيا " يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى " والتكريم في الآخرة " ويؤت كل ذي فضل فضله " وإلا كان التهديد والوعيد بعذاب الآخرة الدائم " وإن تولّوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير " . وأسلوب الترغيب والترهيب واضح في تفاعل النفس الإنسانية الواعية مع الأمور . وهذا هو الأسلوب الثالث الذي يدق على الوتر الحساس في الإنسان ويعيش معه في كل آن ... فبعد الحياة حساب ، فإما ثواب وإما عقاب . ولا يلتزم الصراط السويّ إلا ذوو الألباب .

- الإنكار والصلف والعتو سبيل الجاهلين الذي يظلمون أنفسهم أولاً وآخراً ،

١- إنهم ينكرون البعث ويسخرون منه ابتداءً " ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن

الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين ! "

٢- يتحدّون بكبرياء كل تهديد ووعيد وينكرون العذاب الذي ينتظرهم هازئين " ولئن أخرجنا عنهم

العذاب إلى أمة معدودة ، ليقولنّ : ما يجسه!! " .

٣- الإنسان سريع اليأس إن لم ينل بغيته ، أو نزعته منه النعمة . والبعدُ عن الصبر مقتل يقع فيه الكثرة الكاثرة - فالإنسان خلق من عجل - ولا بد من التحلي بالصبر وعمل الصالحات كي يزداد المؤمن إيماناً ، ويتجاوز ضعفه . وعلى رأس هذه السمات : اللجوء إلى الله والاتكال عليه : " ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إن ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور " فتراه ينسى مشاقه ويرفع رأسه خيلاء ، وينسب الفضل لنفسه " لفرح فخور " وينسى الخالق المنعم ، ويتجبر على أمثاله من البشر ، وكأنه من طينة أخرى غير طينتهم . أما المسلم فشيء آخر: " إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير " ... إن الإنسان العاقل من يعرف قدر نفسه ، ويأرز إلى الحق، ويقر به . وهذا هو التأمل الرابع الذي ينبغي أن نقف عند نتائجه وآثاره وقوف المتأملين المتدبرين لنكون من المفلحين . إن هؤلاء الصابرين العاملين خيراً نماذج راقية من البشر ، وجودهم نادر ندرة المعدن النفيس بين المعادن الأخرى

- أما التأمل الخامس فواقفة متأنية أمام الآية الكريمة " فلعلك تاركُ بعضَ ما يوحي إليك ، وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك! إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل " .. ترينا الداعية يجد في سبيل دعوته الكثير من المتاعب ، والكثير من السخرية والاستهزاء ، والكثير من المثبطات فهل تفتت همته ويتكاسل عن أدائها؟! وهل يتنازل عن بعض ما فيها ويتخفف منه لإرضاء أهل الأمزجة والأهواء؟! وهل تضيق نفسه فيقول : لم أتحمل هذا العبء وأسير عكس التيار؟! .. عقبات كثيرة ومعوقات عديدة تعترض مسيرة الدعوة والدعاة . فما ينبغي لحامل الدعوة المؤمن بها أن يعتره ضعف ، أو تضيق نفسه بشرف حملها والنفخ عنها وبذل ما يستطيع في سبيل الوصول إلى نجاحها .. عليه فقط أن يبذل جهده وأن يخلص نيته ، فهو الأداة البشرية التي اختارها الله تعالى للتعامل مع أمثاله من الناس ، أما الهداية وقلوب البشر فيبذل الله يهديتها إليه سبحانه إن شاء ، ويضلها حين تستكبر وتجدد وتعرض عن منهجه القويم . " والله على كل شيء وكيل " .

- والتأمل السادس يتجلى في نفسية الكفار الواحدة التي لا تتغير في الأزمنة والأمكنة وإن تغيرت الأزمنة والأمكنة نفسها... إن أول الأنبياء نوح ، وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام يلقون من المشركين " سيمفونية واحدة " هي التكذيب بالأنبياء وما جاءوا به ، فهذا الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام يتهمه

كفار العرب ومشركوهم أنه افتري القرآن الكريم ، مع أن دعواهم ساقطة من أساسها . فهم قومه ولغته لغتهم ، فلو كان القرآن تأليفه لاستطاعوا المجيء بمثله ، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك ، ولن يستطيعوا المجيء بعشر سور مثله ، ولا بسورة واحدة ، وإن جهدوا ، وإذا عجزوا عن ذلك فالقرآن -إذاً- من عند الله تعالى" فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ؟ ... " .. نعم يا رب : نحن بفضلك مسلمون . . . وهذا النبي الكريم نوح يلقي من قومه اتهاماً بأنه يفترى على الله هذا الدين " أم يقولون افتراه؟! قل : إن افتريته فعليّ إجرامي ، وأنا بريء مما تجرمون " .. وهذا الاتهام لأول الأنبياء وآخرهم يندرج تحته وصم الكفار للأنبياء جميعاً بهذه الفرية ... وهذا هود عليه السلام الذي سميت السورة باسمه يرد على الكفار بأنه ليس مفترياً بل إنهم هم المفترون " ... إن أنتم إلا مفترون.. " . وقوم صالح يعزفون اللحن التكفيريّ نفسه فيقولون : " وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب " . فهم بهذا يتهمونه بالافتراء ... وهؤلاء قوم لوط لما دعاهم إلى العفة ، والزواج الحلال من الفتيات الطاهرات كشفوا جانب الفجور، وأظهروا المستور دون رادع من أخلاق " قالوا : لقد علمت مالنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد " وتراهم يرفضون مع شعيب التعامل بالمال الحلال ، ولا ينتهون عن تطفيف الكيل والميزان ، ويهددون بالقتل لولا رهطه الذين يمنعونه ...

فإذا أطل التأمل السابع - وهو مقولة الأنبياء الواحدة على مر الدهور - الدعوة إلى الله وإفراده بالعبادة والتوبة والإنابة إليه وجدنا المقولة عند نوح عليه السلام " أن لا تعبدوا إلا الله ، إن أخاف عليكم عذاب يوم أليم " ورأيناها نفسها عند هود عليه السلام " قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون " وألفيناها نفسها عند صالح عليه السلام " قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها " وكذلك نجد المقولة نفسها عند شعيب عليه السلام " يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. " .

كما أن الجميع يرددون الطلب إلى قومهم أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه " فالله تعالى أمر محمداً عليه الصلاة والسلام في الآية الثالثة أن يذكر قومه بالاستغفار والتوبة " وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه .. " وكذلك يقول النبي هود عليه السلام في الآية الثانية والخمسين ، والنبي صالح عليه السلام في الآية الواحدة والستين ، والنبي شعيب عليه السلام في الآية التسعين ،

ونتيجة الاستغفار والتوبة في الآية الثالثة الحياة الطيبة في الدنيا والفضل العميم في الآخرة ، ونتيجته في الآية الثانية والخمسين الحياة الرغيدة والقوة العظيمة . ونتيجته في الآية الواحدة والستين التمكن في الأرض ورضاء الله تعالى ، ونتيجته في قصة شعيب الخير والنماء ، والرحمة والود ، والأمان من العذاب .

ونجد مقولة الأنبياء واحدة في تطمين الناس أنهم لا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً وأنهم لا يبتغون من ذلك الكسب الدنيوي ولن يكلفوا الناس شيئاً ، وهم ينتظرون الأجر العظيم من الله تعالى ، فنوح عليه السلام يقول لهم في الآية التاسعة والعشرين : " يا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرينى إلا على الله .. " ويكرر هود عليه السلام المقولة ذاتها في الآية الواحدة والخمسين " يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرينى إلا على الذي فطرني .. " كما أن المشركين عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم المال الكثير والزعامة والسيادة والنساء والطب ، فأخبرهم أنه لا يريد منهم إلا أن يشهدوا لله بالوحدانية .

- فإذا توقفنا عند التأمل الثامن- وهو مقارنة بين خاتمة الجرمين والمؤمنين - وجدنا الكافرين -

والعياذ بالله - في النار،

١- ليس لهم أولياء يدفعون عنهم العقاب الأليم ، بل إن العذاب يضاعف ، فيزداد بلاؤهم .

٢- خسروا أنفسهم في جهنم خالدين ، فلم ينفعهم آهنتهم المزعومة .

٣- قد يخسر الإنسان ماله فيعوضه ، وقد يخسر أهله ، فيجد غيرهم .. ، لكنه إن خسر نفسه

فقد خسر كل شيء.

أما المؤمنون الذين عملوا الصالحات وأحبوا إلى ربهم ، وكانوا عباداً مرضيين ف " أولئك أصحاب

الجنة هم فيها خالدون " . نسأل الله تعالى أن نكون منهم . فالفريق الأول - الكفار - مثلهم كمثل

الأعمى الأصم ، والفريق الثاني - المؤمنون - كالبصير السميع ، وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء : " .. هل

يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون ؟ " .

- ونصل إلى التأمل التاسع فنرى الكبر عند الكفار الذين يأنفون أن يؤمنوا بما آمن به الضعفاء

من الناس " وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي .. " ويطلبون إليه أن يطردهم ، ولن يؤمنوا

بالله الواحد ولا نبوة نوح ولو طرد الضعفاء والفقراء . وهذا يذكرنا بالشيء نفسه الذي احتج به كفار

قريش ، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد البسطاء من ضعفاء المسلمين فكان رد القرآن

سريعاً وحاسماً في سورة الكهف: " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعدّ عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً " فاحتفى بهم النبي صلى الله عليه وسلم وبالغ في إكرامهم . وكذلك فعل النبي نوح عليه السلام حين قال للملأ الكافرين من قومه : " وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقوا ربهم ، " ثم أنحى على الكافرين باللائمة ، ونعتهم بما يستحقون من توبيخ فقال : " ولكني أراكم قوماً تجهلون " .

- التأمل العاشر القدوة الصالحة . فشعيب عليه السلام حين دعا قومه إلى إيفاء المكيال والميزان ، وإعطاء الناس حقوقهم والبعد عن أكل الباطل قال : " وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنحكم عنه " فهو يأمر بالمعروف ويبذأ بنفسه ، وينهاهم عن المنكر ، وينتهي عنه أولاً .. وهكذا الداعية الصدوق ، ورحم الله الشاعر القائل :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلاً لنفسك كان ذا التعليم
أبدأ بنفسك فانها عن غيرها	فإذا انتهت عنه فانت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم القدوة في كل شيء ، ففي المعركة كان المقدم ، فقد روى الإمام علي رضي الله عنه قال : " كنا إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق نتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه " وحين نهي عن الريا نهي عمه العباس أول الناس ، وحين نهي عن الثأر في الدماء الجاهلية بدأ بدم ابن عمه .. وكان تلميذه النجيب عمر الفاروق رضي الله عنه حين يأمر أو ينهى يجمع أهل بيته فيأمرهم وينهاهم أولاً ، ويلوح بالعقوبة المضاعفة لهم إن خالفوا .. ومن هنا نجد قوله تعالى في الآية الثانية عشرة بعد المئة أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم - وهو قدوتنا - بالاستقامة " فاستقم كما أمرت ، ومن تاب معك ، ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير " فإذا استقام الرأس استقام ما بعده ، وإن فسد الرأس فسد ما دونه . ولن يتبع أحد أحداً ولن يصدقه ما لم يره يبدأ بنفسه قبل الآخرين في كل شيء ، وما لم يكن صادقاً في نفسه يتعهدا بالصلاح والتزكية قبل إصلاح الآخرين وتزكيتهم ، ولن يثبت على الاستقامة إلا عظماء الرجال .



تأملات تربوية في سورة هود (٢)

طوفان نوح

- لا تكون العقوبة إلاّ بعد الإنذار والتحذير ، والله سبحانه وتعالى يرسل الرسل يعلمون الناس السبيل المستقيم ، وينذروهم الخروج عن الحق واتباع الأهواء " ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين " فيرشدونهم إلى عبادة الله ورضاه ، وإلا كان الهلاك مصيرهم ، وحلت العقوبة بساحتهم في الدنيا والآخرة " ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم. "

- ومضت السنون العجاف - المئات التسع والخمسون - قاسية على النبي نوح عليه السلام وعلى من آمن به - وعادة ما تُذكر السنة للجذب والتعب والنصب ، ويُذكر العام للخصب والنماء ، والدليل على ذلك في لغة العرب " فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً " فلم يشعر نوح بالراحة إلا بعد القضاء على القوم الكافرين في الخمسين عاماً الباقية من عمره بعد الطوفان ، كما يروي المفسرون .

-وتحق العقوبة حين يغلق الكافرون قلوبهم ، ويستكبرون على الحق ، ويصرون على العصيان، فقد روي أن الرجل كان يأتي بابنه إلى حيث نوح عليه السلام ، ويشير إليه ويقول لابنه : هذا كذاب أشر ، نبهني منه جدك وحذرتي ، وأنا أحذرك من اتباعه وتصديقه ، فيتألم النبي الكريم عليه السلام ، ويرفع يديه إلى السماء " فدعا ربه : أني مغلوب فانتصر " ، ثم يدعو عليهم ، فقد طفح الكيل ، وازدادوا عتواً وفساداً " رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يُضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً "

- ويوحى الله تعالى إلى نوح أن القوم استغلقت قلوبهم وتبلدت أحاسيسهم ، ولن يصدقه إلا من كان قد آمن به فقط " وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن " فتنتهي مهمته في الدعوة بينهم ، وينصرف عن دعوتهم ، فلا زراعة في الصحور ، ولا إنبات في الأرض المالحة ، ولا يجوز لنبي داعية أن يجتهد في ترك قومه دون إذن من الله كما فعل يونس عليه السلام ، فعوقب ، ثم تاب الله عليه ونجّاه من الغم.

- لا شك أن الداعية يُسرُّ حين يستجيب له قومه ، ويتألم حين ينصرفون عن دعوته . ونشعر

بعميق ألم نوح عليه السلام إذ عاداه قومه ، وكذبوه " رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً " وسورة نوح في الجزء التاسع والعشرين تصور حزنه الشديد وحسرتة أن لم يكونوا مؤمنين ، وفي سورة هود يخفف الله تعالى عنه كي لا يحزن ويغتم : " فلا تبتئس بما كانوا يفعلون " ونوحٌ ليس بدعاً من الرسل ، فرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يحزن لتكذيب قريش له ، فيخفف الله تعالى عنه قائلاً " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات " وينبئه إلى تحمل ذلك " فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً " وموسى عليه السلام يكاد يحس بالإحباط ، فيعبر عن ذلك بقوله " رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين "

- والأنبياء - ومن بعدهم الدعاء - رحماء بقومهم ، لا يريدون الهلاك لهم ، ولو آذوهم .
ولئن نذ عن الدعاء في لحظة ضعف وألم غضبٌ ودعاءً بهلاك الكافرين منهم ، فدعوا عليهم ، إنهم سرعان ما تتحرك الشفقة والعطف ، فتظهر فيهم الرحمة ، فنوح عليه السلام يدعو عليهم في سورة غضب من سؤئهم وتكذبيهم وشدة كفرهم : " رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً " إلا أننا نلمح رحمته بهم في قول الله تعالى له " ولا تخاطبني في الذين ظلموا ، إنهم مغرِقون " فلولا علمُ الله تعالى رحمةً نوح بقومه ما نبهه ابتداءً في عدم الشفاعة بهم . كما أن جواب الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأله أصحابه أن يدعو على أهل الطائف وهو يحاصرهم " اللهم اهدِ ثقيفاً وائت بهم " وحين ينزل عليه ملك الجبال بأمر الله تعالى - وقد طردته قريش وثقيف - ويقول له : يار سول الله لو شئتُ أطبقْتُ عليهم الأخشبين يقول الرحيم بقومه " اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون " أما آخر آية من سورة التوبة ، فإنها وسام في جبين النبي محمد صلى الله عليه وسلم " لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم " ..

- هلاك الكفار بيد الله تعالى - أمر لا شك فيه - وهو التقدير يقرر الطريقة التي يعاقبهم بها حين يتمردون ، ويجترئون " فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا " وكان في الغرق هلاك قوم نوح . ولن يُجمعوا فيساقوا إلى البحر ، ولكن المياه بإذن الله ستحتاحهم ولا تبقي منهم أحداً ، ولا بد من نجاة

نوح والمؤمنين ، ومع أن الله تعالى رب الأسباب يفعل مايشاء إلا أنه يعلمنا أن نتخذ الأسباب ،
ونعتمد عليه بعد اتخاذ الأسباب ، فلا بد - إذأ - من سبب للنجاة ... فلتكن السفينة التي تقل
المؤمنين جاهزة ، وسيصنعها النبي نوح والمؤمنون معه بإذن الله تعالى . " فاصنع الفلك بأعيننا ووحينا" .
- ويبدأ نوح عليه السلام والمؤمنون معه يصنعون سفينة النجاة بتوفيق من الله ، يدل على هذا
التوفيق تلكما الكلمتان (الأعين والوحي) فرعاية الله تحفظهم ، ووحيه يرشدهم ، ومن كان الله معه فهو
الفائز الراشد أبداً . ألم يبدأ الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بناء المسجد النبوي وتبعه المسلمون
يعملون بجد ونشاط قائلين :

لئن جلسنا والنبي يعمل لذاك من العمل المضلل

وكان صلى الله عليه وسلم يحفر الخندق مع المسلمين .. ويشارك في صنع طعام أصحابه ، وهو القائل
حين أزمع أصحابه الطبخ في سفرهم وقالوا استرح يا رسول الله ، فنحن نكفيك : " وعليّ جمع الحطب "
.. صلى الله عليه وسلم.

- الثقة بالنفس والإيمان بالدعوة يبث القوة في الداعية ، ويدعم موقفه أمام الآخرين . فهؤلاء
الكفار يسخرون من نوح عليه السلام وأصحابه حين يرونهم يصنعون السفينة ، فيرد عليهم نبي الله نوح
إن كنتم الآن منا تسخرون ، فنحن نسخر منكم الآن وحين تقع الواقعة ، ويحين هلاككم ، ومن
يضحك أخيراً فهو الفائز في الدنيا والآخرة ...

" ويصنع الفلك.....

وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه

قال: إن تسخروا منا ، فإننا نسخر منكم كما تسخرون....

فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم "

- وقد كان نوح عليه السلام ينتظر انفجار الماء من الأرض ونزوله العظيم من السماء ، وبينه
أهله وأتباعه أن يكونوا لأمره يقظين ، ولإشارته متبهيين ، فإذا ما بدأت لحظة الصفر جاء الأمر بركوب
السفينة ، ولن يركبها إلا السعيد بالإيمان من أهله وأتباعه . أما الكفار - مهما كانت قرابتهم منه عليه
السلام - فهم من المهالكين . وقد يكون للأنساب في الدنيا مكان وتمكين ، أما في الآخرة فالعمل

الصالح والإيمان بالله يرفع صاحبه . ولا تنفع الأنساب ما لم يكن هناك إيمان وتقوى " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون " . وقد كان أصحاب نوح قليلين ، بضعاً وثمانين ، والعبرة بالنوع والكيف لا بالعدد والكمية . منهم تعود البشرية إلى التكاثر والنماء " ذرية من حملنا مع نوح ، إنه كان عبداً شكوراً. "

- ويركبون السفينة وعين الله ترعاها ، والمؤمن تكلؤه عناية المولى سبحانه وتحميه وتنقذه من البلاء وتسمو به إلى النجاة والهناء " بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربي لغفور رحيم " .. بدأت المياه تتفجر وتندفع من كل شبر من الأرض بقوة ، ونزلت أنهار السماء وبحارها تتدفق تدفقاً لا يوصف ، والماء يعلو بسرعة متناهية .. وهرب الناس بأنفسهم إلى الروابي والجبال ظانين أنهم بذلك ينجون من الغرق !!.. ولكن قدر الله يحيط بهم وهم حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم سادرون في الضلالة لا يراعون ... سقط الضعفاء في السهول والوديان ، وتركت الأمهات أطفالهن ينجون بأنفسهن وانطلق الرجال دون المال والأطفال والنساء لا يلوون على شيء ، كلهم يسأل النجاة لنفسه فقط . كما يفعل الناس يوم القيامة " يوم يفر المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل منهم يومئذ شأن يغنيه "

- ويرى الأب الرحيم نوح أحد أولاده - وكان كافراً كأمه - يغالب الموج والماء منطلقاً إلى جبل قريب يعتصم به من الموت المحقق ، فتتحرك الرأفة والرحمة الأبوية ، فيناديه: " يا بني ؛ اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين " .. أقول : : لو أنه قال له اركب معنا لركب - ربما - ولكن نوحاً اشترط الهداية والإيمان لركوب السفينة والنجاة من الغرق حين قال " ولا تكن مع الكافرين " فأخذت الولد العزّة بالإثم وانطلق مبتعداً إلى الجبل ، فلم يمهل الموج أن لطمه وجرّه إلى حيث الموت والهلاك السريع .. كيف ينجو؟! والموج كالجبال علواً وحجماً وارتفاعاً وقوة ، وكالريح الشديدة سرعة وحركة وأخذاً؟! .. إن من غالب الله هُزم ، ومن عاداه قُصم ، ومن اجتراً عليه ندم .. ندم حيث لا ينفع الندم ، ولا يجدي الأمل...

- كل عمل لا يُبدأ فيه بيسم الله أبتّر كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر الله عنوان الإيمان وِسْمَةَ المسلم لعلمه أن كل شيء بيده سبحانه ، يصرف الأمور كيف يشاء . فمن لجأ إلى الله تعالى فقد لاذ بالأمن والنجاة ، (وتصور أخي الحبيب السفينة مهما كانت كبيرة تمشي بين موج كالجبال

لا يحفظها من هذا الموج سوى الله) وفي تفسير القرطبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أمانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم : " وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون . " " بسم الله مجريها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم " "

- لو أمعنا النظر في قوله تعالى يخاطب الأرض والسماء " وقيل يا أرض : ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي " بهذا الجمال والوضوح مع الاختصار ما وجدنا أجمل منه ولا أوضح تعبيراً .. جملتان قصيرتان خضعت لهما السماء والأرض ، فقد التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر ، فأمر الله تعالى الماء النازل من السماء بالإقلاع ، فلم تمتص الأرض منه قطرة ، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط، فما تجاوزت ذلك . وانتهى الأمر بجملتين صغيرتين أخريين " وغيض الماء ، وقُضي الأمر " فعاد كل شيء كما كان وأماكن السفن في البحر، ترسو على الشطآن ، أما سفينة الإيمان فقد رست أعلى الجبل ، وبقيت آية تدل على عظمة الله وقدرته سبحانه.

- ألم يقل الله تعالى لنوح عليه السلام " قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن "؟ وظن نوح عليه السلام أن ابنه من أهله . فقال بعد أن نزل من السفينة وهدأت نفسه ونفوس المؤمنين معه من صعوبة هذه الرحلة الشاقة وحنّ إلى ابنه الغارق " ربّ إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين " فهو يستنجز وعد الله الحق أن ينجي ابنه فهو من أهله !. فبينه الله تعالى أن الإيمان والكفر لا يجتمعان ، وأن الصلة الحقيقية بين الناس صلة الإيمان بالله تعالى فلئن كان الغارق ابنه ومن صلبه - نعم من صلبه ، ففساء الأنبياء لا يزين فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما " ما بغت امرأة نبي قط " أما قوله تعالى في زوجتي نوح ولوط " ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما .. " إن خيانتهم في أنهما لم تؤمنا بهما وكانتا مع قومهما عليهما - إلا أنه لم يؤمن ولم يعمل صالحاً ، فلتنقطع العلاقة إذاً! " قال: يا نوح ؛ إنه ليس من أهلك ، إنه عملٌ غيرٌ صالح " . من هذا نفهم كيف كان قتالٌ بين أبي عبيدة رضي الله عنه وبين أبيه الجراح في معركة بدر فقتل عامر أباه . وكيف كان رأي الفاروق رضي الله عنه أن يُقتل الأسرى من أهل بدر ولو كان بعضهم لبعض رجماً وقريباً

وخالفه بعضهم فنزلت الآية من سورة الأنفال تؤيد رأي الفاروق عمر " ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشحن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم. "

- ونوح عليه السلام مثال المؤمن الذي يمتثل لأمر الله ، ويعترف بخطئه ، ويستغفر الله إن أخطأ ، ويسرع إلى مرضاة الله والرغبة في عفوه ورحمته . فلما حذره الله تعالى أن يكون من الجاهلين فيسأل ما ليس له به علم استعاذ بالله أن يزل أو يقع في الخطأ وتذلل لله وخضع له ، " قال ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإن لم تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين " فشكر الله له هذا التذلل والخضوع ، وأكرمه بالسلامة على الأرض مع قومه والبركات منه سبحانه للجميع " " قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك .. " وكانت العاقبة للمؤمنين الصادقين ..
اللهم إنا نسألك الهداية ونسألك النجاة من كل سوء لنا وللمسلمين جميعاً .. يا رب العالمين .

اللهم آمين آمين



تأملات تربوية في سورة هود (٣)

- السلام سنة ، وردده واجب ، هذا ما كان من ضيوف إبراهيم عليه السلام حين دخلوا فسلموا ورد عليهم السلام ، فكان ما فعله سنة للمسلمين إلى يوم القيامة : " ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاماً . قال : سلام " ومن السنة أيضاً أن من حياك بتحية كان عليك أن ترد عليه بأحسن منها ، فإن لم تفعل فبمثلها " وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها " .. فهل أجاب إبراهيم عليه السلام التحية بمثلها أو بأحسن منها؟ والجواب أنه ردها بأحسن منها ، فقد حيَّوه بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث ، ورد عليهم بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت . والثبوت أقوى من الحدوث ، فكان رد النبي إبراهيم عليه السلام بأحسن من تحيتهم .

- وتحية المسلمين " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما " صباح الخير ، أو مساءه ، وما تلقفناه عن الغرب هذه الأيام من " هاي ، باي ، مورننج " فليس من تحية المسلمين ، لقد دخل عمرو بن وهب الجمحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له ولأصحابه " أنعموا صباحاً " - وكانت تحية أهل الجاهلية - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، تحية أهل الجنة "

- ومن حسن الاستقبال :

أ- أن تكرم الضيف بالطعام أو الفاكهة ،

ب - وأن تقرب لهم الطعام أو الضيافة ، فقد رأينا إبراهيم عليه السلام بعد أن سلم عليه الملائكة - وهو لا يدري أنهم ملائكة قدم بين أيديهم لحماً مشويماً " فما لبث أن جاء بجحل حنيد " وفي سورة الذاريات " فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين " وكلمة راغ توحى بأنه كان حريصاً على قِراهم، فلم يسألهم : أتأكلون فأتي بالطعام ، بل إن على صاحب البيت أن يأتي بالطعام دون أن يسألهم حتى لا يستحيوا فيجيبوا بالنفي .

ج - كما أن على صاحب الدار أن يكون قراه طيباً وكثيراً ، إن كان ميسور الحال " فالعجل مشوي سمين " وهذا من مكارم الأخلاق وآداب الضيافة ، وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ، لقوله

صلى الله عليه وسلم : "الضيافة ثلاثة أيام ، وجائزته يوم وليلة ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة " .
والمقصود بالجائزة : الهبة والعطية ، وقال صلى الله عليه وسلم : " : ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليكرم ضيفه " ف" ليلة الضيف حق " كما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

د - ثم التلطف في الدعوة إلى الطعام ، فلم يقل لهم : " كلوا " إنما قال لهم بصيغة السؤال
متلطفاً " ألا تأكلون ؟ "

هـ - ومن الإكرام أن يقدم الطعام للضيفان من صنع أهل البيت ما أمكن ، فالتكلف غير
مرغوب .

- ومن جمال التعبير في الآية " فلما رأى أيديهم لا تصل إليه " أنهم لم يتحركوا ولم يهتموا
بالطعام . وعملهم هذا في العرف الاجتماعي أنهم أعداء يستهينون بمن دخلوا عليه داره . ويخيف
صاحب الدار أن عدوه يتحداه في عقر داره ، ويرفض الصلح ، وكأنه ما جاء إلا عن قوة ليفرض ما
يريد " فنكرهم وأوجس منهم خيفة " وهنا يفصحون عن أنفسهم . فهم ملائكة الله ، جاءوه مبشرين
بإسحاق نبياً من الصالحين ، وبخفيده من إسحاق يعقوب عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، فيرتاح قلبه
وتهدأ نفسه " قالوا : لا تخف . " ... " فبشرناه بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب . "

وقد يمتنع الضيف عن قبول الضيافة إلا أن يطلب حاجة من ضائفه ، ويجيبه هذا إليها ، فيمد
يده إلى قراه . وهذا معروف عند أهل البدو والأرياف .

- من سمات المسلم اهتمامه بسلامة إخوانه ، وسيدنا إبراهيم قدوتنا وخير مثال على ذلك .
فإنه حين علم أنهم سيهلكون قوم لوط - ولوط ابن أخيه - فزع أن يصيبه مكروه فبدأ يجادل الملائكة
في أمر لوط عليه السلام : وَهَذِهِ الْمُجَادَلَةُ رَوَاهَا حُمَيْدُ بْنُ هَلَالٍ عَنْ جُنْدُبٍ عَنْ حُدَيْفَةَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ
لَمَّا قَالُوا : " إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ " قَالَ لَهُمْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
أُتْهِلِكُوهُمْ ؟ قَالُوا : لا . قَالَ : فَأَرْبَعُونَ ؟ قَالُوا : لا . قَالَ : فثلاثون ؟ قَالُوا : لا . قَالَ : فَعِشْرُونَ ؟
قَالُوا : لا . قَالَ : فَإِنْ كَانَ فِيهَا عَشْرَةٌ - أَوْ خَمْسَةٌ " شَكَ حُمَيْدٌ " - قَالُوا : لا . وَقِيلَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ قَالَ :
أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ أَتْهِلِكُونَهَا ؟ قَالُوا : لا . فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عِنْدَ ذَلِكَ : " إِنَّ فِيهَا لَوْطًا ! ،
قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ " الْعَنْكَبُوتُ : ٣٢ . وهذا النبي

لوط عليه السلام ينصح قومه بزواج الفتيات الطاهرات ويأمرهم بتقوى الله تعالى وعدم معصيته " قال : يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله " ويرشدهم إلى احترام الضيف وحفظ مروءته وعدم التعرض له بما يسيء له ولمن ضافه " ولا تُخزون في ضيفي ، أليس منكم رجل رشيد؟ . "

- من سمات الفاسقين المنحرفين قوم لوط أنهم كانوا:

أ - سفهاء ، يُهرعون حيث تقودهم شهواتهم ، فإنهم لما علموا بوجود شباب صباح الوجوه أسرعوا إلى بيت لوط عليه السلام يريدون عمل الفحشاء بهم " وجاءه قومه يُهرعون إليه. "...

ب - منغمسين في الفحشاء مردوا عليها ، ومن كان منقاداً لهواه غارقاً بفساده ضاع الحياء منه ، وجاهر بالمعصية " ومن قبل كانوا يعملون السيئات "

ج - اختلّت مفاهيمهم وفسدت أذواقهم ، فرأوا الخبيث طيباً والطيب خبيثاً " قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد " بل زجره - في سورة الحجر - وكأنه المخطئ ! وهم أصحاب الحق والسداد بأن لا يتدخل فيما لا يعنيه ، ولا يدافع عن أحد " أولم ننهك عن العلمين ؟؟ وهذا وهدة السفالة والانحطاط حين يرى الفاجر نفسه على صواب ويرى غيره على خطأ فيعلو عليه ويهدده .

- قد يضعف المرء لحظة مهما كان حازماً وحكيماً حين يرى الخطب يشتد عليه " وخلق الإنسان ضعيفاً " فهذا لوط عليه السلام حين رأى من جواب قومه التعنت واندفاعهم إلى ضيوفه ، ولم يستطع ردهم قال : " لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد " فقد خاف على ضيوفه أن يفحش الفسقة فيهم وهو لا يعرف كنههم ، ومُراد لوط بالركن العشيّة ، وَالْمَنَعَة بالكثرة - وهو المهاجر إلى بلدتهم من العراق مع عمه إبراهيم ، وما صاروا قومه إلا لأنه عاش فيهم وتزوج منهم - . وَبَلَغَ بِهِمْ قَبِيحَ فِعْلِهِمْ إِلَى قَوْلِهِ هَذَا مَعَ عِلْمِهِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَيُرَوَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَجَدَتْ عَلَيْهِ حِينَ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَقَالُوا بَعْدَ أَنْ عَرَفُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ : إِنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ . وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ، وَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ؛ فَافْتَحِ الْبَابَ وَدَعْنَا وَإِيَّاهُمْ ؛ فَفَتَحَ الْبَابَ فَضَرَبَهُمْ جَبْرَيْلُ بِجَنَاحِهِ . وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . "

-الله تعالى القوي يفعل ما يشاء ، فيرشد ، وينبه ، ويجذر ، ثم يهدد وينفذ .. هذا ما وجدناه

في قوله تعالى يهدد قوم لوط ويتوعددهم " إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب؟ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك " ووجدنا ذلك في عقوبة قوم صالح حين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم " فعقروها ، فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب " وأخذتهم الصيحة فقطعت أوصالهم وجففت أجسادهم فماتوا لفورهم . وأخذت الصيحة - كذلك - قوم شعيب ، فكانت نهايتهم عبرة لمن يعتبر. .. وأغرق الله فرعون وقومه، فلم تقم لهم قائمة . وإذا أهلك الله تعالى الناس بكفرهم فهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم واستكبارهم ، فلن ينفعهم أحد . فعذاب الله الشديد إن وقع لا مرد له " وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب. " .. لكن العاقل من يتعظ.

- يطلب مشركو قريش آيات تدل على نبوة الحبيب المصطفى ، مع أن القرآن كان أقوى آية أوتيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكان الدليل العظيم على نبوته صلى الله عليه وسلم فهم لا يستطيعون الإتيان بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة واحدة " وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه " فلما قال صلى الله عليه وسلم " سبحان ربي ؛ هل كنت إلا بشراً رسولاً " طلبوا آية واحدة " ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه؟ " فكانت آية انشقاق القمر : " اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر . " .. طلبوا منه الآية فلما جاءت كذبوه ، كما طلب قوم صالح عليه السلام منه آية فأرسل الله تعالى الناقة ، فظلموا بها ، وازدادوا عتواً وكفراً فعقروها . وما دام هذا دأبهم فلا آيات بعد ذلك . لماذا ؟ لأنهم أحفاد قوم صالح ، وملة الكفر سبيلها معروف " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها " ومهمة الآيات الإنذار والتخويف من الكفر والتحذير من العناد ، وما لم تفلح في قلوب قدت من صخر فلم تكرأها؟ " وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً . "

- وفي آخر مطافنا السريع في سورة هود نقف على بعض الأركان التي فيها صلاح المجتمع أولها الاستقامة في الحياة على الدين ، والسير على الصراط المستقيم فهو ملاك الأمر، والهادي إلى الخاتمة السعيدة . " فاستقم كما أمرت ومن تاب معك " وحين يسير المجتمع على تقوى من الله تستقيم

الحياة باستقامته . وقد روى سفيان بن عبد الله الثقفي أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال " قل آمنت بالله ، ثم استقم " . فإن استقام الإنسان عرف حده فلم يتجاوزه وابتعد عن الطغيان ، فلم يظلم أحداً ، جاء دور القسم الثاني من الآية السابقة " ... ولا تطعوا إنه بما تعملون بصير . "

وثانيها الانصراف عن الظالمين وعدم إطاعتهم وصحبتهم ، وعدم الميل إليهم والرضا بأعمالهم ، بل يجب الإنكار عليهم ظلّمهم وفسادهم ، فمن ركن إليهم كان منهم ، وناله ما ينالهم من السخط والعذاب ، وهذا أمر خطير لا ينتبه إليه كثير من الناهجين فضلاً عن العوام والدهماء . " ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ، فتمسّكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تُنصرون . " وثالثها الاجتهاد في عبادة الله تعالى وأداء الصلاة المكتوبة على أتم وجه ، فإن ذلك يورث الحسنات ويمحو السيئات " وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين "

إضاءة أولى : هذه الآية (وأقم الصلاة ...) من الآيات الدالة على الصلوات الخمس صلاة الفريضة طرف النهار الأول صلاة الفجر . وفي طرف النهار الثاني صلوات الظهر والعصر . أما صلوات زلف الليل (ساعات الليل الأولى) فالمغرب والعشاء .

إضاءة ثانية : ومثلها قوله تعالى " أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً " والدلوك (زوال الشمس عن كبد السماء) وهنا تبدأ صلاة الظهر ثم العصر ، وفي غسق الليل (ساعاته الأولى) صلوات المغرب والعشاء ، والمقصود بقرآن الفجر صلاة الفجر نفسها .

إضاءة ثالثة : ومثلها قوله تعالى " فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون " فصلوات المساء المغرب والعشاء ، وصلاة الفجر عند الصباح ، والإظهار صلاة الظهر ، أما العشيّ (فساعات ما قبل الغروب) صلاة العصر .

والصلاة جماعة هوية المسلم الاجتماعي المندمج بإخوانه المسلمين . الحريص على وصالهم . ورابعها الصبر على العبادات والصبر في مرضاة الله تعالى والصبر عن المفاسد المؤدي إلى درجة الإحسان " واصبر فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين " ومن صبر على الناس فخالطهم وتحمل أذاهم ، ثم

أمسك بأيديهم يسير معهم في درب الحب في الله ، وأحسن إليهم فقد شهد الرسول ﷺ له بالخيرية " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم ".
وخامسها إيجابية المسلم الذي يصلح ويأمر بالإصلاح ، وينهى عن الفساد وهذا دأب المسلم الغيور على دينه الذي يقوّم الاعوجاج ويدعو إلى الاستقامة " فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض " " ونتيجة الإصلاح عمار الأرض وكسب رضا الله تعالى " وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " . ألم يهلك الله تعالى القرى التي كثر الفساد فيها وحكم القائمون عليها بغير ما أنزل الله ؟ " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً "

اللهم أحيينا سعداء ، واجعلنا إخوة متحابين وارزقنا رضاك والجنة واجعلنا من أهل التقوى والرشاد:

إن الإنسان بتقواه	يعلو ويُبارك مسعاه
والعمل الصالح يرفعه	في الناس ويُكرمه الله
فاعمل خيراً تلق الأجر	تُرفع عند المولى ذكرا
وتعاهد إخوانك دوماً	فإذا عُسرُك يصبح يسرا



تأملات في سورة يوسف (١)

١. التخطيط واتخاذ الأسباب : العمل الارتجالي لا يُؤتي أُكُله كما لو كان مُعدّاً إعداداً جيداً ومدروساً دراسة وافية ، معروفة أبعاده وجدواه ومراحلُه .

كل عمل أو فكرة تخطر على البال لا بد أن تُخطط له تخطيطاً جيداً تراعي فيه الهدف منه وبدايته وإتمامه وإيجابياته وسلبياته ، وإلا كان عملاً عشوائياً قد ينجح وقد يفشل . واحتمالات فشله أكبر .. وإن نجح فنجاحه مرحليّ أو غير مكتمل .

وسورة يوسف تضع بين أيدينا نماذج من التخطيط الذي يؤدي إلى الوصول إلى الهدف المنشود ، سواء كان طيباً أم خبيثاً ، منها :

- ما فعله إخوة يوسف حين شعروا أن أباهم يحبه أكثر مما يحبهم ، ويفضله عليهم ، فدبت الغيرة في نفوسهم وقرروا التخلص منه ، فماذا يفعلون؟! .. تدارسوا الأمر بينهم وقلّبوا الوجوه ، فقال بعضهم : " اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُّ لكم وجهُ أبيكم ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين " .. تفكير شيطاني سهل لهم فكرة القتل ، فبعد جرمهم يعودون أنقياء أنقياء! .. وكأن القتل لا يترك في القلب نكتة سوداء تؤرق صاحبها إلى أن يموت .

وقال بعضهم : " لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين " .. وهذه الفكرة أخف من القتل ، وإن كانت في حق الأخوة قاسية جداً .. قلبوا وجوه الأمر فرأوا أن إلقاءه في الجب أسلمٌ لهم ، ولن يؤرقهم كما لو أنهم قتلوه ... ثم جاءوا أباهم يقنعونه أن يسمح لهم باصطحاب يوسف في رحلة برية يتريّضون ويصطادون . وأكدوا له حرصهم على أخيهم .. فلما أظهر الأب تخوّفه أن يتركوه - وهو صغير - فيعدو عليه الذئب في غفلة منهم فيأكله أقسموا أنهم لن يتركوه ، وإلا كانوا خاسرين ، ليست فيهم صفات الرجولة والنباهة ... وكأن يعقوب عليه السلام لئنهم حجّة هم بحاجة إليها يتعللون بها عند أبيهم ... وهكذا كان .

" قالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ! وإنا له لناصحون ،

أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون .

قال : إنني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لعن أكله

الذئب - ونحن عصبه - إنا إذا لخاسرون "

وحبكوا قصتهم ، ورتبوا مكرهم " وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ، قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا

يوسف عند متاعنا ، فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . "

فقد :

١- جاءوا أباهم عشاءً فلا يرى الغدر في عيونهم ، والكذب في أقوالهم .

٢- بدأوا يبكون ، فشعر بالخطب الجسيم قبل أن يلقوه على سمعه .

٣- هيأه بكأؤهم لتقبل المصيبة ، التي سيسمعها منهم .

٤- تلتطفوا له بالقول " يا أبانا " ولهذا فائدتان :

الفائدة الأولى أن هذه الكلمة للاستعطاف ليرق قلبه لهم فلا يعاقبهم .

الفائدة الثانية : إيهامه صدقهم وحرصهم على أخيهم .

٥- أسمعوه العذر الذي سمعوه منه في اعتذاره عن إرسال يوسف معهم " أكله الذئب "

٦- أنت لا تصدقنا مع أننا صادقون .

٧- جاءوا بقميص يوسف ملطخاً بدم للتأكيد على أكل الذئب له .

لكن هذا التخطيط المحكم نقضه خطأ كبير وقعوا فيه دون أن يشعروا حين "

وجاءوا على قميصه بدم كذب .

قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون . "

كان القميص ملوثاً بدم لكنه لم يكن ممزقاً ، فالذئب الذي أكله كان ذكياً ! إذ جعله يخلع قميصه

قبل أكله كي يستفيد منه إخوته! ... لقد كان التخطيط ناقصاً فيه ثغرة فضحتهم وعرف الأب ذلك ،

فقال : هذا مكر دفعكم إليه نفوسكم الخبيثة .

- وهذه امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه حين بلغ مبلغ الرجال ، وكان جميلاً وسيماً ، تتفجر

الدماء من عروقه ، ويطفح وجهه إشراقاً ، فيأبى ذلك ويقول : " معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا

يُفْلح الظالمون . " فزوجها أكرمَ يوسفَ وتعهدته بالرعاية ، فكيف يسيء إليه في عرضه وشرفه؟ ! لا يفعل

ذلك إلا الخائنون الذين يجازون الإحسان بالسوء ، ويوسفُ ليس منهم .

وانتشر الخبر بين نساء المدينة

١- امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه .

٢- امتنع عليها وأذلّ كبرياءها .

والأمران وصمة عار عليها ، فأرادت أن تلجم أفواههنّ ، فماذا فعلت؟

١- دعتهنّ إلى قصرها .

٢- أكرمتهنّ بالطعام والفاكهة .

٣- أمرت يوسف أن يخرج عليهنّ ، فخرج .

٤- رأينه فائق الجمال ملكاً يمشي على الأرض ، فذهشن لهذا الجمال الأخاذ .

٥- لم يشعرن إلا والدماء تسيل من أصابعهنّ ، فقد أخذهنّ الإعجاب بجمالها والدهشة

لوسامته كل مأخذ فجرحن أيديهنّ .

٦- شعرت بالانتصار عليهنّ ، فعاتبتهنّ على ما قلن في حقها من تجريح لكرامتها وكبريائها .

٧- حين رأت نفسها منتصرة عليهنّ ازدادت وقاحتها ، وباحت بمكنون صدرها لهنّ وأصرت

على تعلقها به والرغبة في وصاله ، وسيفعل ذلك شاء أم أبي ، وإلا كان السجن مصيره.

وهذه خطة جهنّمية لا يفعلها إلا صاحب الكيد الذكي . "

فلما سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعدت لهنّ متكاً ، وآتت كل واحدة منهنّ سكيناً ، وقالت

أخرج عليهنّ . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهنّ . وقلن حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم .

قالت فذلكنّ الذي لمتنني فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعل ما أمره لئسجننّ ، وليكوننّ

من الصاغرين . "

- ثم تأمل معي كيف خطط يوسف عليه الصلاة والسلام للخروج من السجن . بل كيف

خطط الله تعالى له :

١- " وقال الملك ائتوني به " وذلك بعد أن فسر حلم الملك في سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع

عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات .

٢- فهل أسرع يوسف عليه السلام للخروج من السجن إلى قصر الملك دون أن يظهر الحق؟ إنه لا يريد أن يعفو عنه أحد إنما يريد أن يخرج من السجن ببراءته من كل اتهام ينقص قدره ، " فلما جاءه الرسول قال : ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ ؟ إن ربي بكيدهنّ عليم . "

٣- وعاد الرسول إلى القصر يخبر الملك أن يوسف مظلوم يريد أن يخرج من سجنه بريئاً والدليل عند النساء اللاتي دعتهنّ امرأة العزيز إلى قصرها قبل سبع سنوات فدعاهن الملك قائلاً " .. : ما خطبُكن إذ راودتُنّ يوسفَ عن نفسه؟ "

٤- فأقررن بصدقه وبراءته حين " قلنَ : حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء . "

٥- وهنا اعترفت امرأة العزيز بخطئها إذ " قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق . أنا راودتُه عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . "

٦- في المرة الأولى طلب الملك أن يراه فقط : أما حين ظهرت براءته عرف قدره وأكرمه وجعله مستشاره الخاص . فقد قال في الأولى " ايتوني به " وزاد في الثانية " أستخلصه لنفسي "

٧- فلما رآه وكلمه عليه السلام أعجب الملك به - فلا بد من الاختبار .

" فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين . "

٨- وهنا حين يكون المرء بريئاً وقدره عظيماً يسعى أن ينتفع الناس بعلمه وقدراته ، فالمسلم خير وبركة للناس أجمعين . ومن رأى في نفسه المقدرة على خدمة الناس فليقدم نفسه دون خجل ولا مباهاة" قال اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم . "

وهكذا كان تخطيط الله تعالى له فأخرجه من السجن إلى الصدارة .

-وتعال معي نقف على التخطيط في استقدام يوسف أخاه " بنيامين " إلى مصر :

من بلاد الشام - فلسطين - .

١- جاء إخوة يوسف للميرة لا يدرون أن القدر ساقهم إلى من ألقوه في الجب ، ثم باعوه بثمن بخس لمن رآه فيه - على رواية من روى أنهم هم الذين باعوه للقافلة - " وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه وهم له منكرون . " وهل يخطر ببالهم أن الذي يبيع هو السيد الذي يعطي الناس ويعدل بينهم؟! "

٢- لما أراد أن يرى أخاه الشقيق - ولم يكن معهم - أظهر تعجبه من كثرتهم ، وهم عشرة رجال . فقالوا : عند أبيهم رجل آخر ، فقال عند ذلك : جيئوا به لأراه ، فإن لم يجئ فلا كيل لكم عندي . " ولما جهزهم بجهازهم قال اتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . " وعلى هذا فإنهم - حسب ماظنوا - سيأتون العام القابل ومعهم أخوهم . وسيطلبون من أبيهم أن يصاحبهم أخوهم . وإلا خسروا الميرة ما دام هذا الوزير على رأس عمله . " قالوا سنراود عنه أباه ، وإنا لفاعلون . " ونلمح الإصرار في قولهم " وإنا لفاعلون " لينالوا حصتهم السنوية وليقوم بنيامين بالجهد الذي يقومون به ، فلم يظل مكرماً عند أبيهم دونهم؟! "

٣- لكن يوسف لن يصبر على غياب أخيه بنيامين ، وسيسرّع عودتهم فماذا فعل ؟ أمر فتياه أن يضعوا ثمن ما أخذوه في رحالهم ، وحين يصلون ويفتحون متاعهم سيرون الثمن . ولأنهم من بيت النبوة فلن يعتبروه غنيمة بل يعيدوه إلى يوسف سريعاً ، ولن يكون سفرهم لإعادة الثمن فقط إنما يغتزمون الفرصة ويعودون بميرة جديدة ، ولكنه لن يُمدّهم بها إلا إذا كان أخوه بنيامين معهم .. إذن هي خطة محكمة تجعل يوسف عليه السلام يحظى بأخيه سريعاً .. "

وقال لفتياه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، لعلهم يرجعون . "

٤- وهكذا سارت الخطة فترى أبناء يعقوب يقولون لأبيهم : " يا أبانا مُنِع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإنا له لحافظون . "

٥- وزاد الطلب إصراراً حين فتحوا متاعهم ورأوا الثمن فيها فقالوا يرغّبون أباهم :

" يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ، ونمير أهلنا ، ونحفظ أخانا ، ونزداد كيل بغير ، ذلك

كيل يسير . "

٦- ويطلب الأب المفجوع بابنه يوسف - والخائف على ابنه الثاني بنيامين أن يضيع مثل أخيه

- العهودَ والمواثيق أن لا يعودوا إلا غانمين بإذن الله تعالى إلا أن يُحاط بهم ، وهذا الاستثناء استسلام لله

تعالى وإقرار بأنه سبحانه يفعل ما يشاء ، وأن الغيب لا يعلمه سواه وأن يحافظوا على أخيهم ما

استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

٧- وأن لا يدخلوا من باب واحد خوفاً من الحاسدين ... ويعطونه المواثيق والعهود وينطلقون ببركة الله إلى مصر عاقدين العزم أن يكونوا عند حسن ظن أبيهم بهم . ونبه يعقوب عليه السلام أبناءه إلى أن الأمر كله بيد الله تعالى إلا أن على الإنسان أن يحتاط ويسلك سبيل الحذر ، وما قدر الله تعالى كائن لا محالة .

والرسول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستعاذة من الحسد ، فيقول : " أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة " كما يعلمنا أن نتعوذ من الشر كله " أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق " ونزلت المعوذتان : الفلق ، والناس تؤكدان ذلك :

" قل: أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد " .

" قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس " .

ويقول الرسول الكريم في هذا الصدد: " علام يقتل أحدكم أخاه؟! ألا بركت (بارك الله فيك) إن العين حق ، توصاً له "

٨- وأخبر يوسف أخاه بنيامين أنه يوسف وأخبره بالخطة التي اعترزم أن ينفذها ليبقى عنده - ليطمئن ويكون عوناً له - ثم يأتي بالجميع إلى مصر فتتحقق رؤياه التي أخبر بها أباه " ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال : إني أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون "

٩- ولا بد من سبب وجيه يبقى أخاه عنده ، فليظهر أنه سرق المكيال ، ومن سرق المكيال يصبح عبداً للمسروق منه ، وهكذا كان " فلما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه " .

١٠- وتعال معي إلى الأدب في الاتهام فقد انطلقت القافلة لا يدري أحد ما يكون بعد

انطلاقهم سوى يوسف وأخيه ... إنّ هناك من يناديهم بما ليس فيهم " أيتها العير إنكم لسارقون "

١١- عادوا مستغربين هذا الاتهام الخطير مستفهمين بأدب جم " ماذا تفقدون ؟ " ولم يقولوا :

ماذا سرقنا . وعلى المنادي أن يقول إنا افتقدنا ، فإذا وجدوا ما فقدوه في رحالهم قالوا لهم : أنتم سارقون . أما أن يتهموهم مباشرة فليس الاتهام دون دليل من الأخلاق . وقال المنادون " نفقد صواع

الملك " فتعلموا الأدب من أبناء يعقوب .

١٢- وزيادة في التعمية أظهروا أنهم لا يعرفون كيف فقدوه ، وجعلوا لمن يدلهم على السارق حمل

بعير - هدية ومكافأة - " ولمن جاء به حمل بعير "

١٣- فلما أنكر إخوة يوسف هذه التهمة لم يكن بد من تفتيش متاعهم . على أن يرضوا بمعاينة

السارق إن كان منهم بما تحكم شريعة يعقوب حيث يصبح السارق رقيقاً للمسروق منه " قالوا فما

جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه . كذلك نُجزي الظالمين " وعلى المسلم

أن يحكم بشرع الله الذي أنزل إليه . فأقر أبناء يعقوب بذلك .

١٤- ولكي لا يشك إخوته في العملية بدأ بتفتيش متاع إخوته ، وترك تفتيش بنيامين للأخير "

فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه "

١٥- وحين استخرج الصواع من وعاء أخيه بدا له أن إخوته مازالوا يكرهونه وأخاه بنيامين حين

اتهموا يوسف ظلماً وهو أمامهم لا يعرفونه بأنه سارق أيضاً " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل "

فكان من حسن تخطيطه وجمال صبره أن تماسك فلم يعرفهم بنفسه ، ولم يعاقبهم على كذبهم وادّعائهم

. بل قال جملة تنم عن شديد حزنه وألمه "أنتم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون "

وهكذا بدأت القصة محبوكة خيوطها بإتقان أدى - بعد ذلك - إلى اعتراف الإخوة بخطئهم أمام

يوسف ثم أمام أبيه ، وانطلق الجميع إلى مصر ليعيشوا في كنف الوزير الصالح يوسف بن يعقوب عليهما

السلام .



تأملات تربوية في سورة يوسف (٢)

١- أنزل الله تعالى القرآن على العرب بلسانهم كي يفهموه ويعقلوه " إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم

تعقلون " فهو سبحانه يريد أن يعلمنا :

أ- أن على الداعية أن يكلم الناس بما يفهمون كي يستفيدوا منه ، وقيم الحجة عليهم .

ب- أن يتحملوا المسؤولية الملقاة على عاتقهم في نشر الدعوة ، فالعرب محركها الرئيسي ،

والداعون الأوائل المعتمد عليهم في إيصال الدعوة إلى البشرية .

٢- في قوله تعالى " نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من

قبله لمن الغافلين " " أمور مهمة ، منها :

أ- أن القرآن من عند الله تعالى وليس من عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس من المعقول أن

يدّعي أحد معرفة الغيب ثم يخاطب نفسه بأنه كان من الغافلين !

ب- أن الناجح في دعوته ومهمته يختار أحسن القول ، وأوضحه في حديثه " أحسن القصص " .

ليجذب المدعوين ويشوقهم إلى دعوته .

٣- إن الإنسان يستشير المحب القريب إلى النفس العطوف الذكي فيما يلزم به من أمور ، ويستأنس

لرأيه ، فيوسف يخبر أباه بما رأى في رؤياه الغريبة ، فيأتيه جواب الخبير محذراً من الحاسدين الكائدين " ...

لا تقصص رؤياك على إخوتك " فما سبب الحذر أيها الأب الحبيب؟ يأتيه الجواب سريعاً " فيكيدوا لك

كيداً " وما الحسد إلا نتاج الغيرة والشعور بالدونية ، والرغبة في الاستئثار بالخير ، فما هذه الرؤيا إلا الدليل

على النبوة التي كان كل من إخوة يوسف يتربص أن يرثها عن أبيه يعقوب ، فإذا بأخيهم الصغير يحوزها

دونهم . وسوف يقربه الله تعالى ويرفع مقامه ، " ويعلمه من تأويل الأحاديث " كي يكون المعلم القائد إلى

الخير " ويتم نعمته عليك " ومقام النبوة من أعظم النعم ، وسيحمل الرسالة التي حملها أبوه يعقوب ، وجده

إسحاق ، وأبو الأنبياء إبراهيم جدُّ أبيه يا لها من مكانة عظيمة وصل إليها يوسف الصديق!!

وإخوته الذين ينتظرون مثل هذه المكانة - ولا يستحقونها - سيأكل الحسد قلوبهم ويكرهونه ،

ويناصبونه العدا ، يؤزهم الشيطان ويؤلبهم عليه ، ومن كان الشيطان قائده ومحركه زرع فيه البغضاء والكيد

لكل خيرٍ .. أليس الشيطان العدوَّ الأول الواضح العداوة للإنسان ؟ " إن الشيطان للإنسان عدو مبين " .
٤- أما النفس فهي ثلاثة أنواع :

أ- النفس المطمئنة : وهي التي يمتاز بها السابقون إلى الخيرات ، هي النفس التي كان يقينها بالله يعمر القلب والفكر ، ويترجمها العمل الصالح وخشية الله تعالى والسعي إلى مرضاته ، هذه النفس لا يستطيع الشيطان الدنوَّ من صاحبها فإنه يحترق من وهج الإيمان المنبعث منه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للفاروق رضي الله عنه - وما أدراك من الفاروق - " يا عمر ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك "

ب- النفس الأمانة بالسوء : وهي التي أسلمت للشيطان قيادها فهو يقودها حيث شاء ، ولا يتعب في إفسادها ، ولعلها مفسدة كالشيطان نفسه ، وصاحبها يعمل عمل الشيطان في الوسوسة والغواية " قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس "

ج- النفس اللوامة : وهي التي يحاول الشيطان غوايتها ، فإن ظن أنه تمكن منها ، وشعرت أنها زلت استغفرت الله وتابت إليه ، فهذه أشد على الشيطان من الأخرين ، يقول : يا ويلتاه ، ضاع جهدي فيها هدرًا ، وقد أقسم الجليل بها " لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة . "
وقد زينت نفوس إخوة يوسف السيئة - إذ ذاك - أن يتخلصوا منه ، ورأى أبوهم يعقوب الغدر في عيونهم حين قدموا عليه ليلاً بعد أن غدروا بأخيهم ، فقال لهم يستنكر تخطيطهم السيء " بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً "

٥- لم " ... كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين " ؟ إن من أراد مثلاً يُتخذ في الأخلاق والصبر فعليه بقصة يوسف . إن فيها العبر والعظات التي ينبغي على الداعية أن يتجمل بها في حياته . والسؤال مفتاح العلم .. إن من رزقه الله قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً نال مراتب العلم .

٦- وتمر في ثنايا القصة كلمة " ضلال " وهي في هذه السورة لا تعني البعد عن الهدى والإيمان . إنها بمعنى الوقوع في الخطأ على الرغم من الهداية ، والحيدان عن التصرف السليم . فالأبناء يصفون حب أبيهم الزائد لابنه يوسف بالضلال " ... إن أبانا لفي ضلال مبين " وخطأ فادح واضح . كما أن الأب حين

يقول " إني لأجد ربح يوسف ... " كان ردهم الاستنكار والتسفيه " تالله إنك لفي ضلالك القديم " والنسوة اللواتي سمعن عشق امرأة العزيز فتاها يوسف ، استنكرن منها أن تحب خادمها ، وكان على امرأة في مثل مكانتها أن تحب رجلاً من سادات القوم ، فنعنتها بالضلال - الخطأ - " ... امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين " وكل من يخالف بعضهم في تصرفاته يُتهم بالضلال والوقوع في الخطأ .

٧- إخوة يوسف - والكثير من الناس - يرون الأكثرية دائماً على صواب وغيرهم على خطأ ، وليس هذا بصحيح ، " إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا ، ونحن عُصبة ... " ويؤكد القرآن الكريم خطأ هذه النظرة مرة أخرى حين يقول : " وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله " وينتصر القليل بصوابه على الكثير بخطئه " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله " لأنها على الحق والله تعالى معها في دفع الباطل ومحاربتة . وبهذا تسفّه الأكثرية الآخرين وتستضعف عقولهم " إن أبانا لفي ضلال مبين "

٨- ثم يسعون - بناء على هذه القناعة- إلى أن يزيحوا الحق من الطريق بالسبل غير المشروعة بالقتل أو النفي أو التغييب " اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يَحِلُّ لكم وجه أبيكم ... " وهذه الطرق تنبئ عن الإفلاس وسوء التفكير وضعف النفس - ما هكذا تورد يا سعد الإبل -

٩- ثم نجدهم يصرّحون دون موارد ، ولا حجل أنهم حين يصلون إلى هدفهم - وهو التخلص من يوسف - يصبحون صالحين وهم مخطئون كاذبون ، حين يرون الإجرام والطرق الملتوية في الوصول إلى المآرب متناسقة مع الفطرة السليمة ، وهيئات هيئات أن يجتمعا ، ولن تكون الميكيفيلية طريقاً إلى السعادة الحقيقية . ولم يكن سبيل الشر في يوم من الأيام وسيلة للوصول إلى تصحيح الخطأ .

١٠- لن أتجاوز الأدب مع مقام النبوة - بإذن الله تعالى - حين أكرر الحقيقة الساطعة في التعامل مع الأبناء ، فلا يجوز التفريق في المعاملة بين ولد وآخر ، ألم يقل أحد المرين يصف حبه أولاده وإنما أولادنا بيننا ..
لو هبّت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني عن الغمض
أكبانا تمشي على الأرض

وقد سُئل أحدهم : أي أبنائك أحب إليك ؟ قال : (الصغير حتى يكبر ، والمرضى حتى يشفى ،

والغائب حتى يعود) .. إنه ينبغي معاملة الأبناء على قدم المساواة حتى لا يكره بعضهم بعضاً ، ولكي يشعروا بمكانتهم عند أبويهم جميعاً ، فلا يحزن أحدهم ، ولا تضيق نفسه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للبشير بن سعد حين جاءه ليشهد على أن البشير نحل ابنه النعمان بعض ماله دون غيره من الأبناء (أفعلت هذا بأبنائك كلهم) ؟ قال لا ، فقال صلى الله عليه وسلم (فأشهد على هذا غيري) ، ثم قال : (أيسرك أن يكونوا في البر إليك سواء) قال نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) . أما يعقوب عليه السلام فقد مدحه المولى سبحانه وتعالى مع جده إبراهيم وأبيه إسحاق صلوات الله عليهم فقال في سورة (ص) : " واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة : ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفَيْن الأخيار " فلا نشك أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان نعم الأب الرحيم لأبنائه ، إلا أن أبنائه غير يوسف - عليه السلام - وأخيه كانوا منصرفين عن الحق في بعض تصرفاتهم ، مستمرين الوقوع في الإثم ، وفي السورة دليلٌ ، من ذلك : أنهم لم يروا من اتخاذ القتل أو التغييب عيباً للوصول إلى غايتهم ، ورموا أخاهم في الجب ييغون هلاكه ، وكذبوا أمامه وهم لا يعرفونه حين وصفوه بالسرقة " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل " .

١١ - الملفت للنظر توافقتهم على السوء ولو بدرجات متفاوتة ، فبعضهم أراد قتله وطرحه أرضاً ، وبعضهم كان أقل سوءاً فطلب أن يُلقى في الجب يسترقه تجار القوافل المسافرون ، إلا أنهم بعد المداولة " أجمعوا " على طرحه في الجب " فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب " ونحن نعلم أن الأخوة كنز ثمين يتراحم به الناس ، ويوسف عليه السلام حين رأى أخاه بنيامين آواه إليه و " قال : إني أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون " . لكنّ الشيطان والنفس الأمارة بالسوء غطيا على عقولهم وأعميا أبصارهم .

١٢ - والأب العارف بالله ، النبي الكريم يعقوب يعلم أنهم كاذبون بما ادعوا من أكل الذئب ابنه يوسفَ فالرؤيا التي رآها يوسف لا بد أن تتحقق ، ولا بد للابتلاء أن يكون ، ورفع الدرجات للصابرين صبراً جميلاً ، وصفة " الجميل " تعني الثبات على تحمل الشدائد ، والكمال في الصفات : " فصبر جميل " وهناك الحجر الجميل ، والتسريح الجميل والصفح الجميل وهي صفات محببة إلى الله تعالى وإلى خلقه . وكان مما صبرّ الله تعالى يوسف وهو في الجب أنه سينبئ إخوته بفعالتهم الشنيعة هذه وهم لا يشعرون بذلك " وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون " فعلم يوسف أنه في محنة سوف ينجيه الله منها ،

فما عليه إلا أن يصبر .

١٣- دعاء رائع دعا به يوسف عله السلام ، وهو في الجب ، - يُقال : إن جبريل عليه السلام علمه إياه ليفرج الله تعالى كربته وينقذه مما وقع فيه ، نذكره - على ما يقال في صحة قصته ونسبته إلى الإسرائيليات ، فهو توجه صادق إلى الله تعالى : (اللَّهُمَّ يَا مُؤْنِسَ كُلِّ غَرِيبٍ ، وَيَا صَاحِبَ كُلِّ وَحِيدٍ ، وَيَا مَلَجَأَ كُلِّ خَائِفٍ ، وَيَا كَاشِفَ كُلِّ كُرْبَةٍ ، وَيَا عَالِمَ كُلِّ بَجْوَى ، وَيَا مُنْتَهَى كُلِّ شَكْوَى ، وَيَا حَاضِرَ كُلِّ مَلٍ ، يَا حَيَّ يَا قَيُّومَ أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْدِفَ رَجَاءَكَ فِي قَلْبِي ، حَتَّى لَا يَكُونَ لِي هَمٌّ وَلَا شُغْلٌ غَيْرُكَ ، وَأَنْ تَجْعَلَ لِي مِنْ أَمْرِي فَرْجًا وَمَخْرَجًا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). والدعاء مخ العبادة ، وعلامة العبودية لله تعالى وسبيل التذلل إليه . " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " .

١٤- ولا ننس أن ما يُؤخذ بالقليل ، يُباع بالقليل ، فلما أخذه الواردون من البئر دون ثمن ، باعوه " بثمان بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين " إن الآباء حين يبذلون قصارى جهدهم في تعليم أبنائهم الدين الحنيف ، ويربونهم عليه ، ويأطرونهم عليه ، فيكون الإسلام مدار حياتهم يتمسك الأبناء به ويجعلونه نبراسهم في كل أمورهم ، ويحافظون عليه حفاظ الشحيح على ماله والأم الرؤوم على ولدها . وحين يكون أثر الإسلام في نفوس الأبناء قشرة ضعيفة وغلالة رقيقة يهون عليهم ، فيضيّعونه غير آبهين ولا مهتمين بما يُحَاك له ولهم .



تأملات تربوية في سورة يوسف (٣)

١- أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمعاملة الخدم والعبيد معاملة إنسانية طيبة ، فهم بشر مثلنا ، لهم أحاسيس ومشاعر، يسعدون للكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة ، ويألمون للكلمة السيئة وسوء المعاملة بل إن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا باللطف في نداء الخادم والحديث عنه فقال : " لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ولا يقولن المملوك ربي وربتي وليقل المالك فتاي وفتاتي وليقل المملوك سيدي وسيدتي فإنكم المملوكون والرب الله عز وجل " فيدعو المالكُ مملوكه ب : يا فتى ، وينادي المملوكُ مالكة : سيدي . كما أمرنا أن لا نتميّز عنهم بطعام أو لباس " من لاءمكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ومن لم يلائمكم فبيعه ولا تعذبوا خلق الله " .

ونرى العزيز الذي اشترى يوسف عليه السلام عاقلاً يأمر زوجته ان تحسن إليه ، فقد يرد إليهما الإحسان إحساناً حين يكبر في دلهما إياه وحسن تصرفهما إزاءه ، وقد يتبنياه إذا رأيا فيه الصلاح والنجابة " وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته : أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدأ " وهكذا هياً الله تعالى ليوسف الحياة الطيبة مع هذا الرجل الأريب الذي ظهر لنا رجاحة عقله في أمور منها ماقاله آنفاً في الإحسان إلى يوسف ، وحين تبين له خطأ زوجته وانكشاف أمرها ، فعقّب " إنه من كيدكنّ ، إن كيدكنّ عظيم " وحين طلب إلى يوسف أن يتجاوز الأمر ويتناساه فلا ينبغي أن يخرج الخبر إلى حيز الإحراج والنيل من هيبة العزيز ، فأوحى بكلمة (أعرض) إلى صدق يوسف إذ لم يتهمه ، إنما طلب إليه بتعطف أن يتجاوز الأمر . كما وبخ المرأة وطلب منها الاستغفار لخطئها العظيم ، حين جعلها من (الخاطئين) لا الخاطئات فقط ، وهذا دليل على استعظامه الأمر وقوة توبيخه إياها " يوسفُ أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين " كما أن كلمة (الخاطئين) توحى بأن الزنا ذنب كبير وفاحشة عظيمة، أفعله الذكور أم الإناث .

٢- أعتقد أن في الآيات ما يؤكد أن يوسف الشاب لم يهجم بها كما همّت به لأسباب ذكرت في معرض القصة تؤكد ذلك ، منها : أ- أنه الله تعالى وهبه حكمة تمنعه من السفاهة وعلماً بالحلال والحرام ، رفعه إلى رتبة الإحسان " ولما بلغ أشده آتيناها حكمة وعلماً وكذلك نجزي المحسنين " فالحكمة

والعلم الحقيقيان حصن من الزلل، وأما الإحسان فأن تعبد الله كأنك تراه ، ومن كان يرى الله بقلبه وحاز الحكمة والعلم لم يهّم ،

ب- إذا أراد الله بالإنسان خيراً صرفه عن السوء والفحشاء ، فكيف إذا صرف الله تعالى السوء والفحشاء عن الإنسان؟! إنه إذاً لكرّيم على الله كثيراً

ج- والمسلم السعيد يخلص لله في العبادة والالتزام ، حتى يصير مخلصاً - (اسم فاعل) فإذا أخلص لله جعله الله من المخلصين . فكيف إذا جعله الله ابتداءً مخلصاً (اسم مفعول) إنه لفضل عظيم من الله تعالى .

د- ولولا تفيد امتناع حصول الشيء لوجود مضادّه ، فلولا رؤية برهان ربه لهمّ بها ، فامتنع لهم رؤية يوسف عليه السلام برهان ربه .

" ولقد همّمت به . وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين "

ه- واستباقهما الباب ، هي تلحق به لثمنعه من الخروج ، وهو يريد الهرب بنفسه ، فقدت قميصه من دبر دليل على عدم الهمّ بها .

٣- ويكون إصدار الحكم الصحيح بعد المعاينة ، ولا يجوز للعواطف والانفعالات أن تؤثر في القاضي النزيه ، فالمرأة حين خافت على نفسها الفضيحة أمام زوجها أسرع بالدفاع الأثوي السريع (والهجوم خير وسيلة للدفاع) تتهم يوسف بالرغبة في الفحشاء وسوء الأدب وأنه لم يراع حرمة من آواه وأحسن إليه فحاول هتك عرضه وشرفه ، ثم تسارع إلى اقتراح العقوبة المناسبة : إما السجن أو العذاب . كما أنّها لخبثها ودعائها أقرت العقوبة بطريقة الاستفهام " ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذاب أليم ؟ "

وعلى المتهم البريء أن يدافع عن نفسه ، ولا يتخاذل أمام جبروت الظالم مهما كان الظالم ذا مكانة اجتماعية تفوقه ، أو له دلّ على المتهم ، فالحق يجب أن يظهر ، ومقارعة البهتان والظلم واجبة " قال : هي راودتني عن نفسي " فلا بد إذاً من البينة التي تحق الحق وتبطل الباطل . وقد ظهرت البينة بتمزيق قميصه من الخلف ، أمسكت المرأة بقميصه بقوة تستبقيه وهو يسرع هارباً ، فتمزق من الخلف ، ولو كان

يريدها وهي تأبى لتمزق القميص من الأمام .

٤- القميص أمره عجيب ، وعليه دارت رحى القصة :

فقميصه (الأول) الذي حمله إخوته إلى أبيهم لم يكن ممزقاً، فكشف كذبهم وعزّاهم وبين تأمرهم.

وقميصه (الثاني) الذي مزّقه امرأة العزيز من الخلف برّاه بإذن الله وكشف دعوى المرأة الكاذبة .

وقميصه (الثالث) الذي حمله أحد إخوته إلى أبيه كان - بإذن الله - سبب عودة البصر إلى أبيه ،

وقدوم الجميع إلى مصر ليلتئم الشمل .

٥- لم تستنكر نساء الذوات أن تعشق المرأة منهن شاباً تقطف معه الثمرة المحرمة ، فهذا - في

المجتمع الكافر - أمر عادي . إنما كان استنكارهن أن تنهوى امرأة العزيز أمام خادم تملكه ، ومتى كانت

نساء الطبقة الراقية يتعلقن بعبدهنّ ، لقد أخطأت - إذاً - خطأ كبيراً ، وضلت ضلالاً بعيداً ... ولاكت

ألسنتهنّ تعلقها بيوسف ، وافتضح أمرها بينهن فصارت قصتهما مثار التفكه والتندر . وأرادت ان ترغمهن

وتقطع ألسنتهنّ ، فدعتهنّ إلى قصرها واستقبلتهنّ استقبالاً كريماً وقدمت لهن مالذ وطاب من جنيّ الفاكهة،

فلما انشغلن بذلك أمرت يوسف أن يدخل عليهنّ ، فلما رأين هذا الجمال الأخاذ سحرهنّ وأخذنّ بالباهنّ،

وطغى عليهنّ بهأوه فجرحن أيديهنّ بالسكاكين دون أن يشعرن ، " وقلن حاشَ الله ، ما هذا بشراً ، إن هذا

إلا ملك كريم "

وهنا تغتم امرأة العزيز الفرصة لتقول : إنكنّ رأيتهنّ مرة واحدة فملك عقولكنّ وبهركنّ حسنه ، فلم

تلمني فيه وهو بين يديّ كل صباح ومساء ، فأذوب في حبه ، وأحلم ليلي ونهاري بوصاله . ثم تجترئ -

أمام تحافتهنّ - على طلب الفاحشة والإصرار عليها ، ويشاركنها بذلك فيطلبن منه ما طلبت . وزادت

فحشاً حين هددته كرة أخرى بالسجن إن استعصم ، وأبى ، فينضممن إليها ويسألنه ذلك ، والدليل على

ذلك قوله " وإلا تصرف عني كيدهن أصبّ إليهنّ وأكنّ من الجاهلين " وقوله في تحقق الملك منهنّ حين

سألهنّ : " ما خطبكنّ إذ راودتُنّ يوسف عن نفسه ؟ "

٦- ويتعلق يوسف عليه السلام بجبل من الله قوي ، ويسأله السلامة من الفاحشة ، وأن يصرف

عنه كيدهنّ ، وينجيه منهن ومن فسادهنّ ، فينقذه الله تعالى مما هو فيه .

وليس للمؤمن من عياذ إلا بالله ولا ملجأ إلا إليه ، ولا اعتماد إلا عليه . فهو - سبحانه - الحصن

الحصين والملجأ الأمين . إلا أن يوسف وهو تحت ضغط التهديد بارتكاب الفاحشة أو السجن ، قال : " ربّ ؛ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه .. " ولم يختَر النجاة منهما جميعاً: وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَمَّا قَالَ : " ربّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ " أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ " يَا يُوسُفُ ! أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ حَيْثُ قُلْتَ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ، وَلَوْ قُلْتَ الْعَافِيَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ لَعُوفِيَتْ " . فعلى المسلم أن يسأل الله تعالى العافية والنجاة من كل بلاء . " إنه هو السميع العليم "

٧- مما يتألم له الإنسان الحر أن المفسدين المتنفيين غالباً ما يضحون بالأبرياء ليتخلصوا من آثار مفاسدهم ومخازيهم . إننا لنشم رائحة فجور النساء ينضم إلى صفاقة امرأة العزيز ، فيملاً خياشيم الرجال بنتنّ خطيئاتهنّ ، ولا يرى هؤلاء لوأد هذه الفضيحة سوى تغييب الضحية البريئة في أحد السجون فترة من الزمن فتتساه النساء أو تتناساه ، ولا يرين إليه سبيلاً فيئسن منه . وهكذا يدفع الطاهر العفيف ثمن طهره وعفافه ، سجنًا وألمًا وغصة ، نرى هذا في عالمنا السياسي حيث يُلقى الحر في السجون والمعتقلات ، أو يحكم عليه بالموت لأنه أبى الدنية ورفض الذل والتمرغ في أحوال الخيانة والعمالة ، وفي حياتنا الاقتصادية ، إذ يتسنى المسؤولية حيتان المال ، يذللون القوانين لتكديسه في أرصدتهم ، ويتخمون به على حساب الفقراء الذين لا يجدون ما يسد رمقهم . فإذا زكمت رائحتهم الأنوف وانكشف أمرهم تنصلوا من المسؤولية ودفعوا صغار عملائهم ضحايا لصوصيتهم ...

٨- يغتنم الداعية الفرص السانحة لإيصال دعوته للناس ، ويستمر في أداء مهمته في كل الظروف والأحوال . فيوسف عليه السلام كان داعية فيمن حوله حين كان حراً ينتقل بين القصور وفي الأسواق والتجمعات ، ولا يتوقف عن هذا حين يدخل السجن ، فيخدم هذا ويساعد هذا ، ويخفف الأسي عن ذاك . حتى لقب بيوسف الصديق وعرف بالإحسان بين المسجونين...يسألونه ويستشيرونه ، ويستفتونه ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله ويجيبهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

يسأله فتیان عن رؤيأهما ، ويجلسان بين يديه ينتظران التأويل ، فيعرض عليهما الإيمان بالله الواحد ونبذ الشرك ، وأن علمه الذي ينشره بن الناس من فضل الله تعالى الواحد الأحد، ويعرفهم على سبيل الصالحين قبله .

ولا بد من سلوك سبيل الإقناع في الدعوة ، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام الداعية الذكي ، إذ

بدأ يقارن بين الصواب وإيجابياته والخطأ وسلبياته ، " أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار " وينتقل إلى الحديث عن فساد الكون لو كان فيه أكثر من إله " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " ويطنب في الحديث لأن الفتيين خاليا الذهن مما يقول فلا بد من تفصيل الفكرة والإسهاب فيها ، فيقول : بنجم الفساد عن تنافس الشركاء ، وتفرقهم بعد الخصام ، ولعل بعضهم أقوى من بعض فيعلو القوي على من هو أضعف منه " إذأً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ..."

فإذا ما دعاهم إلى الإيمان بالله الواحد والتسليم له سبحانه يعرض لما يسألون ويوضح لهم ما يستفتون.

٩- ولعل يوسف عليه السلام حين قال للساقي الذي نجا وعاد إلى خدمة الملك " اذكرني عند ربك " وبين له أن في السجن مظلوماً لم يرتكب ذنباً . ولعل هذا القول من يوسف في بسط القول ، والبحث عن الحق ، فكانت العقوبة لسيدنا يوسف حين توسط للمخلوق بالمخلوق (توسط للملك بالساقي) فأنسى الشيطان الساقي ما طلبه يوسف عليه السلام منه ،

ولم أرتح لمن قال : إن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله واللجوء إليه ، فليس للشيطان سبيل على الأنبياء .. إنه اجتهد من يوسف أخطأه حين التمس النصرة من البشر ، فلبث في السجن سبع سنوات " فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين " .

١٠ - من الأدب في إبداء الرأي أن الملك حين رأى سبع بقرات هزيلة تأكل سبع بقرات سمان ، وسبع سنابل يابسات تأكل سبع سنابل خضرا ستفتى العارفين وأصحاب المشورة فقال : " يا أيها الملاء أفتوني في رؤياي " . وهذا يذكرنا بقول بلقيس : " يا أيها الملاء أفتوني في أمري " فماذا كان من أهل العلم والمشورة؟

أ- اعترفوا بعدم العلم ، وهذا عين الصواب ، فما ينبغي لأحد أن يفتي بغير علم .

ب- لكن لا بد من إبداء الرأي ، فقالوا " أضغاث أحلام " .

ج- ولم يدعوا أن لا تأويل لها ، ولعلمهم أرادوا محوها من نفس الملك كي لا ينشغل بها .

د- بعض الناس قالوا : إن الرؤيا أول ما تعبر ، وليس صحيحاً ، فبعد أن قالوا : أضغاث

أحلام أوّلها يوسف عليه السلام .

١١- ومن الأدب كذلك أن تعرف حق العلماء من التوقير والاحترام ، وهذا ما رأيناه عند الساقى حين التقى يوسف عليه السلام في السجن فكلمه بـ " يوسف أيها الصديق " ، إن إكرام العلماء من إكرام العلم . وقد نرى في قول الساقى " لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون " أن من معاني يعلمون " التعبير للرؤيا ، فيعلمون قدر يوسف ، فيبحثون أمره وينصفونه " .

١٢- الكرامة والعزة من صفات المسلم ... طلب الملك رؤية يوسف ، بل أمر بإخراجه من السجن وقال : " إيتوني به " وكان ليوسف أن يخرج من السجن فقد جاءتته الفرصة السانحة . إلا أنه دخل السجن بتهمة شنيعة هو بريء منها ، ولن يخرج بعفو أحد ولو كان الملك . إنه يريد أن يخرج طاهراً عفيفاً بريئاً من كل تهمة شائنة . وتعجب الملك والناس ... ووقر في نفوسهم أن الرجل صادق ، فلا بد من البحث عن حقيقة سجنه وتعترف النساء بعد سبع سنين بالحقيقة " قلن حاشَ لله ، ما علمنا عليه من سوء " وأقرت امرأة العزيز بذنبها ، وشهدت بصدق يوسف عليه السلام " قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين " فيرتفع صوت الصديق يوسف وهو في السجن معلناً أنه الأمين الذي لم يخن من ربه وأمنه على عرضه وماله " ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب ، وان الله لا يهدي كيد الخائنين " وهنا يأمر الملك بإحضاره ليجعله مستشاره الشخصي " إيتوني به أستخلصه لنفسي " فزاد على الجملة الأولى " أستخلصه لنفسي "

ولما مثل بين يديه اختبره ، فكلمه ، فأعجب به فقربه إليه " فلما كلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين " المكين في مكانته ومنزلته ، الأمين في مشورته ورأيه .

١٣- هل يجوز للمسلم أن يطلب الإمارة ؟ فهو إما أن يكون أهلاً لها أو لا يكون ...

فإن لم يكن أهلاً لها فهو خائن لله ولرسوله وللمؤمنين يريد ان يتبوء عملاً ، فيفسده .

وإن كان أهلاً لها وطلبها فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي موسى الأشعري : " لا نستعمل على عملنا من أراده " وقال لعبد الرحمن بن سمرة " يا عبد الرحمن ؛ لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها " وكان أبو موسى الأشعري من أهلها إذ كان أميراً على الكوفة لعمر رضي الله عنهما .

أما يوسف عليه السلام فقد قال للملك : " اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم " لأسباب

منها : أ- أنه نبي ، والنبي قائد وأسوة ومعلم ، وهو أولى الناس بتحمل المسؤولية .

ب- أنه المسلم الأول في مصر وليس هناك غيره يفعل فعله .

ج - أنه صاحب التأويل ، وهو أولى الناس بتنفيذ ما أوّله ... والله أعلم .

ومع ذلك لانسنَ قول النبي صلى الله عليه وسلم " رحم الله أخي يوسف ، لو لم يقل : اجعلني على

خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، ولكنْ أخر ذلك عنه سنة "

عن القرطبي في تفسيره



تأملات تربوية في سورة يوسف (٤)

١- " وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم ، وهم له منكرون " . لا شك أنه عرفهم فهم رجال ، قد اكتمل نموهم حين ألقوه في الحب ، ولم يتغيروا كثيراً بعد ثلاثة عقود ، كما أنهم جاءوا معاً وعددهم عشرة ، يتكلمون العبرية - لسان اليهود - وكل هذا ملفت للنظر ، كما أنه يتوقع مجيئهم . أما يوسف فقد كان صغيراً ، وتغيرت ملامحه كثيراً حين اكتملت رجولته ، فلن يعرفوه ، كما أنهم اعتقدوا موته ، وانتهى أمره عندهم ، وما عادوا يفكرون فيه ، ولم يكونوا - لو أخذته قافلة - يتصورون أين سينتهي به المطاف لو بقي حياً ، ولئن استقر به المقام في مصر ، فلن يكون سوى عبد ذليل وخادم لا يؤبه له ، ولن يخطر ببالهم أنه الوزير المنتفذ الذي بيده هذا السلطان كله ، وأن الله تعالى مكن له في الأرض ، فبات يُشار إليه بالبنان ، ويقصده الناس من قريب وبعيد كما يفعلون الآن .

ولنتصور الآن الحديث بينه وبينهم بالمصرية ، ولعلمهم يعرفونها أو هناك مترجم ، فيوسف لم يكن يريد أن ينبههم إلى أنه يعرف لغتهم فينتبهوا له ، ويروزوه :

من أي البلاد قدمتم ؟

من أرض كنعان .

أراكم تتشابهون ، فهل أنتم من عشيرة واحدة أو بينكم قرابة؟

بل نحن إخوة ، وأبونا واحد ، هو النبي يعقوب .

أنتم جميعاً ابن رجل واحد ؟

نعم ، ولنا أخ آخر بين يدي والده لا يفارقه لحظة واحدة ، فهو متعلق به كثيراً .

ويكرمهم يوسف عليه السلام ، فيجعلهم ضيوفه ، ثم يأمر فتيانه أن يملأوا أوعيتهم بالقمح ويزيدوهم

في الكيل ، ويطلب منهم أن يأتوا بأخيهم في المرة القادمة فيثبت صدقهم ، فإن لم يفعلوا فليسوا صادقين

في ذلك ، وسيمنعهم من دخول مصر ويأبى أن يميرهم

وذكرنا قصتهم في المقال الأول من التأملات ، فلنعد إليها .

٢- قد يظن أحدهم أن أبناء يعقوب هم الأنبياء من الأسباط ، وهذا وهمٌ تسقطه القرائن ، بل

الأنبياء من أحفاد آبائهم ، إن النبي قدوة ، وهؤلاء ليسوا قدوة ، وخطوهم كثير وكبير استمر معهم حتى صاروا كهولاً وهم حتى اللحظة الأخيرة يسيؤون إلى أخيه يوسف ، ومن أساء إلى أخيه فلا بد أن تكون إساءته للناس متواترة . " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل " ويقول يوسف في نفسه متألماً " أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون " كما أننا نجد عدم احترامهم لأبيهم - وأبنائهم مثلهم - فيلومونه لوماً أقرب إلى التوبيخ حين يخبرهم أنه يجد ربح يوسف " تالله إنك لفي ضلالك القديم " وهم يعترفون أمام يوسف بخطئهم اعتراف المحاط بهم حين يكشف لهم عن نفسه " تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين " ويسألون أباهم أن يعفو عنهم ويستغفر لهم " قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين " وهل يصبحون أنبياء حين يهرمون ويعجزون وهم الخاطئون ؟ ، وكلمة " الخاطئ " التي تكررت في سورة يوسف تعني : الخطأ العمد الذي يصر صاحبه عليه .

٣- الاستعطاف طريقة تربوية قد توصل للهدف على شرط أن يُقصد به الرجل الشهم المحسن .

أما استعطاف اللئيم فذلٌ وخنوعٌ ياباهما المسلم .

نرى ذلك حين رغبوا في سبيل استنقاذ أخيهم أن يتبرع أحدهم أن يُسترقَّ مكانه ، فأبى يوسف عليه

السلام ، فلا عقوبة إلا لمن يستحق العقوبة ، والقاعدة الشرعية تؤكد " ولا تزر

وزرة وزر أخرى " وأعلن هذا قائلاً " معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده "

٤- يبدو أن الرجولة والخبرة في الحياة وتحمل المسؤولية زمناً طويلاً والعهود والمواثيق ،

والخوف من الوقوع في الخطأ مرة أخرى تخفف من غلواء الفساد ،

فهذا كبيرهم (وقد يكون أكبرهم عمراً أو مكانة) يشعر بعظم المسؤولية . فلما خلصوا يتناجون

ويقبلون الأمور لم يستحسن العودة إلى فلسطين خوفاً وخجلاً من لقاء أبيه حين يعود دون بنيامين ، ومن

قبل فرط في الحفاظ على يوسف وجارى إخوته في التخلص منه " قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد

أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف " لقد طفح الكيل ، وما عاد يحتمل ، فقرر أن

يظل في مصر قرب أخيه بنيامين حتى يأذن له أبوه أو يأتي الفرج من الله : " فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي

أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين " وهذا دليل على انفراط عقد العصبية ثم إنه قال : حتى يحكم الله

لي . ولم يقل لنا

ووثق الإخوة الذين ذهبوا أمرهم بالاستشهاد بالقافلة التي كانت معهم ، وبسؤال أهل مصر الذين شهدوا الحادثة .

٥- الأمل بالله والوثوق به سمة المسلم إن قلب الأب كان مكلوماً فلم يصدقهم ، وكرر قوله السابق " بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ."
فقد بُعد ثلاثة من أولاده عنه :

أما أولهم : فيوسف الذي غاب عنه عقوداً وهو لا يعلم عنه شيئاً ، الولد الغائب الذي لا يدري أبوه أحي هو أم ميت ، أين يقيم ، وكيف يحيا غيبته أشد من غيبة غيره إلا أن يعقوب عليه السلام كان يعلم أن ابنه حي بسبب الرؤيا التي رآها يوسف ، وهو ينتظر تحقيقها ، فيجتمع به .
وأما ثانيهم : فبنيامين الذي يقبع في أسر عزيز مصر ، يعرف أبوه مكانه إلا أنه لا يستطيع القدوم ، وأمره صعب لكنه أقل صعوبة من حال يوسف الغائب الذي لا يعلم عنه شيئاً .

وأما ثالثهم : فالكبير المنفي طوعاً ، لا يجزؤ على العودة ولقاء أبيه
إنها لمصيبة كبيرة علاجها اللجوء إلى الله تعالى والصبر عليها . " فصبر جميل ... "
إلا أن المصيبة تصغر حين تكبر ، وتضعف حين تشتد ، فقال ، وثقت بالله ثابتة : عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم " وقال معلماً أبناءه اللجوء إلى الله في كل شيء " إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون " ويدفعهم إلى طرح اليأس والتشميمير عن ساعد الجد والبحث في مصر نفسها ، فهناك الأخوان الغائبان يوسف وبنيامين يقيمان ، وقد دنت ساعة الفرج أما الكبير فقد عاد بعد أن أذن له أبوه بالعودة " يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله " بل إنه ليجد ريح يوسف حين خرج أخوه بقميصه إلى الأب الحزين .

٦- العفو سبيل الصالحين حين يقبل على يوسف إخوته للمرة الثالثة ، قد مسهم الضر من تضعض في العيش الأسري ، وفقر واضح ، وانكسار بيّن " فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز ؛ مسنا واهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين " ويرى يوسف أنهم تعلموا الدرس يكلمهم بالعبرية - لغتهم - مؤنباً " هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ " وأرى كلمة " إذ أنتم " غير قوله تعالى " إذ كنتم " فالثانية للماضي ، والأولى للماضي

والحاضر. فما تزالون تخطئون ولا ترعونون ويذكر سبيل الإحسان ... إنها التقوى والصبر " إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين "

وحين يطلبون الصفح يصفح عنهم دون لوم ولا عتاب . بل يدعو لهم بالخير ، وهذه قمة العفو والتسامح ، وهذا دأب الصالحين " لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين " وكذلك يفعل الأب حين يستغفر الله لهم ، ويعفو عنهم .

بل إن يوسف عليه السلام يبلغ القمة في الصفح والغفران حين يتناسى ما فعله إخوته به حين ألقوه في الحب ، ولا يذكره كي لا يشعروا بالخرج ، ولا يذكر إلا كرتبه في السجن ، ويعزو إلى الشيطان وحده ما كان بينه وبين إخوته " ... وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي . "

٧- التواضع والتذلل إلى الله دأب الصالحين

- الله تعالى أحسن به إذ أخرجته من السجن ، وجاء بأهله من البدو .
- الله سبحانه من آتاه الملك ، وعلمه من تأويل الأحاديث .
- يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .
- إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون .
- عسى الله أن يأتيني بهم جميعا .
- وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي . إن ربي غفور رحيم .
- ذلك مما علمني ربي .

ولن يكون المملك والعلم للصالحين سبيل عظمة وتكبر ، إنما هو سبيل إلى التواضع والشكر للمنعم المتفضل . بل يدفع صاحبه أن يسأل الله تعالى أن يجعل ذلك مقدمة للجنة وبشرى الرضا في الآخرة " رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ؛ أنت وليي في الدنيا والآخرة . توفي مسلماً ، وألحقني بالصالحين . "

ونحن معشر المسلمين نتعلم من يوسف عليه السلام أن الدنيا دار اختبار وأن الآخرة دار قرار ، اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين

تأملات تربوية في سورة الحجر (١)

أساليب التربية في سورة الحجر كثيرة ، وهي رياض غناء يسعد المتأمل فيها والناظر إليها ببدیع هذه الأساليب التي يأخذ بعضها ببعض ، فتتنظم عقداً بليغاً يحوي درر الحكيم وجواهر الأدب وجميل المعاني الخلاقة التي تستهوي المرين والأساتذة والآباء ، فيقتطفون منها طاقات فوّاحة من علم وأدب وتربية ... إليك بعضها :

١ - قال الحكماء : (لا تقم بعمل تندم عليه) ؛ وكثير ما يجترح أحدنا أخطاء دون روية ، ثم يندم عليها . ولا شك أن الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه فضيلة ، وأفضل منه تصويبه وعدم العودة إليه . هذه هي التوبة النصوح . وهذه التوبة مطلوبة في عالمنا ، وما تزال مقبولة ، بل مطلوبة ما دمنا على قيد الحياة . أما الندم بعد الموت فحسرة لا تنقضي ، واعتذار لا يقبل ، وخطأ لا يغتفر إلا بعفو الله تعالى ومغفرته ولطفه ما عدا الإشارك به سبحانه ، فهذا خطأ لا يُغْتَفَرُ وَذَنْبٌ لَا يُمْحَى " إن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " ونقف وقفة الخائف الوجلل والحذر المنتبه أمام الآية الكريمة الثانية في هذه السورة " رُبَّمَا يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " إنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكُفْرِ ، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مع المسلمين . قال ابن عباس وابن مسعود : إن الكفار حين يعرضون على النار يوم القيامة ويرون المسلمين ناجين منها يتمنون أن لو كانوا مسلمين . ولعل المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً . وقيل : هذا إخبار عن يوم القيامة كقولهِ تَعَالَى " وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " وَقَالَ بعض المفسرين إن هذه الآية يقولها الجهنميون الذين يرون العاصين من المؤمنين خرجوا من النار بعفو الله تعالى . وفي رواية: يقول أهل النار للموحدين ما أَعْنَى عنكم إيمانكم ؟ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ : أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ . وروي عن أنس بن مالك قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ ، يَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى مَا أَعْنَى عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار ؟ فَيَغْضَبُ اللَّهُ لَهُمْ فَيُخْرِجُهُمْ ، فَيَلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ الْحَيَاةِ فَيَبْرءُونَ مِنْ حَرِّهِمْ كَمَا يَبْرَأُ الْقَمَرُ مِنْ حُسُوفِهِ ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيُسَمَّوْنَ فِيهَا "الجهنميون" . إن الكفار لا يعبأون في الدنيا بغير التمتع بها وانتهاج الملذات ، فكان التهديد واضحاً في قوله تعالى "

ذرههم يأكلوا ويتمتعوا ويلهيههم الأمل ، فسوف يعلمون " ولن يعلموا إلا بعد فوات الأوان . فإذا رأوا يوم القيامة ذاقوا وبال أمرهم .

٢- إن الله سبحانه وتعالى (يمهل ولا يهمل) فلن يُهلك الله أمة إلا بعد قيام الحجة عليها " وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم " و (الكتاب المعلوم) معنيان متلازمان ، أولهما أن الحق سبحانه لا يهلك أمة قبل إرسال الرسل ودعوتها إلى عبادة الله وحده ، فإن أجابت نجت ، وإن لم تفعل حق عليها الهلاك . وثانيهما أن لكل أمة أجلاً " فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " والله سبحانه - على غضبه على الكفار - حلیم يؤخرهم لأجلهم المحدد لهم فلا يعجل عليهم . ولذلك كانت القاعدة الإلهية في حق الأمم " ما تسبق من أمة أجلها ، وما يستأخرون . " والإنسان هو الذي يستعجل حين يغضب وتأخذه الحمية ، يكاد يخسف الأرض بمن غضب منهم ، ويحاول جاهداً أن يستأصل شأفتهم . " وخلق الإنسان عجولاً "

٣- العاقل يقارع الحجة بالحجة وضعيف الرأي يغطي على جهله بالهزء والسخرية ، ومن سخرية المشركين بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنهم يتعالون عن ذكر اسمه الشريف ، فلا ينادونه : يا محمد ؛ بل يقولون تعريضاً واستخفافاً " يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر ... " ويقصدون : يا من تدّعي أنك نبي ورسول ؛ إنك لمجنون . ويطالبونه أن يكون معه ملك يؤيده . مع أن الملائكة لا تنزل إلا للدفاع عن الأنبياء والقضاء على أعدائهم وإبادتهم حين يشتد أذاهم للرسول وأصحابهم ، كما فعل الله بالأمم السابقة الهالكة . ويخفف الله تعالى عن الرسول ألمه وحزنه من صد المشركين وأذاهم فيخبر الحبيب المصطفى أنه ليس بدعاً من الرسل ، فقد كُذبت الرسل من قبله ، واستهزأ المشركون بهم كما استهزأت قريش وكفار العرب به . فهذا دأب المكذبين الضالين .

٤- يعاقب المشركون الذين صدوا عن الإيمان وحاربوه واتبعوا أهواءهم بالكفر يعيش في قلوبهم فيتيهون في الضلالة ويعمّهون فيها " كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين " وهكذا فُعل بكفار الأمم السابقة التي صدت عن سبيل الله ، فقد أدخل الله تعالى الشرك في قلوبهم لأنهم طلبوه كقوله تعالى في سورة الإسراء " قل : من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً " وقوله تعالى " من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها

مدموماً مدحوراً " فهم - المشركين - لا يؤمنون حتى يقعوا في الواقعة التي لا خلاص منها . ولعل بعضهم يقول : أحقاً هم يصدون لو وجدوا آيات بينات ؟ والدليل أن سجية البشر واحدة ، فالله تعالى قدم لقوم صالح آية الناقة حين وعدوا نبيهم أن يؤمنوا بهم لو جاءهم بخارق العادات ، فلما جاءهم كفروا بها وقتلواها . فلما طلب القرشيون آية ذكرهم الله تعالى بالقاعدة الشهيرة : لا يُلدغ المرء من جحر مرتين حين أنزل الآية " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها " أي ظلموا أنفسهم بقتلها . وفي هذه السورة يفضحهم الله تعالى حين يعريهم فيقول : " لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين " فهم مثلهم . ولأنه سبحانه عالم بهم خبير بدخائلهم يقول " ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون " . وقد يتفصح أحدهم فيقول : لم يأخذ ربك الخلف بجريرة السلف ؟! فنقول له : يا هذا خانك الفهم ، وجانبك الصواب ، فالله تعالى بعدله لا يترك لأحد حجة ، فقد طلب مشركو مكة دليلاً على نبوة الحبيب محمد ، وسألوه أن يطلب من ربه انشقاق القمر ليؤمنوا به ، فلما انشق القمر قالوا : سحرنا محمد ، وحين قيل لهم إن كان سحركم فاسألوا القادمين إلى مكة بعد أيام عما رأوا . فلما سألوهم وأكدوا أنهم رأوا القمر فلقنتين ذلك اليوم قالوا : سحر محمد الجميع ، إن سحره قوي مستمر شديد " اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم .. "

٥- كَانَ لِلْمَأْمُونِ - وَهُوَ أَمِيرٌ إِذْ ذَاكَ - بِمَجْلِسِ نَظَرٍ ، فَدَخَلَ فِي جُمْلَةِ النَّاسِ رَجُلٌ يَهُودِيٌّ حَسَنَ الثَّوْبِ حَسَنَ الْوَجْهِ طَيِّبَ الرَّائِحَةِ ، قَالَ : فَتَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ وَالْعِبَارَةَ ، قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَى الْمَجْلِسَ دَعَاهُ الْمَأْمُونُ فَقَالَ لَهُ : إِسْرَائِيلِيُّ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ لَهُ : أَسْلِمَ حَتَّى أَفْعَلَ بِكَ وَأَصْنَعَ ، وَوَعَدَهُ . فَقَالَ : دِينِي وَدِينِ آبَائِي ! وَأَنْصَرَفَ . قَالَ : فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ جَاءَنَا مُسْلِمًا ، قَالَ : فَتَكَلَّمْتُ عَلَى الْفِئَةِ فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ ؛ فَلَمَّا تَقَوَّضَ الْمَجْلِسَ دَعَاهُ الْمَأْمُونُ وَقَالَ : أَلَسْتَ صَاحِبِنَا بِالْأَمْسِ ؟ قَالَ لَهُ : بَلَى . قَالَ : فَمَا كَانَ سَبَبَ إِسْلَامِكَ ؟ قَالَ : انْصَرَفْتُ مِنْ حَضْرَتِكَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُمَّتِحَ هَذِهِ الْأَدْيَانَ ، وَأَنْتَ تَرَانِي حَسَنَ الْخَطِّ ، فَعَمَدْتُ إِلَى الْإِنْجِيلِ فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسُخٍ فَرِدْتُ فِيهَا وَنَقَّصْتُ ، وَأَدْخَلْتُهَا الْكَنِيسَةَ فَاشْتَرَيْتُ مِنِّْي ، وَعَمَدْتُ إِلَى التَّوْرَةِ فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسُخٍ فَرِدْتُ فِيهَا وَنَقَّصْتُ ، وَأَدْخَلْتُهَا الْبَيْعَةَ

فَأَشْرَيْتَ مِنِّي ، وَعَمَدْتَ إِلَى الْقُرْآنِ فَعَمِلْتَ ثَلَاثَ نُسُخٍ مِنْهُ وَزِدْتَ فِيهَا وَنَقَصْتَ ، وَأَدْخَلْتَهَا الْوَرَقَيْنِ فَتَصَفَّحْتَهُمَا ، فَلَمَّا أَنْ وَجَدُوا فِيهَا الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ رَمَوْا بِهَا فَلَمْ يَشْتَرَوْهَا ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا كِتَابٌ مَحْفُوظٌ ، فَكَانَ هَذَا سَبَبَ إِسْلَامِي . قَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ : فَحَجَّجْتَ تِلْكَ السَّنَةَ فَلَقَيْتَ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ فَذَكَرْتَ لَهُ الْخُبْرَ فَقَالَ لِي : مِصْدَاقٌ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ قُلْتُ : فِي أَيِّ مَوْضِعٍ ؟ قَالَ : فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ : " بِمَا أُسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ " الْمَائِدَةُ : ٤٤ ، فَجَعَلَ حِفْظَهُ إِلَيْهِمْ فَضَاعَ ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " فَحَفِظَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا فَلَمْ يَضِعْ . وفي هذه الآية أحد عشر توكيداً (إِنَّ الْمَشْدَدَةَ وَنَا الدَّالَّةَ عَلَى الْجَمْعِ ، وَضَمِيرَ الْعِظْمَةِ نَحْنُ ، وَالتَّضْعِيفَ فِي نَزَلْ وَنَا الدَّالَّةَ عَلَى الْجَمْعِ ، وَتَعْرِيفَ الذِّكْرِ ، وَإِنَّ الْمَشْدَدَةَ وَنَا الْجَمْعِ ، وَتَقْدِيمَ مَا حَقَّهُ التَّأخِيرَ " لَهُ " فَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ حَقَّهُمَا أَنْ يَتَأَخَّرَا عَنِ الْخَبَرِ حَافِظُونَ ، وَوَلَامَ حَافِظُونَ وَيَسْمُونَهَا الْمَرْحَلَةَ ، وَوَاوُ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ لِحَافِظُونَ) فَهَذِهِ الْآيَةُ سَبْعَ كَلِمَاتٍ فِيهَا أَحَدُ عَشَرَ تَوْكِيداً ، وَكَلَامُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَحْتَاجُ تَوْكِيداً ، فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ، فَكَيْفَ إِذَا أَكَدَهُ ، أَوْ كَانَ فِيهِ هَذَا الزَّحْمُ مِنَ التَّوَكِيدِ؟

٦- التفكير والتدبر غذاء القلوب والعقول ، فنرى القرآن الكريم يرشدنا إلى بديع الصنع من سماء وأرض وجبال وشجر وماء وزرع وحيوانات وحياة وموت . وهذا التفكير في أنفسنا وما حولنا دليل على وجود الإله الخالق الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ومن تفكير وتدبر وتابع المسيرة الكونية اهتدى إلى الحق ضمن قواعد منطقية متسلسلة الحلقات ، فأول هذه القواعد: أنا أفكر ، فأنا موجود ، وهذه القاعدة سرقتها الفيلسوف " ديكارت " من الفيلسوف المسلم " ابن سينا " فعرفت للأول وهي للثاني وقد سبقه إليها بقرون عديدة . وثاني هذه القواعد أنه لا بد لكل حادث من محدث ، فما نحن وما حولنا إلا مخلوقات كانت في طور العدم ، وسنعود للعدم ، ونحن لا نملك لأنفسنا موتاً ولا حياة ولم نكن نعلم متى سنوجد ولن نعلم متى نعود للفناء ، وهذه الدورة الحيوية لم تأت من فراغ ، فقانون الصدفة ضعيف متهاوٍ لا يثبت على حال ، ولا يقول به عاقل . وثالث هذه القواعد : ما له بداية له نهاية . وهذا أمر بدهي ، فنحن نرى نبات الأرض ودولة الليل والنهار والأطوار التي يمر بها الإنسان ولادة وحياة وموتاً ، وما يدعي أحد أنه كان منذ الأزل وأنه باق إلى الأبد

. وهؤلاء آباؤنا وأجدادنا قضوا ونحن على إثرهم راحلون شئنا أم أبينا . وتعال معي نتدبر هذه الآيات

في هذه السورة الكريمة نتابع فيها قدرة الله وبديع صنعه سبحانه

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)

وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧)

إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩)

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)

سماء عالية ،وقبة سامقة لا يحدها النظر فيها شمس وقمر، ونجوم لا يُحصى عددها تبهر الناظرين تسير بنظام محكم وترتيب رائع ، ثم شهب تخر من السماء بسرعة إلى الأرض فلا تؤذي من فيها تمنع الشياطين أن تسترق السمع .

وأرض ممتدة موزونة ، فيها الجبال الشاخحة ، والأنهار المتدفقة ، والبحار الهادرة ، واليابسة الممتدة ، أشجار وزروع ، وخضرة وصفرة ، وترتيب عجيب لصيف وشتاء ، وربيع وخريف ، وثمار تتجدد كل فصل بما يناسبه وكل سنة في الميعاد نفسه ، وحيوانات لخدمة البشر وأكل لحوم بعضها، ومواسم الأمطار ، وتشكل السحب ، والرياح اللواقح ... ألا يدل كل هذا على مدبر الكون وخالقه؟! عجيب أمر البدوي الذي نطق الحكمة فقال : البعرة تدل على البعير، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير، أسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على الحكيم الخبير؟!.

بلى إنه الله الذي لا إله إلا هو ، به آمنة ، وعليه توكلنا ، وإليه أنبنا



تأملات في سورة الحجر (٢)

١ - قد يكون التكريم هبة وتفضلاً وقد يكون ثواباً وجزاءً وقد يكون للأمرين كليهما . وقد الله تعالى أراد للإنسان المسلم المؤمن بشخص آدم عليه السلام أن يكرمه ابتداءً ، فخلقه بيديه سبحانه . وهذا أعظم تكريم للمخلوق أن يصنعه خالقه بيديه ، ولذا وبّخ الله سبحانه إبليس حين امتنع عن السجود لآدم " ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ ؟ أستكبرت أم كنت من العالين ؟ " ٧٥ " ص " فالله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر : متى فرغ من خلقه وتسنوئته ، فليسجدوا له إكراماً وإعظماً واحتراماً وامثالاً لأمر الله عز وجل . فامثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس الذي كان من الجن فخانته طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل فيه وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين ، والنار - بزعمه - خير من الطين " قال: أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين " ٧٦ " ص " وقد أخطأ في ذلك ، وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله عز وجل ، وأزعم أنه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسبه وحضرة قدسه وسماه إبليس إعلماً له بأنه قد أبلس من الرحمة ، وأنزله من السماء مذمومًا مذخورًا إلى الأرض . فليست الكرامة للمادة والجنس أو القوة والغنى ، إنما الكرامة للثقوى والصلاح وفي هذه السورة يستنكر إبليس أن يكون الطين خيراً من النار " قال : أم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون " فلعله الله إلى يوم الدين وأخرجه من رحمته . والعجيب أن بعض البشر يحقرون أباهم آدم ، ويقرّون لعدوهم إبليس بالتقدم والصدارة ، فهذا بشار بن برد " علمانيّ الأمس " يقول بصلافة ووقاحة :

إبليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار

النار معدته وآدم طينة والطين لا يسمو سُمُو النار

والفجور - كما ذكر الشاعر نفسه - خروج على الحق ، ووقاحة في التصرف ، وإصرار على

السفاهة والتفاهة، ومخالفة للحق وأهله. فهنيئاً له انتسابه لإبليس وصحبته إياه .

٢ - يُبرز الحوار الفكرة ممزوجة بالصوت ، فتسمع الكلام ، ويُصوّر الحوار ، فترى شخص

المتكلمين ، أما سماعك لله تعالى ورؤيتك له سبحانه فذلك بقلبك البصير المتعبد له ، وشغاف فؤادك

المتعلق به ، المحب له ، جل في علاه . وأما رؤيتك لإبليس وسماعك إياه فسماع القالي النافر من الكافر المتغطرس الذي دعاه استعلاؤه أن يكون وقود النار وإمام الفجار إليها والعياذ بالله .

فالحوار صوت تسمعه ، وصورة تلازم الصوت ، ونقاش دائر بين طرفين أوّلهما الحق كله ، وثانيهما الباطل كله ، لكنّ الأمر الإلهي كان للملائكة الأبرار الأطهار ، وكان إبليس الجنيّ معهم فشمله الأمر ، وكان عليه الطاعة فأبى الأمر الذي أوردته الخلود في النار والعذاب الشديد .

إن الحوار يثبت المعلومة ، ويوضح الفكرة ، ويستعمل أكثر من حاسة في التعامل مع الفكرة وهضمها .

" - وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين .

- فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين .

- قال : يا إبليس ؛ ما لك ألاّ تكون مع الساجدين ؟

- قال " لم أكن لأسجد لبشر خلقتّه من صلصال من حمأ مسنون .

- قال : فاخرج منها ، فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين .

- قال : ربّ ؛ فأنظريني إلى يوم يُبعثون .

- قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم .

- قال : ربّ بما أغويتني لأزيتنّ لهم في الأرض ، ولأغوينّهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين .

- قال : هذا صراطٌ عليّ مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتّبعك من الغاوين

. وإن جهنّم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم . "

وإني لأتعجب من إبليس الذي عرف أنه أخطأ حين عصى ربه وهو يعلم أنه مخلوق ضعيف عقابه

الخلود في جهنم ، كيف لم يتدارك الأمر ، فيستغفر ربه حال خطئه ويتمرّع في أعتاب سيده يرجوه الصفح

والعفو . كيف - وهو الخاسر نفسه في أتون النيران اللاهبة إلى أبد الأبدين يستمر على خطئه ويُصر عليه ،

ويتحدّى ربه سبحانه في إضلال البشر ودفْعهم معه إلى النار ؟ ما أغناه عن هذا المصير الرهيب الذي ينتظره

ولو أخذ معه البشر كلهم إلى جهنم ! كيف استمر متحدياً ، وطلب أن يبقى إلى اليوم المعلوم ؟ ألم يعلم -

وقد كان طاووس الملائكة - أنه لن ينفعه الخلود في الدنيا من المصير الكئيب الذي ينتظره في ذلك اليوم الطويل وما بعده من هوان وذل وعذاب وقهر؟! أم إن التكبر والتعاضم - مع الغضب - يأخذان باللب ، ويعصفان بالعقل حتى يسقط صاحبهما خزيان مرذولاً؟! فيطلب ما لا فائدة منه ولا طائل من ورائه .

ألم يشعر وهو يعيش آلاف السنين بلظى النيران التي اطلع عليها تحرق جسده بمجرد أن يتذكر ذلك؟ وتأكل قلبه وكأنه واقع فيها قبل أن يصلها؟! ألم يخاطر بباله طيلة هذا الزمن الممتد أن يستغفر ربه؟ أم إن القدر وقع ، ولم يبق أمامه إلا أن يستمر في المهمة التي احتملها؟! !

خواطر قد تتراءى لغيري كما تراءت لي ، ولكنّ مشيئة الله سبحانه نافذة لا مفر منها ، نسأل الله السداد والرضا وحسن الختام .

٣- أما التشويق فأسلوب يدخل الصدور مع النسيم ، والقلوب مع ذرات الأوكسجين ، والعيون مع أول شعاع ضوء ، والأبدان مع أول رعشة من رعشاتها . وهو أسلوب محبب إلى النفوس يحرك الرغائب ، فيمسي الصعب سهلاً ، والعزيز يسيراً .

يشوقنا الله تعالى إلى الجنة مأوى المتقين بعد محاورة صوّرت مصير الفسقة المجرمين في جهنم ذات الأبواب السبعة الموصدة .. فإذا الجنة ذات عيون متفجرة هنا وهناك ، " إن المتقين في جنات وعيون " والمسلمون يدخلونها معززين مكرّمين " ادخلوها بسلام آمين " امتلأت قلوبهم بالحب ، وغاب عنها الحسد والغيرة والنميمة والكذب والشحناء والبغضاء .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةُ تَعْرِضُ لَهُمْ عَيْنَانِ ، فَيُشْرِبُونَ مِنْ إِحْدَى الْعَيْنَيْنِ فَيُذْهِبُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْعَيْنَ الْأُخْرَى فَيَعْتَسِلُونَ فِيهَا فَتُشْرَقُ أَلْوَانُهُمْ ، وَتَصْفُو وَجُوهُهُمْ ، وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ ؛ ..

في الجنة الحبُّ والطهارة والأمن والأمان " ونزعنا ما في صدورهم من غل ، إخواناً على سرر متقابلين " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (عَلَى سُرَّرٍ مُكَلَّلَةٍ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ وَالذُّرِّ) ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض تواصلًا وتحبُّبًا ؛ وتدور الأسرة كيفما شاءوا ، فلا يرى أحدٌ ففًا أحد ، قَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمُ الْأَزْوَاجُ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِنَّ بِالْوَدِّ . " لا يمسه فيها نصب " فلا مشقة في الجنة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم مخاطباً أمنا خديجة رضي الله عنها كما في الصحيحين " إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِنَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا

صَحَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ " " وما هم منها بمخرجين " وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد هذا المعنى " يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَمْرُضُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَطْعَنُوا أَبَدًا " .

٤- الترغيب والترهيب من أعظم اساليب التربية كما ذكرنا سابقاً ، ولا بد من الإعذار والإنذار الذي نجده في قوله تعالى " نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ " والتبليغ واجب الرسل والأنبياء والدعاة كلهم .

ولا يُذكر النبأ دون الخبر إلا للأمر العظيم . وهل أعظم من رحمة الله ومغفرته في مرضاته والعمل بأمره ، والانتفاء عن نواهيهِ؟ وهل أشد من عقابه حين يغضب فيأمر ملائكته بعقاب المجرمين ؟ نسأل الله رضاه والجنة " قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون " وهو نبأ اليوم الآخر والحساب والعقاب ، وكذلك قوله في سورة عمّ " عمّ يتساءلون ؟ عن النبي العظيم الذي هم فيه مختلفون " كما أن نزول الملائكة الكبار على إبراهيم عليه السلام كان نبأ عظيماً ، ثقّد فيه دمار قوم لوط فقتلوا عن بكره أبيهم ، لفحشهم ، وازدياد فسادهم ، والتبجح في ذلك والإعلان به جهاراً نهاراً . فقد جاءه قومه حين رأوا الملائكة صباح الوجوه ، يريدون اللواط بهم . ، فلما حاول منعهم ، وطلب أن لا يفضحوه في ضيفه ، وأن يتقوا الله في أفعالهم كان جوابهم غاية في الوقاحة والفجور : ألم نمنعك أن تُكَلِّمَنَا فِي أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا قَصَدْنَاهُ بِالْفَاحِشَةِ ؟! " أولم ننهك عن العالمين " فلما نبههم إلى نِسَائِهِمْ وَأَنْهَى الطهر والعفاف ، وأرشدهم إلى مَا خَلَقَ لَهُمْ رَبَّهُمْ مِنْ النكاح الْمُبَاحِ - وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ وَمَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَمَا يُصِيبُحُونَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُنتَظَرِ سخروا منه ، ولم يرعوا ، فكان الانتقام منهم رهيباً . ومن يسر على نهجهم ، ويرتكب جنايتهم عوقب عقاباً شديداً ، ودمره الله دماراً كبيراً .

٥- دعوة إلى التفكير قد يرى الإنسان آثار السلف من أحجار وعُمد ومسارح وملاعب ، فيدخلها متمتعاً بما يرى من حضارة سلفت ، يراها بعيني رأسه دون أن يفكر معتبراً بما آلوا إليه من هلاك ودمار . ويمضي مبتهجاً أنه عاش سويعة بين قوم سبقوه بآلاف السنين ، ويرى ذو البصيرة هذه الآثار بعيني قلبه وإيمانه الشفاف ، فيعلم أن القوم كفروا بالله ورسله فأرسل عليهم رسل الهلاك من رياح وأمطار وزلزلة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ففكر الزائر وتدبّر واتعظ مما رأى ذاك مرّ بجسمه ، فكأنه لم يمرّ ، وهذا مر

بإحساسه ويقينه فحمد الله أنه ذاق فعرف . هذا هو المتوسّم الذي يتأمل ويتفرّس فيستفيد ويتعظ ، ويتفكر ويعتبر . ذاك لم يستفد من زيارته هذه ، وهذا رأى بعين عقله وبصر فؤاده " إن في ذلك لآيات للمتوسمين " و " إن في ذلك لآية للمؤمنين " . وقد كان قوم لوط وأصحاب الأيكة من بعدهم - وقد ظلموا أنفسهم ولم يتعضوا بمصائر قوم لوط - قريبين في الزمان والمكان ، وكان العرب من أهل مكة وغيرها يبرون عليهم - على آثارهم - ، فدعاهم القرآن للاعتبار بمصائرهم " وإنها لبسبيل مقيم " و " إنهما لبيمام مبین " وطريق واضح يراه كل مسافر إلى بلاد الشام وعائد منها .

وهؤلاء قوم عاد - أصحاب الحجر - كذبوا رسولهم هوداً عليه السلام ، ومن كذب رسولاً واحداً فقد كذب المرسلين جميعاً " كذب أصحاب الحجر المرسلين " وقد كانوا أقوياء ، فقالوا لنبيهم " من أشد منا قوة " ونسوا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة . وكفروا ، وعتوا عن أمر ربه ، فدمرهم تدميراً " إنا أرسلنا عليهم رجلاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر " واتخذوا من الجبال بيوتاً " ففتحوها " كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين " فهل أغنت عنهم قوتهم التي اعتدوا بها ؟ " فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون "

العاقل من اتعظ بغيره ، والسفيه من اتعظ بنفسه ، والغبي من يعيش عيشة البهائم لا يدري من الأمور شيئاً .

٦- بعض صفات الداعية " في كل سورة نجد صفات للدعاة إلى الله تعالى ، وفي هذه السورة

المباركة نجد روائع منها ، هي :

أ- أن يعفو ويصفح . فهو - الداعية - ذو القلب الكبير الذي يتحمل الغلاظ قساة القلوب ،

أما الحساب ففي اليوم الآخر حيث لا يضيع عند الله مثقال ذرة . " فاسفح الصفح الجميل "

ب- وأن يكون القرآن على لسانه وفي قلبه يعترف منه كل آن وحين " ولقد آتيناك سبعاً من

المثاني والقرآن العظيم " ومن رزقه الله حفظ القرآن وفهمه ، فقد أوتي خيراً كثيراً . روى القرطبي رحمه الله :

أنه وافي سبع قوافل من بصرى وأدرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد ، فيها البر والطيب والجواهر

وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله ، فأنزل الله

تعالى : " ولقد آتيناك سبعاً من المثاني " فهي خير لكم من القوافل السبع ، فلا تمدن أعينكم إليها .

ت - أن يكون واقعياً وأن تكون الآخرة همهم ، إن الدنيا ذاهبة ، والأخرى باقية " لا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم " . وقد تُهي الرجل أن يتمنى ما لصاحبه حسداً لا غبطة . وأن عليه أن يطلب ما عند الله . ولا شك أن الإنسان يجب في الدنيا ما دام فيها أموراً وأشياء على أن لا تكون همّه الذي يحزن إن فاته ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " (حُبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءَ وَالطَّيِّبَ وَجُعِلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) ، وَإِنَّمَا شَرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حَنِيفِيَّةً سَمَّحَةً خَالِصَةً عَنِ الْحَرْجِ ، خَفِيفَةً عَلَى الْآدَمِيِّ ، يأخذ من الآدمية بِشَهَوَاتِهَا وَيَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبِ سَلِيمٍ .

ث - أن يلين جانبه لمن آمن به ويتواضع لهم ، فهم إخوانه وعيئته " واخفض جناحك للمؤمنين " ومن الخطأ أن يتكبر المسلم على الناس جميعاً ، وإخوانه أجدر ببره وتحبه إليهم .

ج - أن يكون صريحاً وجريئاً في الدعوة إلى الله تعالى ، يعلن ذلك على الملأ ويلتزم بما يدعو إليه " وقل إني أنا النذير المبين " والصادق في دعوته من قرن القول بالعمل . وكان مثلاً يُحتذى . ويؤكد هذا الآية الكريمة " فاصدع بما تؤمر " .

ح - إن ضيق الصدر ينتج عن إعراض المدعو عن الداعي والدعوة ، فيتكاسل الداعية ، ويقصر عن القيام بها ، فإذا أحس بذلك لجأ إلى تسبيح الله واللجوء إليه والاجتهاد في الطاعة ، فيفرج الله عنه ضيقه ، ويمدّه بشحنة قوية تعينه على الاستمرار في مهمته الدعوية " ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك ، ومن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين . "

٧ - يعتقد بعض المنحرفين أنهم إذ عبدوا الله وتلذذوا بعبادته ووصلوا إلى اليقين والإيمان سقط عنهم التكليف . ويستشهدون بقوله تعالى " واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " هؤلاء استحوذ عليهم الشيطان ووثقهم بجائله ، فأنساهم ذكر الله . واليقين هنا الموت . والدليل عليه قول الله تعالى في سورة الميتر: " قالوا ما سلككم في سقر؟ قالوا : لم نكُ من المصلين ، ولم نكُ نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حُمُرٌ مستنفرة ، فرّت من قسورة؟ " ولو أن اليقين الذي قصدوه هو الذي أتاهم لنفعتهم شفاعة الشافعين !! ثم إن قدوتنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول " وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " .

وهل يرضى المؤمن أن يترك الصلاة وهي دليل صلته بالله تعالى ، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام ، والفيصل بين المسلم وغيره .

نسأل الله تعالى الإيمان الخالص والثبات عليه ، وصحبة الأبرار ، ورضاه والجنة .



تأملات تربوية في سورة الكهف

مقدمة:

تقوم سورة الكهف على أربعة محاور :

المحور الأول : الإيمان ، ويمثله قصة أهل الكهف الذين هجروا الدنيا ملاً وجاهاً على ان يكونوا من أهل الآخرة ابتداءً وانتهاءً ، فالمرء يبتغي من عمله وهو يعيش الدنيا الوصول إلى الحياة الدائمة ، فهي الحياة الحقيقية التي يجعلها الإنسان نصب عينيه ، حيث لا موت بل خلود في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

المحور الثاني: المال، ويمثله قصة صاحب الجنة ، الذي بذل جهده في زراعتها والاعتناء بهما ، ففتنه الله تعالى بهما إذ أنكر وجود الخالق والآخرة والجنة ، فعاش للدنيا الفانية وعدّها الهدف والغاية .

المحور الثالث: العلم ، ويظن المرء حين يملك أسباب العلم أنه بزّ الجميع ، فما من أحد أكثر منه علماً ، وقد ينسى الآية الكريمة " وفوق كل ذي علم عليمٌ " فيدّعي أنه ملك - مع ناصية العلم- كلّ العلوم، ورأى نفسه فوق الجميع فهماً وعلماً ، مع أن النبيين الكريمين داوود وابنه سليمان عليهما السلام أوتيا بعض العلم - وإن كان كثيراً - فأقرا أنّهما أوتياه بقدر - وهذا ما نفهمه من تنكير : علم حين شكرا فضل الله عليهما " ولقد آتينا داود وسليمان علماً .. " فكانت قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام مثال هذا المحور.

المحور الرابع : القوة، ويمثله ذو القرنين الذي طوى الله تعالى له الأرض شرقاً وغرباً وملكه العالم فكان داعية رائعاً ، ولم تجعله القوة (طاغية) فاسداً إنما كان الرجل المؤمن الذي يبذل قصارى جهده لدعوة الناس إلى ربهم وخدمتهم والتقرب إليهم. وهكذا ينبغي أن يكون الحاكم المسلم .

المحور الأول: تأملات تربوية في قصة أهل الكهف

المتأمل في سؤق القصة يجدها جواباً لما ذكر في افتتاحية السورة ودليلاً على صحته وإمكان حدوثة .
ففي المقدمة أولاً: تنبيهه إلى العقاب الشديد للكافرين " لينذر بأساً شديداً من لدنه " وفيها ثانياً : مدح
وبشرى لمن آمن وعمل صالحاً " ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً " . وفيها ثالثاً
: أن الحياة دار ابتلاء : " إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً " وفيها رابعاً: أنه
سبحانه يعيد الأرض كما كانت لا نبات فيها ولا عمارة : " وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً " .
وجاءت القصة تحمل في حناياها آداباً تربوية رائعة بحملها فيما يلي :

١- ليس في قصة أصحاب الكهف عجب ، فقدرة الله تعالى لا حدود لها ، وخلق السماوات
والأرض أكبر من خلق الناس . ولئن عجب الكفار من بعثهم بعد الموت إن الأنبياء وأولي البصائر
يدركون قدرة الله عز وجل ، فيزيدهم ذلك إيماناً " أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من
آياتنا عجباً ؟ "

٢- اللجوء إلى الله تعالى سمة المؤمن ، فهو سبحانه عونهُ ونصيره " ربنا آتنا من لدنك رحمة
وهيئ لنا من أمرنا رشداً " فلما لجؤوا إليه داعين ، وأسلموا قيادهم له سبحانه واعتمدوا عليه آواهم الله
وحفظهم إذ دهم على الكهف ، وأغدق عليهم مما طلبوا من الرحمة والهدى والرشاد " فأووا إلى الكهف
ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً " ولا حظ معي التوافق بين الإيواء إلى الله
سبحانه ونشر الرحمة . وهكذا العلاقة بين العبد وربهِ . ومن لجأ إلى ربه واعتمد عليه ثبته الله وأيده "
وربطنا على قلوبهم " .

حين أوى الفتية إلى الكهف ، لم يسألوا الله النصر ولا الظفر ولا التمكين !..

قالوا : (ربنا آتنا من لدنك رحمة و هيئ لنا من أمرنا رشدا) سألوهُ الرحمة والرشد.

الرشد : إصابة وجه الحقيقة - وهو السداد . . وهو السير في الإتجاه الصحيح .. ،

فإذا ملكت الرشد ، فقد ملكت النصر ولو بعد حين، و بهذا يوصيك الله فتقول (و قل عسى

أن يهديني ربِّي لأقرب من هذا رشدا) . .

إنك تختصر المراحل . . و تختزل الكثير من المعاناة . .

وتعاضم لك النتائج حين يكون الله لك (وليا مرشدا) . .

٣- القصة في القرآن حق لا مرء فيه " نحن نقص عليك نبأهم بالحق " وقد ادعى طه حسين أن قصة إبراهيم وغيرها في القرآن ليست على سبيل الحقيقة إنما على سبيل العبرة والعظة فقط . وهو بذلك ينفي حقائق التنزيل " نحن نقص عليك أحسن القصص " وأحسن القصص ما كان حقيقة . وعلى هذا نفهم قوله تعالى " إن هذا هو القصص الحق " فما ورد في القرآن الكريم حق لا مرء فيه .

٤- للشباب الدور الكبير في نشر الدعوة والذود عنها . فإيمان الشباب اندفاعي قوي " إنهم فتية آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى " ويصدعون بالحق " إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض " ويعلمون دعوة التوحيد بثبات " لن ندعو من دونه إلهاً " من أشرك فقد تطاول على الحق وابتعد عنه " لقد قلنا إذا شططاً " . وهنا نلاحظ في كلمة الشطط التشنيع على المتطاولين الذين يغيرون الحقائق وينشرون الباطل .

٥- لا بد لكل فكرة أو مبدأ من دليل أو برهان وإلا سقط في أول لقاء " لولا يأتون عليهم بسطان بين " وإذا لم يكن هناك حجة قوية أو دليل ساطع فهو ضعيف ، ولن تقنع أحداً بفكرتك إن لم تؤيدها بالنور الساطع الذي يكشف الغشاوة عن العيون وينير سبيل الحق . أما فرض الفكرة بالقوة والإرهاب المادي فدليل على الإفلاس وضحالة ما تدعو إليه ويُعدّ افتئاتاً على الحق وظلماً له " فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً " فالميل عن الحق افتراء على الله وتضليل للناس .

٦- يعلمنا الله تعالى بقوله : " فأووا إلى الكهف " اعتزال الناس في الفتن ، وقد يكون مرة في الجبال والشعاب ، ومرة في السواحل والرباط ، ومرة في البيوت وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يأتي على الناس زمان يكون خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن " ... ولعل هذا يكون في آخر الزمان عند مجيء المسيح الدجال ، أو عندما تشتد الفتن وتطغى . وقد جاء في الخبر : " إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفَّ لسانك " ولم يخص موضعاً . . ومن هذا نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم لعقبة بن عامر حين سأله : ما النجاة يا رسول الله ؟ " يا عقبة أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك "

وقد جعلت طائفة العلماء العزلة اعتزالاً الشر وأهله بقلبك وعملك إن كنت بين أظهر الناس . قال ابن المبارك رحمه الله في تفسير العزلة : أن تكون مع القوم ، فإن خاضوا في ذكر الله فحض معهم ، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت . وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام - من مراسيل الحسن - " نعم صوامع المؤمنين بيوتهم " اي وهم في مجتمعهم يدعونهم ويتعرضون إليهم بالنصح والموعظة ، فإن اشتدوا عليهم أووا إلى بيوتهم ، ثم عاودوا الكرّة . ويؤكد هذه الفكرة قول النبي صلى الله عليه وسلم : " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم .

٧- لا بد من الجهر بالدعوة بين الناس لتصل إليهم ، وتكون حجة عليهم . ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الواضحة البينة ، ولنا بمؤلاء الفتية الأطهار القدوة الحسنة ، فحين سألو الله القوة أمدهم بها " وربطنا على قلوبهم " فثبتهم على الحق فقاموا يدعون إليه سبحانه فأعلنوا عقيدة التوحيد خالصة دون لبس ولا خوف " .. إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض ، لن ندعو من دونه إلهاً .. " . فكانوا قدوة للدعاة يأتسونهم .. قالوها ، فخلداهم الله في كتابه الكريم إلى يوم القيامة .

٨- كما أن مقامهم في الكهف أكثر من ثلاثة قرون ، تميل الشمس عنهم حين طلوعها - ولا حظ كلمة تزاور الدالة على قدرة الله في حركة مخلوقاته - وانظر كلمة تقرضهم عند غروبها فلا تصيبهم البتة في حركتها بزوغاً وغروباً وقد قيل : تقرضهم : تنشر عليهم شعاعاً خفيفاً لإصلاح أجسادهم ، وهم في فجوة من الكهف لا يتأذون بقر ولا حرّ عيونهم مفتحة ، " و تحسبهم أيقاظاً وهم رقود " يحركهم الله تعالى كي لا تأكل الأرض أجسادهم " ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال " يحرسهم كلبهم في مدخل الباب ماداً قائمته كأنه حي متوثب " وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد " ... تصوير بديع لهم في رقدتهم الطويلة هذه التي توهم من يراهم أنهم أحياء .. مع إدخال الهيبة في قلوب من اطع عليهم - إن اطع - أن يتجاوزهم مبتعداً عنهم . مقامهم هذا دليل على قدرة الله تعالى في إماتتهم وحفظهم من التلف ، وإخافة من ينظر إليهم ، ثم على بعثهم .. فسبحان الله مالك الملك ، المتصرف في مخلوقاته كما يشاء .

٩- الحذر في كل حالات الحياة - حلوها ومرها ، أمنها وخوفها - مطلوب ، فالتخفي والكتمان والتلميح من أنواع الحذر . فماذا فعل الفتیان حين أحياهم الله تعالى ؟ شعروا بالجوع .. فقد استيقظوا بعد ساعات طويلة استغرقت يوماً أو بعض يوم - كما ظنوا - والطعام والشراب وسيلة الحياة . والعدو الذي

هربوا منه يطلبهم ويرسل العيون والجند بحثاً عنهم . فينبغي الحذر في التحرك . ماذا يفعلون ؟
- أرسلوا واحداً فقط يشتري لهم طعاماً فالواحد أقدر على التخفي ولا ينتبه له أحد . وهروبه أسهل
إذا شعرت به عيون العدو وإذا وقع في أيدي الظلمة فهو فدائي واحد ، ولن تسقط المجموعة كلها .
- وأمروه باللطف في الشراء واللين في الطلب ، وليتكلم المختصر المفيد .
- وليكن تصرفه حكيماً وحركاته بعيدة عن الريبة لكي لا ينطبق عليه المثل القائل " كاد المريب أن
يقول خذوني " .

- وليختار أطيب الطعام وأزكاه ، فالطعام الطيب الحلال أنفع للجسم ، وأرفع للروح .
صحيح أن الحذر لا ينجي من القدر لكن على الإنسان أن يأخذ بالأسباب ، ويعد للأمر عدته كي
لا يُؤخذ على غرة ، فالعدو الذي لا يخاف الله تعالى لا يرحم " إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم
في ملتهم " ألم يعلن كبير المجرمين فرعون رغبته في قتل النبي موسى عليه السلام ؟ " ذروني أقتل موسى .. " .
مدعياً أنه بذلك يقضي على الفتنة ويحفظ الناس من الفساد؟! " إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر
في الأرض الفساد "؟! . وقد دمغهم الله تعالى بالعدوان وكره المؤمنين ونقض العهود " لا يقبون في مؤمن
إلاً ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون " وإذا قتل المسلم في سبيل الله فقد نال الشهادة ، أما إذا كان إيمانه
ضعيفاً فلم يحتمل العذاب وكفر بدينه لينجو منه فقد خاب وخسر " .. أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا
إذاً أبداً " .

١٠- لا ينبغي أن نمر على قصص القرآن مروراً سريعاً إنما يجب التفكير والتدبر للعظة والعبرة
واستخلاص الدروس ، فتكون نبراساً نسير على هديه ونستضيء بنوره ، وإلاً كنا كمثل الحمار يحمل
أسفاراً . قال المفسرون : إن الملك الذي هرب الفتيان من ظلمه وبطشه مات ، ومات الكفر معه . وانتشر
الإسلام في البلاد ، واختلف المؤمنون في طريقة البعث والنشور . فمن قائل تحشر الأرواح فقط ، ومن قائل
يحشر الناس بأرواحهم وأجسادهم . فكان عثورهم على الفتية دليلاً على حشر الناس بأجسادهم وأرواحهم
كما كانوا في الدنيا ، فالله قادر على كل شيء . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كان بعث هؤلاء الفتية
دليلاً باهراً على أن يوم القيامة حقيقة لا شك فيها " وكذلك أعتزنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن
الساعة لا ريب فيها " .

١١- المرء في أمر لا فائدة فيه لا حاجة إليه . وقتك أيها المسلم ثمين ، وحديثك موزون ، ولن يزيدك علماً وفهماً أن تخوض فيما لا طائل له ، .. فماذا يزيدك لو عرفت عدد الفتية ؟ أو أسماءهم ، أو أعمارهم ؟ أو أعمالهم؟ .. الفائدة المرجوة تجدها في أفعالهم وثباتهم على المبدأ وفرارهم بدينهم يحافظون عليه . وحذرهم في تصرفاتهم ، وأخوتهم في الله تعالى ...

١٢- أمر أخير ينبغي الوقوف عنده ، هو تعليق الأمر بمشيئة الله " ولا تقولن لشيء : إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله " فقد عاتب الله تعالى نبيه الكريم على قوله للكفار حين سأله عن الفتية والروح وذوي القرنين : غداً أخبركم بجواب أسئلتكم . ولم يستثن في ذلك ، فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به . فنزلت عليه هذه السورة مفرجة ، وأمر في هذه الآية أن لا يقول في أمر من الأمور : إني أفعل غداً كذا وكذا إلا أن يعلق الأمر بمشيئة الله تعالى .



المحور الثاني : تأملات تربوية في (صاحب الجنتين)

كيف بدأ الحوار بين المسلم وصاحب الجنتين ، وماذا كانت النتيجة؟ إنه موقف تربوي رائع يعلمنا الوقوف على الحق والتزامه وإن جاء الموقف متأخراً ، كل خطأ يمكن تلافيه ما لم نغرغر .

١- ضرب المثل: إن ضرب المثل كما مر معنا في وقفات كثيرة يُجَلِّي الموقف ويوضح الفكرة

ويقرِّبها إلى الأذهان ، وكان ضرب المثل هنا توضيحاً لمعنى الآيات التي سبقت القصة :

فلا بد من مصاحبة المؤمن الذي يدعو ربه في كل حالاته وكل وقته (يدعوون ربهم بالغداة والعشي)، فهو - سبحانه - نصب أعينهم وقلوبهم معه يرجون لقاءه ويسعون إلى مرضاته ، لا يعيرون الحياة الدنيا ولا زينتها اهتماماً ، ولا يأبجون للمتاع الدنيوي ، همُّهم الآخرة والوصول إليها ، ويعلمون ان الحق من ربهم فيلتزمونه يرجون رحمته ويخافون عذابه فهم بين رجاء وخوف ، يعلمون أن من ظلم وكفر أحاطت به النار فلا مهرب منها ومن آمن وعمل صالحاً كان من الفائزين الناجين

٢- وضوح التصوير ودقته: فللكافر جنتان كاملتان في توزيع الشجر والأعناب والزرع ، وثمارها

كثيرة يانعة :

أ- فيهما أنواع الاعناب من كرز وعنب وخوخ و..

ب- حولهما سور من النخيل المغدق الثمر يحميها من الهواء والأتربة ويلطف حرارتها.

ت- بين الأعناب والنخيل أنواع الزرع ذات المحصول الوافر.

ث- استفاد صاحبهما من كل شبر فيهما فاستثمره واستفاد منه.

ج- أغدقتا ثمارهما فكثر في كل أيام السنة .

ح- وتفجر خلالهما نهر يتلوى في أنحائها يمينا ويسرة ، وشمالاً وجنوباً .

إنها صورة واضحة ودقيقة المعالم لهاتين الجنتين اللتين اتسمتا بكثرة خيرهما ، فهل حمد الرجل ربه وشكره

أو تراه كفره وأنكره؟! وهل أحسن للناس فأكرمهم وتواضع لهم ، أو تراه تكبر وافتخر ، وتعالى وتجبر؟!!

٣- الحوار : أسلوب اتصال يجمع بين المراجعة والنقاش للوصول إلى الحقيقة أو الأكثر صواباً ،

وقد يكون بين مختلفين فكراً ومنهجاً وأسلوباً ، أو بين متفقين فكراً ومختلفين منهجاً وأسلوباً ، أو بين

متفقين فكراً ومنهجاً وختلفين أسلوباً . أما هنا فالاختلاف في كل النواحي فهو حوار بين كفر وإيمان ، فلا بد من تباين المنهج والأسلوب كذلك.

والحوار يعتمد السماع والرؤية ، وله جمهور يتابع طرقي الحوار ويميل إلى هذا أو ذاك حسب الاهتمامات المتعددة والمشارب المختلفة .

والحوار هنا بين صاحب الجنة الكافر الذي ظلم نفسه بالكفر وتناسى فضل الله عليه وأنكره، وتمادى في التكبر على صاحبه ولم يُراعِ حسن الضيافة وأنكر البعث والنشور واستبعد هلاك نعيم جنتيه اللتين بذل فيهما جهده لتكونا على ما هما عليه ومن خير وفيه وجمال أخاذ.

الكافر يستبعد فناء الجنتين وينكر يوم القيامة ثم يقيس - خطأً - غناه في الدنيا بوجوب إكرامه في الآخرة - إن كان هناك آخرة، حسب زعمه - فهو يعتقد أن الغني يبقى على كل أحواله هكذا وأن سعيد الدنيا لا بد أن يكون سعيداً في كل أحواله!.

ونرى المسلم يجب بقوة وفهم لمعاني الحياة :

أ- لا وجود إلا بواجد، ويذكر القاعدة الأصلية (لا بد لكل حادث من مُحدث).

ب- إن الكفر بالخالق إغلاق للفهم وعودة للبهيمية الأولى.

ت- إن العاقل يفكر تفكيراً سليماً فيصل إلى حقيقة الوجود ويعلم حق ربه في العبادة.

ث- والعاقل من يشكر المحسن إليه ويقر بفضله.

ج- والمسلم العاقل يعلن بإصرار وإيمان ثابت ولاءه لله تعالى وأنه عبد من عباده.

ح- والعاقل - كذلك - لا ييطر ، فالبطر ظلم الحق وحيّدة عن السبيل.

خ- من بارى الله تعالى وحاربه خسر وخاب وندم حيث لا ينفع الندم.

د- ومن لجأ إلى مولاه كفاه وأكرمه .

ذ- ولا بد أن يُعاقب الجاحد إن عاجلاً أو آجلاً.

ر- يدعو على الظالم - إن أصر على فساده، والدعاء سلاح المؤمن

٤- حسن الأدب: من الأدب أن يتواضع الرجل لضيفه ويظهر له الاحترام ويقدمه على نفسه

في الفضل ما دام عنده وأن يكلمه بلباقة ويتودد إليه ، هذا أقل ما يُقال في حسن الأدب ،

لكننا نرى صاحب الجنتين يفجأ صاحبه وهما يدخلان الجنتين _ بالتعالي عليه والفخر بماله وكثرة أتباعه : " أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً " وليست وفرة المال ولا كثرة الاتباع برفع أحداً مكانةً ، ولا معزاً قدرأ ، وهذا ما نعه القرآن على هؤلاء حين قال في سورة الفجر " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمَن ! وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانَن " فيأتي الجواب مصححاً " كلاً.. فلا يكون هذا ولا ذاك ، إن الذي يرفع المرء ويخفضه أخلاقه ليس غير. _ فهي المعيار الحقيقي في حياة الفرد والأمم.

ويزداد سوء أده حين يخالف قاعدة الحياة التي قُرِّرت منذ الأزل: (ما له بداية له نهاية) فما دام صاحب الجنتين أنشأهما واعتنى بهما، فقد بدأتا في زمن محدد ، ولسوف تنتهيان في أمد محدد، فلا ينبغي للعاقل أن يخالف الحقيقة ويدعي بلاهة ما لا يمكن أن يكون.

٥- الدعاء مخ العبادة: ، يطلب المسلم من الله ما يريد ، فهو يعلم أن حياته ورزقه بيده سبحانه، فيسأله كل شيء حتى ملح الطعام ، (إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله) وتستفيض النفس المظلومة حين ترى المتكبر يتناول على خالقه فتدعو ملك الملوك أن يحق الحق ويطل الباطل ، ويرجو المسلم ربه أن يعاقب المفترى وأن يرزقه - هو - خيراً مما أعطي للكافر .. ويستجيب الله له فتنتهي القصة في لحظات يسيرة.. تهب ريح عاصفة تدمر كل شيء بإذن ربها ، فلا زرع ولا نخيل ولا أعناب .. ولا أوراق ، تغير المكان فصار أجذب قاحلاً ، وغاض الماء ، فلا نهر ولا حياة!.

٦- هل ينفع الندم: كَفَرَ بالله فعوقب في الدنيا بما لم يتوقعه ،ومن يستطيع محاربة السيد المطلق؟! ، (اعلم أن الأمة جميعاً لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، ضاع كل شيء في لمح البصر ، وهو الآن يتقلب على جمر الغضا ، ما أراد الله لا بد أن يكون. ومن حسن حظه أنه عوقب في الدنيا ، وما يزال حيّاً ، ولعله يتوب إلى الله ويستغفره ، إنه لم يغادر الدنيا ، فما زال في الوقت متسع ، ..أجل لقد قالها: " ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً " وتصور معي موقفه الحزين وهو يقولها ويقلب كفاً على كف حسرة وألماً على ما أنفق فيها فضاع كل شيء بلمحة عين .. لكنه إذ يقر بخطئه ويمأ الأسى قلبه يقول يا (ليتني) ولم تنفع (ليث) ولن تنفع ،

وسينفع (عسى) المستقبلية فمن تاب إلى الله واستغفره وأناب إليه غفر الله تعالى له ما مضى ، فليبدأ
من جديد



المحور الثالث: تأملات تربوية في قصة موسى والرجل الصالح

- القصة هذه من بدايتها إلى نهايتها نبع ثرٌّ من المعاني التربوية القرآنية الرائعة . في كل كلمة منحى بديعٌ ولفته راقية . فهلم إليها من بدايتها :
- " وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقباً " إن لموسى عليه السلام هدفاً محدداً يسعى لتحقيقه ..
- أ. يريد أن يلقي معلماً يتعلم منه صلاح أمره في دنياه وآخرته .
- ب. في مكان محدد يلتقيان فيه .
- ج. في وقت ينتظره المعلم فيه .
- وعلى التلميذ أن يسعى إلى العلم لا أن يسعى المعلم إليه فهذا أكرم للعلم والمعلم والمتعلم فالعلم إن جاء سهل المتناول زهد المتعلم فيه . وأعظم للمعلم في عين المتعلم أن يسعى الأخير إلى الأول ليعرف قدره وقدر ما يحمله ، فيتعلق بهما .
- ونرى الإصرار العجيب على لقاء المعلم والنهل من علمه في قوله : " لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقباً " فهو مصمم على بذل الجهد ليصل إلى مبتغاه - لقاء الأستاذ في المكان المنشود - ولو امضى عمره يبحث عنه " أو امضي حقباً " والحقبة أربعون سنة كما قال العلماء ، فما بالك بذكر الجمع " حقباً "؟! . إنه دليل على الهمة العالية والسعي الحثيث إلى العلم والعلماء . وما يزال العلم بخير مادام طالبوه يطلبونه في مجالسه ويوقرون حامله . ألم يرد في الأثر : " نعم الأمراء على أبواب العلماء ، وبئس العلماء على أبواب الأمراء " ؟ ... وهذا نبي كريم موسى عليه السلام على جلال قدره وعلو مكانته يسعى إلى الرجل الصالح حين علم أن لديه علماً يُستفاد لم يحزه موسى " وفوق كل ذي علم عليم " .
- مصاحبة الكبير الصغير فائدة لكليهما فالأول يشرف على تربيته ، ويعلمه الحياة ، ويصوب أخطائه ، ويسدد خطاه . والثاني يخدمه ، ويعينه على قضاء حوائجه . وقد أفلح موسى في تربية الفتى " يوشع بن نون " عليه السلام إذ بعثه الله تعالى نبياً، فقاد مسيرة المؤمنين وحمل لواء الدعوة بعد أستاذه ، وفتح الله على يديه القدس الشريف .

- " فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوثهما ، فاتخذ سبيله في البحر سرباً " وكلمة " مجمع بينهما " حار فيه كثير من المفسرين فمنهم من جعله الأرض الشاسعة بين بحر قزوين وخليج فارس !، ومنهم من قال : إنه بين خليج الإسكندرون وبحر إيجه ! ومنهم من ذكر أنها الأرض بين بحر غزة وخليج العقبة ! وقد ظنوا بكلمة " البحرين " المياه المالحة ، فتأهوا في أقوالهم ... إنه ليس من الممكن أن يلتقي أحد بمن يريد على مساحات ضخمة شاسعة تبلغ آلاف الكيلومترات تضيع فيها الجيوش والأمم !! وهل من المعقول أن يُضربَ موعدٌ لرجلين في صحراء سيناء الواسعة الشاسعة ، أو أن يشد موسى الرحال إلى إيران ، أو آسيا الوسطى وهو في فلسطين؟! وقد غاب عن كثير منهم أن البحر يطلق على الماء المالح والماء الحلو في قوله تعالى : " وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج " والنهر يصب في البحر ، فهو جمعهما . أي : في قطعة من الأرض لا تتجاوز عشرات الأمتار، قريبة من مقام موسى عليه السلام يقطعها إن جدَّ السيرَ بساعات قليلة أو ببعض يوم . وسياق الحديث يدل على ذلك . وهل يجوز لموسى أن يدع قومه اليهود أياماً وشهوراً وهم على ما هم عليه من ضعف الإيمان وشوائب العقيدة ، ويلتقي رجلاً مدة ليست باليسيرة ، قد تطول أياماً وشهوراً أيضاً فيعود ليجدهم قد تأهوا في الضلالة وهو العالم بشؤونهم الحريص على هدايتهم!؟

- الإنسان ضعيف على الرغم من جلده في كثير من أموره ، ولو كان من أولي العزم . وأول دليل على ذلك أنّ موسى أصر على لقاء الرجل ولو طوى الأرض في سبيل هذا الهدف . لكنه إذ شعر بالجوع بعد السير الطويل واجتياز مكان اللقاء دون أن ينتبها إليه قال لفتاه " آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً " وكان غداؤه السمكة المشوية التي تحركت بعد أن عادت إليها الروح بإذن الله تعالى حين استلقى نائماً على الصخرة التي كان من المفروض أن يلتقي صاحبه عليها وغابت في شقوقها عائدة إلى الماء بقدرة خالقها وبارئها الذي يعيد الخلق كما بدأه وقتما يشاء . والدليل الثاني أن النسيان ضعف يضيّع على الإنسان كثيراً مما خطط ودبر . فقد نام موسى على الصخرة حين سرب الحوت إلى الماء ولم يكن الفتى نائماً فرأى بأم عينه الأمر الغريب ، ولم يشأ أن يوقظ نبيه الكريم احتراماً وتقديراً ولسوف يخبره حين يستيقظ.

- ولا بد أن نشير هنا إلى الأدب الذي ربّي عليه الصغير في التعامل مع الكبير، وإلى آفة النسيان

التي ابتلي بها الإنسان للدلالة على ضعفه . فلما استيقظ موسى عليه السلام وسارا بحثاً عن الرجل الصالح نسي الفتى قصة السمكة على غرابتها وعجيب أمرها .

- ومن الأدب أيضاً مع الله تعالى أن نسب الفتى نسيانه أمر السمكة إلى الشيطان ، واعتبر هذا النسيان عيباً. والعيب كله في الشيطان عدو الإنسان . مع أن الله تعالى كان أخبر نبيه موسى أنه سيلقى الرجل الصالح في المكان الذي يفقد فيه الحوت . فهو أمر مخطّط له كي يحدد المكان فلا يخطئه .

- والحقيقة أن موسى وفتاه نسيا المكان وسارا لأتهما لم يقولوا " إن شاء الله " فيما عزموا عليه ، فموسى أخبر فتاه عن عزمه على بلوغ مجمع البحرين دون أن يربط ذلك بمشيئة الله تعالى ، وكذلك فعل فتاه فدججهما الله تعالى بذكرهما في النسيان " نسيا حوتهما ... " وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله عن الروح والفتية - أصحاب الكهف - وذي القرنين إنه سيعطيهم الجواب غداً دون أن يربط ذلك بمشيئة الله فتأخر الجواب خمسة عشر يوماً ثم نزل عليه قوله تعالى : " ولا تقولنّ لشيء : إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله " وأمره أن يذكر الله تعالى ، فقال: " واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً " .

- ومن الأدب التربوي في هذه القصة كذلك أن موسى حين علم بخطئه وخطأ فتاه لم يشغل نفسه بلوم نفسه أو لوم صاحبه فهناك أمر مهم جداً عليهما تداركه قبل فواته . إنه لقاء الرجل المعلم . فماذا فعلا ؟ إنهما

أ - عادا سريعاً لم يضيعا الوقت ، والدليل على ذلك قوله تعالى : " فارتدا ... " وهذه الكلمة مع الفاء - حرف العطف والترتيب والتعقيب - تدلان على سرعة الحركة والعزم على الوصول بقوة إلى الهدف.

ب- عادا من حيث جاءا ، يستهديان بآثار الخطوات التي مشياها كي لا ينحرفا عن الصخرة " ... على آثارهما قصصاً ... " .

ج - فكان عاقبة سرعتهمما وجدهما أن وصلا إلى الهدف فوراً " فوجدا عبداً من عبادنا ... " .

- بعض صفات المعلم الرياني :

أ - هو عبد من عباد الله تعالى ، والعبودية لله أعلى مراتب الإنسانية ، لأن صلة العبد بربه

تسمو به، وتفتح له مغاليق الأمور . وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل الصالح هو الخضر ، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهنز تحته خضراء " هذا حديث صحيح غريب ، والفروة هنا وجه الأرض قيل : إنه عبد صالح غير نبي ، والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى . والإنسان يتعلم عادة ممن فوقه ، ولا يتعلم نبي إلا من نبي ، ولا يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي . وقيل غير ذلك ، ولا يهمنا هذا الأمر بشيء ، وذكرناه للعلم به فقط .

ب- " آتيناه رحمة من عندنا " قيل هي النبوة . وقيل النعمة أيضاً . فهو رحيم . والمعلم الرحيم بتلاميذه يعمل على تعليمهم برفق ، ويتقرب إليهم ، ويتحجب إليهم ليأنسوا إليه فيحبوه ويأخذوا عنه علمه .

ج- كان علم موسى بظواهر الأحكام ، وعلم الخضر معرفة بواطنها . كما أن العلم اللدني من الله مباشرة ، ليس لأحد من البشر فضل تعليمه .

- من أدب التعلم :

أ- التلطف في الطلب ، فلم يفرض موسى عليه السلام نفسه على الخضر عليه السلام على الرغم أن الله تعالى أخبر الخضر بلقائه ليتعلم منه . إنما تلطف في عرضه بصيغة الاستفهام التي تترك مجالاً للمسؤول أن يتصل إن أراد . وحين لقي سيدنا موسى عليه السلام الرجل الصالح ، لم يطلب منه إلا أمراً واحداً : (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) رشداً!.. ليس غير فإذا هيأ الله تعالى لك أسباب الرشد ، فقد هيأ لك كل الأسباب

ب- جعل نفسه تابِعاً حين سأله " هل أتبعك .. " فالتلميذ تابعٌ أستاذه مسلماً إليه قياده، وهذا أدعى إلى التناغم بينهما .

ت- العلم يرفع صاحبه . وهذا ما أقرّ به موسى للخضر حين عرض عليه أن يتابعه شرط أن يعلمه " على أن تعلمن .. " وهذه التبعية ترفع المتعلم . أما التبعية من ذل أو لعاعة من دنيا يصيبها فسقوط للمتبع ، وكبر للتابع .

ث- الواقعية في الطلب : فهو لم يطلب منه أن يعلمه كل شيء ، إنما طلب أن يعلمه شيئاً مما

علمه الله تعالى : " ... مما عُلِّمَتْ .. " وهذا تواضع في الطلب فهو عليه السلام لم يكلف أستاذه شططاً ... لقد طلب العلم المفيد الذي تسمح به نفس معلمه .

ج- طلب النفيس من العلم : فالله تعالى علم الخضر علماً لدنياً نفيساً يريد موسى بعضه ، ولم يطلب العلم الدنيوي ، وإن كان مفيداً إنما طلب الهدى والرشاد الذي يبلغه المقام الأعلى في الدنيا والآخرة ، وحدد نوع العلم فقال : " مما علمت رشداً " وضد الرشد الهوى والضلال ، وهذا ما لا نريده .
ح- قوله تعالى " مما عُلِّمَتْ رشداً " تذكير للمعلم أن الله تعالى أنعم عليه بالرشاد والهدى والسداد . ومن شُكِّرِ النعم أن يعلّم عبادة الله بعضاً مما أكرمه الله به ، فتزداد حظوته عند خالقه ، ويزيده علماً . ومن دل على خير كان له مثل أجر فاعله .

- وقد يشترط المعلم على تلميذه أن لا يستعجل في السؤال عن أمر من الأمور إلى أن يحين الوقت المناسب لشرحه " قال : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً " . فقد لا يرغب بالتوضيح حتى يستكمل الأمر . وقد يرى المعلم اختبار تلميذه في الصبر . وقد يكون المعلم نفسه قليل الكلام . وقد يكون ممن يعتمدون في التعليم على الملاحظة ... ولكل شيخ طريقته ، إن جاريته فيها تعلمت منه ، وإن خالفته فارقك وفارقته .

- لا بد أن يخطئ الإنسان فقد خلق من عَجَل ، أي من النقصان فوجب أن يترك له فسحة يستدرك فيها خطأه فقد اتفق النبيان في صحبتتهما على أن يرى موسى عليه السلام ما يجري دون أن يتدخل مستنكراً أو معلقاً على ما يراه إلى أن يرى الأستاذ رأيه في توضيح بعض الأمور . لكن التلميذ لم يستطع أن يفى بالوعد ، فعلم الشريعة غير العلم اللدني فقال في الأولى " لقد جئت شيئاً إمرأاً " وشدد النكير في الثانية حين قال : " لقد جئت شيئاً نكراً " وقال في الثالثة معترضاً ومقترحاً " لو شئت لاتخذت عليه أجراً " .

ونبهه أستاذه في الأولى " ألم أقل : إنك لن تستطيع عليه صبراً ؟ " وعاتبه في الثانية بزيادة " لك " في قوله : " ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ " وأعلن في الثانية أن الفرصة الممنوحة انتهت فلا بد من الفراق لأنه استنفدها " هذا فراق بيني وبينك " . ولكنه لم يشأ أن يتركه مجهل أسباب الحوادث فأخبره بها " سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً "

- زيادة المبنى لزيادة المعنى : قبل أن يخبره بالأسباب اضاف للفعل تاء التعدية " تستطع " على وزن تفتعل وحين أخبره بها حذف التاء لأن المعنى انتهى " تستطع " على وزن تفعل . وسوف نجد هذا في قصة ذي القرنين " فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً " فعلوّ الجدار على صعوبته أسهل من نقبه فحذف التاء مع علو الجدار في قوله " فما استطاعوا " وأثبتها في صعوبة النقب " وما استطاعوا " .

- وانظر إلى أدب الأستاذ مع ربه فقد نسب عيب السفينة إلى نفسه " فأردت أن أعيها " كما فعل إبراهيم عليه السلام ذلك في المرض وأسند الشفاء إلى الله تعالى تأدباً " وإذا مرضتُ فهو يشفين " . وفي قتل الغلام نسب الخير في البدلية إلى الله تعالى " فأردنا أن يبدلهما رهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً " ولما كان العمل في الثالثة كله بناء وخيراً نسي نفسه وأفرد الله تعالى بالخير " فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك " مع أن الأمر كله من الله تعالى ، وهو لم يفعل إلا ما أمره الله به " وما فعلته عن أمري " .

- قيل إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى : أوصني : قال : كن بساماً ولا تكن ضحاكاً ، ودع اللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تعب على الخطّائين خطاياهم ، وابك على خطيئتك يابن عمران . وقيل : إن موسى لما أنكر خرق السفينة نودي : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم؟! فلما أنكر قتل الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكرك القبطي وقضائك عليه؟! فلما أنكر الجدار نودي : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر؟! .. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ، لكنه قال : " إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدي عذراً " .

- صلاح الآباء يُرى في الأبناء فقد حفظ الله تعالى الولدين بصلاح أبيهما " وكان أبوهما صالحاً " فأمر الخضر عليه السلام أن يرفعه إلى أن يكبرا فلا يأخذ الكنزَ أحدٌ وهما صغيران ، ويظل بعيداً عن أعين الآخرين حتى يشتد عودهما فيكونَ لهما . وحين علم الله أن الولد خلق مطبوعاً على الكفر، وانه سيسيء إلى والديه المؤمنين ويجعل حياتهما جحيماً أماته ، وأبدلها خيراً منه فتاة مؤمنة طيبة كانت زوجة لنبي كريم .

- ونرى التدرج في هذه القصة - وهو أسلوب تربوي راقٍ - في تعامل الخضر مع موسى

فقد أبى موسى عليه السلام إلا أن يصاحب الخضر عليه السلام فكان التخلص من هذه الصحبة - إن جاز لنا هذا التعبير فصاحب الشريعة غير صاحب الحقيقة - على قول الصوفية - لا بد له من الوضوح والتعليل والتفكير المنطقي . والخضر يفعل أموراً غير مفهومة وغير معللة ، لا تعرف إلا بعد شرحها - ولا بد أن يفرض عقد هذه الصحبة عاجلاً أم آجلاً ... فكانت اعتراضات موسى وتنبيه الخضر المتسلسلة في إيقاعاتها التي ذكرناها آنفاً تدرجاً واضحاً في ذهاب كلٍ منهما في سبيله الذي رسمه الله له في دورة الحياة المنتظمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

- لماذا كان الملك وراءهم؟ " وكان وراءهم ملك " لقد كانت السفينة تحمل أصحابها ومعهم موسى والخضر إلى الميناء التالي .. كانوا متوجهين إلى " أمام " .. فقد كان الملك في الميناء الذي يقصدونه فهم متجهون إلى " الأمام " فلماذا قال القرآن الكريم " وكان وراءهم ملك ؟ " .. أعتقد أن الجواب على شقين . أما الأول : فلأنهم متجهون إلى غيب لا يدرون ما ينتظرهم . وكل غيب وإن كان أمامهم فهو " وراء " إن كان لا يُرى ، وأما الثاني فلأن الملك ظالم متعبر مغتصب لحقوق العباد " يأخذ كل سفينة غصباً " والمملك ينبغي أن يكون رحيماً برعيته عطوفاً عليها ، يريد بها الخير ويسعى لصلاحها ، فإن كان على غير ذلك فلا يستحق أن يكون في " الأمام " ومكانه الحقيقي في الخلف ، ولذا كان " وراء " وراء " .



المحور الرابع: تأملات تربوية في قصة ذي القرنين

١- السؤال أسلوب تربوي

١- ويسألونك عن ذي القرنين ، قل سأتلوا عليكم منه ذكراً ، إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فاتبع سبباً

٢- يسألونك عن الأنفال : قل الانفال لله والرسول

٣- يسألونك عن الساعة : قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض يسألونك كأنك خفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون

٤- يسألونك ماذا ينفقون : قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن

السبيل

٥- يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ،

٦- ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا

والآخرة ،

٧- ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد

من المصلح .ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم

٨- يسألونك ماذا أحلّ لهم : قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن

مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم

٩- ويسألونك عن الجبال ، فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا

أمتاً

١٠- ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حت يطهرن فإذا

طهرن فاتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

٢- وأضيف هنا ما يناسب الموقف ، فأقول:

أ- قد يكون السؤال :

للتحدي .. و التحدي نفسه أيضاً أسلوب تربيوي يدل على صدق الدعوة والداعي ، فاليهود طلبوا من المشركين في مكة قبل الهجرة أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور ثلاثة ... عن أهل الكهف ، وعن الروح .. وعن ذي القرنين .. ولا يعرف جواب هذه الأسئلة سوى الأنبياء . وقد قبل القرآن التحدي فأنزل الله تعالى فيه خبر ذي القرنين فقال مخاطباً النبي الكريم : " قل : سأتلو عليكم منه ذكراً ... " .

ب- وقد يكون السؤال لمجرد المعرفة فعلى الداعية قبل دخول غمار الدعوة أن يلم قدر المستطاع بدعوته والأساليب المقنعة التي تحتذب المدعوين .

٣- التعظيم أسلوب يضيف هالة على الرموز الرائعة التي لها دور متميز في الدعوة إلى الله ، ويشجع المدعوين أن يتأسؤا بهم ويسيروا على هداهم . ولا ننس أنه ينبغي أن يكونوا أهلاً لهذا التشريف، فلن ينال أحد في الإسلام إلا ما يستحق

وقد تنبه الرسول الكريم إلى هذا الأسلوب فأسبغ على الصحابي الجليل عبد الله بن أبي قحافة رضي الله عنه لقب الصديق فعرف به ، وعلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقب الفاروق ، وعرف علي بفتي الإسلام وعثمان بذي النورين وخالد بسيف الله المسلول ، وهكذا ...

والقرآن الكريم لم يعرفنا اسم ذي القرنين إنما اكتفى بلقب ذي القرنين كما أننا لا نعرف عن أحد الأنبياء الكرام سوى أنه ذو الكفل . ووصف النبي الكريم " يونس بن متى " بذي النون لأن الحوت ابتلعه ، فأراه الله تعالى عجائب قدرته في البحر - أحد مخلوقاته - وأعادته إلى قومه يدعوهم إلى الله سبحانه .

أما لماذا لُقّب ذا القرنين فقد تضاربت الأقوال فيه ،

- فمن قائل : إنه حكم الأرض غرباً وشرقاً ،
 - ومن قائل : إنه حكم مئتي سنة أو عاش قرنين من الزمان ،
 - ومن قائل : إن ملكه كان قوياً يرمز إليه قرنا الثور .
- ولن نهتم بمعنى الاسم قدر اهتمامنا بصاحبه . فالجوهر نريد لا العرض .

٤- قوله تعالى " قل : سأتلو عليكم منه ذكراً ، إنا مكنا له في الأرض ، وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً " فيه فوائد تربوية عديدة ، منها :

أ- قبول التحدي : فمن كان على حق ، وكان على ثغرة يدعو إلى الإسلام وينافح عنه لا يسعه غير ذلك .

ب- العلم بالشيء قبل الدعوة إليه : وكلمة " سأتلو.. " دليل على المعرفة بالأمر والعلم به .
والتلاوة أثبت في الإجابة من غيرها ، فهي القراءة.. ، والقراءة من شيء من ذاكرتك تحفظه عن ظهر غيب، أو تقرأه في كتاب أقوى حجة وأسطع دليلاً . كما أن كلمة " ذكراً " تعني القرآن لقوله تعالى " وإنه لذكر لك ولقومك " .

ت- وقوله تعالى " سأتلو عليكم " بدل لكم دليل التمكن والاستعلاء والثبات . والمؤمن هكذا دائماً .

ث- وقوله تعالى " سأتلو عليكم منه ذكراً " هذه البعضية التي دلت عليها منه توضح أن على الإنسان أن يقتصر في حديثه على ما يفي بالغرض . وهذا ما نجده في قوله تعالى " إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ، فأتبع سبباً "

٥- الإيجاز والإطناب : وهذه البلاغة بعينها . فقد جاء الإيجاز في مكانه ، والإطناب في مكانه . فلا داعي لذكر التفاصيل في التمكين لأن التمكين يكون في كثرة العدد والعُدّة ، والمال الوفير والعدل وبذل الجهد ، واستفراغ الهمة والتحضير لكل أمر ...

ولم يكن القرآن ليهتم بهذه التفاصيل . ويكفي أن يقول : " ... مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً " ليدل على عظمة أمره ، وقوة استعداده . وهذا هو الإيجاز الذي رأيناه كذلك في الحديث عن " مطلع الشمس " بعد الإطناب في الحديث عن مغرب الشمس لأن التكرار ممل فيما ليس له لزوم . لكن قبل أن نتحدث عن الإطناب نلقي الضوء على ورود كلمة " سبباً " مرتين في هذه الآية ، وإيجاءات كل منهما ((وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً))

أما الأولى في الآية الكريمة فالعلم بالشيء والطريق الموصل إليه . وهذا يعني أن الله جل شأنه لم يكلفه بشيء دون أن يعلمه الطريقة التي يسلكها إليه ، بل أمده بأسباب النجاح . وعلى الرغم أن ذا القرنين مكن الله تعالى له ، وآتاه الحكمة بدليل " إنا مكنا له " فأنا لست مع الذي يقول :

إذا كنت في حاجة مرسلأ فأرسل حكيمأ ولا توصه

بل أقول :

إذا كنت في حاجة مرسلًا فأرسل حكيمًا كذا أوصيه

لقوله تعالى " فذكر إن نفعت الذكرى " ولقوله تعالى " وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين .. " فإذا وصى الله تعالى أنبياءه فمن دونهم أحق أن يوصى .
وأما الثانية فسلوك هذا الطريق واستعماله . إن من عرف الطريق الصحيح سلكه فوصل إلى مبتغاه ، وإلا ضل وتاه . وهل رأيت عاقلاً يعرف السبيل فيحيد عنه إلى غيره؟! .. وفي كل يوم نقرأ عشرات المرات قوله تعالى : " اهدنا الصراط المستقيم .. " لماذا نسأل الله صراطه المستقيم إذا كنا نتكبه بعد أن نعرفه؟! كما فعلت النصرارى فتاهوا . وحادت عنه بنو إسرائيل ، فغضب الله تعالى عليهم ! .
وجاء الإطئاب في وصف أهل مغرب الشمس الذين كانوا قسمين حين دعاهم ذو القرنين إلى الإسلام، فمنهم من آمن ومنهم من كفر . فأكرم المؤمنين وعتف الكافرين ، وهددهم بعذاب الآخرة .
وجاء الإطئاب كذلك في وصف الضعفاء من أهل السد الذين كان أبناء قبيلتي يأجوج ومأجوج يسلبونهم أموالهم ويقتلون أبناءهم ويسومونهم الخسف كلما جاءوهم . فسألوه أن يبني سدًا يقيهم أذاهم ويدفع عنهم غائلتهم . . . ولو اختصر القرآن حديثهم ما فهمنا المراد من أخبارهم . فالبلاغة إذاً مراعاة مقتضى الحال.

فالاختصار حين يكون الاختصار مفيداً....والإسهاب حين يكون التفصيل لازماً... وهذا ما ينبغي للمعلم أن ينتبه إليه .

٦- الجزء من جنس العمل : قال تعالى :

" أما من ظلم فسوف نعذبه، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً "

" وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً "

وقال تعالى: " أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة

وزناً ، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً "

" أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزلاً ، خالدين فيها لا يبغون عنها

جِوَالاً "

وقال تعالى: " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . "

٧- وجوب المساعدة : لما بلغ ذو القرنين بين السدين وجد قوما اجتمع عليهم الظلم والجهل

وهاتان الصفتان إن اجتمعتا في أمة - وهما غالباً ما تجتمعان - أصابتهن نوائب الدهر وعصفت بهم حدثانه ، فنالهم الذل وطوّح بهم الفساد . . . فلما وصل إليهم الملك الصالح ذو القرنين طلبوا مساعدته ... فولد السد الذي أبعد الله به عنهم ظلم الظالمين وعدوان المتحجرين .

ولم يطلب الملك الصالح مالاً منهم ، ولا أجرة ، وهذا من سمات الحاكم الذي يبذل في سبيل شعبه كل ما يستطيع ، ولا يكلفهم شططاً . بل طلب إليهم أن يعينوه بقوة القضية تهمه أولاً، والحاكم خادم لشعبه، استرعاه الله إياه ، وجعله أمانة بين يديه ، وعليه أن يؤدي الأمانة .

كان الملك عنواناً للجد والإخلاص ، أعان شعبه على التخلص من المفسدين . وهذا واجب كل مسلم يستطيع أن يقدم النفع لإخوانه . ولم ينسب الفضل لنفسه بل عزاه لله سبحانه " قال : هذا رحمة من ربي " وأكد ذلك حين قال : " ما مكّني فيه ربي خير " فالله تعالى هو الذي مكّنه من فعل ذلك وأعانه عليه .. ثم بين أن الله قادر على أن يسوّيه بالأرض إذا شاء ، وقت يشاء " فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقاً " .

ونقف على قوله تعالى: " حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ، ثم رأيناهم يتكلمون بثقة وفصاحة ، فكيف نوافق بين (لا يكادون يفقهون قولاً) والحديث بعد ذلك بكل وضوح وثقة؟! "

(إن الخوف يقطع الجوف) كما يقول المثل .. حسبوا أن ذا القرنين عدو آخر مثل يأجوج ومأجوج ، يفعل بهم من قتل وتدمير وظلم وانتهاك الحريات وسلب الأموال كما يفعل أولئك الذين يأتونهم كل فترة فيزرعون الخوف والألم والتدمير والقتل فيهم دون رحمة ولا رأفة جاءهم ، والخوف يخلع القلوب ويُذهب العقول.

فلما علموا أن ذا القرنين رجل صالح واطمأنوا إلى ذلك سكنت قلوبهم وهدأت نفوسهم وزال عنهم الخوف

إن الأمن والامان يزرع الحرية فتثمر الحياة حضارة ورُقياً ومدنية .

٨- أدوات التنبيه : متعددة في هذه القصة كما تتعدد في القرآن الكريم منها :

التكرار : " فأتبع سبباً " مرة واحدة . " ثم أتبع سبباً " مرتين . " حتى إذا بلغ... " ثلاث مرات . " حتى إذا ساوى بين الصدفين .. " " حتى إذا جعله ناراً .. " ومهمتها وصل المنقطع وقطع الموصول . وذلك بالانتقال من مشهد إلى مشهد ضمن سياق واحد .

أداة الاستفهام " هل " التي لا تحتاج للجواب " هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً " فقد جاء الجواب بعد ذلك مباشرة " الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً "

" قل " فهي تفرع الأسماع ، وتنشط الذاكرة

" قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً "

" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر"

" قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إليّ" .

باحثة مصرية تكشف كيف بنى ذو القرنين حاجز يأجوج ومأجوج

المجتمع ٢٠٠٥/٥/١٣ :

توصلت الباحثة المصرية المهندسة ليلي عبدالمنعم عبدالعزيز الخبيرة بإحدى الموسوعات الأمريكية إلى تركيبة جديدة من "الخرسانة المسلحة" تقول عنها إنها استخدمت فيها نفس المواد التي اعتمد عليها ذو القرنين في إقامة الحاجز الذي يفصل بينا وبين يأجوج ومأجوج ولا يعرف أحد مكانه حتى الآن.

وهذه الخرسانة التي توصلت إليها الباحثة تتكون من أحد منتجات البترول مضافاً إليه الحديد المنصهر مع الإسفلت فنتج خلطة شديدة التماسك ، لها قدرة على مقاومة الزلازل وعوامل التعرية وغيرها من القوى المؤثرة على المباني مهما بلغت شدتها. وأوضحت أنه لإقامة المباني بهذه الخرسانة المبتكرة فإن الأمر يقتضي الاستعانة بالبوتامين والحديد المنصهر، مشيرة إلى أن المصانع المختصة يمكنها بناء هذه الحوائط ثم نقلها بعد ذلك إلى مكان البناء.

واستلهمت الباحثة دراستها من الآيتين الكريميتين في سورة الكهف اللتين نزلتا في ذي القرنين " آتوني

زبر الحديد حتى " إذا ساوى " بين الصدفين قال انفخوا حتى " إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا ، فما

اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا " .

توقفت الباحثة أمام هاتين الآيتين وتدبرت موقف نزولهما جيداً. وبعد عدة تجارب توصلت إلى هذه التركيبة.

وفيما يتعلق برأي الإسلام في الآيات التي استندت إليها الباحثة يقول المفكر الإسلامي د. زغلول النجار : إن ما توصلت إليه الباحثة هو لمحة من لمحات الإعجاز القرآني في العلم الذي يتكشف لنا يوماً بعد يوم. وأضاف : إن الباحثة استمدت سر تركيبتها من قصة ذي القرنين الذي ألهمه الله استخدام مادة القطران التي اختلف الفقهاء حول تعريفها، فقال عنها البعض إنها من النحاس المنصهر، بينما عرّفها البعض الآخر بأنها إحدى مشتقات البترول. وأضاف عليها ذو القرنين قطع الحديد المنصهر لتكوين مادة صلبة يستحيل طرقها ثم بنى فوقها السد لحماية القوم من يأجوج ومأجوج.

وأكد د.النجار أن السد من علامات الساعة وسيظل قائماً حتى قيام الساعة ومكانه مجهول ولن يُعرف حتى يظهر يأجوج ومأجوج، وقيل إنه ببلاد ما وراء البحار أو بلاد التركستان. وتمنى د. النجار أن تستفيد الجهات المعنية من هذه التركيبة الجديدة وتطبقها في عمليات البناء في عصرنا الحالي.



تأملات تربوية في سورة مريم (١)

هذه بداية تأملات تربوية في كتاب الله تعالى ، أقدمها على حلقات أسبوعية إن شاء الله ، ليس فيها من التفسير إلا ما يخدم الفكرة التربوية في القرآن الكريم ،
أجلى فيها الأسلوب التربوي ، وأشير إليه دون الخوض في المعاني إلا بما يناسب الهدف التربوي نفسه .
وقد أشير إلى هدف بلاغي أو تعبير لغوي أو توجيه نحوي يخدم الهدف التربوي الذي أريد تجليته والله ولي التوفيق .

١- أسلوب التنبيه : أساليب التنبيه في القرآن الكريم كثيرة كلما مررنا على واحد منها ذكرناه - إن شاء الله تعالى - في موقعه .. وهنا نجد السورة تبدأ مثل كثير من سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة ، ك.هـ. ي. ع. ص . فالأول والرابع والخامس منها ممدودة والثاني والثالث غير ذلك ، مما يشد انتباه السامع والقارئ على حد سواء بطريقتين مجتمعتين قبل البدء بقراءة الجمل والمعاني ، هما " الحروف المبهمة " و " الأداء الموسيقي "

والمفسرون يوردون تفسير هذه الحروف منسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، فالكاف " كريم " والهاء " هادٍ " والياء " قوي " ، ذو الأيدٍ " والعين " عليم " والصاد " صادق الوعد " إن البدء بحروف متقطعة ذات جرس موسيقي مختلف يجعل المتلقي يرهف السمع ، إليها لغرابتها فلا يضيع عليه ما بعدها ومن ناحية أخرى نجد المتلقي يتساءل في قرارة نفسه عن معناها وطريقة أدائها ليصل إلى تأويلات عدّة ، منها : أن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف وأحواتها ، فإن استطعت أن تأتي بمثلها فافعل . وإلا ثبت أنها من لدن عليم خبير .

٢- التأمل والتدبر : إن كلمة " ذكر " في قوله تعالى " ذكر رحمة ربك عبده زكريا " توحى بأمر كثيرة يتفاعل بها المتلقي سامعاً وقارئاً . منها :

- إعمال الفكر ، وتقليب المعاني في ذكر الله تعالى عبده الصالح زكريا ، وسبب تخصيصه بهذا الفضل العظيم حين ذكره

- وأن التذكر ليس ضد النسيان دائماً، فالله سبحانه وتعالى منزّه عن النقائص ، والنسيان نقيصة

. " لا يضل ربي ولا ينسى " " وما كان ربك نسيًا " " أحصاه الله ونسوه " . إنما التذكر هنا رفع لمقام زكريا عليه السلام ، واستجابةً لدعوته ، وخصه بالرحمة .

- وأن ذكر الله عز وجل يرفع مقام صاحبه في عليين " فاذكروني أذكركم " " ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأً ذكرته في ملأٍ خير من ملئه " ...

- وانظر معي إلى هذا الربط الرائع بين النبيين الكريمين ، فهما أخوان كريمان يستقيان من نبع واحد ، ويستضيئان من مشكاة واحدة ، فكلمة " ربك " خطاب لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام تدل على أعلى مراتب الإنسان : العبودية لله تعالى ، فمادام الله ربّه فهو عليه الصلاة والسلام عبده . وزكريا عليه الصلاة والسلام عبده ، فاجتمعا في هذه المكانة العلية . وبما أنهما مثال يُحتذى كانت الدعوة لنا من الله تعالى أن نكون من عباده .

٣ - إغاثة الملهوف : فزكريا عليه السلام لجأ إلى الله تعالى ، واتجه إليه في دعائه وسأله من فضله ، " إذ نادى ربه نداء خفياً " ، فأجابه الله إذ رحمه ووهبه غلاماً زكياً . وهذه لفظة كريمة تحض على مساعدة الآخرين وتقديم العون لهم إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

٤ - أدب الخطاب : ويتجلى ذلك في أمور عدّة :

أولها : التحجب : من أحب شيئاً أكثر من ذكره . وأنت حين تخاطب من تحب يتكرر اسمه على لسانك . فزكريا عليه السلام ذكر ربه خمس مرات في جمل قليلة : " رب إني وهن العظم مني " " ولم أكن بدعائك رب شقياً " " واجعله رب رضيعاً " " قال رب أنى يكون لي غلام .. " " قال رب اجعل لي آية " . وعلى هذا قبل الله تعالى ربوبيته لعبده زكريا حين قال سبحانه : " إذ نادى ربه نداء خفياً " .

ثانيها : النداء الخافت : فالله تعالى يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء . وحين سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً ينادي الله بصوت عالٍ ، قال : له إنك لا تنادي أصمّ بل سمياً بصيراً . وحين سأله رجل : هل ربك قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ نزل قوله تعالى : " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداعي إذا دعان .. " . " نداء خفياً " . لأنه معه ، " ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " .

ثالثها : التدلل إلى الله قبل الطلب : فقد عرض الحال بتسلسل منطقي ، وأدب جم ، فبدأ

بذاته الداخلية " إني وهن العظم مني " ولم يقل وهن عظمي فكان صادقاً فليس كل عظمه واهناً وإلا لم يستطع الحركة ، وإنما أراد أن يقول : إنه ضعف وشاخ . وثني بجزء منه لكنه الإطار الخارجي منه " واشتعل الرأس شيباً . فلئن كان شعره منه إلا أن بعضه خارج جسمه ، أما العظم فمختلط بلحمه وشحمه . ثم التمس تقبل الدعاء وإجابة الرجاء مادحاً ربه : " ولم أكن بدعائك رب شقياً " فأنت يا رب سميع الدعاء ، ولن تردني خائباً .

رابعها : الحرص على الدعوة حين خاف على الدعوة إلى الله أن تضعف و لم يجد من حوله من يقوم بأدائها ويحمل عبئها ، " وإني خفت الموالي من ورائي " فلا بد من خلف يكمل عمل السلف . وأمراته عقيم " وكانت امرأتي عاقراً " فليس لي ذرية يتمون ما أمرتني بالقيام به .

خامسها : البوح بالطلب أن يرزقه الله ولدأ صالحاً تقر به عينه حين يراه حاملاً أمانة الرسالة وهم الدعوة إلى الله عز وجل بين اليهود قساة القلوب . " فهب لي من لدنك ولياً ،وقد لا يكون الولد ولياً . فالولي الذي يسير على هديك وخطاك ، ويكمل ما بنيت ، لا الذي يهدم ما تعبت في بنائه وإقامته . فهو لن يكون ولياً ولو كان من لحمك ودمك . وكم من شوكة تخلف وردة ! " ما مهمته ؟ " يرثني ، ويرث من آل يعقوب " ... وهنا نجد الدقة في بيان السبب : أن يرثه في كل شيء كان يقوم به ، ويرث الصالحين من آل يعقوب في المهمة نفسها .

سادسها : أن يكمل المنة ، فيجعله رضيعاً . وهنا نجد الأسلوب البلاغي الرائع في قوله تعالى " رضيعاً " فالغلام راض بما قسم الله له شاكر لله فضله ، والله راض عنه مكمل عليه نعمته . ف" رضيعي " أدت معنى اسمي الفاعل والمفعول معاً ، ولن تكون " راضٍ " و" مرضيٌ " لتغني إحداهما عن الأخرى !.... وكم يتمنى الناس الذرية دون أن يقوموا بواجبهم في تربية النشء ، ويهتمون بجني المال لأولادهم من حل وحرام ، وقد كفل الله لهم الرزق ،وكفاهم مؤونته ويتناسون أن الله أمرهم بحسن التربية ، وسيحاسبهم على ذلك ، أحسنوا أو أساءوا ؟ .

٥- **الإجابة السريعة** : فإن استطعت أخي الحبيب أن تلي أخاك فلا تتكاسل . إن الله تعالى أجاب عبده المطيع بسرعة فلا نجد حرف عطف ولا حرف استفهام ،ولا الفعل " قال " : ... إنما قرأنا مباشرة : " يا زكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً " . وتجلت الإجابة السريعة بما يلي :

أولاً : النداء ، ما إن نادى ربه حتى سمع نداء ربه : " يا زكريا " فعرف أنه المقصود لا سواه فأصاخ السمع ، خافق القلب راغب الخير .

ثانياً : البشرى وهذا أسلوب رائع في طمأنة الفؤاد وإراحة النفس قبل زف البشرى نفسها . ولعل الإنسان يظل مستوفز الأعصاب لا يدري أيسمع بشرى أم إنذاراً حتى يقال له ما يُقال . لكنه حين يسمع كلمة البشرى قبل إلقائها ترتاح نفسه ، ويكون أكثر وعياً لتلقيها . ومما زاد في جمال البشرى أنها جاءت بعد التأكيد " إنا " والفعل المضارع الذي يسمعه، فثبت حصولها .

ثالثاً: تحقيق المطلوب : فهو غلام سيبلغ الحلم وتقر به العينان . وقد نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرراً وهي ترغب في الولد ، ففوجئت بأنثى ، خيبت في البدء أملها في الوفاء بالندى ف " قالت رب إني وضعتها أنثى " " وليس الذكر كالأنثى " ، لكنها حزمت أمرها ووفت بنذرها . لكنه هنا ذكر يافع . وزاد في تمام الفضل أن الله سماه يحيى من فوق سبع سماوات . ولم يجعل له من قبل سمياً .

٦- الضعف البشري : المخلوق ضعيف.. ضعيف مهما علا شأنه ، ورسخ إيمانه . ولو كان نبياً إلا من عصمه الله تعالى. لكن أخطاء الأنبياء ليست كأخطاء الآخرين ، إنما هي هَنَات تدل على بشريتهم . لكنهم يظنون مثال الكمال الإنساني ومما يدل على ذلك في قصة سيدنا زكريا ما يلي :

أولاً : أنه ذكر ضعفه وهرمه ، وعرف أن زوجته لا تنجب لسببين اثنين أحدهما شيخوختها ، وثانيهما عقمها . ومع ذلك فأمله بالله كبير أن يرزقهما ولداً صالحاً .. فلما أجاب الله سؤاله تعجب من ذلك .

ثانياً : انه حين سأل الله تعالى الولد قدم شيخوخته على عقم زوجته . وكأنه السبب الأول في عدم الإنجاب . فلما تعجب من البشرى نأى بنفسه أن يكون السبب الأول لعدم الإنجاب ، فقدم زوجته عليه . وهنا نلاحظ الرغبة في الكمال وتفضيل النفس على الآخرين... . ولعله تعجب أن تلد امرأة عقيم بلغت سن الشيخوخة ، فنبهه المولى سبحانه أنه على كل شيء قدير ، فقد خلقه من العدم . ولعله ظن أن الله تعالى سيأمره أن يتزوج امرأة أخرى فيكون الولد منها ، ففهم من قوله تعالى " وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً " أن الولد سيكون من زوجته نفسها ... ألبس الله قادراً على كل شيء؟! وأليست زوجته صالحة مثله فلم لا يكرمها هي أيضاً فتسعد بالإنجاب كما يسعد زكريا نفسه؟ .

٧- تصحيح الخطأ مع التعليل : إذا ترك الإنسان لنفسه فقد يزل ويقع في المحذور ، فإدراك العقل

محدود ، وفهمه قاصر ، ولا بد من تصويب الأخطاء كي يبقى الصحيح فقط ، فيتمثله القلب والعقل .
مع التعليل لدواعٍ عديدة . منها : أن يكون الحكم واضحاً بيناً ، والدليل ساطعاً فينقطع الشك ، وليكون
الجواب شافياً . فلما تساءل زكريا عليه السلام عن إمكانية حمل زوجته ، وبشرى الله لهما بالغلام قيل له :
" .. كذلك قال ربك هو عليّ هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً " .

فبين له أن الله تعالى خلقه من عدم . وهو سبحانه قادر على كل شيء .

٨- الاستيثاق من الأمر : وهو أسلوب تربوي ذو فوائد جمّة ، منها : التأكد ، والاطمئنان ،

والمتابعة . لكن الله هو الذي وعده بالغلام ، فهل يطلب منه إثباتاً؟ ! وهو سبحانه إن شاء وهب ، ويمنع
إن شاء . فهل أخطأ زكريا حين سأل ربه العلامة فـ " قال رب اجعل لي آية " ؟!

لو كان هذا السؤال من قبيل الشك فهو الكفر بعينه ، وهو قلة الأدب ذاتها . لكنه نبي الله فوق
الشبهات ، وقد أرادها ليعلم وقت حدوثها . هذا من ناحية . ثم لا بد من الاطمئنان فهذه هي الطبيعة
البشرية السوية . والدليل على ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام لربه : " رب أرني كيف تحيي الموتى ! قال :
أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي " والقصة معروفة . كما أن قصة عزيز تسير على هذا النسق
حين قال وهو في طريقه إذ رأى القدس هدمها الآشوريون : " أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟! فأماته الله مئة
عام ثم بعثه . قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثت مئة عام" فلما رأى
قدرة الله في بديع صنعه قال : " أعلم أن الله على كل شيء قدير " . ومثله قول مريم : " أنى يكون لي غلام
ولم يمسنني بشر ، ولم أك بغياً " فهي تتساءل للتأكد والتثبت .

٩- الدعوة إلى الله في كل الظروف : فإذا مرض الإنسان أو امتنع أن يقوم بواجبه المعتاد

بالطريقة التي اعتادها لأمر طارئ اتخذ ذلك ذريعة للتفلت أو الراحة - ومن حقه أن يرتاح فترة ليشحذ
همته - لكن النفس الطموح للنبي الكريم زكريا أبت أن تباعد عن طريقها المرسوم . فحين حملت زوجته
بيحيى و ما عاد يتكلم ثلاثة أيام - كما أعلمه ربه بذلك - لم يتوان عن دعوته ، ولم يتخل عن مهمته ،
إنما التزم المحراب يصلي ويجتهد في عبادة ربه شاكراً فضله ، معترفاً بنعمته عليه . وأوحى لأتباعه بالإشارة أن
" سبحوا بكرة وعشيّاً "

١٠ - اختيار زمان الذكر ومكانه : أما المكان فالمحراب لمقابلة المليك العظيم ، فينبغي أن يكون أفضل مكان في البيت أو المسجد . والمحراب في العربية (صدر البيت ، أو المسجد ، وأشرف موضع فيه، ومجلس الملوك الذي ينفردون به عن العامة) . وأما الزمان فالذي يدل على قدرة الله عز وجل في بديع صنعه ، حين يتداخل الليل والنهار في الفجر والمغرب هذا التداخل بين الظلام والضياء ، وبين الموت والحياة " وسبح بالعشي والإبكار " .

١١ - الاهتمام بالجواهر والبعد عن الحشو : يختصر القرآن المسافات التي لا يغني ذكرها . فلم يحدثنا عن طفولة يحيى عليه السلام ، إنما فاجأنا باللب والمراد من القصة ، فإذا هو فتى ذكي الفؤاد قوي العزيمة ، ذو حكمة وفهم، يحمل رسالة ربه بكل ما أوتي من صبر واجتهاد .

١٢ - بر الوالدين : ولن يرضى الله تعالى عن الإنسان ما لم يكن الوالدان راضيين عنه . ولن يستطيع حمل رسالة ربه ما لم يحمل في قلبه حباً لهما وتقديراً ووفاءً . ولهذا شمله الله تعالى بالسلام والطمأنينة يوم ولد ، ويوم مات وبالسلام يوم القيامة والنجاة من النار في ذلك اليوم المهول . حين تبعث الخلائق ، فمنهم شقي وسعيد



تأملات في سورة مريم (٢)

الناظر في هذه السورة الكريمة يجدها تتحدث في التربية الأسرية . وعلاقة أفراد الأسرة بعضهم ببعض : فالمقطع الأول يتحدث عن سيدنا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ... وهنّ الدعوة ، وحمل الأمانة ، وبر الولد بأبويه .

والمقطع الثاني يتحدث عن العلاقة الحميمة بين الأم وولدها ، الأم الطاهرة النقية مريم العذراء التي وهبت نفسها لدين الله ودعوته ، والولد الصالح عيسى عليه السلام الذي دافع عن طهر أمه وشرفها ، وحمل الدعوة إلى الله عز وجل .

والمقطع الثالث يتحدث عن الصديق إبراهيم عليه السلام الذي هداه الله إليه ، وعلاقته بوالده حين دعا الولد أباه بأدب جم إلى عبادة الله الواحد ، ثم اعتزله وقومه إذ أصروا على الكفر ، وتحمل المشاق في سبيل الدعوة إلى ربه ، فأكرمه الله تعالى بالذرية الصالحة التي رباها فأحسن تربيتها . فكان بذلك قدوة للعالمين جميعاً .

والمقطع الرابع يتحدث عن النبي العظيم موسى صاحب العزم القوي في الدعوة إلى الله ، إذ أكرمه ربه فجعله مُخْلِصاً ورسولاً كريماً ، ومنّ عليه في أخيه هارون فوهبه أعلى درجات الإنسان في الوصول إلى ربه " النبوة " . فكان موسى لهارون أكرم منّة لأخ على أخيه مرّ الدهور وكثر العصور .

والمقطع الخامس يتحدث عن دور رب الأسرة في تربية أهله - زوجةً وأولاداً ومواليً - فهذا إسماعيل عليه السلام كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً بسبب تربيته إياهم . فكان قدوة لمن بعده في الاعتناء بالأسرة ووصلها بالله .. فمن كان بجبل الله موصولاً سعد وأكرم ، وحاز القبول .

وقد كنا الأسبوع الماضي نتأمل في رياض المقطع الأول ، في رحاب النبيين الكريمين الأب زكريا وابنه يحيى .. فهلمّ إلى الروضة الغناء في رحاب العذراء البتول وابنها السيد الكريم عيسى عليهما السلام .

١ - تقييد العلم : العلم في الصدور ، وتقييده في السطور ، وكلمة " اذكر في الكتاب " ترددت

خمس مرات في هذه السورة الكريمة :

" واذكر في الكتاب مريم "

" واذكر في الكتاب إبراهيم "

" واذكر في الكتاب موسى "

" واذكر في الكتاب إسماعيل "

" واذكر في الكتاب إدريس "

والفائدة التربوية الأولى من كلمة " اذكر " العلم : فالعلم بالشيء ومعرفة أمر لا بد منه

لأهل الدعوة (ففاقد الشيء لا يعطيه) .

والفائدة الثانية الكتابة : إن تقييد العلم في كتاب يحفظه من الضياع ، ويثبت في الذاكرة بين الحين

والحين .

والفائدة الثالثة التعليم : وهذه رسالة الأنبياء والدعاة والمعلمين ، لا ينبغي التفريط فيها ، " فمن كنتم

علماء لجمه الله بلحام من نار " .

٢- شفافية التبتل إلى الله : من كان مع الله كان الله معه ، ومن أخلص في عبادته اجتباه الله وأدناه .

فقد انقطعت مريم عن اقرب الناس إليها وعن الدنيا ، واجتهدت في التقرب إلى مولاها ، فاستقلت عنهم

بأدب جم دون أن تسيء إليهم " فانتبذت " منهم ولم يقل : " نبذتم " ففي الأولى ابتعاد وانقطاع مع

احترام وتوقير ، وفي الثانية احتقار واستعلاء . فالانتباز بالنفس ، والنبد للآخرين !... رأيتم جمال التعبير !؟

... إلى أين ؟ " مكاناً شرقياً " ... إلى مصدر النور عند إشراق الشمس . ومن كان قصده خالق النور

والضياء احتجب عن الناس " فاتخذت من دونهم حجاباً " .

٣- الجزء من جنس العمل : حين انقطعت إلى الله تعالى ورغبت فيما عنده ورجت رضاه لم يخيب

أملها ... وصلها حين وصلته . وقبلها حين قصده . " وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ،

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها

. وإن سألتني أعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذته " . لقد أرسل إليها كبير الملائكة " جبريل " عليه السلام .

ليكرمها بسيد من سادات البشر .

٤- المنطقية في التعامل : لجبريل عليه السلام ست مئة جناح ، كما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام

. وكان يملأ السماء حين رآه النبي عليه الصلاة والسلام مرتين على هيئته التي خلقه الله تعالى عليها . فلو

أنه دخل على مريم بهذه الهيئة لسقطت ميتة أو مغمى عليها . فلم يكن تباسط ، ولا حديث ، ولما عرفت سبب دخوله عليها ولا ماهيته . إذاً دخل عليها على هيئة رجل " فتمثل لها بشراً سوياً " لتفهم منه ، فيخاطبها وتخاطبه .. وقد نبه المولى سبحانه وتعالى إلى المثلية فقال راداً على الذين رغبوا أن يكون الرسول ملكاً حتى يؤمنوا به : " وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولاً؟! قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً".

٥- الحوار : هو أسلوب راق في التربية ، له فوائد كثيرة . منها :

١- أنك تسمع حديثاً فيه آراء وحجج يدلي بها المتحاورون ، ليبرهن كل منهم على صواب ما

يرتثيه .

٢- ان الحوار يثري السامع والقارئ والرأي بأفكار تطرح أمامهم، بالحجة والبرهان ، فيعتادون

التفكير السليم والأسلوب القويم .

٣- أن الحوار أثبت في النفس لأن السامع يُعمل أكثر من حاسة في تفهم أبعاد الحوار ومراميهِ

وعلى هذا تعال معي إلى متابعة الحوار بين الملك ومريم :

" قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً "

" قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً "

" قالت : أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ، ولم أك بغياً "

" قال : كذلك قال ربك : هو عليّ هين ، ولنجعله آية للناس ورحمةً منا ،

وكان أمراً مقضياً".

وفي هذا الحوار فوائد جمة ، نذكر منها :

١- اللجوء إلى الله تعالى في الملمات ، فهو حصن حصين وركن ركين .

٢- الرجل التقى لا يقتحم مخادع النساء ، وينأى بنفسه عن الشبهات .

٣- لا بد من تعليل يبعد هذه الشبهات ، ولو كان المشبوه به تقياً فقد قال الرسول صلى الله

عليه وسلم لرجلين رأياه مع صافية ليلاً : هذه أمكم صافية . كي لا ييؤوا بالكفر حين يظنان السوء بنبينهم

... فقال الملك : لأهب لك غلاماً زكياً .

٤- المرأة المسلمة الشريفة لا تزني ، ولا يكون الحمل إلا بالزواج أو الزنا.

٥- إذا أراد الله شيئاً قال له : كن فيكون . ومريم تعلم أن الله تعالى قادر على كل شيء لكنها

أبدت تعجبها أن يختارها الله لهذا الشرف العظيم

٦- توخي الحذر والستر : يعلمنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم التستر . فيقول : إذا

ابتليت بالمعاصي فاستتروا " ونعى القرآن تساهل اليهود في السكوت عن المنكر " كانوا لا يتناهون عن منكر

فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون " ووبخ لوط عليه السلام قومه الذين استحلوا اللواط وجهروا به " إنكم لتأتون

الفاحشة ، ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديكم

المنكر .. " اما الطاهرة العفيفة مريم فقد استترت في مكان قصي وهي لم تفعل المنكر ، فكانت مثلاً

للشرف المصون والفتاة التقية . حتى إنها تأملت أماً شديداً ، وتمنت أنها لم تخلق ، ولم يعرفها أحد . بل تمتت

لو كانت شيئاً لا قيمة له .

٧- الدعم والتأييد : إذا كلفت أحدهم بمهمة فلتكن قدر استطاعته " لا يكلف الله نفساً إلا

وسعها " وإذا لم يستطع القيام بها لكونها فوق طاقته أو كانت ثقيلة فأعنه عليها ، وسهّل له سبلها وهذا

ما وجدناه في قصة مريم فقد :

- سمعت من يكلمها في وحدتها ويشد من أزرها .

- جرى إلى جانبها جدول ماء عذب شربت منه .

- هزت جذع النخلة فتساقط عليها رطب لذيذة سهلت الطلق والولادة .

- الامتناع عن إجابة المتطفلين .. فهي صائمة عن الكلام . ومن الذي سيتكفل بالإجابة ؟

إنه ولدها الذي يدافع عنها بإذن الله . وسينطقه الله بما يبرئ أمه ويرفع قدرها بين الناس .

وعلى هذا استمدّت قوة وشجاعة ، وعادت إلى قومها تحمل وليدها . وكان ما كان من أمر الناس ،

وحق لهم أن يسألوها ، فهي ابنة سيدهم المعروف بدينه وخلقه وأمها مثال الصون والعفاف ، كما أنهم

يعرفونها شديدة التدين مشهورة بالعفة والطهارة .

٨- الرد المفحم : قد يكون الإنسان صاحب حق ، إلا أنه عيبي أو أحمق أو غبي ساذج لا

يعرف كيف يستخرج حقه أو يحتفظ به أو يدافع عنه ، فيضيع منه كله أو جلّه ، وقد يكون أحدهم مبطلاً

لكن لسانه طليق وحجته حاضرة وأساليبه ذكية ، فيسلب حق غيره ويحتال على الضعفاء فيغمطهم نصيبهم . لكن الله تعالى لقن الوليد حجته ، فكان قوله الفصل وبيانه الفصل .

أولاً : عرّف بنفسه . فهو عبد الله . ومن أعلن عبوديته لله فقد عرف ربه وهذه أسمى المراتب

ثانياً : ومن كان عبداً لله تعالى فتح عليه ينابيع العلم وكنوز المعرفة ، وآفاق الحكمة .

ثالثاً : ثم خصه الله بمرتبة النبوة الكريمة ، وهذه قمة الإنعام والفضل .

رابعاً : افاض عليه الخيرات والبركات ، فكان مع الله قلباً وقالباً في حله وترحاله ، ونومه ويقظته ،

خامساً : وأوصاه أن لا يفتر عن ذكر الله وأن يكثّر من الصلاة - وهي الصلوة بالله - والزكاة -

الإحسان إلى عباد الله - وكأنه سبحانه يقول : عبدي أحسنت إليك فأحسن إلى عبادي ، وأحب عباد

الله إليه أنفعهم لعياله .

سادساً : والأقربون أولى بالمعروف . وفضل الأم لا يداني . وقد قرن الله تعالى عبادته بالإحسان إلى

الوالدين . ثم يكتمل الإحسان بتعميمه على الناس أجمعين .

سابعاً : ويتوج ذلك كله بسلام الله عليه في حياته وفي موته ، وحين يبعث يوم القيامة .

ومن الطريف أن المفسرين يوردون حواراً بين ابني الخاليتين ، عيسى ويحيى .

فيقول عيسى : أنت خير مني يا يحيى .

فيقول يحيى : بل أنت خير مني ، أنت من الخمسة أولي العزم .

فيقول عيسى : بل أنت خير مني ، فقد سلمت على نفسي ، فقلت : والسلام عليّ

وأنت سلم الله عليك فقال : وسلام عليه صلى الله عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى سيدنا

محمد سيد الخلق أجمعين .



تأملات تربوية في سورة مريم (٣)

١- الداعية مؤتمن :

تفيد كلمة " اذكر " ذلك الخطاب - خطاب التكليف - من الله تعالى لنبيه الكريم يأمره أن لا يغفل شيئاً مما أمره الله به ، فالرسول عليه الصلاة والسلام مؤتمن على الدعوة . وعليه أن يبلغها كاملة . فهي أمانة في عنقه . كما أن كل مسلم داعية في محيطه ، كبر هذا المحيط أم صغر ... وبما أنه صلى الله عليه وسلم مخاطب في القرآن الكريم من أوله إلى آخره فهذا دليل على أن القرآن ليس من عنده . فالإنسان لا يأمر نفسه أمام السامعين أو القارئین .. صحيح أنه يفكر أحياناً بصوت عال إلا أن كثرة الأوامر والتعليمات في القرآن تدل على أن الرسول المعلم ينفذ تعليمات خالق سيد أمر.

٢ - المديح : أسلوب راق يستعمله المربون :

١ - للتعبير عن الرضا بما يصدر من أعمال أو أقوال تسر وتُحمد .

٢ - لدفع الممدوح إلى التزام ما يرفعه في أعين الناس .

٣ - يوحون به للآخرين أن يكونوا مثل الممدوحين في شمائلهم .

وقد مدح المولى عبده إبراهيم عليه السلام بصفتين لا يتصف بهما إلا من كان في القمة البشرية " كثرة الصدق والنبوة " . مع تعليل الوصول إلى هاتين المرتبتين العظيمتين . فقد كان داعية مخلصاً لدعوته لا يمالئ فيها أحداً أبداً . وهذا أبوه أقرب الناس إليه يفتحه بها ويدعوه إليها بأكثر من طريقة تربوية رائعة . نذكر أولاهما متسلسلة بعد اسلوب المديح :

٣- التحجب : يدخلك القلب دون استئذان ، ويوثك المكانة العالية في صدور السامعين ونفوسهم .

أما المتعالى فعلى العكس من ذلك ينفر الناس منه ، ويجدونه ثقيلاً على قلوبهم ... وكرر كلمة " ياأبت " متحجباً إلى أبيه ، محاولاً دخول قلبه :

يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟

يا أبت : إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً .

يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصياً .

يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً .

ولعل ٤- التكرار : وهو أسلوب أصيل في التربية أفاد هنا بالإضافة إلى التحبب التأكيد والتفصيل والتنبيه غلى خطر عظيم وأمر مهم . إن الطرق يلين الحديد لكن قلب الأب الكافر أقسى من الحديد ، أو قد من صخر فلم ينفع معه الاستعطاف واللفظ .

٥- الترتيب والتتابع في العرض : ففي الآية الأولى من كلام إبراهيم عليه السلام

لوم لطيف لوالده وعتاب : فكيف يعبد آلهة ضعيفة ليس لها سمع ولا بصر، ولا تنفع؟! ويقدم السمع على البصر لأنه أوسع فجعل له الأولوية ، وهذا شأن القرآن الكريم في تقديم الأهم ويتجلى هذا الترتيب من حيث الأهمية في قوله تعالى " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث " الآية ١٤ من سورة آل عمران . فالمرء يبذل المال ليتزوج فينجب البنين .. فالنساء أولاً ثم إنجاب البنين ، والمال في خدمتهما فهو الثالث من حيث الأهمية . وقدم من المال الذهب على الفضة، وتأتي الخيل ثالث المال والأنعام رابعها من إبل وبقر وغنم. ثم أخيراً دور الزرع ... وبعد اللوم على الضلال يدعوه إلى اتباعه على علم : وعلى الجاهل مهما كبر أن يتبع العالم مهما صغر . فالحق أحق أن يتبع والعلم يهدي إلى الصراط السوي - فليس سواء عالم وجهول -

ثم يأتي التحذير من الشيطان : لأنه عدو للرحمن ، يحيد بمن اتبعه عن الحق ويغويه فيغضب الله تعالى عليه ومن عصى الله كان إلى النار نهايته .

ثم يأتي التخويف من الله الذي يعاقب بالنار الشيطان ومن تبعه ، فإبراهيم عليه السلام يخاف على أبيه لأنه يحبه . وقد جاء في تفسير قوله تعالى : " ولا تخزي يوم يبعثون " في سورة الشعراء أن إبراهيم يلقى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة ، فيقول : يارب : إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون . فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . وفي رواية أخرى : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ ، فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب إن وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأني خزي أخزي من أبي الأبعد؟ . فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقول : يا إبراهيم ، انظر تحت رجلك . فينظر ، فإذا بدبح متلطح فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار . نعوذ بالله من سوء المصير ...

وهذا الأسلوب التدريجي من اللوم إلى الدعوة إلى التحذير إلى التخويف - أسلوب تربوي ينتقل بالمدعو خطوة خطوة .

٦- الحلم: ولا بد للداعية أن يكون في دعوته للآخرين حليماً واسع الصدر يحتوي المدعوين وإن أساءوا إليه . هذا ما نراه من سيدنا إبراهيم حين جبهه أبوه بقوله : " أرغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ " وهدده بالرحم والطرده : " لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرني ملياً " فرد عبه بالطف كلام يدل على الحلم والروية:

" سلام عليك ، سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيماً "

أسلوب يدل على اهتمام الداعية بدعوته ومن يدعوهم إليها وعلى اهتمام المرابي ومن يريهم . إن الإجابة بالعنف والارتجال القائم على ردة الفعل يضر ولا ينفع ، فهو إن حصل لم يعد للتفاهم مكان ، ولا للنصح قبول ، وضع الداعية الفرصة في اكتساب الناس .

وهذا ما فعله الصالحون في كل زمان ومكان وقالوه : " سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين " . وهذه صفات عباد الرحمن الذين مدحهم الله عز وجل : " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً "

٧- والشفاعة : وهي طلب الخير للغير والوساطة لهم عند من يرجوهم . وهذا ما عناه النبي الكريم إبراهيم حين قال : " سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً " إن المدعو حين يرى من الداعية اهتماماً واعتناءً يلين قلبه ثم يتقبل منه ما يقول ، ثم يؤمن بما يقول ، ثم يعتنق ذلك ويكون منافحاً عن هذه الدعوة " ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " .. كان الصحابة متحلقين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل رجل من بعيد إلى مجلسه صلى الله عليه وسلم ، فالتفت إليهم صلى الله عليه وسلم ، وقال : " هذا الرجل قادم يريد مني مسألة ، وإني معطيه إياها إن شاء الله ، ولكن إذا سألتها فاشفعوا له ، والله يؤجركم على شفاعتكم ، وليقض الله على لسان نبيه ما يشاء " . جاء الرجل وجلس ولم ينبس ببنت شفة . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألك حاجة يا رجل؟ " قال : نعم يا رسول الله ، صلى الله عليك وسلم . وذكر حاجته . فكان أصحاب رسول الله يقولون :

- هو أهلٌ لفضلك يا رسول الله .

- ما علمنا عنه إلا خيراً يا رسول الله .

أحسن إليه يا رسول الله . فما عهدناك إلا محسناً .

كان الرجل ينظر إليهم مسروراً من شفاعتهم ، وقد أحبهم وشعر أنه منهم وأنهم منه يا لهذا المجتمع المتحاب المتكافل وابتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد اكتسب إلى المسلمين واحداً آخر ، وعلم أصحابه أن يناصر بعضهم بعضاً وقضى للرجل حاجته .

٨- اعتزال الجاهلين : المسلم داعية . فكيف يدعو الناس إذا اعتزلهم؟ .. إنه يعيش بينهم ليؤثر فيهم لا ليتأثر ، يعيش بينهم مادة لكنه مع ربه قلباً وروحاً وفكراً . يعاملهم بالحسنى ويتحملهم ، ويشاركهم حياتهم إلا أنه ينأى عن مفسادهم وكيف يعتزلهم منقطعاً عنهم تماماً والرسول الكريم يقول : " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم "؟! فإبراهيم عليه السلام قال : " واعتزلكم وما تدعون من دون الله " هو اعتزال المسلم للمنكر والجهالة ، إلا أنه حاضر بينهم يعمل على هدايتهم ، يقوم بخدمتهم والسهر على مصالحهم . وتنبههم إلى الصواب وحضهم عليه

٩- ثواب الصالحين : " فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً " وهبه الله تعالى بعد العقم ولدًا صالحاً وحفيداً صالحاً ، وزاده نعمة أن جعلهما نبيين كريمين ، وأكرمهم ببقاء ذكرهم مكرماً وذريتهم على مر الدهور وكر العصور ، فكل المسلمين وغيرهم من اهل الأديان يكبرونهم ويجلونهم . بل إن الله تعالى أخبرنا أنه أكرم الأولاد بسبب صلاح الآباء ، لقد قال في سورة الكهف " وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك . " وقد قتل الرجل الصالح في سورة الكهف - كذلك - الغلام السيء وأبدله فتاة سالحة لأن الأبوين كانا صالحين . فالله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .



تأملات تربوية في سورة مريم (٤)

قوله تعالى عن الذكر فيه معان كثيرة منها :

١- التشريف والتكريم : في قوله تعالى " وإنه لذكر لك ولقومك " . إن قدرَ الإنسان يعلو بانتمائه إلى ربه وإرضائه ، والعمل بما أمر والانتهاه عما نهى . وفي قوله جل شأنه " ص ، والقرآن ذي الذكر " فمن عاش في ظلاله وحيّ به ارتفعت مكانته ، ومن أبى ذل وخاب " بل الذين كفروا في عزة وشقاق " والعزة هنا استكبار وعناد ، يوضحه قوله تعالى " وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم " والشقاق : الخلاف والإنكار . ونعود إلى " الذكر في القسم الرابع من تأملاتنا في قوله تعالى " واذكر في الكتاب موسى " .. فبماذا وصف هذا النبيّ الكريم ؟ .. لو عدنا إلى السورة نفسها في بداية الذكر لرأينا كل نبي ذكر بصفة اختص بها :

زكريا عليه السلام وصف مثل نبينا محمد صلى الله عليه وسل بالعبودية " ذكر رحمة ربك عبده زكريا".
وعيسى عليه السلام خص بهذه الصفة " قال إني عبد الله "
وإبراهيم وإدريس عليهما السلام خصا بالصدّيقية : " واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيا "
" واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبيا " .
وموسى عليه السلام خُصّ بالقرب والتكليم " وناديناه من جانب الطور الأيمن وقريناه نجياً " .
وإسماعيل عليه السلام وُصِف بصدق الوعد والرضا " إنه كان صادق الوعد وكان عند ربه مرضياً "

وداود عليه السلام وُصف بأنه وُهب القوة وكثرة التوبة " واذكر عبدنا داود ذا الإيد إنه أواب . كما كرر ذكر الأنبياء مرة بأهم " أختيار " ومرة بـ " الذكر الحسن " ومرة بـ " الصبر " وكل ذلك تكريم وتشريف لهم ودعوة إلى الاقتداء بهم . فهؤلاء قلوبهم متصلة بربهم ، وحياتهم وقفوها على رضاه " إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجّداً وبكياً" .. فالله تعالى شرفهم ، وهم شكروه بسجودهم مقرين بفضله عليهم ومنته سبحانه .

٢- الترهيب والترغيب : أسلوب تربوي مؤثر. ففي الإنسان بذرة خير . إن تعهدا بالعناية

والرعاية زكت ونمت فنال صاحبها الأمن والأمان والسعادة والهناء . وفيه بذرة شر ، إن أهملها ولم يلق لها بالاً زاحمت بذرة الخير ودافعتها ، فإذا ساعدتها نوازع فاسدة كامنة في حنايا الإنسان اشتدت واستفحلت ، وبدا خطرهما على صاحبها ومن حوله ، فدبت الفوضى وضربت أطنابها في المجتمع ومن طبع الإنسان أن يفعل الخير . لأن الله فطره على الهدى والصلاح ، ودله على طريقه ومن طبعه أيضاً أن يقع في الخطأ والتفلسف والتهاون لأن الله تعالى خلقه من عجل . وخلقه ضعيفاً يصيب الذنوب والآثام ... لذلك كانت الجنة للتائبين العائدين إلى ربهم ، والنار للعاصين المنتكبين سبيل الهدى والرشاد .

ونرى القرآن العظيم يستعمل أسلوب الترغيب وأسلوب التهيب بمقدار ما يقوم سلوك الإنسان ليمضي على ما يرضي الله تعالى .

وليس في القرآن - على الغالب الأعم - آية ترغيب إلا تبعثها آية تهيب . ولا آية تهيب إلا تبعثها آية ترغيب فهما - الترغيب والتهيب - متلازمان .. والحكمة في ذلك: أولاً التذكير بالثواب والعقاب ليظل الإنسان حريصاً على نيل المثوبة واتقاء العقوبة . وثانياً أن من لا يؤثر فيه الترغيب وثوابه يؤثر فيه التهيب وعقابه .

ومثال هذين الأسلوبين في هذه السورة الكريمة قوله تعالى " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً " فبدأ بالتهيب مبيناً السبب (إضاعة الصلاة واتباع الشهوات) ثم النتيجة (فسوف يلقون غياً) فاحتزل التهديد في هذه الآية التي فجأت السامع فارتجف لها قلبه ، وتزلزل لها كيانه فأصبح مهياً لأن يميل نحو الثواب الذي جاء بعد صيغة الاستثناء في الآيات ٥٩ - ٦٤ فأراحت القلب وهذأت الأعصاب بعد تلك الفجأة المخيفة ... فمن تاب وآمن وعمل صالحاً نال حقه كاملاً ودخل الجنة التي وعده الله بها في الحياة الدنيا وفي هذه الجنة الطمأنينة والسلام والرزق الهنيئ الرغيد الدائم الذي لا ينقطع ، يناله العبد التقي الصالح . جعلنا الله أتقياء صالحين

٣- الحجة المنطقية : ينكر الكافر أن يبعث بعد الموت مرة أخرى : " ويقول الإنسان إذا ما مت لسوف أبعث حياً؟! " .. إنه سؤال استنكاري لا يريد صاحبه جواباً لاقتناعه أن لا بعث ولا نشور بعد الموت . فيأتي التحدي المنطقي : الذي يدمغ بالحجة البينة والمنطق الساطع : إن الله خلقك ابتداء من لا شيء أفلا يستطيع إعادتك من شيء؟! فإذا كان المولى سبحانه قد أوجدنا من العدم ولم نك شيئاً ؟ أفلا

يستطيع سبحانه أن يعيدنا إلى الحياة من وجود؟.. .. بلى إنه قادر على كل شيء بقوله : كن فيكون .
والتحدي يُجِبُّه المنكر، فيخرسه ويوقفه عند حده ، ويكسر حدته ويجرده من قوته الكاذبة . أو قل يعرِّيه
مما يدّعيه ، ويظهر ضعفه ، ويعيده إلى حجمه الحقيقي . ثم انظر معي إلى مقولة الكافر الجاهل الذي ليس
له من الأمر شيء يدعي أنه سيؤتى من الأولاد والبنين والأموال ما يشاء ، وكأن له قدرة على ذلك،
فيهرف بما لا يعرف " أفأريت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولداً " فهنا يسأله العليم القدير من
بيده مقاليد الأمور : " أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً " فلا هو اطلع على الغيب فعرف ، ولا هو
أخذ من الله سبحانه الوعد والعهد على ذلك . فكيف يدعي من لا يقدر أنه يقدر ومن لا يعلم أنه
يعلم؟! حجة منطقية تعلمنا أن على الإنسان أن يلزم حده ، فيقف عنده .

٤- التهويل : اسلوب تربوي مخيف ، يزلزل النفوس ، ويحرق الأعصاب ، ويخضد شوكة الخصم،
ويزرع الرعب في أوصاله ، فيستسلم صاغراً ذليلاً ، منكسر الفؤاد مستسلماً، وهو أسلوب إذا تمكن منه من
يستعمله كما استعمله القرآن فقد كسب الجولة بكل تأكيد . ومثاله قوله تعالى : " وقالوا اتخذ الرحمن ولداً،
لقد جئتم شيئاً إداً (عظيماً) تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض و تخز الجبال هداً أن دعوا
للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً، " فالله واحد أحد ، فرد صمد ، ليس له زوجة ، ولا شريك،
ولا ولد .

وكثيراً ما يدخل في التهويل :

٥- التصوير الحسي المتسلسل :

" فوربك لنحشرنهم والشياطين "

" ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً "

" ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً "

" ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً "

" وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً "

" ثم ننجي الذي اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً "

فتصور معي كيف يُحشَر العتاوله والمجرمون مع الشياطين أذلاء صاغرين ، ومقيدين يسحبهم الزبانية

إلى جهنم ، ثم هم يجثون على ركبهم ، لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ولا ينتظرون عوناً من أحد . وقد أيقنوا بالهلاك فنكسوا رؤوسهم خوفاً ورعباً . ثم ترى العتاة المتجبرين المتكبرين ينزعون من بينهم ويلقون في جهنم دون حساب ، فليس لهم عند الله تعالى قيمة ، وكان تجبرهم في الدنيا وبالاً عليهم في الآخرة . فهم أهلها الذين يخلدون في النار أبد الأبدين .

وهناك حقيقة لا بد منها .. فالجميع - صالحين وطالحين - يردون جهنم والعياذ بالله " وإن منكم إلا واردها " . قال أهل العربية : ليس من شرط ورودها الدخول فيها . إن أهل الجنة يجوزونها على الصراط دون أن يشعروا بها بإذن الله وفضله . .. اللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك ورحمتك ... أما أهلها فيسقطون فيها ، نعوذ بالله منها ومن مصير أهلها ... لقوله تعالى " ثم ننجي الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثياً " .. والسورة مليئة بالصور المتحركة التي تخلع القلوب وتزلزل الأوصال

٦-- .الجمال الموسيقية : انقسمت الفاصلة القرآنية في هذه السورة إلى قسمين :

من أول السورة إلى الآية ٧٤ نجد - غالباً - الياء المشددة بعدها ألف ممدودة تمد الأنفاس راحة وتمنح الصدر والروح هدوءاً في الحديث عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . فهناك مناجاة ودعاء ورحمات (خفياً ولياً رضيعاً سميماً سوياً عشياً نبياً علياً ...) موسيقياً تفتح القلوب وتنشط الأعصاب وتنتشر الأنس ونسمات الاسترواح .. ثم هي نفسها تنقلب إلى إصرار وعزم وتهديد حين تتحدث عن مصير المجرمين في جهنم (جثياً عتياً صليماً مقضياً) ، فتجد التهديد والوعيد القويين .

ومن الآية ٧٥ إلى آخر السور نجد - غالباً - حرف الدال المشدد الذي يناسب التهديد والوعيد والعقاب أو السكون قبل حرف الدال .. (مدّاً مردّاً إذّاً هدّاً ودّاً لدّاً ضدّاً .. عهداً عبداً فرداً)

ونجد الزاي المشددة الدالة على الغضب الشديد (أژاً عژاً) .. هذه الفواصل أسلوب تربوي لما فيها من إبهات معبرة عن العاطفة الهادئة حيناً والمائجة حيناً آخر ، العاطفة مرة والعاصفة مرة ثانية . تؤثر في القارئ والسامع على حد سواء . فتراه يلين مع الأنبياء في الحديث عنهم ، وينشط لحديث الجنة ، ويرتجف لذكر النار وأهلها . ويجتهد ليكون ممن يحشر في وفد الرحمن ويهفو لذلك . ويخاف أن يساق مع العصاة العتاة فينأى عنهم . ويرضى لرضاء الله . ويغضب لغضبه سبحانه .

٧- مخاطبة الناس بما يناسبهم : لو دعاك أحدهم بلغة جميلة وصوت عذب ، لكنك لا تعرف هذه

اللغة فهل تستجيب؟ طبعا لن تكون هناك استجابة لأنك لم تفهم ما يقول ، ولم تتفاعل معه : " ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين " ... أما إذا خاطبك بلغتك ، بل بلهجتك التي اعتدت عليها ، بل بدقائق هذه اللهجة ومفرداتها فسوف تُشد إليه ، وتنزع إلى ما يقول بلهفة .. وهكذا نزل القرآن " وإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوما لداً " . فتفهم هؤلاء وتقيم الحجة على هؤلاء . وعلى هذا أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الصحابي الشاب زيد بن ثابت أن يتعلم لغة يهود ، وقال : " من تعلم لغة قوم أمن مكرهم " ولن يدخل أحد قلوب الآخرين إذا لم يملك مقاليد اللسان الذي يترجم أحاسيسه وأفكاره .



تأملات تربوية في سورة طه (١)

في هذه السورة الكريمة معان تربوية عديدة ورائعة . ولن نستطيع الإحاطة بها . ومن ذا يدعي ذلك في القرآن - كلام الله سبحانه- الذي وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بروائع الوصف والمعاني فقال : ... وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ... وحسبنا أن نقتطف منه ثماراً يانعة ووروداً ناضرة .

١- التحجب وإنزال الناس منازلهم : فكلمة " طه " لها معان كثيرة عددها المفسرون ، لكنني سأقف على معنيين اثنين يوضحان المقصود . فقد ذكر القرطبي في تفسيره الكبير " الجامع لأحكام القرآن " أن بعض العرب مثل - عك وطيء- درجت على مناداة من تحب بكلمة طه ، ذكره عبد الله بن عمرو وقطرب . ودرجت بعض القبائل مثل - عكل - على مناداة الرجل العظيم المحترم بالكلمة نفسها طه ، ذكره الحسن البصري وعكرمة . وكأن الله سبحانه وتعالى -على فهمنا لهذين المعنيين - ينادي رسوله الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام يا حبيبي ، فهو حبيبه المصطفى وأيها الرجل الكريم ، فهو الرجل الذي كان النور الهادي إلى الله - وما يزال إلى يوم القيامة - ولو عدنا إلى الآيات التي تذكر كلمة رجل ومثناها وجمعها لرأيناها مدحاً كلها ما خلا سورة الجن في قوله تعالى " وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً " والقرآن على هذا يعلمنا أن يكون خطابنا للآخرين لطيفاً محبباً ، وأن نحفظ لهم مكائنتهم ونكرمهم ، فاحترام الناس وإنزالهم منازلهم يعود على الداعية بالحب والود ، ويفسح له في قلوب الناس القبول والطاعة ، وما كان الجفاء في يوم من الأيام سبيلاً إلى الدعوة " فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ... "

٢- الإطناب : البلاغة كما يقول أهلها " مراعاة مقتضى الحال " فالإيجاز في الحديث حين يفيد الإيجاز . والإسهاب فيه حين يقتضي الأمر ذلك . وسورة طه مكية ، تهتم كأخواتها من السور المكية بتوضيح عقيدة التوحيد وتثبيتها في قلوب الناس ، فلا بد من الإسهاب الدقيق المركز . ومثاله في هذه السورة الكريمة الآيات الخمس ، من الآية الرابعة إلى الآية الثامنة

فالقرآن الكريم أنزله من أبداع الأرض والسموات العلا .. من هو وما صفاته؟ إنه الرحمن

الذي استوى على العرش فدانت له الخلائق كلها!!... وهو - سبحانه - الذي ملك كل شيء .. ملك السموات وملك الأرض وملك ما بينهما وملك ما تحت الثرى ، فهل بقي شيء لم يسيطر عليه - سبحانه- ؟ كل ما علا وما سفل وما كان بينهما في قبضته فهل هناك مفر منه إلا إليه ؟

أفر إليك منك ، وأين إلا إليك يفر منك المستجير

ثم إنه سبحانه مطلع على الظواهر والسرائر وعلى ما هو أخفى من السرائر . أتدرون ما أخفى من السرائر؟! ... إنها الخواطر التي تلمع في أذهاننا والأفكار التي تسطع في عقولنا ثم تمضي سريعاً في عالم النسيان ... نعم ننساها ولا نتذكرها ، لكنها في علم الله سبحانه وتعالى لا تغيب.... وكيف يغيب شيء - مهما قل وخفي - عن العليم الخبير !!

فإذا خالط الإيمان بشاشة قلوبنا ، وامتزج بأرواحنا وأنفاسنا نادينا مقرين بـ " الله لا إله إلا هو " وسألناه الخير مترنين بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا.... وتعال نقراً هذه الآيات الكريمة ليكتمل المشهد الحسي الروحي العجيب " تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلا الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو ، له الأسماء الحسنی "

٣- حسن الربط بين المعاني : إن سرد الأفكار او الأحداث مسلسلة مرتبة يقيد المتلقي بأمر

عدة منها :

استيعاب الأفكار والأحداث دون انقطاع .

حسن المتابعة لما يُلقى عليه وحُسن التعامل معها .

قدرة المتلقي على الحكم السليم على ما يسمع .

الاستجابة لعدد أكبر من المعلومات والأفكار .

فبعد أن عشنا في جو الآيات السابقة جاءت قصة موسى عليه السلام توضح لقاءه بربه الكريم بأسلوب شائق غير منقطع يوضح العلاقة بين الخالق الرحيم والمخلوق الباحث عن الحق ، بين المعبود والعابد ، والرب الأمر السيد والعبد المأمور المطيع. ... فكيف يصطفيه الله تعالى

ويكلمه دون أن يكون بينهما آخرون ؟ لقد رأى ناراً هم بحاجة إليها عله يأتي منها بقبس أو يجد حولها من يده على الطريق إلى مصر ، فقد أخطأه في هذا الظلام الشديد . فوجد درب الهداية وسبيل السلام وفتح له باب السعادة على مصراعيه ، فوج من الكرامة في الدنيا والآخرة ... ذهب إلى النور مقتبساً فعاد نوراً بذاته ، يهتدي بهديه المهتدون ، فقد رأى النور وكلمه . " عرفه بذاته القدسية " إني أنا ربك "

" أني أنا الله لا إله إلا أنا " وعلمه التأدب مع العظيم " فاحلح نعليك " وكأنه يقول له اترك الدنيا وزحرفتها الفانية فأنت مؤهل لأمر جلل " وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى " ولا بد من الاستعداد لهذا التكليف الشاق والاستعانة بالعبادة والتركية لتكون الصلة بالله قوية تعين على حمل الأمانة " فاعبدي وأقم الصلاة لذكري " . وكرر موسى هذا حين طلب الاستعانة بأخيه فقال : " كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً " .

٤- التسلح بالبراهين والأدلة : لا بد حين تكلف إنساناً بمهمة أن تجهزه بما يناسب من مستندات ووثائق - إن كان الأمر يتطلب ذلك - وتوضحها له بمعلومات تساعده على إنجازها بشكل صحيح خال من الأخطاء أو بقليل منها ما كان إلى ذلك من سبيل . . . وهذا ما قدمه الله تعالى لأتبيائه في دعوتهم .

فقد كان لصالح الناقة وفصيلها ، ولسليمان الريح تجري بأمره حيث يشاء ، ولدادود تليين الحديد ، ولإبراهيم جعل النار المحرقة حديقة غناء ، ولعيسى إحياء الموتى وإخبار الناس بما يدخرون في بيوتهم ... وأيد الله تعالى موسى " في تسع آيات إلى فرعون وقومه " ذكر منها في سورة طه اثنتين : أولاهما انقلاب العصا حية تسعى ، وثانيهما وضع اليد في جيب الثوب وإخراجها بيضاء تلمع كالشمس في بريقها . وكان لكل نبي من المعجزات الباهرات ما يبهر المدعوين ويعجزهم .

٥- التحريب : أسلوب تربوي عملي ، يفيد في أمور عدة نذكر اثنين منها :

الأول : أن تثبت الفكرة في النفس كقصة إبراهيم عليه السلام إذ أراد أن يزداد بصيرة في قلبه وعقله فسأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى . مع العلم أنه شديد الإيمان بربه وقدرته سبحانه ، فأجابه إلى ذلك في سورة البقرة الآية ٢٦٠ ولم يشك إبراهيم في قدرة الله ، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ، ويدل عليه

وروده بصيغة " كيف " وموضوعها السؤال عن الحال . ويؤيد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " نحن أحق بالشك من إبراهيم " ومعناه : نحن لم نشك ، فلأن لا يشك إبراهيم أولى . والثاني : تعويد المرء على شيء يخافه ليطمئن قلبه ، فيستعد لما قد يستجد، ومثاله ما ورد في هذه السورة حين سأله الله تعالى عما في يده ليجعلها إحدى معجزاته " وما تلك بيمينك يا موسى " فأجابه بما يدل على استعمالها الكثيرة . فأمره أن يلقبها ، " فألقاها فإذا هي حية تسعى " وقد جاء في سورة النمل أنه هرب خوفاً منها " فما رآها تهتر كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب " . وتصور معي أنه لم يجربها بين يدي الله تعالى فكيف يكون موقفه وهو داعية يلقبها لأول مرة أمام فرعون وملئه فيكون أول المهارين مع أنهم - وإن خافوا - تماسكوا فلم يهربوا لن يكون الموقف لصالحه . ومع هذا فقد كان الموقف أمام السحرة رهيباً " فواجه في نفسه خيفة موسى " فهدأه الله تعالى " قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى " .

٦- الاستعانة بالصالحين : لقد هيا الله تعالى لنبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام رجالاً يعتمد عليهم في نشر الدعوة يكونون عوناً له وأزرأً . وانظر معي وصفهم في آخر سورة الفتح " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً " وهياً الله تعالى لنبيه الكريم عيسى عليه السلام حواريين يؤازرونه في الدعوة ، ويعينونه في نشرها : " كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ . قال الحواريون : نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ، فأصبحوا ظاهرين " . وهذا موسى عليه السلام حين كلفه ربه أن يذهب إلى فرعون ناصحاً وداعياً سأل ربه أن يعينه بأخيه هارون " واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري ، وأشركه في أمري " . فأعانه به لأنه سبحانه يريد للدعوة أن تؤتي أكلها ، فلا بد من تيسير سبلها والإعداد لها " قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى " .

٧- ذكر الأفضال : ليشعر من تفضلت عليه أنك هيأت له الأسباب واعتنيت به وقدمت له

الخدمات ليكون عند حسن ظنك فيما يفيد ويفيد أسرته ومجتمعه ، كأن يخاطب الأب ولده فيذكره بتربيته له وإيثاره عليه واعتناؤه به وتدريبه و... ليكون ولداً باراً بوالديه محسناً لإخوته وأخواته وكفعل المحسنين دون منّة ولا تفاخر وتفضل وإلا نفر المدعو ولم يدن مرة أخرى . فإجابة الله تعالى دعوة موسى في إرسال أخيه منّة ما بعدها منّة ، وهنا منن كثيرة ذكرها الله تعالى لموسى ليدلل اعتناؤه به وتزكيتة له وتهيئته ليكون الرسول الداعية إلى الله : " ولقد مننا عليك مرة أخرى " فحفظه أن يقتله فرعون . بل إنه ربّي في قصره وعلى عينه ، وأعادته إلى أمه كي تفر عينها ولا تحزن فلم يقبل إلا حليتها، وتبعته أخته لتعود به إلى أمه ، وحفظه أن يقتص منه فرعون لقتله القبطي ، فهاجر إلى الشام ليعيش في بيت أحد الصالحين ويتزوج ابنته ويعمل عنده ليخفف عنه الطلب ، ويقتبس الخير من الرجل الصالح ، ويعيش من كد يمينه وعرق جبينه لا أن يظل عائلة على فرعون يعيش حياة هينة لينة ، ، فحياة الدعة لا تربي الدعاة ، ولن يرفع أحد رأسه ويصدع بكلمة الحق أمام ولي نعمته والمتفضل عليه . ومن أفضل المنّة أنه رباه على عينه واصطنعه لنفسه سبحانه .

٨- احترام الكبير : من الآداب التي حض عليه الإسلام توقير الكبير . وقد نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فقال : " أن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشبهة المسلم " . وقال : " ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف قدر كبيرنا " وقال كذلك صلى الله عليه وسلم : أراني في المنام أتسوك بسواك ، فجاءني رجلان أحدهما أكبر من الآخر . فناولت السواك الأصغر . فقيل لي : كبر . فدفعته إلى الأكبر منهما " .. والأحاديث في هذا الباب وافرة . أما في القرآن الكريم فالآيات كثيرة في هذا الباب ، منها : أن يعقوب عليه السلام حين حضرته الوفاة سأل بنيه : " ما تعبدون من بعدي ؟ " فبماذا أجابوا ؟ " قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون " سورة البقرة ، الآية ١٣٣ . أبوهم يعقوب وجدهم إسحاق وأبو جدتهم إبراهيم . أما إسماعيل فعم أبيهم . ولأدبهم الذي درجوا عليه قدموا إسماعيل على جدتهم لأنه أكبر منه واحتسبوه من جملة الآباء . والعم بمقام الأب . وقرأ معي هذا الترتيب الأدبي التربوي الرائع " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ... " .

وقد أمر الله تعالى موسى وهارون بتبليغ فرعون : لكن خطاب الرب كان لموسى مباشرة ولهارون عن

طريق موسى " اذهب أنت وأخوك بآياتي ، ولا تنيا في ذكرى " فكان الأمر للثنين ولكن عن طريق موسى
كما أننا نتعلم الأدب حتى ممن ليسوا مسلمين إن نطقوا بالصواب ، فحين ذهبنا إلى فرعون بأمر
ربهما يدعوانه، فتكلما كما ورد في القرآن وأحسننا ، وجه فرعون لهما السؤال ولكنه طلب الجواب من
موسى " قال : فمن ربكما يا موسى " . فكان موسى هو الذي يحاوره .



تأملات في سورة طه (٢)

١- الاستعداد والإعداد للمهمة : الإنسان ضعيف بنفسه مهما كان قوياً ، قوي بإخوانه . كما أن عليه أن يجهز نفسه بما يستطيع للقيام بمهمته أفضل القيام . وهذا ما نراه في طلب موسى عليه السلام :

-اللجوء إلى الله تعالى والاعتماد عليه . فقد سأله أن يشرح صدره . .. إن المؤمن بقضيته إيماناً عميقاً يبذل في سبيلها كل شيء ، ماله ووقته وصحته . وعلى هذا كان أول ما طلبه موسى " قال : رب اشرح لي صدري . " وهذا ما بدأ به الله تعالى مع نبيه الكريم محمد " ألم نشرح لك صدرك " .
-ثم سأله موسى عليه السلام أن يسهل له عمل الدعوة ليحيا فيه الأمل والقدرة على الاستمرار " ويسر لي أمري " . وهذا نجده أيضاً في نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام " ووضعتنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك " . وما وضع الوزر إلا تسهيل للعمل الدعوي حين يرى الداعية نفسه خالياً من الآثام بعيداً عن السيئات ، مقبلاً على فعل الخير .

- كما أن الفصاحة والقدرة على التعبير عن الأفكار تقلب الباطل حقاً في نظر كثير من الناس ، فما بالك حين تكون هذه الفصاحة وتلك البلاغة أداة في تجلية الحق والدعوة إليه ؟ ألم يقل النبي الكريم " إن من البيان لسحراً " ؟ ولهذا سأل موسى عليه السلام ربه سلاح البيان فقال : " واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي " . وقد كان نبينا الكريم محمد أفصح الناس وأكثرهم بلاغة . روى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قوله صلى الله عليه وسلم " أنا أعرب العرب ، ولدت في بني سعد ، فأنتي يأتيني اللحن؟! " .

-الاستعانة بأولي العزم وأصحاب الهمم من المؤمنين وخاصة إن كانوا من الأقارب والأهل أو الأصدقاء والمعارف ، فهم : أعلم بصدق الداعية ، وأشد رغبة في مؤازرته والذود عنه وعن دعوته ، وهم عون له على الدعوة وأمان من الضعف وحرز من الشيطان . " واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي " .
وقد مدح القرآن الكريم أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل : كزرع أخرج شطأه ، فأزره ، فاستغلظ ،

فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيب بهم الكفار . "

-والجلس الصالح عون لأخيه على ذكر الله ، يذكره إذا نسي ، ويقويه إذا ضعف " كي نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً " . وكذلك صحابة رسول الله كما ورد في الآية قبل قليل .

٢ - خطوات مدروسة : قبل الذهاب إلى فرعون لدعوته وإقامة المحجة عليه أوصاهما الله تعالى

بأمور عدة تكون عوناً لهما في مهمتهما ، منها :

- الشجاعة وعدم الخوف : وهذه أولى الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية ، وإلا لم يستطع تبليغ الدعوة . فحين " قالوا : ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى " شجعهما وأوحى إليهما بصريح العبارة أنهما لن يكونا وحدهما " قال لا تخافا ، إنني معكما أسمع وأرى " ومن كان الله معه يسمع ويرى فأنى يخاف ؟ . وكانا ثابتي الجنان حين أعلننا بوضوح لا خوف فيه ولا لبس أن الرسالة " من ربك " وهو الذي يدعي الربوبية ويمارس بسيفها كل مفسده ، فهما ينزعانها عنه دون خوف ولا وجل . " قد جئناك بآية من ربك " بل يعلنان أنهما على هدى ، وهو وأتباعه على باطل . وأن الخير كل الخير في اتباعهما " والسلام على من اتبع الهدى " .

- التلطف في الدعوة من أقوى الأساليب لإنجاحها ، وفيه فوائد عديدة منها :

أ- امتصاص الغضب والتخفيف من الرغبة في الانتقام .

ب- دفع المدعو إلى الاستماع والتفكير بما يطرح عليه .

ت- قطع الطريق على المناوئين الذين يصطادون في الماء العكر .

ث- محاولة اكتساب بعض ذوي الأحمال من الحاضرين إلى الدعوة .

ج- شق صف المناوئين

وهكذا كان أسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمصلحين من أصحابه والدعاة إلى يومنا هذا . فالله مدح نبيه بالرحمة واللطف واللين " فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " . دخل رجل على المأمون يعظه ، فأغلظ له القول . فقال المأمون معاتباً : لقد أمر الله موسى وهو خير منك أن يذهب إلى فرعون وهو شر مني يدعوه " فقولوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى " . فانقلب الواعظ موعوظاً والموعوظ واعظاً .

- العمل الجماعي أفضل من العمل الفردي " اذهب أنت وأخوك .. " " واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، اشدد به أزرى و أشركه في أمري " .
- التسلح بالبراهين والأدلة ، فهي تنفي الشك وتزيل اللبس وتقوي الموقف وتدعم الفكرة " اذهب أنت وأخوك بآياتي ... " . على كل من يريد أن ينجح في مسعاه أن يتجهز بالوثائق والبراهين ، وأن يدعم من ينوب عنه بها .. إن القرائن آيات صدق وعامل إثبات ودليل قوة : " قد جئناك بآية من ربك " .
- الاتصال الدائم بالمرسل لتقديم التقرير بما يستجد من أمور ومواقف ، ولتجديد المعلومات وتلقي التأييد : " ولا تنيا في ذكري " . وحين أبدى النبيان خوفهما من بطش فرعون نبههما الله تعالى إلى أنهما في معيته " قال : لا تخافا إني معكما أسمع وأرى "
- معرفة الهدف والتوجه إليه ، وصب الاهتمام عليه : " اذهبا إلى فرعون " فهو الرأس ، وهو الهدف الأول فإن دان فمن بعده أسهل منه . ويحضرني قول سعد بن زرارة أحد أوائل من أسلم من الأنصار وقد نزل عنده مصعب بن عمير سفير رسول الله حين قدم المدينة المنورة داعياً إلى الله وسمع به سعد بن معاذ سيد الأوس فجاء ومعه أسيد بن حضير يزجران مصعباً ليطرده من يثرب .. يقول سعد بن زرارة : هذان سيدا قومهما ، وقد جاءك فاصدق الله فيهما . فلما وقفا عليه هز سعد حرثته وقال : ما جاء بك تسفه ضعفاءنا؟! اعتزلنا إن كان لك بنفسك حاجة . فقال مصعب : أو تجلسان فتسمعان ، فإن رضيتماً أمراً قبلتماه ، وإن كرهتماه كففنا عنكما ما تكرهان ؟ فقرأ عليهما آيات من القرآن فاستحسنا دين الإسلام ، وهدهما الله إليه ، فكان لهما من الخير على قبيلتهما ما كان إذ أسلم منها خلق كثير .
- معرفة سبب الذهاب إلى المدعو . إنه ادعى الألوهية وقال : " أنا ربكم الأعلى " فكان لا بد من التنبيه إلى أنه تعدى حدوده ، وادعى ما ليس له : " اذهبا إلى فرعون إنه طغى " والطغيان مجافاة الحقيقة وقلب الحقائق .
- المواجهة الواعية الحكيمة : إن الدعوة عمل ينبغي دراسة خطواته بإتقان وتخطيط ، وينطبق عليه ما ينطبق على أي عمل يراد له النجاح . وقد أوصى الله سبحانه موسى وهارون أن يقفا وجها لوجه أمام

المدعو فرعون " فأتياه فقولا إنا رسولا ربك " وسواء أكان المدعو إنساناً عادياً أم كان طاغية حوله الأعوان والحاشية التي تؤزّه إلى الشر أژاً وتزين له فساده وتطاوله على الحق فلا بد من أن يُصدع أمامه بالحق : فأتياه . والمواجهة ليست سلبية إنما هي إيجابية تتجلى في قول الحق والجأر به والدعوة إليه . ولكن بأسلوب حكيم: فقولا له قولاً لنا "

- وضوح الرسالة ، فقد أرسلهما الله تعالى لإنقاذ بني إسرائيل من الذل والاستعباد الذي يعيشونه تحت تسلط الأقباط في مصر وجبروت ملكهم فرعون . فكان قولهما واضحاً " فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم " لقد يئس اليهود من العدل الفرعوني ، فلا بد أن يخرجوا من مصر عائدين إلى فلسطين دون أن يمنعهم من الرحيل . فقد كان الاقباط يستخدمونهم كما يستخدم العبيد ، ويكلفونهم بمهام دونية لا يرضى الأقباط القيام بها .

٣- الحوار الهادف : لم يعترف فرعون أن الله تعالى ربه . وقد نبهه النبيان الكريمان إلى ذلك حين قالوا " قد جئناك بأية من ربك " فحين سأل فرعون موسى السؤال الأول المتوقع ممن يعاند وينكر ويكابر : " .. فمن ربكما يا موسى " كان الجواب مفحماً " .. ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه .. . ثم هدى " . وكأنه يقول له : الخالق الحقيقي الذي يخلق ويبدع فيما يفعل ، فترى كل ما يفعله رائعاً مكتملاً . ومن ثم ييسر لكل مخلوق حياته ... فأين دليل ربوبيتك أنت؟! وهنا يتلع فرعون الإهانة في هذا السؤال الذي عزّاه فانتقل إلى سؤال آخر يظن أن يداري فيه جهالته ، فوقع فيما أراد تجنبه فسأل موسى عن أسلافه الذين ماتوا ... وهذا سؤال لا يطرحه "إله" ! لأنه يعرف جوابه . لكن فرعون - لجهله - يظن أن من مات فات . ولا يعتقد أنهم سيبعثون في اليوم الآخر ، فكان في سؤاله خائباً . وكان جواب موسى عبه السلام شافياً مستفيضاً

٤- التفصيل " أهناك فائدة من الحديث إن كان مبهماً؟ أو ملخصاً لا يفني بالعرض؟ إن السائل سيحتاج مرة أخرى إلى إجابة وإجابة حتى يصل إلى الجواب المريح ... وهذا ما كان من جواب موسى عليه السلام حين سأله فرعون عن القرون الأولى :

- فقد بيّن أن ما مضى هو من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى " علمها عند ربي " وهل يضيع على الله تعالى شيء مهما صغر؟ إنه " في كتاب " فالأمور تختلط على الإنسان

الضعيف، أما الله تعالى فهو الكامل كمالاً مطلقاً " لا يضل ربي ولا ينسى " .
ومن علامات عظمة الله تعالى أنه حين خلقنا جعل الأرض صالحة لحياتنا
" الذي جعل لكم الأرض مهذا ... وسلك لكم فيها سبلاً ... وأنزل من السماء ماءً ... فأخرجنا
به أزواجاً من نبات شتى ... "

ما الفائدة من هذا كله ؟ تيسير الحياة للناس ولحيواناتهم .. أرض منبسطة...وماء... وزرع ...
" كلوا وارعوا أنعامكم ... " فمن أعمل فكره وفتح قلبه عرف أن
هذا الترتيب والنظام الكوني لم يكن عبثاً .. ولن يكون ... فمن الأرض خلقنا وإليها نعود وقد عاد فيها
أسلافنا .. ثم يشاء الله سبحانه أن يخرجنا منها تارة أخرى للحساب والعقاب أو الثواب .
" إن في ذلك لآيات لأولي النهى ...
منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم
ومنها نخرجكم تارة أخرى " .



تأملات تربوية في سورة طه (٣)

١- التوبيخ والتقرير : هو التعنيف أيضاً ، وهو التعبير مع التهديد . وهذا الأسلوب دواء لمن أخطأ فاصر على الخطأ . يستوي فيه من أخطأ وهو يعرف أنه يخطئ وأصر على خطئه ، ومن أصر على فعلته وهو يظن الصواب فيما يفعل . وإن كان الأول أشد زلة فالتوبيخ والتقرير نتيجة لتكرار الخطأ دون الرغبة في تركه إلى الصحيح من القول والفعل .

وقد يكون هذا الأسلوب :

أ- للمصرين على موقفهم فكرة وعملاً ، وأنت تعلم أنهم لا يراعون ، لإقامة الحججة عليهم ، كي لا يتصلوا فيما بعد من مواقفهم هذه .

ب- لتتخذ العقوبة المناسبة في حقهم معتمداً على القاعدة التي تقول : (قد أعذر من أندر) ، فيكون موقفهم في تذرعهم ضعيفاً .

ج- لتنبه الآخرين ان لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من الأخطاء والتصرفات الذميمة .

وموسى عليه السلام حذرهم من الافتراء الذي يجر عليهم العذاب " ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ، فيسحتكم بعذاب " فمصير الافتراء الخيية والخسران " وقد خاب من افترى " ونحن نرى أن هذا يصب في خانة التهديد والوعيد بشكل واضح . ونجد التوبيخ العنيف من موسى لهارون وهو في سورة غضبه قبل أن يعرف الحقيقة فيعود ليستغفر لنفسه ولأخيه " ... يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني ؟ أف عصيت أمري ؟ " قاله وهو آخذ بلحيته و برأسه يعنفه .

ولعل من التهديد الشديد اللهجة قوله تعالى لمن يُعرض عن القرآن ويتناساه " من أعرض عنه فإنه

يحمل يوم القيامة وزراً " وليته يحمل وزره فقط ! بل ومن أوزار الذين يضلونهم معهم بغير علم.

٢- التحدي والثبات : فالتحدي نوع شديد من المنازعة في أمر يظن كل من الطرفين أنه على

صواب أو أنه قادر على المضي فيما أراد . فهذا فرعون وعد السحرة بالخير والقرب إن أثبتوا جدارة في نزالهم السحري ! لموسى .. فحين يرون الحق فيما يدعوهم إليه النبي الكريم ويقرون بالوهية الله وأن موسى على حق يهددهم فرعون " فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا

أشدّ عذاباً وأبقى " تحداهم أن يصبروا على عذابه إياهم ، فقابله بالثبات والاستعلاء على حطام الدنيا وآثروا رضاء الله على رضاه " لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض " فرضا الله باق وأما فرعون ورضاه فزائلان . " إنما تقضي هذه الحياة الدنيا " . إن الإيمان حين يمس شغاف القلوب ويملاً حنايا الأفئدة يستعلي على الدنيا ويتشوف للباقي الخالد .

٣- التريث : قديماً قالوا (العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن) . وما دام قوم موسى حديثي الإيمان فما ينبغي تركهم يتلاعب بهم الشيطان ويتقاذفهم . فحين اختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقات الله تعالى تركهم مع أخيه هرون وتعجل يوماً قبلهم للقاء الله تعالى فارتد كثير منهم بفعلة " السامري " . فعاتبه ربه " وما أعجلك عن قومك يا موسى " كان موسى يظن فيهم الخير ، وهاهم يتبعونه " هم أولاء على أثري " وكان استعجاله إلى جبل الطور مدعاة للشيطان أن ينفرد بهم ويغويهم ولم يكن هرون من أولي العزم ، فلم يستطع الوقوف أمام عنادهم وارتدادهم حين أصروا " لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى " . فلا بد من متابعة الأتباع وخاصة الجدد منهم ومراقبتهم ، لتثبت فيهم الدعوة الجديدة، وإلا ضاعوا وذهبت الجهود سدى . وهذا ما رأيته بوضوح في الدعوة الأفقية التي تهتم بالكمية دون الكيفية . فيدخل الناس الدعوة ومعهم بعض معتقداتهم السابقة فيحدث الاختلاط في العقيدة والشوائب في التصرفات غير الواعية فيكون هؤلاء عبئاً ثقيلاً على الدعوة لا يقل سوءاً عن أعدائها .

٤- الفتنة و الاختبار : هذا الأسلوب يبين قدرة الإنسان على :

أ - الصبر على الشدائد ، والقدرة على تحملها .

ب - فهم الدعوة والثبات على المبدأ .

ج - تمحيص أبناء الدعوة وبلورة موقفهم

د - ومن ثم التألق في الدعوة ورفع في الدرجات ، أو سقوط في الهمة وفشل في المهمة

وهنا نذكر النجاح في تصرف السحرة المؤمنين ، والسقوط في من تبع السامري وارتد على عقبه .

أما السحرة الذين عرفوا الحقيقة فالتزموا فإثم قالوا لفرعون الذي هددهم بالقتل والصلب " فاقض

ما أنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ... إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر

" ثم نطقوا الجوهرة الحقيقية التي انغرست في جذور قلوبهم وصدورهم فاعتنقوها " والله خير وأبقى " .

وسنقف على سبب هذا الموقف الرائع منهم في التأمل السادس لنرى الفهم العجيب للحياة الحقيقية .
وأما قوم موسى فقد سقطوا في الامتحان سريعاً حين انفرد بهم السامري وشيطانه فظنوا العجل ربهم
وافتروا على موسى فزعموا أنه ذهب يبحث عن ربه وهو هنا بينهم يعبدونه " فقالوا هذا إلهكم وإله موسى
فنسي " . وما كانت هذه الفتنة إلا لبيان ضعف إيمانهم الهش الذي لم يتعدّ اللسان فكان إضلال السامري
لهم سريعاً " فإننا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري " . فقد كان العجل يخور ولا يتكلم وحاشا أن
يكون الإله هكذا ، ثم هو لا يتحرك ولا يملك لمن يعبده ضرا ولا نفعاً . فكيف يكون إلهاً؟! .

٥- المحاكمة العقلية : يدعونا القرآن دائماً إلى التفكير وإعمال الذهن للوصول إلى الحقيقة .
والآيات في هذا الصدد كثيرة ... إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.. لأولي الألباب ... لمن كان له قلب أو
ألقى السمع وهو شهيد ... لقوم يذكرون ... لأولي الأبصار .. فهذا موسى عليه السلام ينكر عليهم
سرعة وقوعهم في الضلال ولم يتركهم إلا يوماً واحداً "

ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً؟

أفطال عليكم العهد؟ (هل غبت عنكم كثيراً فشككتم)

أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى؟! "

ويظهر القرآن التعجب من عدم تفكيرهم السليم وسقوطهم في عبادة ما صنعوه بأيديهم ...

" أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً؟! " .

" إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، وسع كل شيء علماً . " .

ولو فكروا قليلاً في ماهية هذا الإله ما عبدوه فهو اصم أبكم ضعيف الحيلة لا يتحرك .

٦- الموازنة : نحن - معاصر البشر - إذا خيرنا بين أمرين في الدنيا كلاهما جيد نقف متأملين

نفاضل بينهما ، ونسأل أنفسنا وغيرنا أيهما أفضل ونكثر الاستشارة لنصل إلى الجواب الأمثل فنطلبه .

أفليس ذلك أحرى في التفاضل بين الدنيا الفانية والآخرة الباقية ؟ ... مهما كانت الدنيا رغيدة والإنسان

على كفر وضلال فالنهاية الخلود في نار جهنم أبد الأبدين .. ومهما عانى المؤمن من ضنك في الدنيا فجنة

الآخرة خالدة ونعيمها لا ينفد .. ومهما طالت الحياة فهي إلى الالاهة صفر لا قيمة له . . . وتعال معي

إلى هذه الموازنة ، وسمّها إن شئت " المقارنة " .

" أنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم ، لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأت مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك جزاء من تزكى " .
فأي دار يختار اللبيب العاقل ؟ .

وانظر معي كذلك إلى هذه المقارنة بين الغضب والغفران : " ولا تطغوا فيه ، فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى . وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى " . فايهما يختار الذكي الأريب؟.

٧- تهويل الموقف : ليس في عذاب الآخرة خروج عن الحقيقة إنما هو عذاب شديد أليم نسأل الله تعالى أن يرفعه عنا وأن يجيرنا منه ... والتهويل يزرع الخوف في فؤاد من يعي ويعقل ، فيجتهد ألا يقع في المحذور . وهو أسلوب تربوي فائدته أوقع في النفس من البشرى ... فالبشرى تؤثر تأثيراً عجيباً فقط في نفس من يحمل نفساً شفافة ولا يكاد يظهر فيمن لا يرعوي ... فالقلب القاسي الذي لا يردعه سوى الأخذ بالقوة .. وهنا جاءت فائدة التهويل . " يوم يُنفخ في الصور ... ونحشر الجرمين يومئذ زرقاً ... يتخافتون بينهم : إن لبثتم إلا عشراً نحن أعلم بما يقولون . إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوماً "

أليس مخيفاً أن يشتدّ العذاب ، ويطول بالكفار حتى إذا سئلوا عن المدة التي لبثوها في الدنيا ضيّعوا فقال أكثرهم - لبعد عهدهم عن الدنيا ولسوء ما يلقون في الآخرة من العذاب - ما عشنا في الدنيا سوى يوم واحد؟! نعوذ بالله من هذا المصير المرعب .

٨- السؤال : ذكر في القرآن الكريم كلمة " يسألونك " ست عشرة مرة منها على سبيل المثال :
" يسألونك عن الأنفال يسألونك عن المحيض .. ويسألونك عن الجبال يسألونك ماذا ينفقون .. فماذا نفهم من هذا السؤال ومن جوابه " قل .. ؟

أ - جاء السؤال بصيغة الجمع يسألونك ... فالجتماع المسلم ينبغي أن يكثر فيه العلماء والمتعلمون وإلا كان مجتمعاً جاهلاً .

ب - وجاء بصيغة المضارع للدلالة على استمرارية السؤال ، فالمسلم متعطش للمعرفة يرغب دائماً فيها .

ج - وكاف المخاطب إشارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو العالم الذي يستقي الجميع منه دينهم .. وهذا تنبيه إلى وجوب سؤال العالم الذي ينصح ويدل على الخير ويشير إلى الصواب . أما الجاهل فيضل ويُضل .

د - يجب تحديد السؤال ليحجب عنه العالم لا عن غيره .. عن الأنفال .. عن المحيض .. عن الجبال .. وهكذا

هـ - والكلمة " قل " دليل على وجوب إجابة السائل ، فمن كنتم علماً لجمه الله بلجام من نار .

و - الإجابة بشكل واضح لا لبس فيه ولا اختصار يريح السائل فيفهم . ومن ثم لا يحتاج أن يسأل مرة أخرى .. ومثال ذلك ما نحن فيه في هذه السورة : " ويسألونك عن الجبال : فقل : ينسفها ربي نسفاً فيزدها قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً . "

ثم تسهب في الجواب الذي يلازم نسف الجبال في اليوم الآخر " يومئذ يتبعون الداعي ، لا عوج له وخشعت الأصوات فلا تسمع إلا همساً " والجواب مستفيض استغرق الآيات ١٠٦ - ١١٤ وهذا ما نجد في ما ذكرنا من مجيء الفعل " يسألونك " إلا في علم الساعة " يسألونك عن الساعة أيان مرساها " فلا تجد كلمة قل . لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم وقت حدوثها ، فلا ينبغي التفتول على الله تعالى . أو يأمر الله تعالى نبيه أن يقول " علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو " .



تأملات تربوية في سورة طه (٤)

وأول ما نتحدث عنه من تأملات في الحلقة الرابعة والأخيرة من سورة طه

١- التصوير : وقد يتساءل القارئ : ما علاقة التصوير في التربية ؟ فأقول :

هو من الأساليب الراقية في التربية . فالإنسان روح وفكر وقلب ... وهو كذلك عين وسمع ولمس وشم ... فهو معنوي ومادي بآن واحد . فإذا عجز أحياناً عن الوصول إلى الفكرة ذهنياً وصل إليها مادياً وحسناً ... والمهم أن يصل إلى المعلومة ، وتتركز في ذهنه ، ويتفاعل معها . وهذا الأسلوب الرفيع يتخذه الأدباء للسموّ ببيانهم ، ويحتاج إليه العامي البسيط كما يحتاج إليه المثقف العالم لأغراض عدّة . منها :

- توضيح الفكرة واستجلاء المعنى ، والتأكيد عليه .

- التأثير في النفس ... يقول الجرجاني رحمه الله فإن كان - المعنى - مدحاً - كان أجمي وأفخم

وأنبل في النفوس ، وأعظم وأهزّ للعطف - سروراً وزهواً- وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

- وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر .

- وإن كان افتخاراً كان شأؤه - أمده - أبعد ، وشرؤه أجدر ، ولسانه ألدّ - أشدّ - .

- وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسلّ- والسخيمة (الغل

والضغينة . وسلّ السخيمة انتزعها وأخرجها) ، ولعرب الغضب أفلّ . (العضب حدّ السيف . وفلّه : ثلمه) .

- وإن كان واعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى للفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر

وقد أطلت عن الوصف للتصوير كي لا أعود إليه مرة أخرى حين أعرفه . بل أحيل إليه .

وانظر معي إلى التصوير المخيف في تدمير الجبال يوم القيامة وتسويتها بالأرض كأنها لم تكن ، وهي

الممتدة جذورها في الأرض ، الآخذة سموّاً في السماء : " ويسألونك عن الجبال : فقل : ينسفها ربي نسفاً ،

فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً " فلم يعد هناك علوّ ولا سفول ، فهي مستوية كميّاه البحر

في اليوم الساكن الرياح ، وكالمرمر المصقول ... ثم انظر معي إلى خروج الناس من الأرض يوم البعث ،

يتبعون الصوت الصادر عن بوق النشور مسرعين إلى مصدر النداء دون جلبة ولا صوت سوى الهمس " يومئذ يتبعون الداعي لا عِوَجَ له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً " وتأمل الوجوم وخضوع الناس الدليل التام لعظمة الله تعالى " وعتت الوجوه للحي القيوم " ... وتصور الظالم يحمل ما اقترفته يده كما يحمل العتال الحمل الثقيل " وقد خاب من حمل ظلماً " . ولعل الصورة الممتدة تتجلى في اجتماع الناس على صعيد واحد... وتأمل الحوار الذي جرى بين موسى عليه السلام والسحرة وتصور إلقاءهم حبالهم وعصيهم وسحرهم الناس ثم إلقاء موسى عصاه لتبطل هذا السحر العظيم ، وانقلاب السحرة إلى الإيمان بالله تعالى وغيظ فرعون وتهديده إياهم بالصلب وتقطيع الأيدي والارجل ، واستعلائهم على الدنيا حين عرفوا الحق وآمنوا به ... كانت الصورة متحركة فرأينا ما فعله السحرة ثم ما فعله موسى ، ورأينا السحر الكبير يتحول فجأة هباء منثوراً ، وسمعنا الحوار بين السحرة وفرعون ، ثم بينهم وبين موسى ، وسمعنا التهديد والوعيد من فرعون بالبطش والتنكيل ، وإصرارهم على الإيمان بعد أن ذاقوه ودخل أفئدتهم ولامس شغاف قلوبهم ... إن التصوير حين يمر أمامنا كأنه فيلم سينمائي شاغلاً حواسنا السمعية والبصرية يرسخ الفكرة والمعنى في الأذهان والنفوس فتنتطبع في ذاكرتنا فلا ننساها ... ونجد هذا التصوير البديع من الآية السادسة والخمسين إلى الثالثة والسبعين .. والصور تملأ السورة فتموج فيها الحركة ، وتبعث في القصة الروح والحياة . فتشد انتباه القارئ أو السامع وكأنه يعيش معها واحداً من شخوصها .

٢- الوضوح في التعامل : يجلي الفكرة ، ويزيل اللبس ، ويضع النقاط على الحروف . وهذا واضح في السورة الكريمة . من ذلك قول السحرة لموسى عليه السلام " قالوا يا موسى : إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ، قال : بل ألقوا " فكان التنافس أن يبدأ السحرة برضى من موسى فقد تركوا له الخيار ، فاختر أن يكونوا هم البادئين ، وكانت خطتهم أن يبهره بسحرهم فيشلوه من الخوف ، فيربحوا في الجولة الأولى دون عناء فيستسلم لهم دون مقاومة ولو كان أمر موسى من عمله لنجحوا في خطتهم ، لقد خاف موسى لأنه بشر " فأوجس في نفسه خيفة موسى " وكانت خطته التي أمره الله بتنفيذها أن يتركهم يظنون ما يظنون منتشين بما فعلوا ثم يفجأهم بالضربة القاضية فيزلزل أركانهم فيستسلموا ابتداءً ... هكذا كان . والله غالب على أمره فقد طمأنه المولى تعالى حين أوحى إليه " قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى " فماذا حصل؟

" فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى " .

ونجد الوضوح في موقف آخر ، إذ أمر الله تعالى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون بمهمة محددة " اذهبوا إلى فرعون إنه طغى ، فقولوا له قولاً لئناً لعله يتذكر أو يخشى " " فقولوا : إنا رسولا ربك أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم إنا قد أوحى أن العذاب على من كذب وتولى " لقد طغى ، فوجب تذكيره ليعود إلى الصواب ويسرح اليهود الذين استعبدتهم وإلا وقع العذاب عليه .. وليكن التهديد بأسلوب هيّن لئّن ، إن الرفق أدمى إلى الاستجابة . هذا ما طلب إليهم ، وهو أمر واضح لا لبس فيه .

٣- التحذير : أسلوب يتبعه المحب لمن يريد تهذيبه ، والمبغض لمن يود تنبيهه ، والمربي لمن يريد تعليمه . ليكون الطرف الثاني على بينة مما قد يكون ، فلا يقع في الخطأ .

وقد يكون التحذير مبطناً بالنصيحة . فالخاسر من يلقي ربه آثماً فيكون خالداً في النار " إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى " وكذلك في قوله سبحانه محذراً من الإعراض عن القرآن تلاوة وفهماً وتطبيقاً " وقد آتيناك من لدنا ذكراً من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً " . أما الإعراض عن ذكر الله في الدنيا فله عقوبتان : الأولى دنيوية " ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً " والثانية أخروية " ونحشره يوم القيامة أعمى " .

وقد يكون التحذير من العدو الأول للإنسان : الشيطان وأحبابه .. فقد أعلن هذا المخلوق عداوته لآدم وذريته : " فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " وذلك حين رأى نفسه أعلى مرتبة من آدم وذريته ، فكيف يسجد له ؟ " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى " فكان التحذير منه فضلاً من الله تعالى علينا وتنبههاً " فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجكما من الجنة فتشقى " ولكن لأمر أراه الله تعالى سقط آدم عليه السلام في شرك إبليس فغوى ، وأنزله الله إلى الأرض بعد أن تاب عليه ليختبره وذريته وليكون الامتحان .. ففيه يُكرم المرء أو يُهان .

٤- الأمر والنهي : فالأمر بالشيء : تكليف به وحث عليه ، وهو الأصل ، لأن فيه دفعاً إلى العمل . ولا حياة بلا عمل ينشئ سعادة للإنسان ... والنهي عنه : منعه وتحريمه ، لأنه ينقي الحياة من الشوائب التي تعترض سبيل الإنسان وتغص عليه . والحياة تجري بين الأمر المباح والنهي الممنوع . فمن أمثلتهما في هذه السورة : " ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ، وقل رب زدني علماً " ومن

الأمر كذلك " فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك ... ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى " ومن النهي : " قال لا تخافا ، إني معكما أسمع وأرى " وقوله سبحانه " فلا يصدّنك عنها من لا يؤمن بها " .

٥- الحوار : مر معنا في مقالة سابقة أن الحوار يثري المخاطب سامعاً وقارئاً ، ببراهينه وأدلته وطريقته ، ويثبت الفكرة بإشغال أكثر من حاسة . وفي هذه السورة الكريمة نجد أطرافاً عدة من المتحاورين .. ففي أول السورة حوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام إلى الآية الثالثة والأربعين ونجد حواراً آخر عند جبل الطور ...

ثم هناك حوار قصير بينه تعالى وبين نبيه الكريمين موسى وهارون إذ أمرهما أن يذهبا إلى فرعون .

ثم حوار بين موسى وفرعون من الآية ٤٩ إلى الآية ٥٩

ثم حوار بين موسى والسحرة من الآية ٦١ إلى الآية ٦٥

ثم حوار بين السحرة المؤمنين وفرعون من الآية ٧١ إلى الآية ٧٦ على أرجح الأقوال .

وحوار قصير بين هارون وقومه .

ثم حوار بين موسى وهارون حين رجع إلى قومه بعد ما أضلهم السامري .

ثم حوار بين موسى والسامري .

ثم جمل قصيرة فيها حوار بين الله تعالى وآدم .. ثم وسوسة الشيطان لآدم

وأخيراً الحوار بين الله تعالى والذي صار أعمى في الآخرة لعمايته عن الحق في الدنيا وهكذا يثري

الحوار الموضوع بالصوت والصورة ولا سيما حين تدخل " إذ " على الحوار فتقلنا إلى مكانه وزمانه

" إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا

إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ...

إذ تمشي أحتك فتقول ...

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا للآدم " .

٦- العرض المنطقي : لا يترك الله تعالى للكافرين حجة يوم القيامة يحاجونه بها . فأرسل لهم في

الدنيا رسولاً كريماً يذكرهم بالله تعالى ويدلهم عليه ويعرفهم به ، فلا يبقى لهم ما يتعللون به إذا سألهم يوم

القيامة ... " ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : ربنا لولا أرسلت رسولاً إلينا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ؟ " ولأنه سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً جلى الأمور، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين . بل إنه سبحانه يرد ابتداء على من طلب من أهل مكة المعجزات من النبي عليه الصلاة والسلام: حيث سبقتهم الأمم فطلبت المعجزات من أنبيائهم فكانت الناقة والعصا وإبراء المرضى وإحياء الموتى فما زادهم إلا ضلالاً وكفراً... ولئن اقترح هؤلاء الدليل على نبوته فقد جاءت الكتب السابقة مبشرة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام بصفاته واضحة : " وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه؟ او لم تأتكم بينة ما في الصحف الأولى " ثم انظر إلى الجواب المنطقي لسؤال الكافر الذي كان في الدنيا مبصراً ، وحشر يوم القيامة أعمى " قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى " .

٧- التقعيد : كل بناء له أساس يقوم عليه ، وقاعدة يرتكز عليها . ولن تجد بناء متيناً إذا لم

يقم على أسس صلبة وقاعد ثابتة . وأولى القواعد المتينة وحدانية الله تعالى

" قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد " .

ومن هذه القواعد الرئيسة في هذه السورة أن الرزق من عند الله تعالى " لا نسألك رزقاً ، نحن نرزقك

" والقاعدة الثانية : أن الغلبة لمن اتقى : " والعاقبة للمتقوى " والقاعدة الثالثة " ومن يعمل من الصالحات

وهو مؤمن فلا يخاف ظمناً ولا هضمًا " . والقاعدة الرابعة " ولولا كلمة سبقت من ربك " وهذه الكلمة

التي سبقت " أن الساعة آتية لا ريب فيها " وإلا حل العذاب على الكافرين بمجرد كفرهم . ونظرة متأنية

في هذه السورة ترينا كثيراً من القواعد الثابتة في الحياة والكون أدعها للقارئ الكريم .

٨- البداية والنهاية الموفقتان: براعة الاستهلال تستقطب المخاطب سامعاً وقارئاً .. وهذا ما

نراه واضحاً في أول السورة " طه .. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ... " ف " طه " كما

قدمنا أ- تحبب للرسول الكريم ومدح له وتعظيم لشأنه ثم نجد

ب- أن القرآن تنزّل من الله تعالى ذي الصفات الحميدة . مما يجذب المخاطب إلى قراءة السورة

بشغف وحب واطمئنان .

ونجد النهاية تقسم الناس إلى قسمين .. مؤمن وكافر .. وكل منهما يتربص بالنهاية وينظر إليها

.. فمن الفائز يا ترى؟ أهم المؤمنون الأتقياء أم هم الكافرون الأشقياء؟ ومن على الصراط المستقيم؟ ..

أهم الذين رضي الله تعالى عنهم ؟ أم من غضب عليهم؟! ... إن عدداً لناظره قريب . " قل كل متربص
فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى " .



تأملات تربوية في سورة الأنبياء (١)

هذه السورة المباركة تتحدث عن غفلة المشركين عن الساعة الوشيك حدوثها ، وقد زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي أن يكون رسولاً لأنه بشر ونسوا أن الأنبياء كلهم بشر ، وقالوا عن القرآن كما قال الأولون : سحرٌ ، وشعر وأضغاث أحلام ، فقصم الله الأولين ، ولئن استمر أهل قريش على ضلالهم ليفعلنَّ الله بهم كما فعل بالهالكين قبلهم .

ويطيب الله تعالى في هذه السورة قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقصص الأنبياء الصالحين قبله ، فقد أصابهم ما أصابه من عنت المشركين وضلالهم ، وعلى رأسهم أبو الأنبياء إبراهيم عليهم السلام جميعاً .

١- حين يريد الله تعالى بعبد من عباده الخير ، وأن يجعله من سعداء الدارين يكرمه بالهداية منذ

الصغر ويحيطه برعايته ويربيه التربية التي تليق به داعياً ومرشداً . وعلى راس هؤلاء السعداء أبونا إبراهيم عليه السلام حيث يقول سبحانه " ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين " فقد أخبرنا المولى تعالى أنه آتاه الفهم الثاقب والنظر المتأمل والتفكير الصائب مذ كان صغيراً فألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى " وتلك حجتنا آتيناه إبراهيم على قومه " .

٢- فبدأ يعيب على أبيه وقومه قومه عبادة أصنام لا تعي ولا تعقل ، والأنكى من ذلك أنهم

يصنعونها بأيديهم ثم يعكفون على عبادتها ، فهل يعبد العاقل ما يصنعه بيديه أم تراهم يعبدون بذلك أهواءهم ورغباتهم ؟ وكأنهم يكرسون عبادة الإنسان وشهواته ويشرعون سطوة القوي منهم على الضعيف المغلوب على أمره . وهنا يأتي دور النبي والداعية الذكي الذي عليه أن يحاورهم ويعلمهم ثم ينقذهم مما هم فيه ، فيسائلهم " ... ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟! " فلا يجد من جواب سوى أنهم ألقوا آباءهم كذلك يفعلون " قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين " وكأنهم بهذا التقليد لآبائهم قد أراحوا أنفسهم من عناء التفكير ، والبحث عن الحقيقة ، ولعلمهم يجدون التعليل المناسب لاستمرارهم في غيهم وضلالهم ، بل يظنون أنهم يفعلون عين الصواب حين يسرون على هدي أسلافهم . وهم بهذا يريدونه أن يدعهم وما يعبدون فلا يسفته ما يعتقدون .

٣- الداعية الشاب إبراهيم يرى جواهرهم يحط من قدر الإنسان . إذ كيف يرضى ذو العقل

والفهم أن يقلد غيره دون فهم ولا روية ؟ لقد سألهم محفّزاً عقولهم وقلوبهم أن يتدبروا ما هم عليه ، فما وجد سوى التبعية لخطأ آبائهم ، وهو حين سأل الناس كان أبوه أول المسؤولين " إذ قال لأبيه وقومه ... ، فالولد يجب أباه ويحمله . ومن تمام الإجلال أن ينيهه إن أخطأ ، وليس عيباً أن ينيه الصغير الكبير وأن يحذره ، ثم يهديه . وإبراهيم حريص على هداية الناس وهو أحرص على هداية والده وأقربائه ، ألم يقل الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم " وأندر عشيرتك الأقربين " ؟ .

٤- لا بد من الصدع بالحقيقة ولو كانت مُرّة وصعبة القبول عند قوم كان الضلال رائدهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، وكانوا يعتزون بما ورثوا عن آبائهم واعتقدوه صحيحاً لا يرقى الشك إليه فقال لهم بصريح العبارة " لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين " وهذه قمة الشجاعة في الداعية حين يصدع بالحق دون خوف ولا وجل ، ويقول ما يعتقد به بقوة دون مواربة . فالرجال يُعرفون بالحق ، ولا يُعرف الحق بالرجال ؟ .. أنتم وآباؤكم ضالّون عن الطريق الواضح البيّن .

٥- وحين يختلط الأمر عليهم ويستنكرون ما يقول يسألونه بلسان منعقد من المفاجأة التي وقعت عليهم " أجتئنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟ " ولمْ سألوه هذا السؤال؟ أفعلوا ذلك ليصلوا إلى الحق الحقيقي أم يستنكرون ما أتاهم به؟ أم يسخرون منه ويهزأون؟ أم إن الأمر خليط بين هذا وذاك؟ إنه أعلن ذلك على الملأ، لا يخاف سطوتهم ولا يخشى عقابهم . وعرفهم برهم المعبود الحق الذي يستحق العبادة وحده " قال بل ربكم ربُّ السموات والأرض الذي فطرهنّ " فهو الخالق لكل شيء، وسبب الوجود . ثم رفع الوتيرة حين شهد لله الحق بالوحدانية المطلقة " وأنا على ذلكم من الشاهدين .."

٦- لم يكتف الداعية بالمحاجة باللسان بل وطن نفسه على مكابدة المكروه في الذب عن الدين، فقرر كسر أصنامهم ليعاينوا ضعفها وهوانها علّ الغشاوة تنجلي عن أعينهم فيكفرون بها ويؤمنون بالله وحده . وأقسم بالله ليفعلنّ ذلك في غفلة منهم ليُفاجئوا بما فعل فيهتزوا هزة قوية يفكرون بعدها بما هم عليه من إفك وزور وضلال . قال ذلك في نفسه، فما ينبغي لمن عزم على أمر أن يُفشييه قبل إتمامه، والتمس يوماً يخرجون فيه إلى عيد لهم بعيداً عن المدينة فيغتتم فرصة خلوّ المعبد منهم، ويحطم أصنامهم . ولا بد من كتم السر فالرسول ﷺ يقول " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. " .

٧- دخل المعبد يحمل الفأس يضرب في الأصنام بقوة ففتتها وجعلها قطعاً صغيرة " فراغ عليهم ضرباً باليمين " إلا كبيرها لم يكسره ، وعلّق في عنقه الفأس ليحتج به عليهم . ويبين ضعف معتقداتهم بألتهم المفتراة ، لعلهم يسألون هذا الإله الكبير عمّن فعل بصغاره هذا الفعل المهين ، ورآه هذا الإله فلم يتحرك مدافعاً عنهم ، بل قبل الإهانة حين علّق الفأس على عنقه مقهوراً .

٨- ولكنّهم لم يسألوا هذا الربّ فهم يعرفون أنه حجر أصم لا يعي ولا يعقل ، فتساءلوا فزعين مما رأوا " قالوا : من فعل هذا بألتهنا؟! " وكان أولى بهم أن يسألوا كبير الآلهة " من فعل هذا بصغارك وأنت أعمى أحرص ! " وكان أولى بهم أن يكسروه ويفتتوه ويُلحقوه بالآخرين - لو كانت لهم عقول - ولكن تساءلوا فيما بينهم ليصلوا إلى الفاعل الذي حطّم معتقداتهم وذوّأها في الهوان والمذلة . " إنه لمن الظالمين " ولنتساءل : من الذي ظلّم؟ إن كانت الآلهة فهي - على زعمهم - قادرة على الدفاع عن نفسها ومعاقبة من يسيء إليها ، بله أن يفكر في ذلك ! وإن كان عبّادها المظلومين ، فقد ظلّموا أنفسهم - ابتداء - بعبادة آلهة ذليلة ، وإن كان الفاعل ظلّم نفسه بتحطيمها وكسرها فقد أحسن إلى نفسه حقيقة ولم يظلمها ، وهل القضاء على الخبث والفساد ظلّم؟!

٩- ويبحثون ويسألون ، ثم يتذكرون أن الفتى إبراهيم ذكر ألتهم بسوء وخفضّها وحقرّها ، فلم لا يكون هو الفاعل ؟ " قالوا سمعنا فتى يُقال له إبراهيم " فجاءوا به على أعين الناس ليقرروه ويحاسبوه ويعاقبوه إن ثبت أنه الفاعل الأثيم !! . جاءوا به على أعين الناس ليظهروا أنهم حماة العقيدة ورجالها ! ، وليخاف من تسوّل له نفسه أن يفعل هذه الفعلة في قابل الأيام !! ويسألونه أمام الجميع " أنت فعلت هذا بألتهنا يا إبراهيم ؟ "

١٠- لم يكن يريد الكذب حين أشار إلى الفأس معلّقة بعنق كبير الآلهة وزعيمها قائلاً " بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون؟! " ولم لا يكون كبيرهم قد قتلهم كي لا يشاركوه ألوهيته؟ والدليل قائم فالفأس يشهد على إجرام كبير الآلهة ، ولن يستطيع الدفاع عن نفسه فأداة الجريمة موجودة، وهو قائم في مكانها لم يبرحه ، وهؤلاء القتلى المتخنون بجراحهم ما زالوا في أرض المذبحة ، ولعل أحدهم لم يلفظ أنفاسه بعد ، فاسألوهم يخبروكم !

١١- حين يخلو الإنسان إلى نفسه دون كبرياء ولا استكبار يصل إلى الصواب ويعرف الحقيقة .

وهذا ما قاله الجميع ابتداء " فرجعوا إلى أنفسهم ، قالوا : إنكم أنتم الظالمون " وما أجمل أن يعترف المخطئ بخطئه ، ويرجع عن غيه وضلاله ، إذأً فالحياة حلوة جميلة .. لقد اعترف الحاضرون أنهم يعبدون أصناماً هم صانعوها ، وأرباباً هم أوجدوها . لكن الشيطان اللعين والنفس الأمارة بالسوء لا يتركان الإنسان في صفائه الروحي ، إنما يوسوسان له ، ويقلبان الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والاستكبار غمط للحق والجبروت أسرُّ له وقتل . هذا ما كان من الكبراء حين رأوا الزعامة قد تطير من بين أيديهم إن وافقوا الفتى فيما يقول ، فسرعان ما عادوا إلى الضلال بعد أن كانوا على أبواب الهدى ، ومشارف سبل السلامة . " ثم نُكسوا على رؤوسهم " واتخذوا موقع المحجوم ليستروا عوراتهم ويُضلوا العوامَّ من حولهم فاتهموه بتكسير الأصنام حين قالوا له : " لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " .

١٢- ويرى الفتى إبراهيم أنهم لن يسلكوا سبل الهداية - فالكبر يُعمي صاحبه ، ويقذفه في مهاوي الفتن والضلال ، فقرعهم ، وهزئ بهم وبآلهتهم " أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ، ولا يضرركم " ما هذه الآلهة البليدة التي يتحكّم بها عبّادها ؟ ولم يُعبد إله لا يضر ولا ينفع ؟ إنّها الرّدّة البشرية إلى أعماق الجهالة والهمجية ، إلى الطور البهيمي ! أفتعبدون أيها القوم هذه الآلهة البكماء ، وقد علمتم أنّها لم تمنع نفسها من أرادها بسوء ، ولا هي تقدر أن تجيب إن سُئلت عنم يأتيتها بخير فتخبر ، أفلا تستحون من عبادة ما كان هكذا ؟ أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل فاجر ظالم . " أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ؟ " نعم ، إنهم وأمثالهم لا يعقلون . فأقام عليهم الحجة والزمهم بها ولهذا قال تعالى " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه "

١٣- لا يتحمل الظالم المتجبر أن يرفع الراية البيضاء ويستسلم . فهو في هذه الحياة الدنيا يقلب الحقائق ، وويجترح كل المخازي ليكتسب الصوت الحر ، ويقطع لسان الحق ، ويطمس نور الهداية . لا بد من القضاء الكامل على من يقف أمامة ويجعل نفسه له نداءً . ويتداعى الظلمة وأعوانهم إلى تحريق الفتى وأمثاله على مدى التاريخ ليصفو لهم الجو ، " قالوا حرّقه " والتحريق فوق الإحراق وأشد منه بمراحل . لكنّ الذي نراه في المتجبرين الظالمين يتكرر دائماً ، فهم نسخة واحدة تتجدد . لقد قالوا " حرّقه وانصروا آلهتكم ! " والحقيقة أنهم يريدون نصر أنفسهم فقط ، وما هذه الآلهة إلا صورة يحكم الجبابرة -

في كل زمان ومكان - من ورائها ، ما هي إلا ظل لهم ليس غير ، ألم يقل فرعون " ذروني أقتل موسى وليدع ربه ! إن أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد؟! " وتصور أن فرعون المتعطرس يتهم الداعي الأول في عصره بالفساد ، يتهم أحد الرسل أولي العزم كليم الله تعالى بالفساد ، ويأمر - ديموقراطياً - بقتله ليتخلص من شروره !!! إنها الديكتاتورية في كل آن ومكان تنطق بلسان واحد .

١٤- وينسى الظالمون أن الله تعالى ناصر دعوته ، ناصر رسله ، ناصر دعائه ولو بعد حين .
ويلقى الداعية الأول أبو الأنبياء في النار ، فيأمرها خالقها أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم ، فتكون . وهل تملك غير ذلك ؟ إنه سبحانه الذي وهبها خاصية الإحراق ، وهو الذي يمنعها إياها متى أراد " قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين " انتصر إبراهيم في الدنيا وكان في صف الأنبياء الأوائل في الآخرة وصلى الله عليه إلى يوم القيامة ، وأمرنا بالصلاة على نبينا كما صلى الله من قبل على أبيه إبراهيم ..

اللهم رب إبراهيم ومحمد اغفر لنا ذنوبنا ، واستر علينا عيوبنا ، واختم بالصالحات أعمالنا ...

اللهم آمين ، يا رب العالمين .



تأملات في سورة الأنبياء (٢)

ما ينبغي أن تكون حياة الإنسان دون هدف ، ولا يجوز أن يعيش دون أسس وقواعد تجعل منه إنساناً سوياً يقتنص الفائدة وينفيض على غيره منها - فهو جزء من هذه البشرية الاجتماعية - وتجعل من حياته قدوة يحتذيها غيره ، فيتنافسون لسعادتهم جميعاً. وسندكر بعض القواعد التربوية الرائعة في هذه السورة نعيش في ظلها ونتدارسها لنفيد منها دروساً عملية وحياة نافعة :

١- لم يخلقنا الله تعالى للهو واللعب ، لقد خلقنا لهدف سام وبين لنا - منذ البداية - النهاية التي نختارها نحن بأنفسنا . وقد " اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون " بل إنهم مصرون على ذلك " ... وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم " مع أن الله سبحانه كرر في أكثر من آية كريمة قوله " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين " . إن التفكير فيما حولنا من بناء الأرض المتوازن لتكون أهلة بالمخلوقات لدليل على أن وراء الترتيب أمراً يريد الله تعالى لا ينبغي أن نغفل عنه " وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون " وهذه السماء فوقنا بناء عال محروس مرفوع لا يصل إليه إلا من شاء الله وما فيها من نجوم وكواكب وشموس وأقمار دليل على عظمة الخالق سبحانه ودعوة إلى الإيمان به وعبادته " وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ، وهم عن آياتها معرضون " والحقيقة أن من أغلق عقله وقلبه ورضي أن يعيش كالبهائم دون تفكير وفهم وتدبر لآيات الله ، فلا يلومنّ إلا نفسه .

٢- في هذه السورة كما في أخواتها تحذير من نهاية المكذبين المستكبرين " ثم صدقناهم الوعد ، فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين " والإهلاك في الدنيا دليل على العقاب الشديد في الآخرة ، فالعقاب يكون في الدارين لمن عصى واستكبر ، وقرأ معي هذه النهاية المخيفة للظالمين " حتى جعلناهم حصيداً خامدين " فيخمدون بعد حركة وحياة ونشاط كالزرع اليابس . وتأمل الصورة المهينة للكافرين الذين تأكل النار كل ذرة في أجسامهم وهم مقهورون " لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، ولا هم يُنصرون ، بل تأتيهم بغتة ، فتبتهتهم ، فلا يستطيعون ردها ولا هم يُنظرون " وكلمة " لو يعلم " كشف للحجاب وتقريب للصورة . ولا يفهم هذا إلا أولو البصائر . حين تأتيهم النار فجأة من كل مكان ، وتحيط بهم ، فإذا هم وقودها ، تنوشهم من كل أطرافهم ، فيستسلمون . وتأمل

كذلك كلمة " حاق " وهي الإحاطة الكاملة التي لا مفر منها " فحاق بالذين سخرُوا منهم ما كانوا به يستهزئون " وما الذي حاق بهم وأحاط ؟ إنها النار التي كدّبوا بها وهزئوا بالأنبياء الكرام الذين حدّروهم من الوقوع فيها .

٣- ومن العجيب أن أسئلة الاختبار وأجوبتها معروفة على غير ما عهدنا بامتحانات الدنيا ، فالله سبحانه يريد لنا النجاح في الدارين ، فكان طريقه الذي أمرنا بسلوكه واضحاً لا لبس فيه ، ولو سألنا أنفسنا : لماذا يوم القيامة ؟ لجاءنا الجواب شافياً لتساؤلات ذوي الألباب والفكر الرشيد " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تُظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين " لقد أمر الناس في الحياة الدنيا بالعمل الصالح والإحسان في كل أمورهم ، فلا ظلم ، ولا فساد ، بل عدل وإصلاح . ولا كذب ولا زور ، بل صدق واستقامة . فمن أدى المطلوب منه في الفانية نال الخير في الباقية .. إننا نرى في حياتنا صوراً من الظلم والفساد والإيذاء وتغييب الحق من أناس قادرين يفعلون ما يشاءون دون وازع ولا خلق ، ثم ينتهي أجلهم وهم على حالتهم هذه من الصلف والكبرياء والتعجب . فأين الحق وأين العدل اللذان نادى بهما الرسل والدعاة ؟ أين عمارة الأرض - ولا تعمر إلا بالهدى والرشاد - وأين حساب هؤلاء الطغاة ، وأين الانتصاف منهم ؟ لا بد من يوم تجتمع الخلائق كلها فيه ليأخذ العدل مجراه ويُحاسب الناس ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٤- " كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا تُرجعون " قاعدة أصيلة تعني أن المرء مبتلى بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط ، و بالشدة والرّخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال فإذا رجعتم إلى الله تعالى جازاكم بأعمالكم . فالدنيا دار اختبار وتمحيص سرعان ما تنتقل عنها إلى غيرها ومن ذا لا يموت ؟ و " التدوّق " يعني الاستغراق الكامل في الموت إذ تموت الجوارح كلها فتنسل الروح من كل ذرة من ذرات الجسم . ولا ينجو من الموت أحد أكان إنساً أم جنّاً أم ملكاً أم حيواناً ، فإذا لف المخلوقات كلّها العدم قال الله تعالى " لمن الملك اليوم ؟ ! " أجابه لسان الحال " لله الواحد القهّار " .

٥- يتبادر إلى ذهن الكثير من الناس سؤالان اثنان :

أ- هل ينبغي أن يكون للكون إله ؟

ب- أهو وحده أم له شركاء ؟

والجواب على السؤال الأول أنه لا بد لكل حادث من مُحدث ، فمن البدهي أن ما حولنا لم يوجد صدفة ، فقانون الصدفة ساقط من أساسه لا يقبله عاقل . فلو أنك رَقمت عشر قطع نقدية ووضعتها في جيبك ورغبت أن تخرج القطعة ذات الرقم خمسة فقانون الصدفة يقول : إن نسبة إخراجها واحد على عشرة ، ولو أردت أن تخرجها في المرة الخامسة فإن قانون الصدفة يقول : إن نسبة خروجها في المرة الخامسة واحد على مئة ، ولو ردت إخراج القطع مرتبة من الواحد إلى العشرة فقانون الصدفة يقول : إن نسبة خروجها واحد على واحد أمامه عشرة أصفار . والنظام الكوني المنتظم البديع الترتيب لا يحتمل الصدفة ، فلا بد من وجود قوة أوجدت كل هذا الخلق الرائع المتناسق .

وجواب السؤال الثاني أن الإله كامل كمالاً مطلقاً ، فإن تصورنا أن هناك إلهين اثنين ، فينبغي أن يكون كلاهما كاملاً كمالاً مطلقاً ، فإن تطابقا في كل شيء فهما - بدهاة - إله واحد ، وإن قلَّ أحدهما عن الآخر فهو ضعيف مقهور للأول ، وبهذا تنتفي إلهيته . فالإله لا يُقهر ، وهو كامل كمالاً مطلقاً لا تشوبه شائبة . ومن هنا نقول ليس للإله شركاء ، إنما الجميع عباد وهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، والولد له بداية ومن له بداية له نهاية ، ومن كانت له بداية ونهاية فهو محدود تعتريه العوامل ، والله تعالى هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية . والكامل المطلق لا تعتريه العوامل فهو خالقها وموجدها . والسماء والأرض لله الواحد لا يشاركه في ملكه مشارك " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .. " وماذا يفعل الشركاء حين يتنازعون فيما بينهم ؟ إن شأنهم كالشركاء المتنافسين يختلفون ويتنازعون ، ويُقضون الشركة ، أو يكيد أحدهم للآخرين ويستخلص منه نصيبه ، ويطرده أو يستخدمه موظفاً لديه وعاملاً عنده " ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون "

٦- الإيمان بالله والعمل الصالح ينجي صاحبه ويرفعه في عليين يقول تعالى في الآية ٩٤ من

هذه السورة " فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون " وقصص الأنبياء في هذه السورة برهان على ذلك فموسى وهارون عليهما السلام حملا التوراة ودعوا إليه فكانا قدوة " ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرًا للمتقين " وكان إبراهيم عليه السلام الأسوة الأولى

للمسلمين ، - وقدمت قصته في المقال السابق - فنجاه الله من كيد الكفار ورفع ذكره ، ووهبه ولداً من زوجته سارة وحفيداً صالحين وجعل لوطاً نبياً من الصالحين " ولوطاً آتيناها حكماً وعلماً " ، فكانوا مع إبراهيم أئمة للناس وقدوة صالحة في عمل الخير وتعليمه " وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين " ثم خص لوطاً بالنجاة من شياطين الفساد في قريته ورحمه رحمة واسعة " ... ونجيناها من القرية التي كانت تعمل الخبائث..... وأدخلناه في رحمتنا إنه كان من الصالحين " وكذلك استجاب لنوح حين نادى " إني مغلوب فانتصر " فكان الإنقاذ السريع " فاستجبنا له ، فنجيناها وأهله من الكرب العظيم " وأكرم داود وابنه سليمان بالعلم والفهم ، وسخر مع داود الجبال والطيور تسبح لله ، كما علمه سرد الحديد وصنعه ، وسخر لسليمان الريح تجري بأمره ومردة الجن تخدمه في الآيات (٧٨ - ٨٢) .. وعودة إلى سورة الأنبياء في إكرام الأنبياء نجد فضل الله عليهم واسعاً ممتداً يعطيهم الجزيل ويهبهم من رزقه الفضيل .

نسأل الله تعالى أن يكرمنا ويعفو عنا، ويحشرنا مع الأنبياء والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.



تأملات تربوية في سورة النور (١)

سُمِّيَتْ سورة النور لأحد سببين أو لكليهما . فهي أولاً : تحوي قوانين اجتماعية ونظماً تربوية تملأ حياة من التزمها نوراً وسعادة . وفيها ثانياً : قوله تعالى في الآية الخامسة والثلاثين " الله نور السماوات والأرض " . وقد جاءت تسميات السور الكريمة حسب ما ورد فيها من أسماء مميزة كـ " آل عمران ، والأنبياء، والضحى . " أو ما جاء من قصص صبغت السورة بصبغتها كـ " البقرة ، والأحقاف ، وهود . " ومن المفارقات الذكية أن الشاعر " أبا تمام " مدح الأمير الواثق بالله قبل أن يرث الخلافة عن أبيه المعتصم بالله ، فكان مما قاله فيه يستعير صفات بعض الرجال المشهورين :

إقدام عمرو في سماحة حاتمٍ في حلم أحنف في ذكاء إياس

وقد كان عمرو بن معد يكرب مشهوراً بالقوة والشجاعة . وحاتم الطائي معروفاً بالكرم والجود . والأحنف بن قيس علماً في الحلم وسعة الصدر . وإياس القاضي الذكي الأملعي عادلاً تقياً ... فجمع للواثق صفاتهم جميعاً في البيت السابق فقال الحاسدون بيغون الكيد له : الأمير فوق ما ذكرت - قاصدين إحراجه والنيل منه - فلا هو قادر أن ينفي ذلك ، فيجعلهم فوق الأمير - فالمشبه به فوق المشبه - فيغضبه . ولا هو قادر أن يقر لهم بالدونية كي لا يُقال له : كيف تشبهه بمن هم دونه؟! إنك إذ ذاك تقدح فيه ذماً ولا تقول مدحاً!! فارتحل بيتين رائعين يدلان على ذكائه وعبقريته ، ألقم بهما الحاسدين أحجاراً :

لا تعجبوا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس !

فقال لذكائه في حسن التخلص الجائزة مضاعفة . ونظروا في قرطاس القصيدة فلم يجدوا هذين البيتين . فعرفوا أنه الذكي الأريب فالهما ابتداءً من قافية القصيدة ووزنهما . فعلا ذكره وذاع صيته .

والسورة الكريمة - كأخواتها من السور - آفاق تربوية راقية ، ولا يدعي لبيب الإحاطة بها إلا كما يغرف الناهل من النهر الدقاق ، وينحت المثال في الجبل العملاق ، أو يجول الفلكي بمنظاره في أولى السبع الطباق .

أول معلم تربوي التعظيم

فيتلقى السامع والقارئ السورة بالهيبة والإجلال . فهي " سورة " . والسورة : المنزلة العظيمة التي يتطلع إليها كل ذي همة ، ويتشوف إلى بلوغها أصحاب العزائم ... مدح النابغة الذبياني النعمان بن المنذر بالمنزلة العالية والمكانة الرفيعة فقال :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

ولإبراز عظمتها جعلها المبتدأ وهي نكرة . واستهل بها السورة للتهويل في قدرها وشرفها . واستعمل ضمير العظمة " نا " في الأفعال الثلاثة التي تلت كلمة " السورة " " أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون " . وقد جعل آياتها بينات وهذا من التفخيم والعظمة كذلك .

وانظر معي إلى الترتيب في الحديث عن السورة - وهو المعلم التربوي الثاني - تجده أسلوباً تربوياً رائعاً - : فقد أنزل الله سبحانه سورة النور من السماء إلى الأرض ، وفرضها لتكون النور الذي يضيء للسالكين طريقهم وأنزل فيها الآيات الساطعة والبراهين الواضحة لتكون المعالم المضيئة للناس أجمعين . فكان إنزالها وفرضها وبيانها متتابعاً مرتباً . والترتيب يساعد على الفهم وحسن التنفيذ ... ونجد الترتيب ثانية في غض البصر الذي يؤدي إلى حفظ الفرج " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ،... ويحفظوا فروجهم وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن " . كما نجده في ذكر الأهم ثم الأقل أهمية في إظهار محاسن المرأة للمحارم : فتظهر المرأة زينتها لزوجها ثم لأبيها ثم لأبي زوجها ثم لأبنائها ثم لأبناء زوجها ثم لإخوتها ثم لبني إخوتها ثم لبني أخواتها ثم لنساء المسلمين ثم لملك اليمين من الرجال ثم لمن لا يرغب في النساء لعله قاهرة ثم للأطفال غير المميزين . ونجد الترتيب وذكر الأهم ثم الأقل أهمية أيضاً في عدم الحرج في الأكل في الآية الحادية والستين إذ تتحدث عن دخول بيوت المذكورين منهم بالتفصيل المرتب .

ولا ننس أن نشير إلى المعلم التربوي الثالث التفصيل في آتي الحجاب ٣١ والأريحية في التواصل مع

الأهل والأصدقاء ٦١ أسلوباً تربوياً راق . لأنه

١- يجلي الأمور ويوضحها

٢- ويزيل الإبهام،

٣- ويضع النقط على الحروف ،

٤- ويشير إلى المهم من الأشياء والأقل أهمية سواء بسواء .

والأسلوب التربوي الرابع في هذه السورة ذكر الأهم ليتنبه المتلقي إليه على سبيل المثال في هذه السورة الكريمة تقدم الزانية على الزاني " الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة .. " لأن المرأة هي الداعي الأول إلى جريمة الزنا ، فلو تعففت تعفف الرجل ، أو ضعفت ولانت جرؤ الرجل . أما في السرقة فالرجل يذكر أولاً " والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما .. " إذ الرجل مكلف بالصراف على الأسرة والحصول على المال ... ولعل في إنهاء آية الحجاب بنصيحتين غاليتين هما " ولا يضرين بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهنّ ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون... " نهيًا للنساء عن عادة ذميمة لاستجلاب انتباه الرجال ومن ثمّ الفتنة ، وأمرًا للرجال والنساء معاً بالتوبة والعودة إلى الله فهو - سبحانه - كهف التائبين... وقد ذكرتُ قبل قليل ذكر الأهم في آيتي الحجاب وتواصل الاهل والأصدقاء ، ففيهما الدليل على ذلك. والأسلوب التربوي الخامس هنا المماثلة أو قل (إن الطيور على أشكالها تقع) . ف " الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك ، وحرّم ذلك على المؤمنين " فقد طلب مرثد ابن أبي مرثد من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن يتزوج عناقاً فهو ما يزال يحبها ، وهي بغيٌّ كان يأتيها في الجاهلية ، وما زالت على فجورها وجاهليّتها فنزلت هذه الآية الكريمة تحدد العلائق بين المؤمنين أهل الطهر والعفاف وبين المشركين وأهل الفسق والفجور ... كما أن آيات الملاعنة ٤ - ١٠ تفصل بين الزوجين حين يكون الزوج عفيفاً طاهراً والزوجة غير ذلك .. إن البيت لا تقوم دعائمه إلا على الفضيلة والطهارة . وما أجمل قول النبي صلى الله عليه وسلم في اختيار الزوجة الصالحة " الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة " وحديثه صلى الله عليه وسلم في اختيار ذات الدين مشهور " تنكح المرأة لأربع ... فاضفر بذات الدين تربت يداك " ، يؤيده قول الله تعالى " الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات . والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات " . ولن يرتاح الزوجان إلا حينما يكونان متطابقين أخلاقاً ودينياً وإلا كانت الحياة قاسية ومتعبة . ولعل في أمر الله تعالى لكلا الفريقين أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ممثلةً في الطيب والطهارة والحياة النظيفة .

ومن الاساليب التربوية هنا - وهو السادس حسن الظن بالمسلم : فعلى المسلمين حين يسمعون

القذف بحق الأطهار الشرفاء أن يَنْقُوا القذف ، وينكروا الطعن فالأصل في المجتمع المسلم الطهارة " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وقالوا : هذا إفك مبين " وهذا ما فعلته أم أيوب وزوجها رضوان الله عليهما حين سمعا المنافقين وضعافَ الإيمان من المسلمين يتحدثون بشأن عائشة رضي الله عنها وصفوانَ بن المعطل رضي الله عنه ذلك الصحابي الذي شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالفضيلة والطهر فقالت أم أيوب : أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟! قال : نعم ، وذلك الكذبُ ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟! قالت : لا والله . قال : فعائشة خير منك ، وصفوانُ خير مني . فإذا زُمي اثنان أو أحدهما بالزنا قيل للقاذف هات شهادتك الأربعة وإلا كنت عند الله كاذباً ، فأعرض المسلمين غالية . وما ينبغي لأحد أن يرميهم دون بيّنة " لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون " إنّ هذا طعنٌ بطهر المجتمع ونشرٌ للفحشاء فيه ، وإفساد للأخلاق يستحق صاحبه به – لولا رحمة الله بعباده في دنياهم وأخراهم – العذاب العظيم " ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم "

وتصور معي أخي المسلم الحالة التي وقع فيها كثير من المسلمين- وما يزالون يقعون حين تغيب شفافية الإيمان – فقد أخذوا يتناقلون الفرية دون إنكار أو تمحيص ، فانتشرت القالة السيئة بينهم انتشار النار في الهشيم . والعادة أن الإنسان يفهم الفكرة بعقله وقلبه . لكنه حين يهتم بالأقاويل دون تفكير وفهم فكأنه يستقبل الخبر بلسانه فقط لا يتجاوزه ، ثم يلقيه كما يلقي القيء فيؤذي نفسه ومن حوله " إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم " فعاتبهم الله تعالى في هذه الآية بأمر ثلاثة :

الأول : تلقيه بالألسنة دون السؤال عنه .

الثاني : التكلم به ونشره بين المسلمين .

الثالث : استصغار الذنب حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم.

وكان عليهم حين سمعوه أن ينكروه ويؤكدوا نزاهة بيوت الأطهار من المسلمين ، ولا سيما بيت النبوة، فلا يغوصوا في نشر الإفك لأنه كذب وافتراء شديد " ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانه هذا بهتان عظيم " .

وهنا ننبه إلى الحذر من الإشاعات المغرضة التي تبلبل الصفوف ، وعلينا أن نتثبت من الأمر كي نصون المجتمع المسلم مما يسيء إليه ويضعفه .

والأسلوب التربوي السابع في هذه السورة الكريمة الخطأ المعلم:

يخطئ بنو البشر كثيراً ، ويصيبون كثيراً . والعاقل من اتعظ بأخطائه، واللبيب من اتعظ بأخطاء غيره . والطامة الكبرى أن يتكرر الخطأ ونعيش حياتنا أخطاءً متوالية، فنقع فيما كنا نقع فيه، ونستمر على هذا .. أما إذا عرفنا الخطأ وأسبابه ودواعيه ، ونتأججه علينا وعلى مجتمعنا وأمتنا ، واحترزنا الوقوع فيه مرة أخرى ، ونبهنا الآخرين إليه كان درساً مفيداً وتربية راقية .. هذا ما يقرره القرآن الكريم حين يقول : "إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم " فلم لم يكن شراً مع أن المجتمع تأذى منه؟ ولم كان خيراً؟

فالجواب : أولاً : أن الخطأ قد يحصل حتى في المجتمع النقي المتماسك لأننا بشر.

ثانياً : أن الأشرار في المجتمع لا يفتنون يكيدون له ليحرفوه عن الحق ، فلننتبه إليهم.

ثالثاً : أن بعض الصالحين قد ينحزّون إلى الخطأ ويقعون فيه دون أن يشعروا .

رابعاً: أن من ثبت خطؤه يعاقب أيّاً كان ، ويتوب الله عليه فكل امرئ بما كسب رهين .

خامساً: أن من اجترح الذنب الكبير ونجا من العقوبة في الدنيا لعدم ثبوت الجرم المادي عليه

فلن ينحو في اليوم الآخر من العقوبة الشديدة المناسبة.

أما الأسلوب التربوي الثامن هنا فالإثارة :

وقد يسميها بعضهم التهييج وهو أسلوب - كما نرى - يحسّ المتلقي للتفاعل مع المطلوب منه

إيجاباً قبولاً وامتناعاً ، وكلاهما إذا حصل كما نريد إيجابياً . ومن أمثله الكثيرة في هذه السورة الكريمة :

أن الله تعالى يقول بعد الأمر بجلد الزاني والزانية غير المحصنين " ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن

كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " فلو تمعنا في الشرط " إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " في معرض

الأخذ بالشدّة في معاقبة الزناة لقلنا متحمسين : نعم يارب نحن نؤمن بك وباليوم الآخر، ولسوف نشد

بعقوبتهم دون رأفة حتى نكون ممن يؤمن بك ويوم القيامة . ألا ترى معي أن هذا الشرط أثار فينا الالتزام

بما أمر الله تعالى لنكون عند حسن ظن الله بنا؟

ومنها - من أمثلته - في قوله تعالى " .. وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين " في منع زواج المؤمن من الزانية أو المشركة وإلا كان من صنفهما قلنا جازمين: أجل! يا رب نحن مؤمنون ننأى بأنفسنا أن نزواج الفاسدين.

وحين يعاتب المؤمنين في نقل الشائعة دون بصيرة " إذ تَلَقَّوْهُم بِالسَّنْتِكُمْ ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم " يحذر من عقوبته الشديدة " وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم " نسرع في القول : نعوذ بالله أن نغضب ربنا فنقع في سَخَطِهِ .

وحين يعلمنا الأدب في قوله تعالى " ولولا إذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثل هذا إن كنتم مؤمنين ... " نردد فوراً : سبحانك يا رب تبنا إليك، لن نعود إلى ما يغضبك فنحن مؤمنون

وحين تأخذنا العزة ونعاقب من يسيء إلينا قادرين ينبهنا الله تعالى إلى فضيلة العفو والغفران قائلاً " وليُغفروا ، وليُصفحوا ، ألا تحبون ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ " نسرع إلى القول : بلى يارب ، نحب أن تغفر لنا . وما دمننا نخطئ ونحن نرجو الله أن يرحمنا فلنرحم من يسيء إلينا .

وحين يأمرالحق تعالى عباده أن يعضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ثم يعقب بأن " ذلك أركى لهم، إن الله خبير بما يصنعون " اشتدت رغبتهم في الزكاء ، وعلموا أن الله تعالى مطلع عليهم خبير بهم وقالوا راغبين خائفين : زكّ نفوسنا يا رب ، فأنت خير من زكّاها ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

ثم نجد الإثارة الرائعة للفتيات أن يتعدن عن الفواحش ويلزمن غرز التقوى حين يأمرهن بالتحصن عن الفساد ، فترك لهن الخيار ظاهراً بأسلوب الشرط وهو سبحانه يحثهن على الطهر والعفاف متلطفاً بهنّ لأنهنّ ضعيفات ، ومعنفناً أهل الديانة من الرجال في قوله تعالى " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم " فما يكون من الفتيات المسلمات إلا أن يقلن : بل نبغي التقوى والطهر يارب ، رضي من رضي وأبى من أبى .

والأسلوب التربوي التاسع من المتفضل :

أن أمنّ على غيري ضياع للفضل والثواب ، وسوء في التصرف . أما منّ الوالدين على أولادهما فترية وتعليم وتذكير بالفضل ، ودفع إلى ردّ الجميل ... وأعظم من ذلك منّ الله تعالى على عباده " يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا عليّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان أن كنتم صادقين " وهو

الذي يقول سبحانه " ولكن الله يمتن على من يشاء من عباده " . فمنّ العباد على العباد إذلال واستكبار .
ومنّ الأبوين على أولادهما تربية وتهذيب .

ومنّ الله على عباده إسعاد لهم ورحمة .

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وان الله تواب حكيم " إن حذف خبر لولا لتحويل الأمر ، وتقديره : لهلكتم أو لفضحكم أو لعاجلكم بالعقوبة . وربّ مسكوت عنه أبلغ من المنطوق .

وكذلك نجد المنّ في قوله تعالى : " ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رؤوف رحيم " وكذلك نجده في قوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم " إن الذي يزكي هو الله تعالى . ألا يقول الله في ذلك " فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى " ؟
فهنا يؤكد الله تعالى المعنى في قوله سبحانه " ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكي من يشاء ، والله سميع عليم " .

أما الأسلوب التربوي العاشر فالعقوبة

وهو أن ينال الإنسان جزاء ما اقترفت يده من قول مخلّ ، أو فعل مؤذٍ يضر الآخرين ففيه أولاً : العدل الذي ينصف المظلوم ويردع الظالم .

ثانياً : لأن الإنسان خلق ينازعه الخير والشر . فإن بغى الشر على الخير وجب كبجه .

ثالثاً : والعقوبة عنوان القوة ، والحق بغير قوة يضعف ويضيع . فلا بد من عقوبة ضعيف النفس

حتى يرعوي هو وغيره .

فكانت عقوبة القذف ثلاثة أنواع . أولاها جسدية : ثمانين جلدة .

وثانيها مدنية : لا يعامل كبقية الناس إذ لا تقبل شهادته فيتصاغر أمام المجتمع .

وثالثها أخروية : فهو في عداد الفسقة من أهل جهنم . لكن إن اعترف بخطئه وتاب عنه وأصلح ما

أفسده تاب الله عليه وغفر له .

" والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً

وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم "

وكانت عقوبة الزنا لغير المحصن نوعين أولاهما جسدية مئة جلدة لكل منهما .

وثانيهما التشهير . - وهي عقوبة نفسية - إذ يحضر العقوبة رهط من المؤمنين حتى يعرف الناس بهذه

العقوبة فيرعوي ذوو النفوس الضعيفة أن يقعوا فيها .

والأسلوب التربوي الحادي عشر التوثيق : ومن فوائد التوثيق :

أولاً : التنبيه إلى أهمية الأمر والتركيز عليه .

ثانياً : الاحتكام إليه واتخاذ قاعدة في الحكم .

من الأمثلة على التوثيق قوله تعالى : " وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " ففيه تأكيد على وقوع

العقوبة أمام أنظار فئة من المؤمنين .

ثم وجود أربعة شهداء يشهدون على واقعة الزنا وإلا جلد الرامي ثمانين جلدة " والذين يرمون

المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة "

ويؤكد الحكم في معرض عتاب المؤمنين الذين جازت عليهم الشائعة " لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء،

فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون "

كما أن الزوج في ملاحظته زوجته وليس هناك شهود أربعة يقسم أربع مرات: إنه لصادق في دعواه "

والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن

الصادقين "

وفي رد دعواه تشهد الزوجة أربع مرات أنه كاذب فيما ادّعاها في حقها " ويدراً عنها العذاب أن تشهد

أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين " .

كما أن في هذا التوثيق أسلوباً تربوياً آخر نعتبره الأسلوب الثاني عشر، وهو الوقاية

وقد قالوا قديماً : درهم وقاية خير من قنطار علاج . فما التشديد في وجود الشهداء الأربعة وفي

الأيمان الأربعة للزوجين إلا وقاية للمجتمع من كثرة القذف واسترخاض أعراض المسلمين . وهناك أمثلة

أخرى للوقاية في هذه السورة الكريمة

منها قوله تعالى : " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم وقل للمؤمنات

يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهنّ .. " الم يقل النبي الكريم عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله

عنه في النظر : " يا علي ، لك الأولى وليست لك الثانية؟! " وغضُّ البصر وعدم رؤية المفاتن يريح القلوب .

كما أن في قوله تعالى " ولا يضرين بأرجلهنَّ لِيُعْلَمَ ما يخفين من زينتهنَّ " حمايةً للنساء من وسوسة الشياطين في جلب انتباه الذكور ، وحمايةً للرجال من تتبُّع أصوات الخلاخيل !!
إن تزويج الذكور من الإناث أحراراً وعبيداً يحفظ الجنسين من الرذيلة والفساد " وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم .. " ألم يقل النبي الكريم في هذا المعنى " يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ، فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " ؟

فالزواج حصن من الفحشاء حصين ، والصوم كسر لحدة الشبق مؤقتاً ريثما يسهل الله زواجاً ، ولو بعد حين ... يؤكدده قوله تعالى " وليستغفِرِ الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله " كما أن الله تعالى شنَّ على تجار النّخاسة والدياثة الذين يقدّمون النساء لفرش الرجال - والعياذ بالله من افعالهم - وعفا عن الفتيات اللواتي اضطررن إلى ذلك ، ثم ثبّن في أول بارقة خلاص ، وشجعهن على أن يكن عفيفات " ولا تكروها فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههنَّ فإن الله من بعد إكراههنَّ غفور رحيم " .

وعلى الرغم أن القرآن سمح للعجائز اللاتي لا يرجون نكاحاً أن يضعن ثيابهنَّ غير متبرجات بزينة فقد حثهن على العفة والستر " وأن يستغفِرْنَ خير لهنَّ .. " (فلكل ساقطة في الحي لا قطة.)
ثم إن عدم التكلم فيما يضر نوعاً مفيد من أنواع الوقاية " ما يكون لنا أن نتكلم بهذا " فصون اللسان عن القيل والقال يند الإشاعة في مهدها . ويقطع دابر الفتنة .

والأسلوب التربوي الثالث عشر الواقعية وقل : الدقة في التعبير وإن كان من هذه الناحية يدخل في البلاغة إلا أنه تعويد للمتعلم على الفهم السليم والتحليل المحيط .

مثال ذلك قوله تعالى " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنَّ ويحفظن فروجهنَّ " فلا يستطيع الإنسان أن يمشي في طريقه مغمض العينين ، لا بد من الرؤية كي يتحاشى المآزق والمخاطر ، فهو لا يغض بصره بل يغض منه ، فلا يرى المفاسد والمفاتن ويمتنع عن

النظرات الزائغة . لكنه يحفظ فرجه كله أن يقع في المحرمات . ومثال آخر للدقة في التعبير والواقعية نجده في آية المحارم فـ "أبناء " جمع قلة يناسب أبناء المرأة وأبناء زوجها مهما كثروا . وبينين - بنون - جمع كثرة يناسب بني الإخوة والأخوات على الأغلب . وهذا يعلمنا الدقة في الحديث أو التعبير .

والأسلوب الرابع عشر ترك مجال الإصلاح مفتوحاً

فمن يئس من الخلاص تهادى في غيه ، وازدادت نغمته ، وألب غيره ، وهوّر فأذى نفسه وغيره . ومن وجد منفذاً للإصلاح والنجاة ، فكّر وتدبّر وارعوى . ولا نريد لأبنائنا وأهلنا ومجتمعنا سوى الهداية ما استطعنا ، وهذه مهمتنا التربوية . وفي هذه السورة كغيرها من السور الكريمة أمثلة على ذلك :

منها ما نراه في التعقيب على من رمى المحصنات دون وجه حق " إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم " فمن تاب واعترف بخطئه غفر الله تعالى له .

ثم اقرأ معي تذييل بعض الآيات " وأن الله تواب حكيم " " وأن الله رؤوف رحيم " " وأن الله غفور رحيم " . إنه سبحانه ترك مجال التوبة والإصلاح مفتوحاً

والله تعالى الكريم الرحيم يدعونا إلى التوبة فهو الإله الودود الذي يقبل توبة عباده مهما ابتعدوا ثم عادوا " وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " أفلا نتوب إليه ونستغفره؟! بلى إن باب التوبة مفتوح ، فهلّم أخي نسارع إلى الله إنه حبيبنا وسيدنا يفرح لتوبتنا ويسارع إلينا إن سارعنا إليه ، ويقبلنا مهما ارتكبنا من ذنوب ثم لجأنا إليه " ففروا إلى الله "

يا سيدي ومولاي : أقول ما قاله أبو نواس حين تاب :

أفر إليك منك ، وأين إلاّ إليك يفر منك المستجير

عبدك الراجي عفوك : عثمان

تأملات تربوية في سورة النور (٢)

من هذه الأساليب في هذه التأملات

العلاقة مع القيادة :

فالرسول صلى الله عليه وسلم مثال القائد الفذ المعصوم ، وأصحابه الكرام مثال الجندي والمواطن الصالح . فكيف كانت العلاقة بينهم في هذه السورة الكريمة ؟ .

حين نزلت الآية " والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون " شق هذا في بداية الأمر على عاصم بن عدي الأنصاري ، فقال : جعلني الله فداك ، لو أن رجلاً منا وجد على بطن امرأته رجلاً ، فتكلم ، فأخبر بما جرى جُلد ثمانين وسماه المسلمون فاسقاً فلا تُقبل شهادته ! فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء ؟ وإلى أن يلتمس أربعة شهود فقد فرغ الرجل من حاجته! فقال عليه الصلاة والسلام " كذلك أنزلت يا عاصم بن عدي " فخرج عاصم سامعاً مطيعاً فالسمع والطاعة واجبة للقائد المؤمن الذي يحكم بأمر الله تعالى .

وحيث يكون المسلمون مجتمعين في إمرة القائد لا ينفلتون إلا بإذن منه لحاجة وضرورة ، فإن أذن انطلقوا وإلا فعليهم البقاء سماعاً وطاعة . على أن يكون السماح والمنع مبنيين على تفهم القائد لضرورة الأمر، وأن يكون أباً رحيماً لهم ، وأخاً عطوفاً عليهم . ووصف الله تعالى الملتزمين الأمر بالمؤمنين " إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم " . فالعلاقة بين القائد والجندي والرئيس والمرؤوس متوازنة . فالجندي يحترم قائده ويستأذنه ، والقائد يعطف على جنديّه ويستغفر له .

أما الذين ينسحبون من اللقاء دون أن يُشعروا النبي القائد متوارين بإخوانهم رويداً رويداً فقد أتوا خطأ جسيماً يستحقون عليه العقوبة . وهنا يأتي التحذير من مغبة هذا التصرف الدال على عدم الشعور بالمسؤولية من مخالفة الأمر ، فئن غاب عن النبي الكريم خروجهم وتواريتهم فلن يغيب عن الله تعالى خطأ تصرفهم " قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواداً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمرهم أن تصيبهم فتنة أو

يصيبيهم عذاب أليم " .

كما أن على المسلم أن يتأدب بحضرة قائده المتمثل بهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فلا يناديه بصوت عالٍ ، إنما يسعى إليه ويخاطبه بصوت منخفض مسموع ، يدل على احترام وتقدير ، لا على ذل وخنوع " لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً " .

كانوا يصيحون من بعيد ينادون الرسول الكريم : يا أبا القاسم ، فنبههم القرآن إلى تعظيم نبيهم عليه الصلاة والسلام ، فلا يرفعون أصواتهم عنده ، ويشرفونه ، ويفخمونه في رفق ولين وينادونه بقولهم : يا رسول الله .

وقد مُنِع المسلمون في سورة الحجرات أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم في حضرته " يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي " . وأن لا ينادوه بأحمد ومحمد وأبي القاسم ، لا بصوت عالٍ ولا صوت خفض، خوفاً من ضياع أعمالهم الصالحة لهذا التصرف الشائن ، ولكن: يا رسول الله ويا نبي الله " ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم بعضاً ان تجبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون " .

ثم مدح الذين يخاطبون الرسول الكريم بأدب جمّ ولطف زائد وصوت منخفض ووعدهم بالغفران والأجر العظيم : " إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم " .

إن العلاقة في الإسلام بين القيادة والأمة قائمة على الحب والاحترام والعطف والود ، ليس فيها طغيان الحاكم على الرعية ، ولا استبداد وظلم وتعالٍ على العباد ، وليس فيها ذل المواطن والخسف به وسلبه ونهبه ! وبمثل هذه الحياة تقوى لحمة الأمة ويعلو شأنها وتسمو مكانتها .

ومن هذه الأساليب التربوية

أدب الزيارة :

الأماكن التي يرتادها الناس ثلاثة :

أولها : بيت الإنسان وسكنه الخاص . فهو يدخله وقت يشاء دون حرج ، ودون استئذان من أحد .

إلا أن من الأدب إشعار من في داخله - زوجة وولداً وضيافاً- أنه قادم كي لا يفاجأ بدخوله أحد . هذا ما

كان يفعله النبي عليه الصلاة والسلام حين يدخل بيته مسلماً على أهله .

أما الدخول على غرف البيت فلا بد من الاستئذان على من في داخلها كي لا تقع العين على عورة . روي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمي ؟ قال : " نعم " قال : ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت ؟ . قال " أتحب أن تراها غريبة؟ " قال : لا . قال : " فاستأذن عليها " . وكان الفاروق عمر رضي الله عنه يتنحج بصوت عال قبل أن يُسلم ويدخل ، فالمرأة تحب أن يراها زوجها على أفضل حالاتها .

والاستئذان على أهل البيت في غرفهم في ثلاث أوقات واجب لقوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا :

ليستأذنكم ١ - الذين ملكت أيمانكم ، ٢ - والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات

١ - من قبل صلاة الفجر .

٢ - وحين تضعون ثيابكم من الظهر .

٣ - ومن بعد صلاة العشاء .

ثلاث عورات لكم . "

ففي هذه الأوقات الثلاثة يتجرد الإنسان من ثيابه للنوم والراحة . وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاماً من الأنصار إلى عمر رضي الله عنه ظهره ليدعوه ، فوجده نائماً قد أغلق عليه بابه، فدق عليه الغلام الباب ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس ، فانكشف منه شيء، فقال عمر: ودِدْتُ أن الله نهي أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن . ثم انطلق إلى رسول الله، فوجد هذه الآية قد نزلت ، فخر ساجداً شكراً لله .

فإذا بلغ الأطفال الحلم وجب معاملتهم كغيرهم من الكبار أكانوا غرباء أم من المحارم .

ثانيها: دور الأهل والأصدقاء . فهؤلاء لا يدخل عليهم إلا بإذنتهم . فكيف يكون الاستئذان؟

يُطرق الباب ثلاث مرات ، بين الواحدة والأخرى مقدار ركعة خفيفة كما يذكر الفقهاء ، ليترك لأهل

البيت مجالاً مريح في الردّ . ولم يكن للبيوت كلها على عهد الرسول الكريم أبواب ، إنما ستائر . يقف

القادم قريباً من الباب ، ليس أمامه حتى لا ينكشف عن أهل البيت ستائرهم ، ويغضُّ بصره ، فقد روى

علمائنا أن الفاروق رضوان الله عليه قال : من ملأ عينيه من قاعة بيت فقد فسق . وروى عن سهل بن

سعد أن رجلاً اطلع في جُحر في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مَدْرِيٌّ (مشط) يرجل به رأسه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أعلم أنك تنظر لطعنْتُ به في عينك ، إنما جعل الله الإذن من أجل البصر " . وروى أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذن ، فحذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح " .

ويسلمُ بصوت مسموع على أهل الدار ثلاث مرات ، بين الواحدة والأخرى زمن يسير .. هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الاستئذان ثلاث ، فإن أُذن لك ، وإلا فارجع . " واستأذن رجل من بني عامر على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أألج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخادمه : " اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ " فسمعه الرجل ، فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل . وقد زار الرسول الكريمُ سعدَ بن عبادة زعيمَ الخزرج ، فلما وقف بالباب قال : السلام عليكم .

والسلام عليكم سلام المؤمنين.... فإذا دخل الرجل بيتاً فيه غيره قال : السلام عليكم . فليردوا عليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وإذا دخل بيتاً ليس فيه أحد قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وإذا دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، ونحن إن شاء الله بكم لاحقون .

الفرق بين الاستئذان والأنس

قد يأذن لك أحدهم في الدخول حين تطرق بابه خجلاً منك ، وهو لا يريد في قرارة نفسه أن تدخل بيته ، فقد يكون تعباً يريد النوم أو الراحة ، وقد يكون مشغولاً في أمر لا يجب أن يطلع عليه أحد ، أو كان يجهز نفسه لموعد ضربه أو لأسباب أخرى ... يدعوك للدخول بلسانه ، وبريق عينيه يظهر عكس ذلك . أما الأنس فشيء آخر . إنه الترحيب الذي تشترك فيه الحواس كلها تدعوك مشتاقة إليك ، رغبة فيك مسرورة بلقائك . فكانت كلمة (تستأنسوا) رائعة في التعبير عن دخيلة النفس في الآية الكريمة " يا

أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها " أما إذا كان صاحب البيت شجاعاً وقال للزائر : لن أستطيع الآن دعوتك للدخول فارجع . فقد وجب الرجوع دون أية حفيظة تبدو من الزائر أو امتعاضٍ منه ، " وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا " وهنا يظهر أدب الزائر في ردة الفعل ، وحسن تصرفه بالتزامه أدب الإسلام في العودة ، إن بعذر ، أو بغير عذر ، وبذلك يرؤض نفسه على احترام خصوصية الآخرين . وحسبه جائزة الله تعالى " فارجعوا هو أزكى لكم " كما فعل سعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو موسى مع عمر .. إنها طهارة النفس من الغضب وردة الفعل السيئة التي قد يملها الشعور بالإهانة، فيبادر إلى القطيعة والعداوة ، ويكون الراح الأول فيها شيطانه الوسواس الخناس .

يقول أحد المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية ، فما أدركتها ، أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي ارجع فأرجع وأنا منبسط لقوله تعالى " فارجعوا هو أزكى لكم " ولعله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إذ يقول : فيقولون ابن عم رسول الله ، لا نرده .

ومن أدب الاستئذان أن يعرّف الزائر بنفسه تعريفاً واضحاً ولو ظنّ أن المزور يعرفه . عن أبي ذر قال : خرجت ليلة من الليالي ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وحده ، فجعلت أمشي في ظل القمر ، فالتفت فرآني فقال : " من هذا ؟ " فقلت : أبو ذر . وقد استأذن جابر على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فدققت الباب فقال : " من ذا ؟ " فقلت : أنا . فردد النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا أنا ؟ " ، كأنه كرهها .

ثالثها : الفنادق والأسواق والمؤسسات العامة المشرعة الأبواب لمن يأتيها . فهذه لا يتطلب دخولها الإذن ، ففيها متاع الناس من بيع وشراء وإيواء ومنافع . يدخلها السابلة كلهم إن شاءوا ، متى شاءوا ، مادامت مفتوحة ليلاً أو نهاراً . لكن لا بد من أدب اللقاء من غض للبصر وإعطاء الطريق حقه ، وإلقاء تحية الإسلام

ومن هذه الأساليب التربوية كذلك

الآداب الاجتماعية :

يحرص الإسلام على تنمية العلاقة الأسرية بين الأهل والأقارب ، ويحض على التواصل بينهم ليستمر الحب والود ، ولتقوى الأواصر بينهم . فيتزاوون ويتراحمون . يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو

هريرة : " إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائد بك من القطيعة . قال : نعم ، أما ترصين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى . قال : فذلك لك " . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرؤوا إن شئتم : فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم ، وأعمى أبصارهم " . وهذا نجده في الآية الحادية والستين التي تحث على زيارة بيوت الآباء والأبناء والإخوة والأخوات والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات والأصدقاء ، و تناول الطعام عندهم دون حرج ، والمباشطة في التفاعل الإيجابي . ولئن كان المذكور فيها الأكل دون غيره إنّ الأكل يزيل الكلفة بين الأهل والأصحاب أكثر من غيره ، ويبنى جسور التفاهم والتمازج والألفة . ويقرب القلوب والنفوس ويزاوجها . ولا ننس ذكر الأهم فالأقل أهمية فهذا منطقي جداً فالإنسان يبدأ من القريب لينتقل إلى البعيد ، ثم يعم الأمر بين الجميع .

ومن هذه الأساليب التربوية :

الإعذار : " من أنذر فقد أعذر " مثل مشهور يوضح أنه ما عاد هناك من عذر، فقد قدّم المرابي أو المسؤول أو ما في معناهما كل النصح والعون ، ووضح وأرشد ، وبينّ وفصّل . فعلى الآخرين أن يتحملوا المسؤولية ، ويكونوا أهلاً للقيام بالواجب الملقى عليهم نجد مثال هذا في قوله تعالى في الآية الرابعة والثلاثين " ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ، ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين " فالله تعالى أنزل إلينا هذا القرآن فيه أدلة وبراهين واضحة لما ينبغي أن نعمله ، فعلينا أن نرضيه سبحانه . وقصّ علينا ما حدث للأمم السابقة حين عصت أمر ربها وكذّبت رسله الكرام . فمن أطاع جوزي خيراً ، ومن عصى عوقب بشر أعماله . فمن اتقى فقد اتعظ .

ونجده مكرراً بأسلوب قرآني فريد في قوله تعالى في الآية السادسة والأربعين " لقد أنزلنا آيات مبينات ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " حين أخبرنا سبحانه عن بعض صور عظمتة في جميل صنعه . وعلى هذا جاءت الآية الأولى مسبوقة بالواو واللام الموطئة للقسم لأن الآيات التي سبقتها كانت حصراً بالمؤمنين وما عليهم أن يفعلوه إذ هو تشريع لهم . وكانت الثانية موضحة نور الله تعالى وبديع صنعه ، ودعوة للإيمان به سبحانه . وأن الهدى هدى الله .

ومن أساليب التربية :

التدرج والخطوات المتتالية :

الشیطان لعنه الله مُرَبِّ ، نعم هو مُرَبِّ ، ولكنه شرّير يربي أتباعه على الكفر والفساد ، ويشدهم بالتدرّج إلى المهالك لينكسوا على رؤوسهم في جهنم معه ، ثم يتبرأ منهم كعادة الخبيثين في كل زمان ومكان . يدّعي الإصلاح ليقوع أصحاب الأهواء في حباته . يتابعهم خطوة خطوة ويمنيهم مرّة وراء مرّة ، ويقسم لهم أغلظ الأيمان ليضلهم عن سبيل الله

والله تعالى حذرنا منه ، ومن طريقته فلم يقل لا تتبعوا الشيطان ، إنما قال سبحانه " يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " وإليك هذا المثال : فالشيطان لا يأمرك بالزنى مباشرة لأنك ستعرف مقصده وتعوّذ منه فوراً . وهو يريد ابتداء أن يكسب ثقتك ،

- انظر إلى هذه الفتاة الجميلة .
- أعوذ بالله ، إنه الفساد بعينه .
- ولم يا صاحبي ؟
- إن النظرة سهم قاتل من سهامك يا إبليس .
- هل تراني أسدد السهام إلى قلبك؟!
- إن النظرة بريد الزنى ، يشغل القلب ، ويبعده عن الله .
- أنا لا أريد ان تصل إلى هذا صدّقي .
- كيف أصدّقك وأنت تأمرني أن أنظر إليها ، والعين تزني ، وزناها النظر .
- إن الله جميل يحب الجمال ، وأنت رجل مؤمن يزيدك النظر إلى صنع الخالق الجميل إيماناً ، ويزيدك تقوى . فانظر إليها يا رجل واذكر الله تعالى ... ينظر إبليس إليها ، ويذكر الله مظهر الخشوع .
- ينظر الفتى إليها فيشدهه جمالها ، ويذكر الله بقلبه ، ثم بلسانه فقط لأن إبليس يتمثل بها ، ويبدأ بإغوائه .
- ابتسم لها يا رجل .

- أعوذ بالله منك ، كيف ابتسم لها ؟
- كيف تبسم لها؟ ! أتجهل طريقة الابتسام؟!
- لست أقصد هذا ولكن الابتسامة دعوة لها أن تحاملني . وبدء بحديث .
- أنسيت أن تبسمك في وجه أخيك صدقة؟
- هي ليست رجلاً ، إنها امرأة ، وقد أتقدم بالابتسامة خطوة أخرى .
- إنها أحتك في الله . بل إن تبسمك في وجهها جزء من الدعوة إلى الله تعالى .
- ويتبسم لها . فتبادله الابتسام ويحييه إبليس المتمثل بها بابتسامة عريضة تأسره وتستجّر قلبه وعقله.
- أرايت الحب الأخوي الطاهر أيها المتزمت؟
- نعم إنه لطاهر حقاً - يقولها مشدوداً إليها راغباً بها ، منعطفاً إليها .
- ألا تسلم عليها أيها الأبله؟!
- لا أبداً
- إنما أدعوك إلى شعيرة إسلامية ضاعت منك .
- يا أيها الشيطان تكاد توقعني في حبائك .
- أنسيت يا رجل قوله تعالى " فسلموا على أنفسكم تحية من الله مباركة طيبة " وهي منكم معشر المسلمين ، ومن أنفسكم .
- يسلم عليها .. و .. و ..
- قال شوقي :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

هذه واحدة من خطوات الشيطان ، والقياس واضح بين أخي الحبيب .



تأملات تربوية في سورة الفرقان (١)

في هذه السورة المباركة معان تربوية رائعة كأخواتها من السور الكريمة منها :

١- الإقرار بفضل الله تعالى : فهو سبحانه أ- هياً سبيل الهداية ، فأنزل كتاباً هادياً للبشرية ، وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم يحمل هذا المشعل الوضاء يدهم على الطريق الصحيح إلى الخالق العظيم " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً " . . فتبارك تحمل معاني الزيادة والفيض والرفعة التي تليق بمقام الربوبية والألوهية العظيم . وسمى القرآن فرقاناً لأنه يفصل بين الحق والباطل ، ويعرف بهما ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من حي عن بينة . ورفع أنبياءه إلى مقام العبودية لله ، وهو أعلى مقام يناله الإنسان ، فمحمد رسول الله عبد الله " سبحانه الذي أسرى بعبده " و " تبارك الذي نزل على عبده الكتاب " و " ذكر رحمة ربك عبده زكريا " ووصف أنبياءه نوحاً وهوداً وصالحاً بالعباد الصالحين " إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين " . ومن فضله سبحانه أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً للعالمين إنسهم وجنهم ، منذ أن بُعث إلى يوم القيامة ، وتوج برسالته الشرائع السابقة كلها .

٢- توضيح الفكرة وتجليتها : فالله تعالى في الآيتين الثانية والثالثة في هذه السورة المباركة مالك السموات والأرض ، الواحد الأحد ، ليس له ولد ، ولا يشاركه في ملكه أحد ، الخالق العظيم ، والعليم بكل شيء ، والقدير على كل شيء ، هو الصمد الذي لا يحتاج أحداً ، وكل المخلوقات تحتاجه سبحانه . فهو الله الكامل كمالاً مطلقاً ، لا إله إلا هو . فإذا أراد سبحانه أن نعبده حق عبادته فقد وضح لنا بعض صفاته القدسية لنعرفه بها ونقدم له الطاعة التي يرضاها . ونجد في ثنايا السورة المباركة آيات كثيرة تعرفنا بالله تعالى ، فهو المتصرف في الكون ويسير الشمس والأرض :

أ - فإذا بالظل يتحرك بانتظام دالاً على النظام الكوني البديع " ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً "

ب- وإذا من من علائم تصرفه سبحانه بالكون أن يتتابع الليل والنهار ليكون الأول هدوءاً والثاني حركة وعملاً " وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً "

ج- وإذا حركة الرياح ، مقدمة للخير والماء وإنبات الزرع ونشر الحياة في الأرض " وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ، لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً "

ومن عظيم خلقه أن في الأرض تجاوبف ينتقل فيها الماءان المالح والحلو عشرات الآلاف من الكيلومترات متجاورة متوازية وفوق بعضها بمسارب ضخمة متقاربة إلا أنها بفضل الله لا تختلط ، كي لا تفسد حياة المخلوقات . أليس هذا الصانع المدبر إله عظيم رائع ؟ " وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ؟

كل ذلك دليل على عظمة الله وقدرته ، والبرهان الأكيد على أنه إله عظيم يستحق العبادة والطاعة . وأن على الجميع أن يتوجهوا إليه وحده بالحب والعرفان .

٣- المنطقية في الدعوة : إن التفكير المنطقي في الرد على تحرصات الأفاكين تستدعي طرح

هذه التقولات وتلك الأكاذيب، ثم الرد عليها واحدة واحدة ودحضها بروية وعقلانية ، فلا تقوم لها قائمة .

أ. فهؤلاء الكفار ينكرون أن يكون القرآن من عند الله ويقولون هو تأليف رسول الله !! وأعانه عليه قوم آخرون . ولئن كان كذلك فبوسعهم أن يفعلوا مثله إن كانوا صادقين ! وإذا ثبت ضعفهم وعدم قدرتهم على ذلك والقرآن نزل بلغتهم فهم كذابون مفترون " وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً "

ب - وقائل يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استكتبها من قوم اعتمدوا الخرافات والأوهام ، يأتونه بها . وهذا إن صحَّ فإن المنكرين يستطيعون أن يفعلوا ذلك ، وإذا عُلِمَ أن كلامهم مغلوط وادعاءهم باطل فقد سقطت الدعوى لأن القرآن من عند الله تعالى " وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تُملَى عليه بكرة وأصيلاً "

ج - وما ينبغي أن يكون الرسول بشراً ، ولئن كان كذلك فالأولى أن يؤيده ملك في دعوته . والمنطقية أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم فهو مثلهم يعيش كما يعيشون ، ويأكل مما يأكلون، ويشعر بما يشعرون " قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً

رسولاً " ولو نزل الله على البشر رسولاً ملكاً لجعله على هيئة البشر كي يكون الإيمان نابعاً من القلب ثابتاً في الضمير عن يقين لا قهر وتخويف " ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون " . كما أن الملائكة حين تنزل فلمعاقة المستكبرين الذين ظلموا أنفسهم " يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حجراً محجوراً " .

د - وينبغي - حسب رأي الكفار - أن يكون الرسول غنياً يؤثر بثروته وغناه في الناس " أو يُلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها " إن ضعفاء النفوس يظنون أن النبي يجب أن يكون غنياً يفرض بغناه وثروته مبادئه وأفكاره ، أو يجمع المنتفعين حوله ، ولذلك قالوا " لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " فأجابهم تعالى " أهما يقسمون رحمة ربك ؟ " فالقناعة في القلب والعقل لا الجيب والمحفظه !

هـ . ومن قائل إن محمداً مسحور مكشوف أمره واضح وقد قالوا إنه ساحر مراراً " وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً " خبله السحر ، فاختلط عليه أمره يقولون ذلك لئنفروا عنه الناس ، فوصفهم الله تعالى بالضلال لأنهم لا يملكون لافتراءهم دليلاً .

٤ - التصوير الحسي : استحضار الأفكار المعنوية في قالب حسي ملموس يزيد الفكرة وضوحاً في العقل وتأثيراً في النفس ونبضات حية في القلب . فالكفار حين اقترحوا ما سبق ذكره من ضرورة غنى النبي وامتلاكه الجنات والقصور والكنوز لم يطلب المصطفى عليه الصلاة والسلام هذه الأمور لأنه يعلم أن الخير الحقيقي الدائم في الآخرة التي يكفر بها هؤلاء ، فوعده الله تعالى بكل ذلك في الآخرة " تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك : جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً " أما هؤلاء الكفار فلم يقترحوا ما اقترحوه إلا للاستهزاء والتكذيب ، فسوف يلقون غياً لكذبهم وسخريتهم واستكبارهم . ويصور الله تعالى مشاهد البؤس التي تحيط بالكافرين المجرمين كأننا نراها رأي العين ونستعيد بالله أن نراها ، فكيف السقوط في أتونها والخلود فيها ؟ نسأل الله العافية. وتصور النار ترى المجرمين ، فتغتاظ منهم ، وتزفر زفرات قوية طويلة تتقعق لها نفوسهم وتنخلع منها قلوبهم " إذا رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً " ثم تلقيهم الزبانية في زنازين الجحيم الضيقة مقيدتين بالسلاسل وهم يصرخون من هول العذاب يدعون على أنفسهم بالموت ، ولا موت " وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً

مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً " فتجيئهم ملائكة العذاب : أئن دعوتهم بالهلاك قليلاً أو كثيراً فلن يفيدكم فيما أنتم فيه " لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً " يتمنون الموت وليس بآتيهم . يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ! هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم . هذا الموت . قال ويقال : يا أهل النار ! هل تعرفون هذا ؟ قال فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم . هذا الموت . قال فيؤمر به ، فيذبح . قال ثم يقال : يا أهل الجنة ! خلود فلا موت . ويا أهل النار ! خلود فلا موت . قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : { وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون } [١٩ / مريم / ٣٩] وأشار بيده إلى الدنيا . "

وكلمة " يوم " في قوله تعالى " ويوم تشقق السماء بالغمام ، وتزل الملائكة تنزيلاً " تنقلنا إلى يوم القيامة في مشهد متحرك ملوّن ، فالسماء غير السماء التي نعرفها ، لقد تشققت وانفطرت ، وانفجرت بالغمام — وهو نور الله الذي يبهر الأبصار ، نرى الملائكة تنزل محيطة بالخلائق يوم الحشر الرهيب ثم يجيء الرب العظيم للفصل والقضاء . إنها صورة تنخلع لها القلوب وترتجف لها الضلوع .

٥- الحوار : طريقة رائعة في إثبات الفكرة في ذاكرة السامع والرائي والقارئ ، وقد استعملها القرآن كثيراً في الوصول إلى الهدف ، وقد ذكرنا أمثلة لها في تأملاتنا التربوية في القرآن وعودة إلى الحوار الطويل الذي أثبتناه بين موسى عليه السلام وفرعون في سورة الشعراء يوضح الفائدة ، وثبت هنا حواراً قصيراً ممتعاً ... يوم الحشر يقف الكفار في ساحة العرض خزايا مطأطيء الرؤوس ، قد علموا ما اجترحوا ، ومعهم ما عبدوه من بشر وحيوانات وأصنام و...و... ويجري هذا الحوار المفحم بين رب العزة والآلهة المزعومة وعبادها " ... أنتم أضللتهم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟

قالوا (الآلهة المزعومة) : سبحانك ، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء (وهذا الجواب إقرار من المتألهين أنهم عبید) . ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ... " ويكون التعليق الأخير بخطاب موجه للكافرين يوجههم ويوضح لهم أن آلهتهم التي كانوا يعبدونها تخلت عنهم " فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً "

٦- الندم في غير وقته لا يفيد : يروي المفسرون أن عقبة بن أبي مُعَيْط ، وَكَانَ صَدِيقًا لِأَبِي

بن خَلْفِ الْجُمَحِيِّ، وَكَانَ قَدْ صَنَعَ وَلِيْمَةً فَدَعَا إِلَيْهَا قَرِيْشًا ، وَدَعَا رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ إِلَّا أَنْ يَسْلَمَ . وَكَرِهَ عُقْبَةَ أَنْ يَتَأَخَّرَ عَنْ طَعَامِهِ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ أَحَدٍ فَاسْلَمَ وَنَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، فَأَكَلَ رَسُوْلَ اللهِ مِنْ طَعَامِهِ ، فَعَاتَبَهُ خَلِيلُهُ أَبِي بَنِ خَلْفٍ ، وَكَانَ غَائِبًا . فَقَالَ عُقْبَةُ : رَأَيْتَ عَظِيْمًا أَلَّا يَحْضُرُ طَعَامِي رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ . فَقَالَ لَهُ خَلِيلُهُ : لَا أَرْضَى حَتَّى تَرْجِعَ وَتَبْصُقَ فِي وَجْهِهِ وَتَطَأَ عُنُقَهُ وَتَقُوْلَ كَيْتَ وَكَيْتَ . فَفَعَلَ عَدُوُّ اللهِ مَا أَمَرَهُ بِهِ خَلِيلُهُ ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : " وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ " . وَلَمَّا بَصَقَ عُقْبَةُ فِي وَجْهِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَعَ بُصَاقُهُ فِي وَجْهِهِ وَشَوَى وَجْهَهُ وَشَفَتِيهِ ، حَتَّى أَثَرَ فِي وَجْهِهِ وَأَحْرَقَ خَدَيْهِ ، فَلَمَّ يَزَلْ أَثَرَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى قَتَلَ بَعْدَ بَدْرٍ وَهُوَ أَسِيرٌ . وَيَعْضُ يَدَيْهِ أَسْفًا - بَعْدَ مَوْتِهِ حِينَ يَرَى الْحَقِيْقَةَ - لِأَنَّهُ أَطَاعَ خَلِيلَهُ . يَنْدَمُ وَيَتَمَنَّى لَوْ أَطَاعَ رَسُوْلَ اللهِ وَكَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَدَمٍ ، فَالْآخِرَةُ دَارُ حِسَابٍ لَا دَارَ عَمَلٍ . " وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ، يَقُوْلُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُوْلِ سَبِيْلًا ، يَا وَيْلَتِي ؛ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيْلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُوْلًا " . فَالْندَمُ وَالتَّوْبَةُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِلَّا لَمْ يَنْفَعَا صَاحِبَهُمَا . وَعَلَى هَذَا حِينَ قَالَ الْمُشْرِكُونَ : إِنْهُمْ صَبَرُوا عَلَى آلِهَتِهِمْ وَلَمْ يَتْرَكُوْهَا وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ " إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا " أَفَادَهُمُ الْقُرْآنُ أَنَّهُمْ سَيَعْلَمُونَ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْعِلْمَ أَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ . وَسَيُنَالُونَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ " وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مِنْ أَضَلِّ سَبِيْلًا " وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ عِلْمُهُمْ إِذْ ذَاكَ .

٧- لماذا نزل القرآن منجماً؟ : حِينَ رَأَى الْيَهُودَ وَالْمُشْرِكُونَ الْقُرْآنَ يَنْزِلُ عَلَى ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ

سَنَةً أَنْكَرُوا ذَلِكَ ، فَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ نَزَلَتْ دَفْعَةً وَاحِدَةً . " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جَمْلَةً وَاحِدَةً " . فَمَا الْفَائِدَةُ فِي نَزْوْلِ الْقُرْآنِ مَنْجَمًا : وَالْجَوَابُ يَتَحَلَّى فِي أُمُورٍ عَدَّةً ، مِنْهَا :

أ - تَثْبِيْتُ فُوَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ يَرَى جَبْرِيْلَ يَنْزِلُ كُلَّ فِتْرَةٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيُشْعِرُهُ أَنَّهُ مَعَهُ " كَذَلِكَ لَنْثَبْتَ بِهِ فُوَادِكَ "

ب - وَلِأَنَّ الْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ نَزَلَتْ عَلَى أَنْبِيَاءٍ يَقْرَءُونَ وَيَكْتُبُونَ ، وَالْقُرْآنُ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّ أُمَّيٍّ ؛

ج - وَلِأَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ ، وَمِنْهُ مَا هُوَ جَوَابٌ لِمَنْ سَأَلَ عَنْ أُمُورٍ ، فَيَكُونُ الْجَوَابُ لِأُمُورٍ تَحْدُثُ فِي عَالَمِ الْمُسْلِمِينَ وَتَوَاكِبَ حَيَاتِهِمْ ،

د - ونزوله مفرقاً أسهل لحفظه والعمل به ، وتقسيم الأمور أدعى لتثبيتها في النفس وحفظها والثبات عليها .

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ " قَالَ : أَنْزَلَ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجَلَّ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّفَرَةِ الْكَرِيمِ الْكَاتِبِينَ فِي السَّمَاءِ ، فَجَمَّهُ السَّفَرَةُ الْكَرِيمُ عَلَى جَبْرِيلَ عَشْرِينَ لَيْلَةً ، وَجَمَّهُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا وَعَشْرِينَ سَنَةً . قَالَ : فَهُوَ قَوْلُهُ " فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ " يَعْنِي نَجْمُ الْقُرْآنِ " وَإِنَّهُ لَقَسَمَ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ .. " وَهُوَ رَأْيٌ مَقْبُولٌ .

فسبحان الله مالك الملك ومملك الملوك :



تأملات تربوية في سورة الفرقان (٢)

العبد مفرد ، جمعه عباد وعبيد...

فإذا أضيف الجمع إلى الله تعالى ناله الشرف فاستعمل الجمع " عباد " كقوله تعالى : أن أدوا إليّ

عبادَ الله يشرب بها عباد الله وعباد الرحمن الذي يمشون على الأرض هوناً ...

- وقد يضاف إلى الله تعالى بلفظ الضمير الدال عليه : ... وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ...

فوجد عبداً من عبادنا... وهو القاهر فوق عباده ... وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ..

- وقد يحذف الضمير المضاف إليه " الياء " : ... فبشر عبداً... يا عبداً لا خوف عليكم اليوم...

- وقد يستعمل هذا الجمع معرفاً ، والمقصود به البشر جميعاً . وقد استعمل معرفاً ب"ال" مرة واحدة

في القرآن الكريم ... والله رؤوف بالعباد ...

وقد يضاف الجمع " عباد " إلى ضمير البشر : وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم

وإمائكم.

أما الجمع " العبيد " فقد قصد به الذين ظلموا وأشركوا وأساءوا إلى أنفسهم حصراً. وذكر في القرآن

خمس مرات فقط . مثاله " وما ربك بظلام للعبيد " .

أما كلمة " عباد الرحمن " فقد ذكرت في القرآن الكريم مرة واحدة ، في الآية الثالثة والستين من سورة

الفرقان . فمن هم عباد الرحمن وما صفاتهم ؟

- قبل أن نبدأ الحديث عنهم نريد أن ننبه إلى أن جذر كلمتي " الرحمن والرحيم " هو -رحم- ومع

ذلك فإن كل واحدة تمتاز بسمات خاصة ، وهذا من جمال اللغة العربية وروعيتها ، ولهذا مدح الله تعالى

هذه اللغة مرات عديدة في كتابه الكريم .

فالرحيم : كلمة تدل على اللطف والرحمة ، والعطف والغفران ، والسماح والصفح .. ونجدها في كل

الآيات الداعية إلى الإيمان والاستغفار والتوبة ، ترد مع الحلم والمغفرة والعفو و..... مثال ذلك في الآيات

التالية :

- فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم

- فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم

- أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم

- واستغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، إن ربي رحيم ودود

- إن ربكم لرؤوف رحيم

والرحمن : كلمة تدل على القوة والعظمة ، والقدرة والقهر ، والسيطرة والهيمنة . ونجدها ترد مع

العذاب وتهديد العاصي والمشرك وتهديد الكافر ، وترد مع الدعوة إلى الإيمان بالرحمن والسجود له .. مثال

ذلك :

- وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً

- إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب

- ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيضاً له شيطاناً فهو له قرين

- أمّن هذا الذي ينصركم من دون الرحمن ؟

- قل : هو الرحمن آمنا به ، وعليه توكلنا .

وقد تردان معاً لتدلا على الأمر كله :

- إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم

- الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم

- وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم

والملاحظ أن الصفتين حين تجتمعان ترى كلمة الرحمن قبل كلمة الرحيم . فهو الذي يفعل ما يشاء

ويقدر عليه ولا يحتاج لأحد (هو الصمد) ، وهو رحيم بعباده حين يقبلون عليه سبحانه .

صفات عباد الرحمن :

١- الذين يمشون على الأرض هوناً، والهون بفتح الهاء غير الهون بضمها .. فأما مضمومة الهاء

فمعناها الذل والهوان ، والمؤمنون أعزاء كرام لا يتصفون بذلك . إنما المقصود بالحديث " الهون " وهي

تحتل معاني كثيرة - كما قال المفسرون من تواضع للناس ورحمة بهم بعيداً عن الكبر والطغيان ، يعلمون

أن من له بداية لا بد أن تكون له نهاية ، ومن كان عبداً لله أطاعه وامتلأ وأمره وانتهى عن نواهيته ، وكان

مثالاً للرجل المهذب والمؤمن التقى الذي يكره التعالي على غيره لأنه داعية يحمل مبادئ سامية يعمل بها ويدعو إليها .

ومن مشى مشية المتكبر المتعجب في الدنيا فُصم ظهره في الآخرة ووطئه الناس احتقاراً ، ولماذا يختال الإنسان في مشيته و " أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قدرة ، وهو بينهما يحمل العذرة؟! " ولوسألنا أنفسنا : لم ذكرت الأرض والإنسان لا يمشي إلا عليها؟ فالجواب أن هذا تنبيه إلى أننا منها خلقنا ، وإليها نعود ، ومنها نبعث . فعلام التكبر والتفاخر؟! ألم ينهنا المولى تعالى أن نتهادى في سيرنا تعاضماً كاذباً في قوله سبحانه " ولا تمش في الأرض مَرَحاً ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً " . وما أَلطف قول الشاعر المعري :

خفف الوطاء ، ما أظن أديم ال

أرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا ، وإن قدّم العهد

هوان الآباء والأجداد

سرّ إن اسطعت في الهواء رويدا

لا اختيالاً على رفات العباد

وهل يستحسن الإنسان أن يتعاضم على ذرات الأسلاف من آباء وأجداد؟! وسيكون إن عاجلاً أو آجلاً ذرة تراب يدوسها الأحفاد .

ولا يظنّ أحد أن هذه دعوة إلى التماوت في الحركة والبطء في التنقل والبلادة في العمل فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن ذلك ، وكان في سيره يتقلع كأنما يتحدّر من صَبَب ، وكان سريع المشي واسع الخطوات .. إنه صلى الله عليه وسلم ينهى عن الخيلاء والكبر .

٢- وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، لا بُدّ من الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كما يقرر القرآن الكريم . والتلطّف في الحديث والحُسْنُ في المعاملة يجعل العدو صديقاً والمبغضَ محباً . ألم يقل الشاعر الذكي :

أحسِنْ إلى الناس تستعبد قلوبَهُمْ

فظالما استعبدَ الإنسانَ إحساناً

وقد كان القدوة الأول نبينا صلى الله عليه وسلم المثال الناصع في الرحمة والدمائة وروعة التصرف فمدحه الله تعالى " فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر " .

إني لأعلم أن الداعية هو الذي يبدأ الحديث ، ويخاطب الناس ، ويتقرب إليهم ناصحاً رقيقاً ، فكيف نفهم هنا بدء الجاهلين الحديث ؟ " وإذا خاطبهم الجاهلون .. " إن هذا تنويه إلى أكثر من أمر دقيق يجب ملاحظته والترتيب له :

١- إنَّ على الداعية أن يتوقع الردَّ السلبي عليه ابتداءً وقبل أن يدعو الناس ، فللجاهل بدوات وتصرفات عفوية غير مدروسة تدل على النزق والطيش .

٢- إنَّ الصبر على الناس يؤثري بثماره المرجوة ، وكل أمر وإن كان سهلاً فله استحقاقات لا بد من دفعها والتأني في تناولها .

٣- أن ينأى الداعية عن ردِّ الفعل كي يكون المتحكم بزمام الامر ، القادر على تسيير دقته .

٤- إن استيعاب المدعوين هو المقصود بكلمة " قالوا سلاماً " .

إن تحمل الآخرين والبعد عن ردّة الفعل تجعل الداعية ممسكاً بخيوط الحديث ، ويترك مجالاً لإعادة الكرة والحفاظ على التواصل . أما التسرع فيقطع الخيوط أولاً وينزل بمستوى الداعية ثانياً ، ويجري الآخرين عليه والسخرية منه ثالثاً . وقد نبهنا القرآن الكريم مرات عديدة إلى الصبر في دعوة الناس ومخاطبتهم " من ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام لوالده الذي هدده بالرجم والعذاب إن خالفه " قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيماً " ومنها أمر الله تعالى لنبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام " فاصفح عنهم وقل سلام ، فسوف يعلمون " و في سورة ياسين نجد النصيحة الغالية كذلك " سلامٌ قولاً من رب رحيم " وفي سورة القصص نجد التعالي عن الخصام واللغو " وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبتغي الجاهلين " .

٣- والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً، الأصل في البيات أن يدركني الليل أنمتَّ أم لم أنم .

قال زهير بن أبي سلمى في ذلك :

فبتنا قياماً عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

فمن الناس من ينام ملء جفنيه الليل كله ، ومنهم من يسهر في اللعب واللهو، ومنهم - وهؤلاء قليل - مَنْ يعبدون الله تعالى ويكثرون من الصلاة والاستغفار " كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون " وهؤلاء هم الأتقياء الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناماً وأذّر الدموعَ على الحدودِ سجّاماً
واعلمْ بانك ميّت ومحاسب يا من على سُخطِ الجليل أقاماً
لله قومٌ أخلصوا في حبه فرضي بهم ، واختصّهم خداماً
قومٌ إذا جنَّ الظلام عليهم با توا هنالك سُجّداً وقياماً

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً . ولا شك أن قيام الليل دأب الصالحين وتجارة المؤمنين ، وهؤلاء من سمّاهم أنهم " تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً " ويقول النبي صلى الله عليه وسلم محبباً بقيام الليل " عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى الله تعالى ، ومكفرة للسيئات ، ومطرقة للداء عن الجسد " ففوائده معنوية ومادية ، دنيوية وأخروية . ومما قاله جبريل للنبي الكريم " واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل " وقد روى أبو داوود " من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كُتب من المقنطرين " والمقنطرون الذين حازوا قنطاراً من الأجر .

قال الحسن البصري : لم أجد شيئاً من العبادة أشد من الصلاة في جوف الليل .

وكان شداد بن أوس إذا أوى إلى فراشه كأنه حبة على مقلَى ، ثم يقول : اللهم إن جهنم لا تدعني أنام ، فيقوم إلى مصلاه وكان زمعة العابد يصلي كثيراً ثم إذا أسحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرّسون ، أكل هذا الليل ترقدون؟ ... ألا تقومون فترحلون؟! ... فإذا طلع الفجر نادى : عند الصباح يحمد القوم السرى .

وكان طاووس يثب عن فراشه ، ثم يتطهر ، ويستقبل القبلة ، ويقول : طيّر ذكر جهنم نوم العابدين .

٤ - والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذابَ جهنم ، ألم يقل الله تعالى " وإن منكم إلا واردها، كان على ربك حتماً مقضياً " فالبشر والجن لا بد أن يردوا النار صالحهم وطالحهم ، قد قال علماء التفسير واللغة في بعض ما قالوه :

لا يعني الورودُ الدخولَ فيها ، فإنك تقول : وردتُ الماءَ أي ذهبَ إليه ، فقد تشرب منه وقد لا

تشرب . وكذلك يرد البشر والجن النار فتعلق الكافر ، وينجو المؤمن منها .

وقيل : بل يطرح الكفار والمشركون فيها أما المؤمنون برهم وفاجرهم فيجوزون الصراط ، فمن استحق

العقوبة جرجرتة كلاليتها إلى النار فمكثوا فيها ما شاء الله تعالى أن يمكثوا حتى يتطهروا ثم يخرجون منها بإذن الله تعالى ... ويجوز الناجون الصراط كل حسب عمله فمنهم من ينطلق كالبرق الخاطف ، ومنهم كالريح الشديدة ومنهم بسرعة الخيل ، ومنهم ركضاً ، ومنهم مشياً سريعاً ، ومنهم من يمشي حيوماً أو يزحف زحفاً تخمشهم كلاليتها .. نسأل الله العافية والنجاة ، فعذابها أيها الأحباب كما وصفها المولى شديد :

" إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً "

وللغرام معان عدة : كالشديد ، والملازم الذي لا يفارق ، والمولع بالشيء لا يدعه ، والغرم عكس الغنم .. وهكذا العذاب فيها - أعاذنا الله منه - خسارة شديدة يأبى العاقل أن يكون من أهلها ، وكيف لا تسوء مقاماً وهي مأوى الظالمين يصطلون بناها صلياً ، ويُشوون بلظاها شيئاً؟! طعامهم الرقوم ، كأن طلعه رؤوس الشياطين ، وشراهم الحميم الآني يُصهر به ما في بطونهم والجلود ، ويتلقاهم الزبانية بمقامع من حديد ، وهي عليهم مؤصدة بعمد ممددة !! ، فبئس المستقر وبئس المقام نسأل الله حسن الختام والفوز بالجنة ورضا الله تعالى ..

وإذا كان هذا قولَ عباد الرحمن - وهم أعرف بما يقولون لمكانتهم من الله تعالى - حق على الناس أن ينتصحو ، فيقولوا مثل قولهم " ربنا اصرف عنا عذاب جهنم " ويفعلوا مثل فعلهم ، فيعبدوا الله راضين مرضيين يطيعون فيما أمر ونهى سبحانه .

٥- والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقرئوا، وكان بين ذلك قواماً :

لا بد من الإنفاق على أن لا يكون إفراط ولا تفريط . ألم يقل الله تعالى معلماً ومسدداً "

ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك

ولا تبسطها كل البسط...

فتتعد ملوماً محسوراً " ؟

فما الإسراف وما التقتير ؟

قال ابن عباس : من أنفق مئة ألف في حق فليس بسرف ، ومن أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف ، وقاله مجاهد وغيره . ويؤكد ذلك ما رواه عبد الله قال قال رسول الله عليه وسلم : " لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق ، وآخر آتاه الله حكماً فهو يقضي بها ويعلمها الناس "

قال النحاس : من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو التقتير... وقال عون بن عبد الله : الإسراف أن تنفق مال غيرك .

ولا ينبغي الإفراط في النفقة فيضيع حق الآخرين أو عيالهم ، ولا التضيق والتقتير فيجوع العيال من فرط الشح .

والمطلوب العدل والتوسط وهذا ما يسمى " القوام " وقد وُصف أصحاب رسول الله بأنهم لا يأكلون طعاماً للذة وتنعم ، ولا يلبسون ثياباً للجمال ، ، ولكن كانوا يأكلون ليسدوا جوعتهم ، ويلبسون لستر عورتهم . وقال الخليفة الفاروق في هذا : كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله . وفي سنن ابن ماجة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت " .

ولله در الشاعر حين قال :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي دعته إليه من حلاوة عاجل

وقال عمر لابنه عاصم : يا بني كل في نصف بطنك ، ولا تطرح ثوباً حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم .

فأين نحن من هؤلاء القوم ؟ وما مدى قربنا أو بعدنا منهم ؟

٦- والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر :

من الظلم أن يكرمك أحدهم فتأكل على مائدته ، وتلبس من ثيابه ، وتنام على فراشه ، ثم تشكر غيره ، وتثني على غير المتفضل ، فهذا ظلم ما بعده ظلم ، وسفاهة ما بعدها سفاهة . فكيف والله تعالى خلقك ، ويسر كل شيء لخدمتك " يا بن آدم خلقت كل شيء لك ، وخلقتك لنفسي " وجعلك سيد المخلوقات ، ووهبك العقل وجعلك أجملهم " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " ثم ترضى لنفسك الضياع والسقوط فتعبدُ إلهاً غير الله ؟ ،

عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أكبر ؟ قال: " أن تدعو لله نداً وهو خلقك .. "

وعن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن ربه :

إني والإنس والجن في نبأ عظيم

أخلق ويعبد غيري ، أرزق ويشكر سواي
خيري إلى العباد نازل ، وشركهم إلي صاعد
أتودد إليهم برحمتي ، وأنا الغني عنهم
ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر ما يكونون إلي!
أهل ذكري أهل مجالستي ، فمن أراد أن يجالسني فليذكرني
أهل طاعتي أهل محبتي
أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي
إن تابوا إليّ فأنا حسبهم
من أتاني منهم تائباً تلقيته من بعيد
ومن أعرض عني ناديته من قريب
أقول له : ألك رب سواي؟!
الحسنةُ بعشر أمثالها ، وأزيد!
والسيئة عندي بمثلها ، وأعفو!
" وعزني وجلالي ، لو استغفروني منها لغفرتها لهم "
رواه البيهقي والحكيم الترمذي

أو تتقرب إلى آلهة ليس لها وجود ، وهل هناك إلهٌ غير الله ؟ تعالى الله عن الشريك -أيّاً كان - علوّاً
كبيراً . أما عباد الرحمن الذين عرفوه فأحبوه ، فعبدوه - سبحانه - يقولون بقلوب مؤمنة وألسنة موحدة "
لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

٧- ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق :

لا يختلف المسلمون في تحريم الاعتداء على الأنفس المعصومة في دين الإسلام ، والنفس المعصومة في
الإسلام إما أن تكون مسلمة أو لا تكون . فإن كانت مسلمة فلا يجوز بحال الاعتداء عليها وقتلها بغير
حق ومن فعل ذلك فقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب العظام يقول الله تعالى " ومن يقتل مؤمناً متعمداً
فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً " .

ويقول سبحانه " من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً .. "

قال مجاهد رحمه الله : وهذا يدل على عظم قتل النفس بغير حق.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيب الزاني والمارق من الدين التارك للجماعة " ويقول النبي صلى الله عليه وسلم "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " .

وفي سنن النسائي عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم " .

ونظر ابن عمر رضى الله عنهما يوماً الى البيت أو الى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

كل هذه الأدلة وغيرها كثير تدل على عظم حرمة دم المرء المسلم وتحريم قتله لأى سبب من الأسباب إلا ما دلت عليه النصوص الشرعية فلا يحل لأحد أن يعتدى على مسلم بغير حق.

يقول أسامة بن زيد رضى الله عنهما .. بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناها قال لا إله إلا الله فكف الأنصاري ، فطعنته برمحى حتى قتلته فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال " يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله " قلت كان متعوذاً . فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم . متفق عليه . فهذا رجل مشرك وهم مجاهدون فى ساحة القتال لما ظفروا به وتمكنوا منه نطق بالتوحيد فتأول أسامة رضى الله عنه قتله على أنه ما قالها إلا ليكفوا عن قتله ولم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم عذره وتأويله . وهذا من أعظم ما يدل على حرمة دم المسلم وعظيم جرم من يتعرض لها .

ومن الأنفس المعصومة فى الإسلام .. المعاهدون وأهل الذمة والمستأمنون . فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن رجعها توجد من مسيرة أربعين عاماً " أخرجه البخاري .

ولما أجمعت أم هانئ رضي الله عنها رجلاً مشركاً عام الفتح وأراد أخوها علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يقتله ذهبت للنبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال صلى الله عليه وسلم " قد أجمعت من أجمعت يا أم هانئ " أخرجه البخاري ومسلم .

٨- ولا يزنون : فالزنا مفسدة أيما مفسدة ، ينأى عنها ذوو الأخلاق والشرف والمروءة . ففيه خلال الشر كلها من ذهاب الدين " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " وفساد المروءة ، وقلة الورع ، وقتل الحياء ، مع الاتسام بالفجور والصفاقاة والوقاحة . كما أن الوجه تعلوه ظلمة وكآبة تنفر منه نفوس المتقين ، وتراه يحتقر نفسه وإن لم يصرح بذلك .

كما أن من صفات الزاني الفقر لما ورد في الأثر " أنا مهلك الطغاة ومفقر الزناة " ، وينظر الناس إليه نظرة الشك والريبة ، ولا يأمنونه على أعراضهم

وقد يعفو أحدنا عن السارق والقاتل . أما هاتك العرض والشرف فليس له إلا العقوبة القاسية التي لا ترحم ، ولو بلغ الرجل المسلم الشريف أن ابنته أو زوجته أو أخته قُتلت أسهل عليه أن يبلغه أنها زنت . ومن عُرف عنه الزنا سقطت مهابته ، وضعفت مهابة حرمة ، ولربما سهُل على نسائه بذل أعراضهنّ إن لم يُربِّين التربية الصالحة التي تمنعهن أن يكنّ مثل رجالهنّ .

وللزنا أضرار صحية جسيمة يصعب تجنبها أو علاجها والسيطرة عليها ، وهي خطيرة قد تهلك الزاني وتؤدي به إلى الموت والهلاك أمثال الإيدز- ضعف المناعة - والزهري والسيلان والهريس ، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أمراض الزنا فقال : " ما ظهرت الفاحشة في قوم قط ، يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم " وخص مرتكب الزنا إن كان محصناً بالرحم ، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم بماعز والغامدية . أما غير المحصن فبالجلد مئة جلدة على أعين الناس الأتقياء دون رافة ولا رحمة . " "

الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة

ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر

وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " .

ولما كان الشرك بالله وقتل النفس بغير حق والزنا أشدّ أنواع الاعتداء على الحقوق

فالشرك اعتداء على حق الله تعالى

والقتل اعتداء على حق الآخرين في الحياة

والزنا اعتداء على الشرف والكرامة والنسل

كان الهلاك للمشركين في الدنيا والنار لهم في الآخرة " قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يُرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكراً"

وكان القَوْدُ من القاتل الظالم في الدنيا والخلودُ في النار " ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً "

وكان الحد رجماً حتى القتل للزاني المحصن ، ومن نجا في الدنيا فأمره إلى الله في الآخرة ، أما عقوبة الزاني غير المحصن فمئة جلدة كما ذكرت آية الجلد في أول سورة النور كما ذكرنا آنفاً وتغريبُ سنة.

ومن ثم يأتي دور التوبة والإيمان والعمل الصالح الذي يقرب غفرانَ الله تعالى ، ويقلب السيئات حسنات . وهذا فضل من الله تعالى على المؤمن التائب " إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً "

ولعل التبدل يكون في الدنيا ويكون في الآخرة .. فأما في الدنيا فإن الله يبدلهم الإيمان من الشرك والإحصان من الفجور ، والرشادَ من الفساد . وأما في الآخرة فنرى الحسنات مكان السيئة والرضا مكان السخط ، والعفو مكان العقوبة . ألم يقل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم موضعاً معنى الآية السابقة : " وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخُلُق حسن " اللهم اجعلنا ممن ترضى عنهم فتبدل سيئاتنا حسنات ، وتكرمنا بفضلك ومثك يارب ... وتعال معي نقرأ هذا الحديث الشريف الذي يوزن بميزان الذهب ، بل بالنور والضياء ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن أبي ذر :

" أني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجلٌ يُؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا وكذا وكذا ، فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه . فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة . فيقول : يارب عملتُ أشياء لا أراها ههنا ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه ، فقال أبو طويل - رجل من كندة - : يا رسول الله ،

أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجةً ولا داجةً - يعني قطع الطريق على الحجاج - إلا اقتطعها ، فهل له من توبة ؟ قال " هل أسلمت " قال : أنا أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال : " نعم ، تفعل الخيرات ، وتترك السيئات ، يجعلهن الله كلهن خيرات " قال : وغدراي وفجراي يا نبي الله؟! قال " نعم " قال : الله أكبر ! فما زال يكررها حتى توارى .

قال عثمان كاتب هذا المقال ، راجي عفو ربه :

ياربِّ سبحانك أنت الإله الحقّ
للمسلم المذنب قولٌ لذاتك رِقّ

÷÷÷÷

من فضلك النارُ ولتْ فلا دارُ
إلا رُبّا الجنّةُ فلوجهك المنّةُ

÷÷÷÷

أرسلتْ هادينا يُهدي لنا دينا
نورٌ على نورٍ بالخير منشورٍ

÷÷÷÷

فارفعه مقداراً أعلى الورى دارا
صلى عليه الله من فضله أولاده

٩- والذين لا يشهدون الزور :

إن المسلم التقى من دخل في زمرة " عباد الرحمن " لا يحضر الكذب ولا الزور، فلا يشهدهما ، ولا يشاهدهما . قال تعالى " .. واجتنبوا قول الزور " . وجعله المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم من أكبر الكبائر " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، ! فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت " وتكرار العبارة تنبيه إلى خطورتها ...

والزور من أشد أنواع الكذب - كما قال ابن العربي المالكي الأندلسي صاحب " العواصم من

القواصم " والزور كما يقول العلماء : كل باطل زورٌ وزُحرفٌ ، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد . وعلى هذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما : الزور أعياد المشركين . وقد حذر منه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام " من كثّر سوادَ قوم فهو منهم . " .

من الزور القمار والملاهي التي تبعد عن الله تعالى وتوغر الصدور . ومن الزور أيضاً التغّي بالشعر الفاحش . ومنه الشطط في القول الخارج عن الإيمان كقول ابن هانئ الأندلسي يمدح الخليفة الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهَّارُ

فجعل له صفات لا تليق إلا بالله تعالى من وحدانية وقدرة مطلقة في التصرف واستعلاء قاهر !! . وكذلك المبالغة الممحة كقول الشاعر :

لا تغرَّتْكَ الأشكال والصورُ تسعة أعشار من ترى بقرُ

وسمع أحد الشعراء هذا البيت فزاد المعنى حشفاً وسوء كيلةٍ حين قال :

لا تغرَّتْكَ الأشكال والصور فجلّ من ترى بل كلهم بقرُ

ولا شك أنه أدخل نفسه في الكلب البقريّ ! دون أن يدري ، وانطبق عليه قول مثيله من الشعراء

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظمُ

١٠ - وإذا مروا باللغو مروا كراماً : فما اللغو؟ إنه كل سَقَط من قول أو فعل ويدخل فيه كثرة الغناء

واللهو ، والحديث الذي لا فائدة منه .. وقيل : هو المعاصي عامّةً . وقيل : هو الشرك ، قاله الضحّاك .

فما المقصود بكلمة " كراماً " ؟ إنه الإنكار وعدم الرضا ، والبعد عن مجالسة اللاغين ، والنأي عن الدخول

في الباطل وتكريم النفس عما يشينها . وروي أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب ، فبلغ رسول

الله صلى الله عليه وسلم ما فعله ابن مسعود فقال : " لقد أصبح ابن أم عبد كريماً " .

وكلمة " مروا باللغو " تدل على امتناع المرء أن يقصد مجالس اللغو . فإذا وجد نفسه عرضاً فيها

أسرع مبتعداً كي لا يسمع أو يقول . كما فعل ابن مسعود رضي الله عنه.

ويكفي اللغو مأثماً أنه يضيع الوقت سدى ، ويبدّر الشقاق ، ويؤدي إلى البغضاء والفراق ، ويفرق

القلوب ، ويكثر الذنوب ، ويهدم الفضيلة ، ويزرع الرذيلة ، ويؤجج التنافس الدميم ، ويفرح الشيطان

الرجيم .

١١ - والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمّاً وعمياناً :

عباد الرحمن قلوبهم مع الله ، وأعمالهم يبتغون بها وجه الله . يشكرون من يذكرهم بالله ويسعدون بذلك وهم نقيض المنافق ضعيف الإيمان الذي " .. إذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم .. " فمن صفاتهم الإيمانية قوله تعالى " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون " .

وما أدق التعبير " لم يخروا عليها" الدالة على الإعراض وعدم المبالاة والتكبر والإصرار على البعد والتبذّر . فعباد الرحمن يستمعون الذكر فيخرون سجّداً وبكياً " ... إذا ذُكروا بآيات ربهم خرّوا سجّداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون " يتململون تململ السليم ، ويكون بكاء الشكلى . يذكرون يوماً تتقلب في القلوب والأبصار . ويقولون بلسان الحال والمقال " إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً " فمن خاف أدلج ، ومن أدلج سلم .

ولا بد أن نشير إلى أمر هام نبهنا إليه قوله تعالى " إذا ذُكروا بآيات ربهم " فالمسلم داعية إلى الله يذكر نفسه وإخوانه بالله . ألم يأمرنا ربنا بذلك فقال : " فذكر إن نفعت الذكرى " ؟ فمن الذي يتذكر سوى من يحب ربه ويخشاه ويرجو ثوابه ويخاف عقابه؟! " سيذكر من يخشى .. " .

وقد أعذر الله تعالى إلى الناس حين أرسل إليهم الرسل بالآيات والبراهين الناصعة ، يذكرونهم بربهم ويعلمونهم الطريق الموصل إلى رضاه سبحانه ، فوضحوها لهم وأقاموا عليهم الحجة .

١٢ - والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً .

في هذه الآية نجد فوائد عدة منها:

١ - أن يدعو الإنسان ربه ويبتهل إليه ويطلب منه العون ، فالإنسان ضعيف بنفسه قوي بلجوئه إلى ربه " إياك نعبد وإياك نستعين " " إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله " .

٢ - ما ينال الإنسان من خير فمن الله تعالى . فالرزق الحلال هبة " إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " والزوجة الصالحة هبة " الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة " والذرية الصالحة هبة " وأصلح لي في ذريتي " وهبنا له إسحاق ويعقوب "

٣ - سعادة الإنسان حين تكون أسرته - الزوجة والأبناء - صالحين تفر بهم عيناه ، فيعيش بهم

في نعيم " قال رب هب لي من الصالحين، فبشرناه بغلام حلیم " وقرة العين بهم كما قال الضحاک أيضاً أن يكونوا طائعين . " قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة " ولا ننس دعاء زكريا عليه السلام " فهب لي من لدنك ولياً " والولي المطيع ، فلم يقل هب لي ولداً. فقد لا يكون الولد مطيعاً . وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه " فقرت عينه بأهله وولده وماله .

٤- إلى المسلم أن يكون داعية كي يكون قدوة " واجعلنا للمتقين إماماً " والمسلم يطلب أن يكون

قدوة في الدين قبل كل شيء ، فهو سبيل إرضاء المولى عز وجل . ولهذا ينبغي أن يجتهد في طاعة ربه .

٥- يدعو الإنسان بالخير للمسلمين جميعاً ولأهله وقرابته قبل الآخرين ، فالأقربون أولى بالمعروف .

ومن كان في أهله سعيداً مرتاحاً كان أقدر على الدعوة وأنشط .

عباد الرحمن هؤلاء الذين جمعوا من أوصاف التحلية والتخلية التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، والاعتدال في النفقات ، والنزاهة عن الشرك والزنا والقتل ، والتوبة والصدق ، والعفو ، وتقبل الموعدة والابتهاج إلى الله استحقوا ثواباً من الله تعالى عظيماً .. إنه " الغرفة " أعلى منازل الجنة وأفضلها لأنهم صبروا على طاعة ربه فابتعدوا عن الحرام ، وقنعوا بالحلال ، " أولئك يُجَزَوْنَ الغرفة بما صبروا " . فالدنيا دار ابتلاء واختبار نجحوا فيه فاستحقوا كرامة الله تعالى لهم .

يخصهم ملائكة ربهم بالتحية والإكبار كلما رأوهم وحيشما التقوهم " والملائكة يدخلون عليهم من كل

باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " قال تعالى " وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً " .

هل النعيم ينقطع أو هو دائم ؟ لو كان ينقطع فليس نعيماً إنه لو انقطع لأورث الغصة ، وظل

أصحابه ينتظرون انقطاعه فتضيغ لذته ... إنه نعيم دائم في كنف الله تعالى ذي الفضل والمنة ، يرتعون في

رض الجنة أبد الأبدين " خالد بن الوليد ، حشنت مستقراً ومقاماً "

" إن هذا هو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون " صدق الله العظيم

اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين الفائزين ، واحشرنا في زمرة عبادك الصالحين ، مع الأنبياء

والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .



تأملات تربوية في سورة الشعراء (١)

في هذه السورة الكريمة - كبقية أخواتها - مواقف تربوية جمّة تنير الفكر ، وتنشط القلب والعقل ، وتضيف كنوزاً من فيض التربية القرآنية يظهر فيها واضحاً جلياً . من أهمها :

التكرار . فما فائدة التكرار هنا ؟

ذكرت في كتابي " صور من التربية في القرآن الكريم " قريباً من اثني عشر هدفاً للتكرار . وقلت فيما سبق من تأملات : إن التكرار ظاهرة تربوية وأسلوب تعليمي أصيلان ... يدخل إلى النفوس والقلوب من أبواب متعددة ، تفتحها بطرق مختلفة ، قوية حيناً وبسيطة حيناً آخر ، مخيفة تارة ومحبة تارة أخرى . فتحقق الأهداف التربوية والأخلاقية والتعليمية . فأين التكرار في هذه السورة ؟

جاءت السورة في أقسام تسعة تؤصل في قلب الإنسان التوحيد وإفراد المولى عز وجل بالعبادة ، وتنبه إلى اتباع الرسل والأنبياء ، وتدعو إلى تقوى الله ومراقبته سبحانه وتعالى ، وتخوّف من نتائج الكفر والعصيان . ففي القسم الأول والأخير يخاطب الله تعالى رسوله الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام . وفي الأقسام الأخرى يحدثنا عن الأنبياء الكرام موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم صلوات الله وسلامه بشكل متتابع ، وما لاقوه من عنت أقوامهم ، وتكذيبهم إياهم حين دعوهم إلى عبادة الله وحده والعمل الصالح ، مع ذكر العقوبة التي كانت فيها نهايتهم .

وفي نهاية الحديث عن كل نبي نجد الخاتمة في قوله تعالى " إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الحكيم " تكرر سبع مرات توضح :

١- أن الله تعالى أيد رسله بأدلة وبراهين . ولا بد لإنجاح المهمة أن تزود المكلف بأية مهمة تريد إنجازها بآيات واضحة وبراهين دامغة .

٢- وأن أكثر الناس يتبعون أهواءهم ، ويتنكبون طريق الهداية . فالشيطان والهوى يميلان بالنفس إلى التخفف من الأعباء ، ونبد التكاليف ، والانحراف عن الحق .

٣- وأن الله تعالى قوي عزيز يفعل ما يشاء ، وهذه قمة التهديد . ولأنه سبحانه عزيز قادر على كل شيء فسيعاقبهم إن شاء وقت ما شاء ، كيفما شاء .

٤ - وأن الله تعالى يقبل توبة من تاب وأتاب مهما فعل . فهو الرحيم بعباده ، يُقبل عليهم إن أقبلوا ، ويتجاوز عن سيئاتهم إن عادوا إليه ولاذوا بحماه .

٥ - كما كانت هذه الآية إيذاناً بانتهاء قصة وبدء أخرى كلاهما متشابه يؤدي إلى المعنى الذي تريده السورة والهدف المنشود منها ، وبمعنى آخر إن هذه الآية الكريمة تعالى " إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الحكيم " رابط يجمع عمل الأنبياء في عمل واحد وهدف واحد هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى .

ونجد في بداية قصص الأنبياء الخمسة الكرام " نوح وهود وصالح ولوط وشعيب " تكراراً في الدعوة إلى التقوى والتعريف بالمهمة " كذّبت ... المرسلين إذ قال لهم أخوهم ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين " تكرر خمس مرات تؤكد فيها

١ - وجوب التبليغ " إذ قال.... " وذلك ليقيم عليهم الحجة وهذا مصداق قوله تعالى " يا أيها الرسول : بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " ٢ - وأنه " أخوهم " يجب لهم الخير ، ويودّه لهم ، إلا في الحديث عن شعيب فلم تُذكر كلمة الأخ لأن المفسرين قالوا : إن أصحاب الأيكة لم يكونوا من قوم شعيب ، وإن كان قد أرسل إليهم بعد أن دعا قومه . أما قومه الذين أرسل إليهم أولاً فهم أهل مدين . وعلى هذا ذكر القرآن الكريم في سورة هود أنه أخوهم - أي منهم - " وإلى مدين أخاهم شعيباً ."

٣ - ولو تتبعنا قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لوجدنا أنهم أرسلوا إلى أقوامهم فقط . فكل نبي أرسل إلى قومه وليس معه رسول آخر. فكل قوم كذبوا نبيهم وحده !! فلماذا أكد الله سبحانه وتعالى أنهم كذبوا المرسلين ؟ الجواب : أنه من يكذب نبياً فقد كذب الأنبياء كلهم ، ومن صدق نبياً فقد صدق الأنبياء جميعهم . فالأنبياء يصدر عن مشكاة واحدة . ومن هذا نفهم قوله تعالى يمدح المسلمين أتباع محمد عليه الصلاة والسلام " والمؤمنون .. كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير "

٤ - وطلب إليهم أن يتقوا الله ، فالتقوى طريق الإيمان ودعامته. ولا تكون التقوى إلا بطاعة

الرسول ، فالرسل كل الرسل مؤتمنون على الرسالة وصادقون في تبليغها. ولذلك أعلن الرسل جميعهم مقولة واحدة " إني لكم رسول أمين " والأنبياء رمز الأمانة ، ألم يأمر الله تعالى موسى وهارون حين يأتیان فرعون " فقولاً إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بني إسرائيل " ؟ لو لم يكونا أمينين ما اختارهما الله تعالى لقيادة بني إسرائيل إلى بر الأمان .

٥- وأمروهم بالتقوى بأسلوبين يقوي أحدهما الآخر أما الأول " ألا تتقون ؟ " فقد جاء بأسلوب الاستفهام التحضيضي . وهذا أدعى إلى التفكير واتخاذ القرار دون ضغط ولا إكراه . وأما الثاني " فاتقوا الله .. " فقد جاء بصيغة الأمر بعد التفكير و التعليل وتقرير أمانة الرسل وأنه قد اتضح الأمر وظهر الحق لذي عينين . أما موسى فقد أرسله الله تعالى إلى فرعون وقومه فهم

- ظالمون

- لا يتقون

" وإذ نادى ربك موسى أن ات القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون ؟ !!

٦- وقد يأمرك أحدهم بأمر لك فيه مصلحة وله فيه - منك - مصلحة دنيوية . أما الرسل الكرام فهم يدعون لوجه الله لا يريدون منا جزاء ولا شكوراً " وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين " وثواب الأنبياء على دعوتهم كبير جداً وعظيم جداً لا يقدر عليه البشر ، ويؤديه إليهم رب البشر واهبُ النعم ، وجزاؤه خير الجزاء ، ألم يعلمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نقول لمن أدى إلينا معروفاً ونريدُ له المكافأة الكبيرة " جزاك الله عنا كل خير "؟

أما الآية " فاتقوا الله وأطيعون " فقد وردت في الحديث عن نوح وهود وصالح مرتین وذلك لطغيان قوم نوح وقوم هود وقوم صالح فقد مكث نوح عليه السلام بينهم الف سنة إلا خمسين عاماً يحاجونه ويؤلبون عليه سفهاءهم ويكذبونه .. وطال عليهم الأمد حتى مل منهم .. ويظهر ألمه هذا في سورة القمر " فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. وأما قوم هود فلأنهم تجبروا وبطشوا بالمؤمنين وبمن حولهم من القرى ، واعتمادهم على قوة أجسادهم وضخامتها ، ولبطرهم وغناهم وما أمدتهم به الله تعالى من مال وبنين وأنعام وجنات وعيون فكانوا لنعمه جاحدين . وأما قوم صالح فلأن الله تعالى هيأ لهم حياة هنية وغنى فاحشاً وقوةً جسدية مكنتهم من حفر الجبال واتخاذها بيوتاً ، ثم طلبوا آية فأرسل الله لهم الناقة فظلموا بها وعتوا

عن أمر ربهم

أما في الحديث عن قوم لوط وعن شعيب مع أصحاب الأيكة فقد وردت الآية " فاتقوا الله وأطيعون " مرة واحدة ولعل المتتبع للسورة يجد أن مفسدهم كانت فيما بينهم ، وأن مكوث النبيين الكريمين بينهم كان أقل - والله أعلم - .

وثاني التأملات في هذه السورة الكريمة التعليل وذكر السبب :

والتعليل لأسباب كثيرة أيضاً منها :

البراءة والإعذار .

توضيح الأمور وتبianaها .

أن يتحمل المعني مسؤولية قوله وفعله .

أن يكون صاحب القرار الأخير فيما يتصرف .

وسأذكر بعض الأمثلة :

- فسيدينا إبراهيم أعلن عداوته للأصنام ورفض عبادتها ، وأكد عبوديته لله رب العالمين للأسباب

التالية: " الذي خلقتني ، فهو يهديني .

والذي هو يطعمني ويسقيني .

وإذا مرضت فهو يشفيني .

والذي يميتني ثم يحييني .

والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . "

ولأن الله تعالى صاحب الأمر والنهي الذي يستحق العبادة فأنا أدعوه وحده فهو المجيب الذي يلجأ

إليه كل المخلوقات في الدعاء وهو الذي أسأله " وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله "

فقال : " رب هب لي حكماً ، وألحقني بالصالحين .

واجعل لي لسان صدق في الآخرين .

واجعلني من ورثة جنة النعيم

ولا تخزني يوم يُبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا

من أتى الله بقلب سليم "

- والشياطين لا يمكنهم أن يسترقوا السمع " وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم ، وما يستطيعون " فلماذا ؟ وما السبب؟ " إنهم عن السمع لمعزولون "

- وأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يتوكل عليه " وتوكل على العزيز الرحيم " فلماذا؟ السبب: أنه تعالى هو " العزيز الرحيم

الذي يراك حين تقوم ، وتقلبك في الساجدين

إنه هو السميع العليم . "

- ويقول الله تعالى " والشعراء يتبعهم الغاؤون " فلم يارب ؟ الجواب :

" ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ؟!

وأهم يقولون ما لا يفعلون ؟!

وثالث هذه التأملات الاعتبار بمصائر الآخرين

فمن كان ذا قلب حي وبصيرة نافذة اذكر ووعى ، وعمل صالحاً ونأى عن مواطن الخطأ ، وأقبل على الله تعالى بقلب منيب ... والله تعالى حين يقص علينا مصارع الظالمين ونهايتهم المخيفة يحذرنا أن نسير سيرتهم وأن نسير على منوالهم كي لا ننتهي نهايتهم .

- فكيف كانت نهاية فرعون وملئه؟ " قال سبحانه " فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم " كانوا يتمتعون بها في مصر ثم استدرجهم إلى خليج السويس لينجي المؤمنين بقيادة النبيين موسى وهارون وليقضي عليهم غرقاً " وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين " .

- وكيف قضى على قوم نوح ؟ أغرقهم الله تعالى بالطوفان العظيم فلم يُبقِ منهم أحداً ، ونجى نوحاً والمؤمنين معه في السفينة التي صنعها النبي الكريم " فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعدُ الباقين "

- أما قوم هود فقد استأصل الله تعالى شأفتهم " فأهلكناهم " وذلك بالريح الشديدة التي دمرتهم يقول تعالى في سورة الذاريات مصوراً نهايتهم المفجعة : " وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم

من باقية ؟ "

- وقوم صالح أيبدوا كذلك " فأخذهم العذاب " وذلك بالصيحة التي صعقتهم فماتوا لساعتهم .
يقول الله تعالى في سورة القمر " إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر " .
- وأما قوم لوط فأناهم عن بكرة أبيهم ، وكأنهم ما كانوا " ثم دمرنا الآخرين " وكان عقابهم على شقين كما ورد في سورة هود " فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ... "

٦- وأما أصحاب الأيكة فقد أحرقوا بنارٍ انبعثت من سحابة حسبوها تظلمهم من حر الشمس " فكذبوه ، فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم "

ورابع هذه التأملات الاستكبار يمنع الإيمان :

فقوم نوح وجدوا ضعاف القوم هم الذين يؤمنون ، فهل يتنازلون ليكونوا مثل عبيدهم ، وفي مصافهم ! لا خاصة أن هؤلاء الضعفاء سبقوهم إلى هذا الدين الجديد ، فهل يرضى السادة أن يكونوا في الصف الثاني؟! لا وألف لا " قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأزدلون؟! " فنبههم النبي الكريم نوحاً إلى أن مكانة الإنسان بعمله لا بنسبه وغناه . والداعية لا يفرق بين غني وفقير ، ولا نسيب وغير نسيب ألم يضحك الصحابة رضوان الله تعالى من دقة ساق عبد الله بن مسعود - الذي قطع أبو جهل أذنه ودعاه روبيعي الغنم - فأخبرهم النبي الكريم عليه الصلاة والسلام " أن ساقه عند الله تعالى أثقل من جبل أحد " ؟ فأجابهم نوح عليه السلام .. " وما علمي بما كانوا يعملون ؟ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون " بل قريهم إليه واعتنى بهم واحتفى بهم لأنهم لبوا دعوته حين أنذر وبشر " وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين " ويتكرر الأمر بشكل أوضح في سورة هود حين يشتد الجدل بين نوح عليه السلام وبين قومه في الآيات / ٢٥ - ٣١ / ولقد فعل المشركون مع النبي صلى الله عليه وسلم الشيء نفسه حين قالوا له مثل ما قال أسلافهم لنوح فأمره الله تعالى أن يحافظ عليهم ويقربهم ، ويؤدبهم من مجلسه وأن يترك الغافلين الذين اتبعوا أهواءهم " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه .

لا تعُد عينك عنهم تريد زهرة الحياة الدنيا .

ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً " بل حذر من طردهم فهم عباد

الله الذين يذكرونه في كل وقت يبغون رضاه سبحانه فقال في سورة الأنعام : " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين " . وكان صلى الله عليه وسلم يحتفي بابن أم مكتوم فيقول له : أهلا بمن عاتبني فيه ربي .

كما أن قوم نوح هددوه بالرجم " قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين " ومن صيغ الاستكبار الإعراض والتكذيب والاستهزاء : " وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا ، فسيأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون " ومن صيغ الاستكبار وصف فرعون النبي موسى بالسحر والجنون " قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لجنون " . وقوله للملأ حوله " إن هذا لساحر عليم " ثم تهديئه بالسجن وتهديئ السحرة بالصلب والتقطيع " لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين " " لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبكنم أجمعين "

كما أن قوم هود استهجنوا الدعوة واعتبروه مخزفاً فقالوا مستهجنين العذاب الذي هددهم به إن كفروا " أن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين " .

وهؤلاء قوم صالح اعتبروه مسحوراً ، وتحدوه بعقر الناقة " قالوا : إنما أنت من المسحورين فَعَقَرُوهَا "

وقوم لوط هددوه في هذه السورة بطرده من القرية " لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين " وأما شعيب فقد نعته أصحاب الأيكة بأنه مسحور ، وأنه كاذب " قالوا : إنما أنت من المسحورين وإن نظنك لمن الكاذبين " .

وخامس هذه التأملات : مخاطبة المدعويين بلغتهم :

يخاطب الله تعالى العرب أنفسهم حين يخاطب نبيه الكريم بلسان عربي واضح لا لبس فيه " ... لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين " وهذا له فوائد جمّة ، منها:

أنه منهم ، يتكلم بلغتهم ، ويخاطبهم بما يفقهون .

وأنه يعرف أساليبهم ولهجاتهم فيجيبهم بأفصح لغة وأعذب بيان.

فيقيم بذلك الحجة عليهم فلا يبقى لهم عذر للإنكار .

وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها في سورة يوسف :

" إنا أنزلناه قرآناً عربياً ، لعلكم تعقلون "

وفي سورة الزمر " قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون "

وفي سورة الزخرف " إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون "

وعلى هذا فينبغي أن يتعلم المسلمون اللغات الأخرى ليوصلوا القرآن الكريم والدين الكامل للأمم

كلها بما يفهمون ليقوموا بالحجة علي الناس . وليعذروا إلى ربهم .

كما أن تعلم اللغات يفيد في التعرف إلى الآخرين في أفكارهم ، والدخول إلى قلوبهم ، وأمن مكرهم

. فقد أمر النبي الكريم زيد بن ثابت وغيره أن يتعلم العبرية ففعلوا . وقال صلى الله عليه وسلم : " من تعلم

لغة قوم أمن مكرهم " .



تأملات تربوية في سورة الشعراء (٢)

وحدثنا هنا إن لم يكن كله عن موسى عليه السلام فجعله عنه .. وأول ما نقف عليه :

١- تجسيد الفكرة وذلك بالعودة إلى زمان القصة ليعيش المتلقي في أجوائها ، ويتصورها أمامه ، وكأنه يراها . وأداة الانتقال الظرف الماضي المتحرك " إذ " الذي ينقلك إلى الحدث فتصوره أمامك بصرًا وسمعًا فإذا بك تسمع صوت الله تعالى من أعماق قلبك " وإذ نادى ربك موسى " فتصيح السمع .. وأنت لا تملك إلا أن تسمع ، فهو الصوت الحق الذي يمتلك الوجودَ زمانه ومكانه ... كيف لا وهو خالق الزمان والمكان !!! والنداء الحق لا بد أن يطرق شغاف قلوب المؤمنين ماذا يقول الله تعالى لموسى ؟
إنه يأمره أن:

٢- يدعو الناس إلى تقوى الله عز وجل ، فالتقوى ملاك الحياة وسبيل السالكين إلى مرضاة رب العالمين وعلى المرء السوي أن ينحو في دعوته إلى تحقيق هدفين اثنين
أولهما أن يدعو نفسه التي بين جنبيه إلى البعد عن الهوى وسبل الغواية .
وثانيهما أن يدعو الآخرين إلى ما اعتقده من الحق ليحيوا نقاء الحياة التي يحيها ، وليكونوا عوناً في نشر دعوته التي ارتضاها .

وعلى الدعاة أن يكونوا بين الناس ، وفي حقل الدعوة ، وما أفلح داعية يطل على المدعوين من برجه العاجي ! وكيف يصل إلى قلوبهم فينتزعها من وهدة الضلال وينتشلها من حفر الفساد إذا لم يكن بينهم يقاسمهم هموم حياتهم؟! .. ومن هنا نفهم قوله تعالى " أن أئت القوم ... " فلا غرو أن الاندماج في الوسط الذي ندعوه أول طريق النجاح وقد يسأل سائل : فأين التمايز ؟ وأين المفصلة ؟ فالجواب : إنهما في القلب ففيه يتجذر الإيمان ، وفي التصرف الذي يدل على صدق التوجه في الدعوة . وهذا كان دأب الأنبياء والمصلحين .

٣- معرفة الهدف : فمن هم هؤلاء الذين على موسى أن يدعوهم ؟ وما صفاتهم ؟

إنهم " ... القوم الظالمين .. قوم فرعون ... " وتصور معي أخي الحبيب أنهم لفسادهم وشدة كفرهم ذُكر وصفهم قبل التعريف بهم فعرفهم بالظلم قبل البوح بهم ليتعرف شرّهم فيعدّ العدة للتعامل معهم ،

وليتطلب من البراهين والأدلة ما يعينه عليهم ، وهنا نقول - كما ذكرنا مراراً - لا بد من التعريف بالهدف ليكون الأمر واضحاً لا لبس فيه ، وليتخذ المنفذ له كل احتياطاته ، ويستعدّ للقيام به على أكمل وجه .
والقرآن بهذا يعلمنا أن على المسؤول أن يكشف الهدف تماماً ، ويقدم الوسائل المعينة على إداائه على الوجه الأفضل ، كما أن على المنقذ أن يطلب ما يراه مناسباً لنجاح المهمة .

وقد عرفنا الهدف : قوم فرعون . فما المهمة ؟ إنها التقوى " ألا يتقون؟! ... " إن التقوى سبيل الحياة الطيبة ، ومدعاة إلى مرضاة المولى سبحانه .. وعودة إلى عشرات الآيات في القرآن الكريم توضح ثمرات التقوى .. الرحمة ، الغفران ، الفلاح ، الرزق ، النجاة من المهالك وقد جاءت التقوى أمراً ونصيحة مشوبين بأسلوب التهديد والوعيد ، وهذا الأسلوب أمضى من الأمر والنصيحة متفرقين .

٤- التوثيق للأمر : ٥- والاستعانة بالموثوقين : موسى عليه السلام بشر :

- يخاف : " قال ربّ إني أخاف أن يكذبون " .

- يضيق صدره : " ويضيق صدري .. " .

- يتلعثم في الحديث : " ولا ينطلق لساني ... " .

فيطلب أخاه هارون ليكون معه يؤازره ويعينه في دعوته فهو يثق به ، ومن التوثيق للأمر أن يكون الصاحب أميناً موثقاً . وهو يعرف أخاه معرفة تامة فطلب إشراكه في مهمته : " فأرسل إلى هارون " .
فهارون تتوافر في الفصاحة ، وسيتولى عنه توضيح الفكرة - إن ضعف - ودخولهما معاً على فرعون يخفف من وطأة الموقف ، ويخفف من الحرج وضيق الصدر ، وما ينتج عنهما .

ولا ننس أن الخوف يؤدي إلى ضيق الصدر .. كذلك يفعل التكذيب .. وضيق الصدر يؤدي إلى ضعف البيان وتهاوي الحجة ، واستهزاء المدعويين به

- يخاف من القصاص ، فقد قتل القبطي : " ولهم عليّ ذنب ، فأخاف أن يقتلون ... " .

قد يستغل فرعون مقتل القبطي والرغبة في القصاص - لا للقصاص ففرعون يقتل وقت ما يشاء دون رادع أو سبب- ويرى الفرصة مناسبة لوأد كلمة الحق ، فيقتل الرسول موسى عليه السلام .. إذاً كيف يدخل عرين الأسد برجليه ؟ ويمكّنه من نفسه، وهو الذي هرب منذ سنوات طويلة خوف القصاص؟ صحيح أنه عليه السلام تاب لفعلة لم يكن يقصدها فتاب الله عليه واجتباها .. لكن فرعون سيقتله

ليتخلص من دعوته .

٦- تلبية المطالب المنطقية : مادامت المهمة صعبة لا يقوم بها إلا المخلصون الذين أعدوا لها ، والله

تعالى أعد موسى لها فرباه في رعايته " ولتصنع على عيني " أجاب الله تعالى مطالب موسى ،

- فأرسل إلى هارون ، فجعله نبياً - والله تعالى يعلم منذ الأزل أن موسى سيطلب أخاه مساعداً

ومعيناً فكان لهارون من الرعاية والعناية ما لموسى فكان يُضرب المثل بعفة هارون عليه السلام وأخلاقه ،

وحَمَّ أدبه " يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً "

- وزودهما بالأدلة والبراهين " ... فاذهبا بآياتنا " . إن الأدلة عنوان القوة ، وداعية إلى الأمان،

وبرهان على صدق المقال والفعال .

- وثبتتهما بالمعية ، " إنا معكم مستمعون فمن كان الله تعالى معه كان راضياً مطمئن النفس ثابت

القدم ، ومضى في مهمته جريئاً لا يخاف إلا الله .

٧- التصريح بالأمر دون لبس : دخل النبيان الكريمان على فرعون ثابتي الجأش واثقين بالله ، وقالوا

كلمة الحق التي جاءها فذكرا : ١- المرسل والمرسل: " إنا رسول رب العالمين " .

٢- الغاية من الرسالة : " أن أرسل معنا بني إسرائيل " .

إن الوضوح يزيل اللبس ويقوي الموقف ويمهد للحوار وهنا يبدأ الحوار بين النبي موسى عليه السلام

وفرعون فماذا كان في الحوار ؟

٨- الحوار : فصلت في أسلوب الحوار في مواقف متعددة وأعيدته هنا مختصراً :

فهو أسلوب راق في التربية له فوائد جمّة منها :

سماع الحجج والبراهين من الطرفين المتحاورين ، وإثراء الأفكار ، واعتياد

التفكير الصحيح ، وإشغال أكثر من حاسة في الحوار ، واعتماد الدقة في

الاستنتاج والطرح

وهنا نجد فرعون يلقي التهم جزافاً وبشكل متتابع ليضعف موقف الخصم ويوهن من عزيمته ويزرع فيه

الخوف ويجري عليه الآخرين ، ويشكك في دعوته ، ويوحي للسامعين أنه كذاب لا يؤبه له وأن له ماضياً

أسود من قتل وإجرام يمنعه أن يكون داعية صالحاً :

" ألم نريك فينا وليداً؟! "

ولبثت فينا من عمرك سنين؟! "

وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين؟! "

وكانت معية الله تعالى تحرس موسى أن يضعف أو يهتز ، فقال ينقض من هذه الاتهامات ما يستحق

النقض والتوضيح :

" فعلتها إذاً وأنا من الضالين " فلم يكن كافراً كما يزعم فرعون ، ولم يعبده لحظة من اللحظات ، إنما

كان تائهاً عن الحق يبحث عنه فوجده ، والفرق بين الكافر والتائه كبير كبير :

ففررت منكم لما خفتكم " وهذا أكبر دليل على أنه كان منهم بعيداً ، قد صنعه الله على عينه . فلما لا

حقوه هرب منهم إلى بلاد الشام ، وهناك أكرمه الله بالنبوة :

" فوهب لي ربي حكماً ، وجعلني من المرسلين "

ثم رد على اتهام فرعون له بقتل القبطي بأسلوب الهجوم فلهجوم خير وسيلة للدفاع" وتلك نعمة

تمّنها علي أن عبّدت بني إسرائيل؟! " وتدبّر معي أيها الأخ الكريم كلمة " عبّدت بني إسرائيل " تجدّ

التجبرّ والظلم الشديد وفرض الهيمنة العاتية .

لئن قتل موسى القبطي خطأً ، وما كان يريد ذلك فاستغفر الله تعالى فغفر له إن فرعون كان يقتل

أبناء بني إسرائيل ويستبقي النساء لخدمته وخدمة قومه ، واستعبدهم يفعل بهم ما يشاء دون رادع ... وانظر

معني إلى التهويل في كيل الاتهام " وفعلت فعلتك التي فعلت "

والعجيب أن فرعون وهو القاتل بالجملة عمداً دون رحمة ولا رأفة يرى أن موت القبطي بضربة موسى

ذنبٌ عظيم يلام فيه سيدنا موسى ويحاسب عليه ! وهنا يحضرننا قول الشاعر :

قتل امرئ في غابة

جرّيمة لا تغتفر

وقتل شعب آمن

مسألة فيها نظر

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : " يرى أحدكم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع

في عين نفسه " .

هذا دأب المجرمين في كل مكان وزمان ، يرون لأنفسهم من الحق ما يجرّمونه على غيرهم ...

طرح موسى الكليم حجته الدامغة " وتلك منة تمنها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل " فأسكتت فرعون وألقمته حجراً ، لقد قابل السخرية بسخرية أشد منها، فانطلق فرعون إلى سؤال آخر يحوّل فيه مسار الحوار، لكنني أراه قد حُصِر حين ألجأه موسى أن يسأل السؤال الذي ينبغي أن يصل إليه : " قال فرعون : وما رب العالمين؟! " فأجاب النبي الكريم الإجابة الشافية التي عصفت بفرعون فألقمته : " قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين " فإذا كان الله تعالى رب السموات والأرض وما بينهما فما الذي بقي لفرعون؟ وازداد الجواب إحكاماً حين جاءت الفاصلة المحكّمة " إن كنتم موقنين " لتدفع الحاضرين أن يوقنوا بذلك وكأنه يقول لهم : إن فكرتم التفكير الصحيح عرفتم الإله الحقيقي ، وهذا لا شك تعريض بفرعون الذي شعر بمقصد موسى فحرّض الغوغاء وأثار النعرات والتهيج يستعديهم عليه " قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ " وهنا نبّه موسى الحاضرين إلى أن الله تعالى خلق آباءهم قبل أن يكون فرعون موجوداً وخلقهم كذلك كما خلق فرعون نفسه " قال : ربُّ آبائكم الأولين : فما فرعون إلا واحد ممن خلقهم الله . وهنا يطيش صواب فرعون فيصف موسى عليه السلام بالجنون ، ويصعد الموقف :

" قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لجنون " فما الذي نستشف في هذه الآية مما يدل على غضبه الشديد ؟

١- بدأ بحرف التوكيد إن .

٢- استهزأ به حين ذكر إرساله إليهم " رسولكم الذي أرسل إليكم " وأراد إهانته ، فهو يرفض أن يكون مرسلأً إليه وانتبهوا إلى كلمة "الذي " الدالة على الاستبعاد.. مع الفعل المبني للمجهول أُرسِل إليكم وهو بهذا ينكر الله تعالى .

٣- اللام المزحلقة زيادة في تأكيد غضبه وسخريته .

٤- وصرح باتهامه موسى بالجنون .

ونرى موسى عليه السلام يصعد الموقف أيضاً بجوابه المفحم ليلجم غوغائية الحاضرين وليرد على السخرية بمثلها : " قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون "

١- في الآية السابقة اخبرهم أن الله تعالى ربهم ورب آبائهم الأولين وهنا زاد حين أكد

أنه رب المشرق والمغرب وما بينهما.

٢- وكما صرح فرعون بجنون موسى صرح موسى عليه السلام أن من لا يعمل عقله

ويتفكر ويتدبر هو الجنون الحقيقي .

وهنا يستعمل المتكبر الجبار سلاح البطش والإرهاب ، سلاح التخويف " لئن اتخذت إلهاً غيري

لأجعلنك من المسجونين " ونجد أن هذا التهديد بالسجن سلاح المفلسين ممن لا دليل لديهم ولا برهان ،

وهذا ما فعله فرعون حين عرف السحرة الحقيقية وفضلوا النعيم الدائم على الدنيا الفانية ، فهددهم

بالقتل والصلب فثبتوا ثبات الجبال الرواسي " قالوا لا ضير ، إنا إلى ربنا لمنقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا

ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين "

١- وهذا التجبر الفرعوني دأب التافهين الفارغين الذين يعتمدون على القوة والجبروت في وأد الحق

وفرض الهوى وما أكثرهم في كل زمان ومكان ، كأنهم اتعدوا على ذلك ، وأوصى به بعضهم بعضاً

٢- ونراه يحقر النبي الكريم موسى ويريد أن يجعله من جملة المساجين الكثر التي تزخر بهم سجونه،

وهذا ما يفعله الطغاة حين يضعون كرام القوم في السجون مع المجرمين والفسقة ليزيدوا عليهم آلامهم .

٣- وهنا دليل على أن الباطل يعتمد الإرهاب واعتقال الرأي وطمس الحقيقة دون اعتبار لبشرية

المفكرين وإنسانية الإنسان.

٩- إظهار المعجزة آخر المطاف : فموسى عليه السلام أراد أن يؤمنوا بالعقل والدليل المنطقي ، فلم

يظهر العصا أول اللقاء فالأولوية للنقاش وإقامة الحجة ، لكن حين يعمى القلب وتظهر الغوغائية وينسدُّ

الطريق، ويتنادى الظلمة إلى التهديد والوعيد واستعمال القوة بدل الفكر تأتي المعجزة الباهرة . " أولو جئتكم

بشيء مبين؟..... فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين " وهنا

يبلس المجرمون فأيته التي جاء بها باهرة عقلت ألسن الجميع وفي مقدمتهم إلههم الدجال .

تهييج الرعاع واستعانة فرعون - الإله المزيف - بهم - والإله لا يحتاج إلى عباده إلا إذا كان ضعيفاً

- جاء ملفتاً للنظر فمن ذلك قول فرعون للملأ حوله " إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم

بسحره ، فماذا تأمرون؟! "

إله ديموقراطي! ، يستشيرهم " فماذا تأمرون "

ويشبهون عليه: " أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحر عليم " وهل

يخاف الإله سحر الساحرين!؟

ومن ديموقراطيته أنه قال للملأ حوله في سورة أخرى " إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد "

ثم هو إله يترك لعبيده أن يساعده بسحرهم ، ويبدل لهم المال والمناصب إن هم نصره وثبتوا ملكه:

" فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرأ إن كنا نحن الغالبين ؟ "

فهم سينصرونه لمكاسب يجرزونها ، ليس لأنه إلههم ، وأن عليهم أن يبدلوا الغالي والنفيس لأجله !

ويجيهم بلهفة المستجير الغارق المتورط :

"قال : نعم وإنكم إذا لمن المقربين "

والعجيب أنهم يرجون انتصار السحرة الذين سيثبتون - بانتصارهم إن فعلوا - ألوهية فرعون !

" لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين " وهذا من وهن العقول وسداجة التفكير .

١٠ - الله أعلى وأجل : قال أبو سفيان بعد معركة أحد : اعلُّ هبلُ اعلُّ هبلُ فرحاً بانتصار قريش

على المسلمين ، فيعلم النبي الكريم المسلمين أن يقولوا : الله أعلى وأجل ، ويقول أبو سفيان : لنا عزى ولا

عزى لكم ، فيأمر النبي الكريم عليه الصلاة والسلام المسلمين أن يقولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . أما

سحرة فرعون فقد قالوا حين ألقوا حبلمهم وعصيهم : " بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون " وألقى موسى عصاه

بتدبير الإله العظيم " فإذا هي تلقف ما يأفكون " ... وكانت النتيجة أن انقلب السحر على الساحر "

فألقي السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون " .

١١ - نهاية الظلم والظلام : وحين ينطلق ركب المؤمنين نحو بلاد الشام بعيداً عن فرعون وجبروته

يحشد فرعون أعوانه وجنوده ليتابعوهم ويستأصلوهم :

" فأرسل فرعون في المدائن حاشرين "

إن هؤلاء لشردمة قليلون

وإنهم لنا لغائظون

وإنا لجميع حاذرون " . . .

والعجيب أنه يكذب ويكذب ويكذب .. وهذه طبيعة الطغاة الذين يريدون استئصال الدين

والإيمان، ويخافون من المؤمنين الصادقين ويتآمرون عليهم .. فلم الحذر كله ولم حشد القوى كلها للقضاء على الصفوة المؤمنة وأنت تدعي أنهم قليلون !!؟؟ إن صوت الحق قوي يورق ليل الظالمين وترتجف له فرائص المتغترسين فلا بد لهؤلاء أن يبيدوهم حتى يصفو لهم الجو ولكن الله تعالى يجعل في ملاحقة الظالمين المؤمنين الفرج والنصر ، فلا بد بعد الصبر من الظفر ، ولا بد بعد المجاهدة من بلوغ الأرب .. أصحاب موسى يقولون خائفين حين تراءى لهم فرعون بجنوده يجذون السير نحوهم : " إنا المدركون " .

فيقول بلهجة المؤمن بربه المعتمد عليه : " كلا ، إن معي ربي سيهدين " ...

كذلك قال إبراهيم عليه السلام : " إني ذاهب إلى ربي سيهدين "

وكذلك قال سيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام حين خوفه المنافقون من المشركين بعد أحد : "

الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء "

ومن كان مع الله كان الله معه ، فنجى الله موسى ومن معه كما نجى إبراهيم ومحمداً عليهم جميعاً

صلوات الله وسلامه .. " وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين " ...



تأملات تربوية في سورة النمل (١)

١ - العلم مفتاح الخير :

آتى الله تعالى داوود وابنه سليمان علماً ، والعلم الحق يوصل إلى معرفة الله تعالى المعرفة التي تجعل صاحبها يؤمن به ويحمله تعظيماً وحباً وخشية " إنما يخشى الله من عباده العلماء " و من جهل الحقيقة لم يحفل بها ، ولم يعزها ما تستحق من جلال المقام .. أما داوود وسليمان فإنهما حين أكرمهما الله بالنبوة وفضلهما " ولقد آتينا داوود وسليمان علماً " أقرًا بفضلته تعالى وحمده على ذلك " وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين " .

فالعلم شرف ، محله منيف ، وأهله وحملته متقدمون . وهو من أجلّ النعم وأجزل القسّم ، ومن أوتيّه فقد تقدم على كثير من عباد الله المؤمنين . والبون شاسع بين الجاهل والعالم ، ذاك يتخبط في جهله في ليل مظلم ، وهذا يسير في أضواء المعرفة وسبل الهداية ، فلا يستويان " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إنما يتذكر أولو الألباب " " قل هل يستوي الأعمى والبصير؟ أفلا تتفكرون! " وقال الشاعر في الحث على العلم :

تعلم فليس المرء يولد عالماً
وليس سواءً عالمٌ وجهولٌ

٢ - التحدّث بالنعمة :

وقد علّم النبيان الكرّيمان منطق الطير " وقال - سليمان عليه السلام - يا أيها الناس علّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ، إن هذا هو الفضل المبين " قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام " في وجوب التحدّث بنعمة الله " وأما بنعمة ربك فحدث " ولا يكون الحديث بالمفاخرة والتعاضم ، إنما بالعمل الصالح ، وخدمة العباد ، والسهر على راحتهم . والإقرار بفضل الله عملاً وقولاً ، وإن مساعدة الآخرين وقضاء حوائجهم والسير فيها من التحدّث بنعمة الله .

ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه ، فإن الله تعالى سخّر له الإنس والجن والطير والوحش وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين .

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية :

" قوله تعالى: " وقال يا أيها الناس " أي قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله "

علمنا منطلق الطير " ففضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض في أن
فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها. قال مقاتل في الآية :

كان سليمان جالسا ذات يوم إذ مر به طائر يطوف، فقال لجلسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر؟
إنها قالت لي : السلام عليك أيها الملك المسلط والنبي لبني إسرائيل! أعطاك الله الكرامة، وأظهرك على
عدوك، إني منطلق إلى أفراخي ثم أمر بك الثانية؛ وإنه- الطائر - سيرجع إلينا الثانية ثم رجع؛ فقال إنه
يقول : السلام عليك أيها الملك المسلط ، إن شئت أن تأذن لي كيما أكتسب على أفراخي حتى يشبوا ثم
أتيك فافعل بي ما شئت. فأخبرهم سليمان بما قال؛ وأذن له فانطلق.

وقال فرقد السبخي : مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه :
أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا لا يا نبي الله. قال إنه يقول : أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء.

ومر بدهد فوق شجرة وقد نصب له صبي فخا فقال له سليمان : احذر يا هدهد! فقال : يا نبي
الله! هذا صبي لا عقل له فأنا أسخر به. ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في حباله الصبي وهو في يده،
فقال: هدهد ما هذا؟ قال : ما رأيته حتى وقعت فيها يا نبي الله. قال : ويحك! فأنت ترى الماء تحت
الأرض أما ترى الفخ! قال : يا نبي الله إذا نزل القضاء عمي البصر.

وقال كعب. صاح ورشان- طائر يشبه الحمام - عند سليمان بن داود فقال : أتدرون ما يقول؟
قالوا : لا. قال : إنه يقول : لدوا للموت وابنوا للخراب.

وصاحت فاختة- وهي ضرب من الحمام المطوق صويت - فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا.
قال : إنها تقول : ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا.

وصاح عنده طاوس، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال : إنه يقول : كما تدين تدان.
وصاح عنده هدهد فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال : فإنه يقول : من لا يرحم لا يرحم.

وصاح صُرْدُ- طائر فوق العصفور ، كانت العرب تتطير منه - عنده، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا.
قال : إنه يقول : استغفروا الله يا مذنبين!.. فمن ثم نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله. وقيل :

إن الصرد هو الذي دل آدم على مكان البيت. وهو أول من صام؛ ولذلك يقال للصرد الصوم؛ روي عن
أبي هريرة.

وصاحت عنده طيطوى - نوع من القطا طوال الأرجل - فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا. قال :
إنها تقول : كلُّ حي ميت وكل جديد بال.

وصاحت خطّافة - عصفور أسود ، وتسميه العامّة عصفور الجنة - عنده، فقال : أتدرون ما تقول؟
قالوا : لا. قال : إنها تقول : قدموا خيرا تجدوه؛ فمن ثمّ نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها.
وقيل : إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة، فأنسه الله تعالى بالخطاف وألزمها البيوت، فهي لا
تفارق بني آدم أنسا لهم. قال : ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل
لرأيتَه} الحشر ٢١ إلى آخرها وتمد صوتها بقوله {العزیز الحكيم} البقرة ١٢٩ .

وهدرت حمامة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا. قال : إنها تقول : سبحان ربي
الأعلى عدد ما في سماواته وأرضه.

وصاح قُمري عند سليمان، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال إنه يقول : سبحان ربي العظيم
المهيمن.

وقال كعب : وحدّتهم سليمان، فقال : الغراب يقول : اللهم العن العنّار - الذي يأخذ عشر أموال
الناس ويستحله - .

والحدأة تقول {كل شيء هالك إلا وجهه} القصص ٨٨ .

والقطاة تقول : من سكت سلم.

والبيغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه.

والضفدع يقول : سبحان ربي القدوس.

والبازي يقول : سبحان ربي وبحمده.

والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان في كل مكان.

وقال مكحول : صاح دراج عند سليمان، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال : إنه

يقول {الرحمن على العرش استوى} .

وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الديك إذا صاح قال اذكروا الله يا غافلين).

وقال الحسن بن علي بن أبي طالب قال النبي صلى الله عليه وسلم : (النسر إذا صاح قال يا ابن

آدم عش ما شئت فأحرك الموت .

وإذا صاح العقاب قال : في البعد من الناس الراحة .

وإذا صاح القنبر قال إلهي العن مبغضي آل محمد .

وإذا صاح الخطاف قرأ { الحمد لله رب العالمين } الفاتحة إلى آخرها فيقول { ولا الضالين } الفاتحة ،

ويمد بها صوته كما يمد القارئ.

قال قتادة والشعبي : إنما هذا الأمر في الطير خاصة، لقوله { علمنا منطق الطير } والنملة طائر إذ قد

يوجد له أجنحة. قال الشعبي : وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين.

وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان، وإنما ذكر الطير لأنه كان جندا من جند سليمان يحتاجه في

التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير

متردد ترداد أمر الطير.

وقال أبو جعفر النحاس : والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام، والله جل وعز أعلم بما أراد. قال ابن

العربي : من قال إن سليمان لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم

كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا، أنفع من كذا

وأضر من كذا؛ فما ظنك بالحيوان.

فمن تكريم الله تعالى سليمان أنه عليه السلام

١- نال النبوة .

٢- عُلم منطق الطير والحيوانات .

٣- جنوده من كل المخلوقات ، إنسهم وجنهم وطيرهم ووحشهم .

٤- حمل الريح له وجنوده في ساعات مسيرة شهر " وللسليمان الريح غدوها شهر ورواحها

شهر " .

٥- أسأل الله تعالى له النحاس ، فذاب وسال كما تسيل عيون الماء ليستعمله فيما يريد ومن

ثم انتفع الناس به " وأسلنا له عين القطر " .

٣- الداعية مثال الإنسان الواعي :

وكان النبي الكريم سليمان عليه السلام يجند كل جيشه في نشر دعوة الله وبناء صرح الدين في الأرض " وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، فهم يوزعون " مرتبين ومنظمين . يصله خبرهم وحالهم على كثرتهم ، ولا يغيب عنه - بإذن الله - شاردة منهم ولا واردة . وهكذا يكون المسؤول ، فمن يتسنى أمراً من أمور المسلمين عليه أن يتابعهم ، والعين الساهرة المتابعة تحفظ النظام والبلد وتهيئ الأمان والراحة للأمة صغيرها وكبيرها، قريبها وبعيدها ، ضعيفها وقويها . ومثال ذلك :

أولاً - إيقاف المسير في وادي النمل للحفاظ على حياة النمل ، وخوف أن يباد تحت مداس الجيش الجرار دون أن يشعر بها لضآلتها - وقد توقف العلماء في العصر الحديث عند قوله تعالى : " لا يحطمنكم سليمان وجنوده ... " فذكر التحطيم بدل الدهس والقتل أو الكسر حين اكتشفوا أن في تركيب النمل قدراً من الزجاج ، والزجاج يتحطم ثم يتفتت ويصير كالرمل حين يتكسر تحت وطئه المستمر . .. وهذا من بديع بلاغة القرآن

والداعية لا يتكبر ولا يتجبر على غيره حين يمتلك القوة وأسباب الغنى ، إنما يتواضع لله ، ويحافظ على عباده فهو مسؤول أمامه فيما يفعل أيشكر أم يكفر؟ ، أيرحم أم يظلم؟ .. وكلما ازداد شعوره بفضل الله تعالى عليه تضاعفت همته في العمل الصالح والشكر لله على فضله وكرمه وهكذا سيدنا سليمان عليه السلام ، فبعد أن تبسم ضاحكاً من قولها حين سمعه وفهمه :

- ١- سأل الله أن يعينه على أداء المهمة .
- ٢- وأن يعينه على حسن شكر النعمة .
- ٣- وأن يسدد خطاه في العمل الصالح .
- ٤- وأن يرزقه المثابرة عليه بالطريقة التي ترضي الله تعالى
- ٥- وان يجعله برحمته في عباده الصالحين .

" فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين "

ولا ننس أن على العاقل أن ينصح أهله وأمتة ، وينبههم إلى الخير ويجذرهم من المهالك كما فعلت النملة حين حذرت جماعتها من موت محقق إن غاب عنها الحذر ولم تسارع إلى مساكنها تتوقاه . وتعال

معي إلى الحوار بين سليمان والنملة، ففيه - على الشك بصحته لإسرائيليته - فوائد تربوية وحكمة ..
والحكمة ضالة المؤمن أين وجدها التقطها .. يقول القرطبي :

قال أبو إسحاق الثعلبي : ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال للنملة لم حذرت النمل؟ أخفت ظلمي؟ أما علمت أي نبي عدل؟ فلم قلت " لا يحطمنكم سليمان وجنوده " ؟ فقالت النملة : أما سمعت قولي " وهم لا يشعرون " .. مع أي لم أرد حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت، أو يفتنّ بالدنيا، ويُشغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر. فقال لها سليمان: عظيمي. فقالت النملة : أما علمت لم سمي أبوك داود؟ قال : لا. قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده؛... هل علمت لم سميت سليمان؟ قال : لا. قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك، وإن لك أن تلحق بأبيك- بالفضل- .. ثم قالت : أتدري لم سخر الله لك الريح؟ قال : لا. قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح. " فتبسم ضاحكا من قولها " متعجبا ثم مضت مسرعة إلى قومها، فقالت : هل عندكم من شيء نهديه إلى نبي الله؟ قالوا : وما قدر ما نهدى له! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة. قالت : حسنة؛ ايتوني بها. فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها، فأمر الله الريح فحملتها، وأقبلت تشق الإنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط، حتى وقعت بين يديه، ثم وضعت تلك النبقة من فيها في كفه، وأنشأت تقول :

ألم ترنا نهدى إلى الله ماله وإن كان عنه ذا غنى قابله

ولو كان يهدي للجيل بقدره لقصر عنه البحر يوما وساحله

ولكننا نهدى إلى من نجبه فيرضى به عنا ويشكر فاعله

وما ذاك إلا من كريم فعاله وإلا فما في ملكنا ما يشاكلة

فقال لها : بارك الله فيكم؛ فهم- أي النمل - بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله.

وقال ابن عباس : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : الهدهد والصدرد والنملة والنحلة؛ خرجة أبو داود وصححه أبو محمد عبدالحق وروي من حديث أبي هريرة. وقد مضى في الأعراف. فالنملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور.

ثانياً - قصته مع الهدهد الذي غاب دون إذن من القائد فكانت عقوبته العذاب الشديد أو الذبح .
أو إظهار العذر ، فإن كان له عذر بيّن عفا عنه . وجاء الهدهد بعد قليل ، موضحاً أنه عرف ما لم يكن
النبي سليمان على جلال قدره يعرفه ، فالأنبياء لا يعلمون الغيب ، ولا يحيطون بكل شيء . وجاءه من
بلاد سبأ بخبر يتشوفه النبي الكريم " فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبياً يقين " لم يكن
الهدهد خائفاً فحجته معه ، وسينجو من العذاب فهو واثق بنفسه وبما يحمل من نبأ يسر له الداعية الذي
وهب نفسه لدين الله ودعوته . والهدهد جندي من جنود هذه الدعوة ، فعليه أن يكون له دور في نشرها .
وليؤكد أنه لم يضيع وقته هباءً ففصل فيما رآه ليصدقه النبي سليمان " إني وجدت امرأة تملكهم
وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم "

ثم بين تفاهة ما يعبدون من دون الله ، فقد أضلهم الشيطان عن الطريق القويم ، وأزلمهم في اعتقاد
باطل فضاعوا في متاهة الكفر والفساد " وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم
الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون " وتصوروا معي : كم يسقط الإنسان ويتضاءل حين
يكون الطير أكثر منه هدى وبصيرة " ..ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما
تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ."

٤- التحري عن الحق : أسلوب يدل على الحرص في الوصول إلى العدل ، والحكم به ، والبعد عن
ظلم الرعية ، فسليمان عليه السلام كان أدنى إلى تصديق الهدهد من تكذيبه ، والدليل على ذلك أنه بدأ
في خطابه بكلمة سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .. ونلاحظ هنا قاعدة تقول : إن الصدق في الناس
قليل ، والكذب كثير بدليل أنه قال : أصدقت - بصيغة المفرد - أم كنت من الكاذبين - بصيغة الجمع .
وليتأكد من ذلك مع التصديق له أرسله بكتابه وحده ، فلم يكن معه شاهد ، وكلفه بأمرين :

أ- إيصال الكتاب ... ب- متابعة الأمر وتقديم تقريره .

وامتاز الكتاب بثلاث صفات مهمة :

أ- البدء بالبسملة : وقد قال نبينا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام : " كل كلام لا يُبدأ فيه بسم
الله ، فهو أجزم " والمسلم يبدأ بأعماله كلها باسم الله تعالى . وقد اتفق المسلمون على كتابة " بسم الله
الرحمن الرحيم " في أول الكتب والرسائل لأنه أبعد عن الريبة . ولا يسمى الكتاب كتاباً إلا إذا ختم ،

وعلى هذا اصطنع الرسول عليه الصلاة والسلام خاتماً ونقش عليه " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " ب-الاختصار غير المخل : " ألا تعلوا عليّ " فهو يخاطبهم بالعقل والقوة .

" واثتوني مسلمين " مؤمنين بالله وحده بعد الفهم والافتناع أو مستسلمين للحق صاغرين . والمسلم يجب أن يكون عزيزاً قوياً .

ت- التعريف بالمرسل : ليكون الأمر على بينة ، وليُعرف خطؤه ومكانته ، فيُحترم .

وقد شعرت الملكة بعزة المسلم وقوته حين قرأت الكتاب واستشارت بطانتها ثم علقت قائلة " إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون "

حين استشارت قومها في أمر سليمان عليه السلام مستنصحة ، أجابوها : نحن أقوياء أشداء ، فافعلي ما ترينه مناسباً " قالوا : نحن أولو قوة ، وألو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين " وأعتقد أنّ آراءهم خانتهم بهذا الجواب ، فلم يكونوا على دراية بعظم مكانة من أرسل الكتاب ، ولو فكروا قليلاً معتمدين في تفكيرهم على الطريقة التي وصلهم بها الكتاب إليهم ، وهذا أمر غريب عجيب " إني ألقى إليّ كتاب كريم " ولم تعرف من الذي ألقاه ، ولا كيف وصل . ولم تدر أن الرسول الذي ألقى الكتاب طيّراً يتابع لقاءها ببطانتها دون أن تشعر به .

والحاكم العاقل - ولو كان امرأة - يتدبر الأمر ، ويجنب قومه المهالك . ولا بد من سلوك الأمر الهين السهل في استكناه ردة فعل المرسل حين يصله الجواب . وقد فعلت ذلك " وإني مرسله إليهم بهدية ، فناظرة بما يرجع المرسلون " فإن كان ملكاً طامعاً بالمال بذلناه له ، وإن كان الأمر شيئاً آخر تلافينا ضرره بما نستطيع وكانت موفقة بما قررت .

وهنا تنتهي قصة الهدهد ، فقد صدق فيما ادّعاه ، وأدى واجبه ، فلم يعاقب .

ه-التصرف الحكيم : يجب أن يكون الفعل وردة الفعل مدروسين بتأنٍّ وروية ، قائمين على قواعد مدروسة ، وخطط سليمة . فالداعية لا ينبهر بالأموال والهدايا التي تأتيه ، إن هدفه أكبر من هذا بل هو غير ذلك على الإطلاق . ولا يأنس للزخرف الدنيوي .. فماذا فعل النبي سليمان ؟

أ- أظهر الزهد في هداياهم ، فما عند الله خير مما جاءوه به ، وليس هذا هدفه . " فلما جاء سليمان قال : أتمدوني بما ل " ونكّر لفظ المال استهانة به وتحقيراً لشأنه ، ليلقي الرعب في قلوبهم ،

فيفكروا بالإسلام ، والخضوع للحق ، فقد قال لهم من قبل " ألاّ تعلوا عليّ ، وأتوني مسلمين " .

ب- أظهر القوة وهدّد بها " ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها "

ت- حاربهم نفسياً حين أكمل قائلاً: " ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون "

وكان لما فعلَ التأثيرُ الإيجابي السريع ، فقد اظهر القوة عملياً حين جيء بعرشها وأدخل الملكة الصرح المبنيّ على الماء فبهرها ، والانبهار دليل الاستسلام والخضوع . وهذا ما يفعله القوي بالضعيف دائماً ، فيستذله إلا المؤمن فإنه يبدي القوة ، ويبهز العدو ليستنقذه من الضلال إلى الهداية ، وينتشله من الكفر إلى الإيمان ، ويكون أخصاً له يحبه ويكرمه .

وهذا ما فعله النبي سليمان عليه السلام بملكة سبأ وأهلها، وهذا ما فعله النبي الكريم صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة ، فقد دخلها متواضعاً لله متذللاً لمولاه ، شاكراً فضله ، ولم يعمل السيف في أهلها، بل عفا عنهم وأكرمهم ، إذ قال لهم حين جمعهم في الحرم الشريف : ما تظنون أي فاعل بكم ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ومن الحرب النفسية التي بهز الملكة بها المحييء بعرشها - وقد كان عظيماً - بطرفة عين ، جاء به من كان عنده علم من الكتاب ، وكان يعلم اسم الله الأعظم . ، وتراه عليه السلام فاضل بين هذا الرجل ، والمارد القوي الذي عرض حمل عرشها بساعات ، فجاء به الرباني بلحظة خاطفة "

قال : أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتيني مسلمين ؟

قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإني عليه لقويّ أمين .

قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . "

فهل تعاضم ، وانتفش كما ينتفش أهل الدنيا ممن يتيهون حين يمتلكون؟! إنه نبي كريم من أنبياء الله تعالى ربّاه على عينه فأحسن تربيته .. لقد قال سليمان مقرأً بفضل الله وكرمه ، منبهاً إلى أن كل هذه الكرامات العظام إنما هي ابتلاء للمؤمن واختبار لإيمانه ، وقد فاز من نجح في هذا الامتحان : " قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم . "

٦- تعرّف إلى الناس : ينبغي التعرف على قدرات من تعاشرهم حتى تنزلهم منازلهم .. يروى أن

رجلاً جسيماً يرتدي حلة فاخرة جلس بوقار إلى حلقة أبي حنيفة النعمان وهو بين تلاميذه يناقشهم في

بعض المسائل ، وكان يمد رجله متعباً في جلسته متبسطاً معهم ، فجمعها إليه حين جلس هذا الرجل بينهم ، ثم بدا للرجل أن يتكلم فسأل سؤالاً لا يدل على ذكاء وفهم ، فضحك ابو حنيفة ، وقال : أن لأبي حنيفة أن يمد رجله .. وهنا نجد نبي الله سليمان يريد أن يختبر الملكة بلقيس ، ويتعرف جدارتها في حكم أهل سبأ ، فقال لمساعديه : " نكروا لها عرشها نظراً أتهدي أم تكون من الذين لا يهتدون " فغيروا في عرشها بعض معاملة ، فلما وصلت واستقبلها أشار إلى عرشها يسألها بذكاء الأنبياء ولباقتهم : " أهكذا عرشك " ولم يسألها أهذا عرشك؟ والفرق بين الطريقتين واضح . فالأول فيه شك وجواب الثاني نفي أو إثبات . فكان جوابها على قدر السؤال حين قالت : كأنه هو " فلم تنف ولم تثبت وتركته في دائرة الشك . هذا كان الاختبار الأول .

أما الاختبار الثاني فكان أن طلب إليها دخول الصرح الميني بصفائح الزجاج فوق الماء ، فلم تتبين الزجاج ، فكشفت عن ساقها تظن أنها ستخوض لجنته ، فلما قيل لها " إنه صرح ممر من قوارير " علمت أنه يريد أن يريها ملكاً أعظم من ملكها ففتنت إلى مراده فاستسلمت ، وأذعنت ثم أسلمت بعد أن أقرت بما كانت عليه من الكفر . وقيل كما في القرطبي - بتصرف - : عمله ليختبر قول الجن فيها : إن أمها من الجن، ورجلها رجل حمار؛ قاله وهب بن منبه. فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق : وتعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن لها بد من امتثال الأمر. " وكشفت عن ساقها " فإذا هي أحسن الناس ساقاً؛ سليمة مما قالت الجن، فلما بلغت هذا الحد، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها " إنه صرح ممر من قوارير" والممر المحكوك المملس . ولما رأى سليمان عليه السلام قدميها تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام .



تأملات تربوية في سورة النمل (٢)

١- **الدعوة إلى التفكير** : خلقنا الله تعالى " .. في أحسن تقويم " فجعل لنا - معشر الإنس والجن لأننا مكلفون - العقول التي تميزنا عن بقية المخلوقات لتتدبر ما نجده أمامنا ولتفكر فيه . أما الحيوانات الأخرى فإنها تعيش غريزياً . لا رسالة لها في هذه الحياة سوى ما قدره الله تعالى لها في حياتها الدنيا ثم يقال لها - في الآخرة حين تحشر ليقصص منها ذلك القصص الذي لا يقارن مطلقاً بمثيله من الثقلين - كوني تراباً .. فيتمنى الكافر لما يراه من العذاب الشديد الخالد في نار جهنم أن تكون نهايته مثل نهايتها " يا ليتني كنت تراباً " ولكن هيهات هيهات .

وعلى الرغم أن البشر جميعاً لهم عقول يفكرون بها إلا أن أكثرهم لا يريد أن يعي حقيقة وجوده وسبب خلقه ، فهو يحيا في هذه الدنيا وكأنه خالد فيها ، أو سينتهي دون عودة " وما يهلكنا إلا الدهر " وينكرون حياة أخرى تنتظرهم هي الحياة الحقيقية " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون " وهؤلاء لئن كانوا بشراً إنهم لينزلقون إلى درجة الأنعام التي لا تعي ولا تعقل ، بل إنهم أقل منها مستوى ، فالحيوانات ليس لها عقول وقد سقط عنها القلم ، وهؤلاء لهم عقول لا يستعملونها في مرضاة الله ، فانحدروا عن مستوى البهيمية بفعلهم - عنادهم وضلالهم - يقول الله تعالى " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بما ولهم أعين لا يبصرون بما ولهم آذان لا يسمعون بما ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون " .

والقرآن الكريم يدعو المكلف إلى التدبر وإمعان التفكير في مئات الآيات المنبثة فيه ، وفي هذه السورة الجليلة نجد الكثير منها ، وإليك بعضاً منها :

ففي الآية الستين نجده يدعونا إلى معرفة خالق السماوات والأرض الذي أنزل الماء فكان سبباً في الحياة المتجددة الجميلة في الأرض ، وأنه سبحانه واحد لا شريك له " أمن خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماءً ، فأنبتنا به حدائق ذات بھجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ إله مع الله ؟! بل هم قوم يعدلون " . وتأمل التسلسل في " خلق ، وأنزل ، وأنبت " ثم ترى المشركين يميلون عن الحق وينغمسون في الضلال .

وفي الآية الحادية والستين ينبههم إلى بديع صنعه سبحانه ، فالأرض ثابتة صالحة للعيش ، تجري فيها الأنهار ، وتثبتها الجبال الرواسي ، وجعل الماء مالحاً وحلواً فلا يطغى هذا على ذاك - بأمر الله خالقها - بل إن لكل بحر ماءه بخواصه المختلفة عن ماء غيره ،

" أمّن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟! بل أكثرهم لا يعلمون " وانظر معي إلى تكرار كلمة " جعل " التي تدل على جميل صنعه وعظيم حكمته سبحانه ، وأنه الخالق الأوحّد ... ولكن غالب البشر يجهلون هذا فيشركون بالله تعالى ويتوهون في مزارب الضلال .

وفي الآية الثانية والستين يذكرهم برأفة الله تعالى بهم ، وحنوّهم عليهم ، فهو سبحانه يجيب الداعي ، ويتلطف به ، وهو وحده خالقهم ، لكن الدنيا بريقها وزخرفها تنسيهم الحقيقة وتبعدهم عنها " أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟! قليلاً ما تذكرون " .

وهي دعوة صريحة إلى إفراده سبحانه باللجوء إليه والاعتماد عليه ، وانظر إلى المنطقية في العرض ، فهو سبحانه " يجيب المضطر ، ويكشف السوء " لماذا؟ إنه الخالق الوحيد " يجعلكم خلفاء الأرض " وفي الآية الثالثة والستين ينبه أن الله تعالى هو الهادي والحافظ ومدبر الحياة في البر والبحر أفلا يستحق الأفراد بالعبادة ؟ " أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ أإله مع الله ؟! تعالى الله عما يشركون " . وتأمل معي هاتين الكلمتين " يهديكم ، يرسل الرياح "

هداية وعون ، فهو سبحانه لا يدع عباده يتخبطون في حياتهم إنما ييسر لهم السبل ويعينهم .

٢- التصوير الحسي : ذكرت في كتابي " من أساليب التربية في القرآن الكريم " تحت عنوان -

التصوير ص ٣٨٥ : أن التصوير من الأساليب الراقية في التربية ، فالإنسان روح وفكر وقلب .. وهو كذلك عين وسمع وذوق ولمس وشم فهو معنوي ومادي بآن واحد ، فإذا عجز أحياناً عن الوصول إلى الفكرة الشفافة ذهنياً وصل إليها مادة وحسناً .. المهم أن يصل إلى المعلومة ، وتتركز في ذهنه ، ويتفاعل معها . والصور في هذه السورة ملفتة للنظر إذ جمعت بين اللون والحركة والصوت . من ذلك قوله تعالى :

" ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً... "

" ويوم ينفخ في الصور ، ففزع من في السموات والأرض إلا من شاء الله ، وكلُّ أتوه داخرين "

" وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب . "

" وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم... "

" .. ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار .. هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ "

" ... قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم ، إنهم أناس يتطهرون . "

وانتبه إلى الكلمات التي تحتها خط في الآيات السابقة ل ترى اللون في الليل والنهار والجبال

والسحاب والنار وتسمع الصوت في النفخ والكلام : قال ويتطهر ، تجزى وترى الحركة الفزع وحركة النفخ

والسكون والجمود وخروج الدابة والمجيء وكب الوجوه..

والتصوير يثبت الفكرة في الذهن لأن أكثر من حاسة تتضافر في توكيدها ، وقد كان الرسول صلى

الله عليه وسلم كثيراً ما يؤديها في حديثه ، وتبعه في ذلك المربون .

٣ - الطيرة والتفائل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يسمع : يا راشد، يا

نجيح . - أخرج الترمذي - وكان يعجبه الفأل لأن النفس تنشرح له وتستبشر بقضاء الحاجة وبلوغ

الأمّل ، فتحسن الظن بالله . وقد قال : " أنا عند ظن عبدي بي " وكان صلى الله عليه وسلم يكره الطيرة

لأنها من سمات أهل الشرك وتجلب سوء الظن بالله تعالى . قال الخطّابي كما يروي القرطبي عنه : الفرق بين

الفأل والطيرة أن الفأل إنما هو من طريق حسن الظن بالله ، والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء

سواه . وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا

طيرة ، وخيرها الفأل " . قيل : يا رسول الله وما الفأل ؟ قال : " الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم "

فلما قال قوم صالح لنبيهم عليه السلام حين دعاهم إلى الإيمان بالله وحده : " اطيرنا بك وبمن معك

" رد عليهم مؤنباً وناصحاً " طائرکم عند الله ، بل أنتم قوم تُفتنون " فقد تشاءموا ، والشؤم نحس . ولا

شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة . ومن ظنّ أن حوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء أو

يدفع مقدوراً فقد جهل . وقد قال مقاتل في قوله تعالى في سورة " يس " على لسان الذين كفروا بأنبيائهم "

إنا تطيرنا بكم " : حبس المطر عنهم ثلاث سنين ، فظنوا أنّ حبسه كان بشؤم الأنبياء عليهم ! فرد

أنبياءهم مصححين منبهين " طائرکم معکم " أي شؤمکم ملازمکم بأعمالکم وفسادکم لا بسببنا ، فأنتم مسرفون في كل شيء حتى التشاؤم . " بل أنتم قوم مسرفون " قال الشاعر :

طيرة الدهر لا يرد قضاءً فاعذر الدهر ، لا تشبه بلوم

أيُّ يوم يُخصّه بسعود والمنايا ينزلن في كل يوم

ليس يومٌ إلا وفيه سعودٌ ونحوسٌ تجري لِقومٍ فقوم

وقد كانت العرب أكثر الناس طيرةً ، وكانت إذا أرادت سفرًا نفرت طائرًا ، فإذا طار يمينة سارت وتيمنت ، وإن طار شمالاً تشاءمت ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : " أقرّوا الطير على وكنّاها " .

٤- عاقبة المفسدين : يقول تعالى : " .. ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ " فنهايتهم في الآخرة الاحترق في النار والعذاب المهين . أما في الدنيا فقد بين الله تعالى عاقبة كل قوم كفروا بالله ... أما في هذه السورة الكريمة فكان عاقبة الرهط المفسدين الذين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، ومكروا بنبيهم وأهله والمؤمنين به

" أنا دمرناهم وقومهم أجمعين "

فكانوا عبرة لمن جاء بعدهم " فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا "

وأما قوم لوط الذي استمرءوا فاحشة اللواط ، ففعلوها في أنديتهم - وكانوا يتلذذون بالنظر إلى الفاعلين والعياذ بالله ، وهم يصرون على فعلها على علمهم ببهتان ما يعملون ، بل صمموا على إخراج لوط وآله لأنهم " يتطهرون " والطهارة يكرهها الأبالسة في كل زمان ومكان فقد عاقبهم الله تعالى عقابين شديدين . أما الأول فإرسال الحجارة عليهم تحصيبهم حصباً " وأمطرنا عليهم مطراً ، فساء مطر المنذرين " وأما الثاني فقد قلب قراهم رأساً على عقب . وذكر الله تعالى الأمرين في سورة هود " فلما جاء أمرنا...

١- جعلنا عاليها سافلها

٢- وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود

مسومةً عند ربك "

والعاقل من يستلهم من مصير الغابرين العبر والعظات فيزدجر عن ضلاله وغيه ، وينأى بنفسه وأسرته

وقومه عن نهاية الفاسدين " قل سيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين "

٥- مهمة الداعية :

والداعية يتوكل على الله تعالى ويدعو إليه ، وهناك من يسمع لكنّ في أذنيه وقرأً فلا يفقه ما يقال ولا ما يُراد . وإذا سمعوا هربوا من الحق الذي تكرهه نفوسهم الآثمة . واستمروا في غيهم وضلالهم ، أما المسلم ذو القلب الشفاف والفؤاد الواعي فإنه يقبل على الداعية يستفيد منه ويتقبل منه ويكون له عوناً في دعوته إلى الله .

: " فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا

مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون "

والحقيقة أن دور الدعاة التنبيه إلى طرق الخير والتحذير من سبل الغواية ، وأن يبدأوا بأنفسهم أولاً ،

فهم القدوة . فمن تبعهم نجا ، ومن استنكف غوى وضل ، وليس لهم عليهم سلطان . هذا ما نبه إليه الله

تعالى نبيه الكريم حين قال سبحانه

" ١- إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها

٢- وأمرت أن أكون من المسلمين .

٣- وأن أتلو القرآن

٤- فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه

٥- ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين . "



تأملات تربوية في سورة القصص (١)

- العلو منقصة وإفساد : علام يستكبر البشر؟! بعضهم على بعض وهم من تراب ، يعتريهم الضعف والمرض ، ونهايتهم إلى التراب ؟ إنه نسيان الحقيقة الذي يولد التكبر والتجبر ويُنْتِج الظلم والقهر والتسلط والإرهاب " إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين " وليتمكن الظالم من الناس يفرقهم شيعاً وطوائف ، ويستعدي بعضهم على بعض ، ثم يستعبد الضعفاء . ويزداد تعسفه وظلمه حين يظن أن فناءه على أيديهم، فيتفنن في إيذائهم ، فيقتل الوليد الذكر ويستبقي الأنثى للخدمة . وهذا التفكير وهدة التصرف وقمة العسف .

لقد رأى فرعون فيما يرى النائم أن مولوداً من بني إسرائيل يكون سبب هلاكه . فأمر بقتل المواليد . فلما احتج الملاء من قومه قائلين : من يخدمنا إذا قتل الذكور ؟ أمر بقتل المواليد من الذكور سنة ، وترك من يولد منهم سنة

- العاقبة للمؤمن : يقول الله تعالى في الآية ٢١ الحادية والعشرين من سورة المجادلة " كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي ، إن الله قوي عزيز " كتب : تفيد الإثبات والتأكيد ، كما أن الغلبة تأتي بعد المغالبة والصراع بين الحق والباطل ، والقسم وجوابه المؤكد بالنون تأكيدان قاهران فيهما حتمية انتصار الحق وأهله وانكسار الباطل وجنده . وفي هذه السورة (القصص) تبدو إرادة الحق سبحانه تقرر :

أ- فضله على المستضعفين ووعدهم بما يريدون من عزة ورفعته

ب- وجعلهم القدوة للبشر والأسوة لهم ،

ج - أن الغلبة لهم في الأرض وأنهم يرثون الخلود في الجنة ،

د - وأن نهاية المتكبر الذل والعار وأن حذره لن يفيدته : " ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في

الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون " .

- الخطة الإلهية : ولد موسى عليه السلام في السنة التي يقتل فيها الذكور من بني إسرائيل .

فماذا تفعل الأم الخائفة على وليدها من مصيره المرعب الذي ينتظره ؟ ولدته في غفلة عن أعين الرقباء

المتربصين بأمثالها ، المتابعين لكل مولود ، فإن كانت أنثى تركوها ، وإن كان ذكراً قتلوه أمام عينيها ! ظلم ما بعده ظلم - ما يزال المجرمون أمثال فرعون يفعلونه بشعوبهم حتى وقتنا هذا ، وإلى قيام الساعة - . يا رب ماذا أفعل بهذا الوليد ؟ وما ذنبه ليقتلوه ؟ .. يا رب أنت وليي ، فاهدني إلى حفظ ولدي . كانت أمه تدعو الله بقلب حزين كئيب ، وتنتظر دخول العسس بين لحظة وأخرى .. وكان الله تعالى يريد لهذا المولود العظيم أن يكون قائد أمته وأحد أنبيائه أولي العزم . وما أراد الله لا بد أن يكون ، فهو الذي يفعل ما يشاء ، سبحانه من إله عظيم .

أ- ولعل أول ما تفعله الأم حين ينزل ولدها وتنظر إليه بعينها وقلبها أن تضمه إلى صدرها الحاني وتقبله وتهدهده ، وتدعو له بالحياة السعيدة في الدنيا والآخرة ، و تلقمه ثديها ليستقي منه لبناً شهياً يغذوه ويطفىء ظمأه ويفثأ حر جوعته . هذا ما أوحى الله تعالى للأم الوهلى أن تفعل " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ... " وستكون هذه الرضعة الأولى والأخيرة على خوف ! لأنها سترضعه آمنة مطمئنة بعد ذلك ، فهو حين ذاق حليب أمه وعرف طعمه فلن يخطئه مرة أخرى ، ولن يرضى أن يتذوق حليب غيرها ، وسيأبى كل المرضعات إلا من أرضعته المرة الأولى ! فلبن الأم لا يعادله لبن الدنيا كله ، وستكون هذه الرضعة كلمة السر في التعرف على أمه ، فلتنقر عينها ولا تحزن ، إن الله تعالى خطط للقائه السريع بأمه ، وسيعود إليها بإذن الله ، وتحضنه في قلبها وبين ذراعيها ... لن يكون لغيرها .

ب- هؤلاء الظلمة يشعرون أن الوليد دخل الدنيا ، وسيدهم أمرهم أن يقتلوا كل وليد خوفاً على نفسه أن يُقتل ، إنه الحذر الذي لا ينجي من القدر ، فما أراد الله كائن لا محالة ، فهل من مدكر؟! إن ذوي القلوب المتحجرة والعقول الضالة لا تفقه هذا ، ولا تفهمه ، قد ران على قلوبهم الظلم والظلام ، فلا يعرفون النور ولا يحبون الضياء . وكيف يحبونه وهم لا يدركونه؟ .. الجنود يقتربون من بيت الأم ، وهي خائفة لا تدري ما تفعل ، إلا أن الله تعالى جعل لها من الهم فرجاً ، ومن الخوف على وليدها مخرجاً ... ويتعجب الإنسان حين يعلم أن التخلص من الموت قتلاً إلقاء الوليد في تابوت صغير من الخشب ، يُرمى في نهر النيل العظيم وبين أمواجه تتقاذفه هنا وهناك فيغرق في الماء ليكون غذاء سمكة ، أو لقمة في فم تمساح ، أو تحمله المياه إلى مكان بعيد على الشاطئ ، فيتنفسخ وتذوب معاملة ، أو يلتقطه ذئب جائع أو كلب ضال !! لم الهرب من الموت إلى الموت ؟ إنه لأفرج على النفس

أن يُقتل بين يديها فتحسبه من أن يضيع فلا تدري له نهاية !! لكن الله تعالى من بيده الأمر كله أوحى إليها أنه سيعود إليها ، وهي المؤمنة به المتوكلة عليه الراغبة في فضله سبحانه ، إنه سيعود إليها ليكون خلاص بني إسرائيل من الظلم على يديه وسيكون له شأن عظيم .! إنها الرسالة ! وهل أكرم للإنسان من أن يكون رسول رب العالمين؟! فلن تخاف عليه من الموت غرقاً أو ضياعاً ولن تحزن لفراقه فهو عائد إليها معززاً مكرماً : " فإذا خفت عليه فألقه في اليم ، ولا تخافي ، ولا تحزني ، إنا رادّوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين . " .

ت- حين يختبئ المطلوب في مكان مراقب يُحصى فيه كل حركة وسكنة سرعان ما يقع في أيدي طالبه حين يكون اختباؤه فطرياً عفواً الخاطر وغير محكم . ، ولن يخطر ببال المتكبر المتجبر أنّ أم الطفل قد ترمي به في الماء إلا إذا طاش صوابها ، فسعت إلى حتف ابنها بيديها . فصدر الأمر الإلهي إلى الأم أن تفعل مالا يخطر على بال الظالم ، ووضع المهد الورقيّ - من ورق البردي - في الماء الذي حمله إلى قصر فرعون . فهل أمر بقتله ؟ هل هشّم جمجمته بقبضته؟ هل قطع رأسه وهو يضحك من سذاجة من ألقاه للموت في الماء؟ لا هذا ولا ذاك ، فمدبر الأمر خطط ، وهو سبحانه أوصل الوليد إلى قصر عدوّه الأول ، فرعون المتأله المستكبر ليرعاه ويعتني به ، فيعيش هذا الوليد الذي حرص فرعون على قتل كل الأطفال ليتخلص منه ، فإذا بمكره وتدييره لا ينفعانه ، وإذا بالمولود الذي صنعه الله على عينه يربيه فرعون بنفسه ، فيعيش موسى في أمن وسلام في عرين الظالم نفسه ويجوّه بعنايته ليكون هلاكه على يديه " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً " وصدق من قال : " من مأمنه يُؤتى الحذر " .. فلم أراد الله هلاك فرعون وهامان وجنودهما ؟ لقد كانوا منغمسين في الكفر وغارقين في الظلم ، وراعيين في الفساد " إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين " وقد يتساءل بعضنا : لئن كان فرعون ووزيره هامان والعيّن في الفساد إن جنودهما ينفذون الأوامر ، وقد لا يجروون على المخالفة ، فهم ليسوا سوى أدوات تنفذ الأوامر ، لا يملكون لأنفسهم إرادة التغيير أو الرفض ؟ والحقيقة أن للإنسان عقلاً وإرادة ينبغي أن يمنعها أن يكون ظالماً أو فاسداً ، ومن كان أداة في الإفساد فهو والمفسد الكبير سواء " وقد سأل أحد السجّانين الإمام أحمد فقال : يا إمام ؛ ما أنا إلا حارس يُؤمر فيطيع ، فهل أنا من أعوان الظالم ؟ قال إنما أنت من نسيج الظالم نفسه ، فهو يتقوى بك ،

ويضرب بسيفك . ومن أعان الظالم كان يوم القيامة في النار مع سيده ، واقرأ معي هذه المحاورة بين التابع والمتبوع في النار " وإذ يتحاجون في النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كلٌّ فيها ، إن الله قد حكم بين العباد " فالنار مثوهم جميعاً . وفي النار يدعو التابع على سيده بالعذاب الشديد لأنه كان سبب ضلاله وفساده ، لكنّ هذا لا ينفعه في تخفيف العذاب " وقالوا : ربنا ؛ إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا، ربنا آثم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعناً كبيراً " .

ث- يصل المهدي الورقي - الثابوت - إلى قصر فرعون ، وترى امرأة فرعون هذا الطفل الجميل فيه، ويلقي الله تعالى حبه في قلبها ، فتطلب إلى فرعون أن يهبها إياه ، فلا يقتله إكراماً لها ، وهو يدري أنه من بني إسرائيل ، فلامح الإسرائيليين غيرها في القبط . وقالت لفرعون : دعه قرّة عين لي ولك . ولم يكن لها ولد ، فأجابها إلى طلبها لكنه عقّب قائلاً " لئن يكن قرّة عين لك فلن يكون قرّة عين لي " وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " (لَوْ قَالَ فِرْعَوْنُ نَعَمْ لَأَمِنَ بِمُوسَى وَلَكَانَ قَرَّةَ عَيْنٍ لَهُ) لكنّه محروم من الخير لظلمه وتكبره ، فقد آمنت امرأة فرعون بدعوة موسى وكانت من أهل الجنة ، أما فرعون فيسبق قومه إلى النار " يقدّم قومه يوم القيامة ، فأوردتهم النار ، وبئس المورد المورود " وقد صور الله تعالى ذلك الموقف الرائع حين ألقى الموج بمهد موسى بين يدي امرأة فرعون " وقالت امرأة فرعون : قرّة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً " . الهداية بيد رب السموات والأرض ، يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، نسأل الله تعالى الهداية ورضاه والجنة .

ج- رغبت الأم أن يحملها ماء النهر بعيداً عن المدينة وأهلها ، بعيداً عن فرعون وجبروته إلى مكان آمن لا يصل إليه ، وليعيش بعيداً عنها إلى أن يرزقها الله عودته فتى يا فعاً أو غلاماً جميلاً ، لكنها حين رأت الثابوت يتجه نحو قصر فرعون خافت أشد الخوف ظانة في نفسها أنها سعت إلى حتفه بيديها ، وقلب الأم عطوف رحيم ، كاد يجعلها تعترف بالحقيقة أمام جنود فرعون وليقتلوها ، فهي السبب في هذا المصير الذي ألقته ولدها فيه . اختلج جسمها ، ووهنت مفاصلها ، " وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إنّ كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ، لتكون من المؤمنين " . ورفعت رأسها إلى السماء تسأل الله تعالى العون وحسن الختام . وربط الله على قلبها ، فصبرت ، ومن لجأ إلى

الله وصل إلى حصن حصين ، وملاذ أمين .

ح- حين يثبت القلب يفكر العقل تفكيراً سليماً ، وحين يضعف القلب يطيش العقل ويهذي .
إنها حين لجأت إلى الله تعالى فثبَّتْها وهدّأ من روعها أمرت ابنتها أن تتابع على الطرف الآخر مسيرة أخيها ، وأمرتها أن تقترب من القصر تتشوّف الخبر ، وتطمئن على موسى . " وقالت لأخته : قُصِّيهِ ، فبصرت به عن جُنْب ، وهو لا يشعرون . " ولتكن حذرة ، فلا تخبر أحداً أنه أخوها كي تأمن أسرتها غائلة العقوبة . وهكذا فعلت ، فهي ذكية لبيبة أريبة أخت نبين كريمين هما موسى وهارون ، وهي في الآخرة إحدى زوجات النبي الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام مع آسية زوجة فرعون ، ومريم بنت عمران فهنّ رضوان الله عليهن بعض زوجاته في الجنة . جَاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ رَوَاهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِحَدِيثَةٍ : (أَشْعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ زَوَّجَنِي مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ مَرِّمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَكُلْثُومَ أُخْتِ مُوسَى وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ) فَقَالَتْ : اللَّهُ أَخْبَرَكَ بِهَذَا ؟ فَقَالَ : (نَعَمْ) فَقَالَتْ : بِالرِّفَاءِ وَالْبَيْنِ .

خ- لما أجاب فرعون طلب زوجته جيء له بالمرضعات ، فلم يتقبل لبن إحداهنّ ، لأن الصدر الذي ضمه أول مرة وشرب من ثدييه ليس منهنّ ، قالت امرأة فرعون: إنهنّ يتحايلن له ، وهو لا يلتقم أثداءهنّ ، ما العمل ؟.. وهنا يأتي دور أخته ، فتتلفظ للملكة ، وتتقدم بثبات وجرأة ، تقول : " هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟ " ومن أكثر حباً وشوقاً ورغبة في موسى من أمه ؟! قيل لها نعم ، فأسرعت إلى أمها ، فجاءت مليية مشتاقة متلهفة ، جاءته وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه فرعون إليها ؛ فلما وجد الصبيّ ربح أمّه قبل تديها وبدأ يرضع . فلما رأوه مقبلاً بنهم على لبن أمه قالوا لها: كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك ؟ قالت توضح الأمر لتذهب ربيتهم : إني امرأة طيبة الرّيح طيبة اللّبن ، لا أكاد أوتى بصبيّ إلا أقبل عليّ وارتضع مني صدقت في إجابتها ولم تكشف عن نفسها ، من الذكاء الأمني أن تجيب عن السؤال بأقل جواب ممكن وهكذا ردّه الله تعالى إليها تحتضنه وتشمه وتربيه على عينها حتى شب فتى يافعاً مؤمناً بالله وحده لا شريك له .



تأملات تربوية في سورة القصص (٢)

- الاهتمام بتربية الأبناء : على الرغم أن موسى الشاب رُبي في قصر فرعون في رفاهية لم يحيا غيره من شباب بني إسرائيل إلا أن أمه - المريية الفاضلة - كانت تتعهد بهم الدين وحب الله تعالى الواحد الأحد والانتماء إلى قومه . فعاش موحداً لله مؤمناً به ، كافراً بفرعون ، يعرفه على حقيقته ، فهو بشر يأكل ويشرب ، وينام ويستيقظ ، ويمرض ويصح . فأنى له أن يكون إلهاً وهو أسير النفس والبطن ، ومحكوم بالنواميس التي تسيطر على الأرض؟! .. إن موسى رُبي في أحضان أمه التقية الموحدة ، ورضع من لبانها ، وتلمذ على علماء قومه " والعلم في الصغر كالنقش في الحجر " فلما استوى بفضل الله تعالى شاباً مؤمناً آتاه الله تعالى العلم والحكمة وأهله ليكون سيد بني إسرائيل ورسوله إليهم ألم يقل له " ولتُصنعَ على عيني؟ " .. إن الوالدين الحريصين على أبنائهما يتابعانهم بالتربية والتعليم ، ويهتمان بهم في هذا الزمن الرديء فهما مسؤولان أمام الله تعالى عن تربيتهم .. ومن حديث النبي صلى الله عليه وسلم في واجب التربية قوله " ... فالرجل راع في بيته وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعيتها ... "

- نصر المسلم أخاه المسلم : يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أنس رضي الله عنه (في الدرر السنية) " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فإن كان مظلوماً فخذ له ، وإن كان ظالماً فاحجزه عن ظلمه ، فإن ذلك نصره " . موسى الشاب عليه السلام يدخل المدينة ، ولعله كان ممنوعاً من دخولها لأنه لم يوافق فرعون فيما يدعيه ، ولأنه أعلن أن الله واحد وأن فرعون ليس سوى بشر عادي ، وخالف فرعون وعاب عليه وعلى من تبعه عبادتهم فرعون والأصنام ، فأظهروا له العداوة وأخافوه فخافهم . دخل المدينة في غفلة من أهلها وقت القيلولة أو بداية المساء ، فرأى رجلين قبلياً وإسرائيلياً يقتتلان ، فاستغاثه الإسرائيلي طالباً مساعدته ، فلبّاه ، ودفع القبطي بجمع يده في صدره ، فمات لفوره ، ولم يكن موسى يتعمد قتله غير أنه كان يود عون المظلوم المستضعف على الظالم الذي يريد تسخيره لأغراضه وذلك يأبى فعدا عليه فاستغاث موسى ، فنصره .

- الاعتراف بالخطأ فضيلة : وهذا ما كان من موسى إذ سرعان ما استغفر الله تعالى على خطأ ارتكبه " قال : رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، فغفر له ؛ إنه هو الغفور الرحيم " واللجوء إلى الله تعالى أم الفضائل ، فهو العالم بالحال ، وهو غفار الذنوب ومن لجأ إلى الله وأقر بذنبه واعترف به ونوى التوبة

والإقلاع عما فعل غفر الله له وتاب عليه . وعاهد موسى ربه الذي هداه للإسلام وتوحيده أن لا يعين مجرماً ظالماً " قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين " ... لا بد أن الذين رأوا موسى يقتل القبطي سيوصلون الخبر إلى فرعون ، وسيأمر بمعاقبته ، وربما يقتله ، فدب الخوف في قلب موسى ، وبدأ يقلّب الأمور ، ماذا يفعل . وبينما هو في هذه الحال رأى الإسرائيلي نفسه يقاتل قبطياً آخر ، فلما رأى موسى يمرّ قربه طلب عونه مرة أخرى ، فما كان من موسى إلا أن وصفه بالغواية وسوء الأخلاق ، لكنه قدم لمساعدته ويرى القبطي أن موسى القوي سيقتله كما قتل غيره أمس فحذره واستعطفه بأن واحد " يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ " هذا عمل الجبارة المفسدين ، فهل تودّ أن تكون مفسداً وأنت تدّعي الإصلاح؟! " إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين " فتنبه موسى إلى صواب ما قاله القبطي ، وتركهما وشأنهما ..

ملاحظة : هذا كلام القبطي ، وليس كلام الإسرائيلي ، فقد درج المفسرون على أن الإسرائيلي حين اتهمه موسى بالغواية " إنك لغوي مبين " خاف أن يقتله فقال " أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ... " والحقيقة التي أرتاح لها أن قتل القبطي الأول لم يكن بالسر ، بل كان وبعض الأقباط موجودون ، وكلمة " في غفلة من أهلها " لا تعني أن المنطقة كانت فارغة من الناس حين قُتل القبطي ، ولن يصف موسى الإسرائيلي بالغواية ثم يساعده لأنه سيكون أشد غواية منه إن فعل ذلك ! ، وهذا غير وارد البتة .

- المسلم أخو المسلم : كان فرعون يستشير ملاًه : ما يفعل بموسى الذي رياه ورعاه ، فعاش في قصره كأحد أبنائه ، ثم يراه ظاهر قومه الإسرائيليين عليه ، وتجراً فقتل أحد الأقباط ؟ ويشيرون عليه بقتله والتخلص منه . . . أحد الأقباط المقربين من آل فرعون - ابن عمه - كان يكتم إيمانه بالله خوفاً على نفسه - سمع ما قيل وراهم يقررون قتل موسى ، فهل يتركهم وما يريدون ؟ ماذا يفعل ياربّ ؟ لا بد أن يبحث عن موسى وينبئه إلى شرورهم ، وينصحه بالتواري عن المدينة بل عن مصر كلها ، فلن يألوا أن يبحثوا عن موسى حتى يجدوه ويثأروا منه ،

" وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى إن الملائم يأترون بك ليقتلوك ، فاحرج إني لك من الناصحين " قال: من الناصحين ولم يقل ناصح ، هذا يجعلني أقول إن هذا الرأي الذي نصحه به - الخروج - ليس رأيه وحده وإن جاز ذلك ، إنما هو رأي عدد من الرجال الذين يحبون موسى ويؤازرونه ،

فتداولوا الأمر سريعاً ورأوا أن غيابه عن الأعين في هذا الوقت المتأزم خير لموسى ، فالنفوس مشحونة ، والقلوب متوترة .

ولعل هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون الذي مدحه القرآن الكريم في سورة غافر .

كما أن وصفه بالرجولة وسعيه الحثيث من أقصى المدينة حيث كان القوم يأترون بموسى دليل على حبه لأخيه المؤمن وحرصه على نجاته

- التصرف المناسب : يسمع موسى نصيحة الرجل ، ويرى موقفه ضعيفاً إن بقي في المدينة ، وقد يُقتل إن لم يتصرف بسرعة . ولكن إلى أين يذهب ، وهو لم يخرج من مصر قبل هذا ؟ وماذا يفعل وقد فوجئ بالطلب ، فلا هو يدري المكان الآمن ، ولا هو يملك الزاد والراحلة . إن الأمر لجد صعب ، ولكن لا بد من الحرب ، فقد اشتد عليه الطلب .

سار موسى خائفاً ينظر حوله متلفتاً ، ويلجأ إلى الركن الركين والملاذ الأمين ، إلى الله تعالى فهو الذي يرعاه ويحميه ، ويفتح مغاليق الأمور ، ومن توكل على الله فقد كفاه ، ومن قصده فقد لبّاه ، وليدعُوه فهو السميع العليم ، وهو قاضي الحاجات ، رفع يديه إلى السماء قائلاً " ربّ ؛ نجني من القوم الظالمين "

باسم الإله تحرك القلبُ

متشوّقاً ، من دون أن يكبو

فمن المحال تعثر وهوى

ما دام في درب الهدى يجبو

لما التزمتُ بشرعه الهادي

كان الجزاء لخطوي القربُ

وسألته الغفران تكريمه

حين اعتراني الخوف والرهبُ

وخواطر النفس انطوت فرعاً

لما اكتواني الذنب والخطبُ

ناديتُ من أعماق مسكنتي

أنت الرحيم البرُّ ، ياربّ

وهده الله تعالى إلى درب النجاة ، فانطلق شرقاً ، ثم شمالاً ، إلى فلسطين الحبيبة أرض الله المباركة ، فيها الأمن والأمان - إن شاء الله تعالى - هي الأرض المقدسة المباركة هي أرض المسلمين ، وليست لغيرهم . ولئن احتلها اليهود الجرمون في حين غفلة من أهلها ، وبُعد عن الدين ، وضعف في اليقين ، فإنهم الآن عادوا إلى الله تعالى ، يحملون راية الجهاد في سبيل الله ، ويعاهدونه على الالتزام

بشرعه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويبدلون الغالي والرخيص في سبيل ذلك .
انطلق المسلم الشاب موسى عليه السلام نحو مدين أول بلاد فلسطين ناحية مصر يطلب
الهداية " عسى ربي أن يهديني سواء السبيل " فهداه الله وحفظه وبلغه دار الأمان .



تأملات تربوية في سورة القصص (٣)

١- انطلق موسى من مصر مسرعاً شرقاً - إلى سيناء ، ثم شمالاً إلى دار الهجرة - فلسطين - يسأل الله الأمن والأمان ، فلما بلغ " مدين " وجد على مشارفها مورداً للماء عذباً فاتجه نحوه يروي منه ظمأه ويرتاح ناحيته ، فوجد الرعاة مزدحمين عليه يسقون أغنامهم ، ليعودوا إلى مضاربهم أول الأصيل . كانوا يتنافسون أيهم يسقي أولاً .

٢- وعلى مسافة منهم تقف امرأتان تنتظران أن ينتهوا من سقياهم تلك حتى تتفرغا لأغنامهما فتسقيانها ، فلا طاقة لهما بمدافعة الرجال ، ولا تبغيان ذلك ، وهما تمنعان أغنامهما العطشى أن تدنوا فتختلط بأنعام الرجال ، وتنتظران انتهاء الجميع لتتقدما ، فهما - كما تبدوان - فتاتان مهذبتان لا تختلطان بالرجال كي لا تسمعا ما يسوءهما أو تفتحا باباً للشر هما في غنى عنه .

٣- يتقدم الشاب القوي موسى وقد راعه أن تتأخرا عن بيتهما ، وأن لا يأبه الفتیان لهما ، وكان أولى بهم أن يراعوا ضعفهما فيتركوا المجال لهما أن تسقيا أولاً وتعودا مبكرتين ، وليس من ضير أن يتأخر الرجال ، أما أن تتأخر الفتاتان فهذا نقص في مروءة الرجال لا يرضاه موسى لنفسه إن رضيه الآخرون ، - هذا ما رُبي عليه موسى فأعان الإسرائيلي على باطل القبطي . وكان عونه سبباً في ملاحقة أعوان فرعون له وهروب موسى خوف بطشهم من مصر .

مهمة الرعي لا يقوم بها إلا الرجال ، فلم هما هنا يا ترى ؟ وأين أبوهما أو أخوهما؟ وأين الأجير الذي

يتولى تلك المهمة ؟ يتقدم موسى يسألهما عن كل ما خطر بباله من تساؤلات

٤- كانت إجابتهما قصيرة وواضحة " لا نسقي حتى يُصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير " اختارتا

الجواب المفيد بكلمات يسيرة معبرة تصف الحال بأجلى صورة دون أن تكثرا من الحديث إلى الغريب ، فيفهم كل شيء (أبوهما عجوز لا يقوى على الرعي وليس له غيرهما ، وأجرة الراعي مرهقة ، فلا بد أن تقوموا بذلك وحدهما) وقد رباها أبوهما على الأدب والحياء ، فمن الأدب أن تجيبا على الأسئلة ، ومن الحياء أن تقصرا الحديث مع الرجال .

٥- بعض الرجال - وهم في الحياة نادرون نُدرة الجواهر الثمينة - لا يخلو لهم عيش حين يرون

الآخرين متعبين يحتاجون العون وهم قادرون على بذله لهم . وموسى الذي رباها الله على عينه ، فأحسن

تربيته ، ووهبه من الشمائل السامية إيداناً بحمل الرسالة على رأسهم . ألم يقل الشاعر :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أني عئيت فلم أكسل ولم أتبلد

وموسى يرى أن عليه أن يساعدهما ، فيسرع إلى المورد يشق الزحام ، وينافس الرعاة ، وبمألاً الدلاء ، ويسقي الأنعام ، حتى ترتوي ، ثم يعيدها إلى الفتاتين ، وهما تتابعانه فترتاحان لما فعل ، وتربانه يقوم بهذا العمل بنشاط وقوة ، فإذا ما انتهى من ذلك أسرع إلى ظل شجرة يستريح دون أن يسألها أجراً أو يُدَلّ عليهما بما فعل ويجعله سبيلاً إلى الحديث معهما . إنه لم ينتظر أن يسمع شكرهما ، فقد أنهى مادعته إليه مروءته ، وانتحى من الشجرة ظلاً يخلو فيه إلى نفسه ويناجي ربه أن يرزقه من حاله مخرجاً وأن يرزقه من فضله العميم " فقال : ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقيرٌ " ومن لجأ إلى ربه وتوكل عليه فقد كفاه .

٦- يقول أهل العلم والدراية من دعا بهذا الدعاء عجل الله جوابه فرزقه زوجة صالحة . والدليل على ذلك أن إحدى الفتاتين جاءته بعد قليل تدعوه إلى لقاء أبيها ، وانظر إلى فاء الترتيب والتعقيب في الآية الكريمة " فجاءته إحداها تمشي على استحياء قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا " . وحين سألهما أبوهما عن سبب عودتهما مبكرتين على غير عادتهما قصتا عليه ما فعله هذا الشاب القوي المهذب، فرأى الأب بثاقب بصيرته أن هذا الشاب بغيته وأنه يمكن أن يكون أحد أركان البيت، فيقوم بعمل ابنتيه .. إن الرعي عمل الرجال ، وما قامت الفتاتان به إلا للحاجة الماسّة ، ولعل الله يجعل قدوم هذا الشاب خيراً

٧- وتأمل معي هذه الدعوة بأطيافها الكاملة :

أ- يرسلها أبوها لتدعوه ، فتسرع ، ودليل سرعتها الفعل الذي تعدى للضمير مباشرة " جاءته " ولم يتعد بحرف الجر - جاءت إليه - .

ب- فلما دنت منه غلبها الحياء والدليل على ذلك حرف الجر على والمصدر استحياء " على استحياء " فكأن الحياء طريق تمشي الفتاة عليه .

ج- لم تتكسر في الكلام وإنما ألفت عليه الطلب مباشرة " قالت " فقد جاءت بمهمة تؤديها بكلمات موجزة ، ولم يسبق الفعل حرف الفاء أو الواو بل ألفت الكلام فور وصولها .

د- والداعي أبوها " إن أبي يدعوك " ولم تقل إننا ندعوك . وهذا أدعى لقبول الدعوة ، فوالدهما علم

ما فعله وهو الذي يدعوه إليه ، رجل يدعو رجلاً .

هـ- وبينت الفتاة سبب الدعوة " ليجزيك أجر ما سقيت لنا " والأب هو الذي يجزي مع أن السقي كان للفتاتين ابتداءً ، وهذا يدل على عظم مقام الأب ومكانته عند ابنتيه .

و- يتعرف الأب على الشاب " ... جاءه وقص عليه القمص " ولم يقل: قصته أو القصة فالقصص كل ما حدث لموسى منذ أن ولدته أمه إلى أن وصل إلى الرجل .

ز- ولعل التباسط في الحديث له فوائد كثيرة : منها التعرف الواسع على الإنسان ، والتباسط الذي يرفع الكلفة ، والتحبب بين الفريقين ، وزرع الأمن في نفس الفتى الهارب إذ قال له حين سمع منه قصته كلها " لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين " واستعمل الفعل الماضي " نجوت " لتثبيت النجاة من فرعون وجنده . وتطمينه أن سلطان فرعون لا يصل إلى مدين .

٨- يرتاح الرجلان في لقاءهما ، وترغب الفتاتان لأبيهما أن يستأجره ، ليخفف عنهما عبء الخروج في الرعي و، فحنة المرأة في بيتها ، وعملها فيه أولاً ، وما ينبغي أن تخرج منه إلا مضطرة " قالت إحداها : يا أبتِ استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين " إن موسى قوي الجسم ، حسن الأخلاق - فلا حاجة للخوض في خرافات الروايات الإسرائيلية - فقد خبرتا ذلك من سقياه لهما ثم توليه إلى الظل دون أن يكلمهما ، ولم يغتنم فضله عليهما - أن خدمهما - في الحديث إليهما . وأسرع الأب إلى الاستجابة إذ كان قد سبقهما إلى التفكير في ذلك . والاستفادة من رجل قوي أمين كموسى غنم كبير ، وكنز ثمين . ويعرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه ومهرها أن يعمل له ثماني سنوات أو عشرًا ، ويتفقان ، ويتزوج موسى الصغرى ويمكث عنده عشر سنوات كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسيما الأنبياء والصالحين إتمام الفضل والإحسان في العمل وصدق الوعد .

٩- ولا ننس أن ننبه إلى دور المرأة الإيجابي في المجتمع والأسرة ، فهاتان الفاتاتان كانتا تقومان بدور الرجل حين يغيب ، رعيًا وسقيًا ، وإحداها كانت رسول أبيها إلى موسى . كما أنها نصحت أباهما في استخدام موسى حين رآته قويًا أمينًا .

١٠- من حسن التصرف أن يخطب الرجل لابنته كما يخطب لابنه حين يجد الشاب الصالح اللبيب الذي يحفظ عرضه ويصونه . هذا ما فعله الرجل الصالح في مدين فزوج إحدى ابنتيه من موسى عليه

السلام ، وليس عيباً أو عاراً أن أعرض ابنتي أو أختي على من أتوسّم فيهم الدين والخلق القويم ، بل إن من التصرف السليم أن تخطب المرأة لنفسها من تتراح لشمائله كما فعلت أمنا خديجة رضي الله عنها حين خطبت رسول الله لما رأته فيه من الصدق والأمانة ، وكما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهرية الجليلين عثمان وعلي رضي الله عنهما ... لما ماتت أم كلثوم بنت رسول الله قال لعثمان : لو كان لنا ثالثة لزوجتُكها ، أما فاطمة فقد طلبها كثيرون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجيب ، حتى طلبها علي فتبسم رسول الله له وزوجه إياها .



تأملات تربوية في سورة القصص (٤)

١-التربية أولاً : قبل أن يُكَلِّف المرء مهمة يُهيأ لها ويُدرَّب عليها . ولا بد من تحمل التبعات والصبر عليها زمنا حتى يشتد عوده ويكون أهلاً لما يُطلب منه . هذا موسى عليه السلام يعيش عشر سنوات غربياً عن أهله طريداً عن مسقط رأسه انتقل من حياة الرفاهية في قصور فرعون معزلاً مكرماً إلى بلد آخر وحياة أخرى يعمل في مهنة الرعي متنقلاً بأغنامه في السهول والوديان يصر ويحلب ويسقي ويعلف حيواناته لا يمنعه حر الصيف ولا قرّ الشتاء . وما من نبي - كما أخبرنا المصطفى عليه الصلاة والسلام - إلا رعى الغنم قبل أن يرعى الأمم . والتشابه بين الرعيين واضح جداً ، ففي كليهما السهر على المصالح والاهتمام بكل مناحي الحياة مع مراعاة الفرق بين متطلبات البشر وغيرهم من الأمم " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم " وعشر سنوات من التدريب الحثيث على عين الله ورعايته في مدرسة الحياة وفي بيت الرجل الصالح كفيلة بتأهيل موسى عليه السلام لتحمل الرسالة وأعبائها . إن حكام الأمم في القرن العشرين وما يليه يتدربون في المعاهد البريطانية والأمريكية ليعودوا بعدها أدوات طيبة متدربة لتحكم بلادها باسم من رباهم على مبادئ أرضية ذاق ويلاتها شعوبهم وأمهم ، أما موسى فقد ربي في المدرسة الإلهية لقيادة البشر إلى نور الهداية وإخراج الناس من ظلمات الفساد والقهر إلى ضياء التوحيد والطهر .

٢-التعرف على المهمة ثانياً : ينطلق موسى بأهله عائداً بعد السنوات العشر إلى مصر لا يعرف بقدمه أحد ، يريد لقاء أهله والتعرف على أحوالهم ولعل قضيته التي هرب بسببها ينساها الناس فيعيش بين أهله ، أو يرى عكس ذلك من بحث عنه ما يزال مستمراً فيعود أدراجه لا يشعر به أحد . هذا ما خطط له . لكن الله تعالى أراد له لأمر جليل ومهمة خطيرة لا يقوى عليه إلا النوادر من عظماء الرجال الذين شرفهم الله تعالى واصطفاهم من خلقه ليستنقذوا البشرية من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد . وفي الطريق يحتاج إلى جذوة من نار يحتاجها أهله ، فيعود إليهم بجذوة من نور يحتاجها قومه جميعاً . إنه يقول لزوجته : " إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون " وينطلق إليها فيلقى ربه سبحانه يكلمه ويكلفه بالرسالة العظيمة " .. يا موسى إني أنا الله رب العالمين " . فما الذي نستفيده من تربية في هذا التكليف ؟

أ- حدد الله تعالى المكان والزمان للقاء والتعارف ، فقد ذهب ليلاً يبحث عن جذوة النار ، ف " نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ " مِنْ جَانِبِ الْوَادِي مِمَّا يَلِي الْجَبَلَ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : " وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْعُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ " وَهَذَا مِمَّا يُرْشِدُ إِلَى أَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ ، وَالْجَبَلَ الْعُرْبِيِّ عَنْ يَمِينِهِ ، وَوَجَدَ النَّارَ تَضَطَّرَمَ فِي شَجَرَةِ خَضْرَاءٍ فِي نَاحِيَةِ الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِي .
ب- نودي باسمه حتى يطمئن إلى أن من يناديه يعرفه ، فيستأنس ويذهب عنه الخوف ، ويتلفت ليرى المنادي ، فيقبل عليه . " يا موسى " .

ج - عرفه بذاته " إني أنا الله رب العالمين " فأكد ب " إِنَّ " واسمها الضمير الياء ، ثم ذكر ضمير الفصل " أنا " ثم ذكر الاسم الأعظم " الله " ثم وصف ذاته العلية بأنه " رب العالمين " فالذي يخاطب هو الرب الذي يفعل ما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مُثَالَّةِ المخلوقات في ذاته وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ .

د- وليتحقق موسى أن الله تعالى هو الذي يكلمه أمره ربه أن يلقي عصاه " وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ " التي في يده كما نعلم ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : " وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْرِقُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَإِلَى فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى " وَالْمَعْنَى أَمَا هَذِهِ عَصَاكَ الَّتِي تَعْرِفُهَا ؟ " أَلْقِهَا فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " فَعَرَفَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِي يُكَلِّمُهُ وَيُخَاطِبُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ طه .

هـ - : " فلما رآها تهتز كأنها جانّ " والجانب حية عظيمة تضطرب وتتحرك ظهرت النفسية الإنسانية الضعيفة التي تخاف من مخلوق عظيم مخيف . هرب لا يلوي على شيء " ولّى مدبراً ولم يُعَقِّبْ " فناداه ربه يطمئنّه " يا موسى أقبل ولا تخف ؛ إنك من الآمنين " ، فلما عاد ينظر إليها خائفاً علمه ربه كيف يمسك بها مرة أخرى فتعود عصاه التي ألقاها .

و- وقد ذكرنا في تأملاتنا التربوية في سورة طه أن تحويل العصا حية عظيمة وإعادة عصا كما كانت لتدريب لموسى عليه السلام على استعمالها آية رائعة تؤيده حين يقف أمام فرعون ويدعوه ، فلو أنه لم يتدرب عليها قبل لقائه فرعون قد يرميها فيكون أول من يخافها إذ لا يكون قد رآها تتحرك من قبل . وكذلك إدخال يده في صدره لتخرج لامعة مشرقة كضوء الشمس ، ثم إعادة عصاه مرة أخرى إلى صدره فتعود

كأختها " اسلك يدك في جيبيك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب ، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين "

و- لا بد من تزويد المكلف بأدلة وبراهين تؤيد الداعية وتعضده في دعوته في الوقت المناسب ، وتدفع عنه بإذن الله أو تخفف من أذى المفسدين أو تسكتهم إلى حين أو تلجمهم فلا يتكلمون . فأنس موسى لهاتين الآيتين وهدأت نفسه الخائفة المضطربة .

ز- وحين يضعف الداعية - وهو إنسان ضعيف - لمواقف سابقة كقتل موسى ذلك القبطي والخوف من أن يقتلوه وقد جاءهم بنفسه " قال : رب؛ إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون " ، ولأن الجمر أحرق لسانه صغيراً فهو بحاجة إلى أخيه البين النطق ، القريب إلى نفسه ، المؤمن - مثله - بهذه الدعوة المباركة فقد أیده الله به وأرسله معه إلى فرعون رسولاً ، والصحبة الصالحة خير معين في الحياة بله المواقف الصعبة المخرجة . " وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداً يصدقني ، إني أخاف أن يكذبون " فيجيبه الله تعالى إلى طلبه كي يستكمل موسى كل أسباب النجاح ، فلا يترك للفشل في مهمته ثغرة ينفذ إليه منها . " قال سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطاناً ، فلا يصلون إليكما .. "

٣- الاستكبار سبب الكفر والضلال : فهو يؤدّي إلى :

أ- التكذيب " قالوا هذا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين "

وكأن عدم سماعهم من آبائهم وحدانية الله يقدر فيها ! ووصفوا ما جاء به موسى وأخوه هارون عليهما السلام بالتصنع والافتعال ومخالفة الواقع والحقيقة ، ووصموا الآيتين اللتين أخذتا بألباهم بالسحر ، وهم يريدون بذلك التكذيب والجحود

ب- الافتراء واستعباد الآخرين " يا أيها الملأ ؛ ما علمت لكم من إله غيري "

أن كُفر فِرْعَوْنَ وطغيانه وافتراءه في دَعْوَاهُ الألوهية لنفسه القبيحة جعله يستخف قومه: " فاستخفَّ قومه فأطاعوه " ، ومن ضعف عقولهم أنه حين دَعَاَهُمْ إِلَى الاعتراف لَهُ بِالألوهية أَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ : " يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرِي " وَقَالَ تَعَالَى إِحْبَارًا عَنْ استخفاف فرعون بهم وجبروته وتسلطه عليهم " فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى " فكانت العقوبة أن الله تعالى أخذه أخذ عزيز مقتدر " فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَحْزَةِ وَالْأُولَى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى " فَجَعَلَهُ عِبْرَةً لِعَيْرِهِ فِي الدنیا والآخرة .

ومن افتراءه واستعباده لقومه أَنَّهُ وَاجِهٌ مُوسَى بِذَلِكَ ، وهَدَّده بالسجن إن اتخذ إلهاً غيره فَقَالَ : " لَعْنُ اتَّخَذَتْ إِلَهًا عَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ " .

ج - الكفر والبطر " واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق " فلما استكبر هُوَ وجنوده في الأرض بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنْ لَا رَجْعَةَ وَلَا مَعَادَ ، وَلَا حِسَابَ وَلَا عِقَابَ فَطَعَوْا وَتَجَبَّرُوا وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ كَانَتْ الْعُقُوبَةُ وَاجِبَةً " فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبَلْمُرْسِدِ " .

٣- عقوبة الاستكبار : العقوبة قد تكون في الدنيا بالإضافة إلى عقوبة الآخرة ، كما أن عقوبة الآخرة قد تكون في القبر إضافة إلى عذاب النار .

أ - العذاب الشديد في الدنيا " فأخذناه وجنوده ، فبنذناهم في اليم " وانظر معي إلى الفعل " نذ " الدال على الطرح باحتقار لهؤلاء المتجبرين وهوانهم على الله .

ب- اللعنة في الدنيا والآخرة " وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين " فصاروا بأمر الله تعالى ملعونين على ألسنة الأنبياء والمؤمنين إلى يوم القيامة ، بل إنهم يوم القيامة يزدادون قبحاً ولعناً . ومثل هذه الآية قوله تعالى " وأتبعوا في هذه لعنة ، ويوم القيامة بئس الرُفْدُ المرفود " فماذا رجوا لصلفهم وكبريائهم من هذه اللعنة الدائمة يتجرعون نتاجها خالدين في النار؟!

ج- عذاب الآخرة " وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون " فاجتمع عليهم حزبي الدنيا والآخرة ، وكانوا مثلاً سيئاً لمن سلك طريقهم ، وباء بخزيهم ، وسيرون الخزي يتابعهم يوم لا ينفعهم أنصارهم ولا يشد على أيديهم أحد ، ومن يجروا أن يناصرهم وقد لعنهم الله وأخزاهم؟!

د - العذاب في القبر " النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب " وهذا العذاب للروح كما قال ابن كثير في تفسيره ، فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحاً وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ " أَيُّ أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا . وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور . نسأل الله الإيمان ، والعافية وحسن الختام .

أقول وبالله العون :

ويوم الحشر من سود الليالي توضع فيه دجال المقال

يُرى كالدّرّ مردولاً قميئاً
يعيث تجبّراً ، ويتيه كِبِراً
ويمقته المليك فلا نجاح
ويلقى في الجحيم على قفاه
وما الجدوى لإيمان إذا لم
فإن الفعل في الأولى سبيل
ووجه المسلم المرضي نور
وفي يمناه أوراق حسان
وتدخله جنان الخلد يسعى
فما من عاقل يرضى زوالاً
ومن يشري خلوداً من فناء

وقد كان "المكّرّم " في الرجال!
فصار إلى صغار في المآل
وخسران النفوس بلا جدال
ولا أحد بتوبته!! يبالي
يكن تقواه في دنيا الفعال
إلى غرف المكارم والنوال
فكان الشمس من حسنِ ثلالي
تؤهله إلى تيّل المعالي
إلى الحور الحسان إلى الجمال
بباقية ! فذاك من المحال
لعمر الله ، ذاك من الخبال

فثبتني على الإيمان ربي
وبين يديك فارحمي ؛إلهي
وجوّزي الصراط كلمح طرف
بصحبة سيّدي خير البرايا

وفي قبري على رد السؤال
وتحت العرش في فيء الظلال
وأدخلني الجنان مع الغوالي
فهل ترأف يا ربي بحالي ؟



تأملات تربوية في سورة القصص (٥)

١- قارون من قوم موسى ، ولعله ابن عمه كما يروي المفسرون ، كان فقيراً حين آمن بموسى لكنه حين استغنى انتقل إلى صف الكفار المناهضين للدين الجديد ، المعادين له .

٢- " إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ " وهكذا نجد قارون يظلم قومه حين كثرت الأموال بين يديه ، وهذا دليل تفاهة من يغره المال ، فيصرفه عن وجوه الخير ، بل يشتط في الكبر والاستعلاء .

٣- وظلم القريب قربه شديداً ، مؤلم ، قاس لئيم .. أتدرون لماذا ؟

١ - يتوقع القريب من قربه الوجيه الموسر القادر على المساعدة الرحمة ، ويتوقع العون ، وقد لا يتوقع من غيره أن يكون عطوفاً عليه رحيماً به ، فإذا فوجئ منه بالظلم والنكران زاد ألمه ألماً ، وضيقه شدة .

ب - إن القريب أو الصديق أعلم بمواطن الضعف عند الآخرين ، فإذا انقلب عدواً كان أذاه أشدّ

لمعرفته بدخائله ، وقد قال الشاعر مصوراً هذه الحالة ومنبهاً من الانكشاف للآخرين ولو كانوا أهلاً

وأصدقاء ، فالحفاظ على الخصوصيات لا بد منها حتى عن القريب والحبيب:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق ق ، فكان أعلم بالمضرة

ج - وقد يكون عند فقره حاسداً أهل الفضل من قومه يحمل الضغينة لهم ، وهذا دأب كثير من

الناس ، وعادة قد تكون متأصلة فيمن دينه ضعيف وقلبه ضيق وعقله قاصر فإذا اغتنى بعد فقر أظهر

الكشع وأعلن العداوة والنقمة ، والتشفي . وتراه في صفوف أعداء الله يضرب بسيفهم ويواليهم على قومه

د - ومن هذا دأبه يجعله الغنى متكبراً يرى الآخرين دونه ، ويسعى إلى إذلالهم .

٤- وهنا نجد الدعوة من قومه ينصحونه - والمؤمن يريد الخير للجميع ويخص قومه بخيره - ويجتهد

في النصح لهم ، فهذه مهمته في الحياة ، وكانت النصائح على التوالي :

أ - البعد عن البطر فهو من الآفات التي تقصم ظهر صاحبها ، وتهلكه ، فالله تعالى أعلن ذلك

حين قال في الحديث " الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ، قذفته في النار " (

الدرر السنينة) ومن ادعى ذلك غضب الله عليه ، وكرهه " إن الله لا يحب الفرحين " البطرين الذين لا

يشكرون الله على إنعامه ويتكبرون بأموالهم على عباد الله فما ينبغي لأحد أن يستكبر أو يتعالى .

ب - أن يطلب الدار الآخرة فيما أعطاه الله من الأموال ، " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة " فيتصدق وينفق على الطاعات ، فهذا من شكر الله تعالى ، وسيجد في الآخرة - إن فعل ذلك - فضلاً من الله كبيراً .

ج - كما أن للإنسان أن يتمتع بالخير الذي وهبه الله إياه في الدنيا دون أن تكون الدنيا همه الأكبر أو الوحيد ، وهذا تنبيه واضح إلى أن العاقل يجعل الآخرة الباقية نصب عينيه وهدفه الأول ، وله أن يتمتع بدنيته " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ " .

د - أن يحسن إلى الناس ، فالإحسان من التحدث بنعمة الله ، " وأما بنعمة ربك فحدث " وليس الحديث بالتفاخر والتباهي بما أنعم الله علينا فقط ، فهذا إيذاء لمشاعر الناس وإساءة إليهم . ومن أحسن إلى الناس فقد استجلب رضا الله تعالى عليه وحببه له ، ومن أحبه الله فاز وأفلح " الخلق عيال الله ، واحبهم إلى الله أنفعهم لعياله " . وكما تدين تدان : فمن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه ، ومن احسن الله إليه أحسن إلى عباد الله .

هـ - من الإساءة أن يكون الإنسان فاسداً ، وأشد منه أن يكون مفسداً . والإفساد طرقه كثيرة ، منها: البغي في الأرض ، وكثرة المعاصي، وصراف المال فيما يغضب الله تعالى ... والبعد عن الإفساد والفساد من سمات العاقل اللبيب ، وعكس ذلك من سمات اللئيم الذميم . والله تعالى يكره هذا الصنف الذي يفسد في الأرض ، ومن كرهه الله تعالى كان من الخاسرين .

٥ - العاقل من اتعظ ، والجاهل من تنكب الطريق السوي ، فأورده موارد الهلاك . وكان قارون من الصنف الثاني الذي أوداه جبروته ، فادعى ما ليس له ادعى أن ذكاه وعبقريته كانا السبب في نجاحه هذا النجاح الكبير ، وأن المال جمعه بجده ونشاطه ليس غير !! وهذا مقتل المتكبرين ، وهلاك المتحبرين . هؤلاء الذين لا يتعلمون ممن غير ، ولا يتعظون من مصائر أمثالهم .

٦ - وقد يتساءل أحدهم : كيف " ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون " ؟ ألم يقل الله تعالى " فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون " ؟ والأمر ليس فيه تعارض البتة ، إنما هو تصوير لمصيرهم السيء ، والله تعالى لعلمه بما فرطوا وتجاوزوا لا يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها تحقيراً لهم ، وغضباً عليهم . وانظر معي إلى هذا التصوير المخيف في طريقة دخول هؤلاء المجرمين النار - والعياذ بالله - " يُعرف

المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام " ما أهونهم على الله حين يأمر بهم إلى النار ، فتمسك الزبانية برؤوسهم وأرجلهم ، ويُقذفون بهذه الطريقة المهينة في سواء جهنم !!

٧- قارون وأمثاله - هؤلاء الذين طُمت بصائرهم ، فما عادوا يرون إلا ذواتهم - يستعلون على عباد الله فيخرجون متعاضمين كما فعل قارون حين " خرج على قومه في زينته " متباهياً مفتخراً بأكمل زينته ذات يوم ، يليه أتباعه الكثيرون متحلين بملابس الذهب والحرير ، على خيول موشحة بالذهب والعقيان ، ومعه الجواري والغلمان في موكب حافل باهر فيسي قلوب أهل الدنيا ، فيتمنون أن يكونوا مثله، أو يكون لهم ما له ، ويعتقدون مخطئين أنه ذو حظ عظيم .

٨- أهل الإيمان الذين ينظرون بنور ربهم يعلمون زيف الدنيا وصغارها ، إن الحياة الحققة هي الحياة الباقية ، أما الفانية الزائلة فلا تستهويهم . إنهم قالوا حين سمعوا أهل الدنيا يتمنون هذا الزائل ناسين الآخرة وخلودها :

" ثواب الله خير لمن آمن ، وعمل صالحاً ، ولا يُلقَّأها إلا الصابرون "

فالإيمان بالله أولاً ، يليه العمل الصالح ثانياً ، يليه الصبر والرضا بما قسم الله تعالى ثالثاً ثوابُ الله الجزيل الذي يغمر العباد الصالحين .

٩- العقوبة العاجلة للمتكبرين في الدنيا ، فقد خسف الله تعالى بقارون الأرض فهو يتجلى فيها إلى يوم القيامة ، تضيق عليه ويحترق بنيرانها جزاءً وفاقاً هو ومن يسير في ركابه ، فماذا يقول هؤلاء الذين باعوا آجالاً بعاجل ، ورضوا أن يكونوا في صفوف أعداء الله ، يحاربون أولياء الله ؟؟؟!!! والمرء مع من أحب ، ، أليس كذلك !!؟



تأملات تربوية في سورة ص (١)

١- شَرَّفَ اللهُ تعالى المسلمين بالقرآن العظيم حين قال سبحانه : " ص والقرآن ذي الذكر " وقد قال عمر رضي الله عنه : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله . وهل كان العرب قبل الإسلام إلا قبائل متناحرة وأمة مغلوبة يسيطر عليها الروم والفرس ؟ فلما عرفت الإسلام شَرُفَتْ وارتفع شأنها وسادت الدنيا ، ولما تركت الإسلام ولحقت بكل ناعق خمد ذكرها وصار أهلها خَوَلاً .. وقد أكد المولى تعالى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم فقال في سورة الأنبياء : " لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم " والذكر هو الشرفُ العالي والمكانة السامقة ، وقال تعالى " وإنه لذكر لك ولقومك " فما يدعه إلا غافل جاهل ولا يلتزمه إلا لبيب عاقل . وقد خبرنا وضع أجدادنا وأسلافنا حين حملوه في قلوبهم وسواعدهم ، فخضعت لهم الدنيا ، وها نحن نتركه زاهدين فيه فتنقلب أحوالنا ذلاً وخنوعاً وضعفاً وهواناً .

٢- لماذا يأبى الكافر قوله الحق " بل الذين كفروا في عزة وشقاق " ولم المخالفةُ والحق بين ؟ ولم النفور والإسلام جاء لراحة البشرية والارتقاء بها من وهدة الضلال والقهر والفساد؟ وتأمل معي كلمة العزة وحدها دون كلمة الشقاق قد كانت تلتبس لولا أن كلمة الشقاق وضّحت المعنى المقصود بها ، وهو التعالي عن الحق والنأي عنه ممزوجين بالصلف والكبرياء مدعومين بالجحود والإنكار . فكلمة الشقاق ألفت بظلال المخالفة والرفض للتقوى والرشاد ، دليله في سورة البقرة " وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم " .

٣- العاقل من يتعظ بغيره ، ويغتتم الفرص ، فلا يضيعها . أما الاعتاظ فلا يدخل قلوب الغافلين ، فهم يرون بعيونهم لا أبصارهم ، " لهم أعين لا يبصرون بها " يؤكد هذا أيضاً قوله تعالى " فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور " وهم بهذه الصفة كالأنعام الضالّة بل هم أضل سبيلاً . " كم أهلكتنا قبلهم من قرن " . إنهم يرون مصارع الأمم الغابرة فلا يروعون ، ويمرون عليهم فلا يتعظون " وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون " وهم يسرون في سفرهم وتجارهم في بقايا آثار الأمم البائدة " إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم " ولا يتوسم سوى العاقل صاحب القلب النابض والعقل الحي . وأما اغتنام الفرص فللذكيّ الألمعيّ الذي يعلم أن

الفرص عزيزة نادرة لا تأتي إلا بغتة ولا يقتنصها إلا الذي ينتظرها ويتوسّمها . لكنها تمر على الجاهل فلا يحس بها ، فإذا وقعت الواقعة نادى " واحسرتاه ، واتعاستاه " ، ويستغيث ، فلا صريخ . ويلقى صدى صوته ، ويسخر منه النابحون ، فلا فائدة ولا نجاة " ولات حين مناص "

٤- صاحب العقيدة الحقة والدعوة الصادقة لا يمل من الدعوة إليها والدفاع عنها ، ولا يفتأ يعمل في سبيلها غير آبه بالعوائق ، فالحياة عقيدة وجهاد " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون " لا بد من الصبر والمصابرة والثبات مع التحلي بتقوى الله تعالى . وفي هذه السورة نجد تداعياً من الكفار وحضاً على الثبات على عقيدتهم وهي العقيدة الزائغة إذ يقول أئمة الكفر والضلال: " امشوا واصبروا على آلهتكم " ويرفضون التحلي عنها ، وينبهون أتباعهم أن لا يستجيبوا لمن يريد أن يغير قناعاتهم ويزعزع إيمانهم بألهتهم " ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق " فهم يتعجبون أن تكون الآلهة إلهاً واحداً ، وأن يرسل الإله نبياً بشراً واحداً منهم ولماذا يكون الرسول محمداً ؟ ولا يكون أحد كبراء القوم أصحاب المال والجاه ؟ ، فقالوا " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ " روى ابن جرير أن زعماء قريش قالوا : هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ التَّوْحِيدِ لَشَيْءٍ يُرِيدُ بِهِ الشَّرْفَ عَلَيْكُمْ وَالِاسْتِغْنَاءَ ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْكُمْ أَتْبَاعٌ ، وَلَسْنَا نُجِيبُهُ إِلَى مَرَادِهِ ... فإذا كان أهل الضلال يبذلون جهدهم في الاحتفاظ بمبادئهم ، أفلا ينبغي على المؤمنين أن يتعاهدوا أنفسهم بالمثابرة والمصابرة على هذه الدعوة المباركة ؟ .

٥- الكفر ملة واحدة ، وكلهم مهزومون أمام الحق بإذن الله تعالى . وفي هذه السورة بين الله تعالى أن قوم نوح وقوم فرعون وأن عاداً وثمود وأصحاب الأيكة حين كذبوا الرسل ذاقوا العذاب وأُبيدوا " إن كلَّ إلا كذب الرسل فحقَّ عقابٍ " ، وقريش إن كذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فستدوق المصير نفسه ، وهذا تهديد شديد اللهجة " وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواقٍ " إنها الصيحة الأولى والوحيدة القاضية المميّنة فعلام هذا الاستكبار والجحود؟! ومن سخيف عقول الكافرين أنهم يستعجلون العذاب تحدياً وتمادياً في العناد وجحوداً منهم ليوم المعاد " وقالوا : ربنا ؛ عَجَّلْ لَنَا قَطَنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ " وهذا الطلب يتكرر دائماً دالاً على جهلهم بالمصير الأسود المرعب الذي ينتظرهم " يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين " فإذا ما عاينوه رأي العين ندموا حيث لا ينفع الندم

. وقد توعدهم الله عز وجل في هذه السورة فقال : " هذا وإن للطاغين لشر مآب " ماهو الشر الذي توعدتم يا رب ؟ فيجيب سبحانه من عزيز قوي : " جهنم يصلونها ، فبئس المهاد " وتصور أخي كيف يعيش الكافر في النار إذا كانت النار بأشواكها ولهبها المهدي الذي يستريح عليه الكافر بعد تعبته وتحواله اللذين لا ينقطعان - نسأل الله العافية - " هذا فليذوقوه حميمٌ وغساقٌ ، وآخر من شكله أزواج " فما الحميم والغساق ، وما المثل لهما من طعام وشراب للكافرين في جهنم ، والعياذ بالله

٦- في القرآن الكريم تصوير مخيف لحياة المعذبين في النار ، طعامهم وشرابهم ، ولباسهم وحياتهم في النيران وبين أيدي زبانية العذاب . فتعال معي نعيش بعيداً عنهم مطلعين عليهم ونحن في جنة الله - بإذن الله وفضله وكرمه - فهو الرحيم بعباده المؤمنين الرؤوف بهم ، عسانا ننأى بأنفسنا عن هذا المصير المرعب الذي يحتوي كل عاصٍ كفور.

شجرة الزقوم : وما أدراك ما شجرة الزقوم ! " إنها شجرة تخرج في أصل الحميم " في قعر النار ، ومنه منشؤها ، ثم هي متفرعة في جهنم . وتصور هذه الشجرة التي تخالف كل أنواع الشجر الذي تلتهمه النار ، وهو وقود لها إلا هذه الشجرة ، فهي لا تنبت ولا تثمر إلا في النار .. فما ثمارها ؟ وماذا يشبه " طلعتها " أي ثمرها ؟ ، - وسمي طلعاً لطلوعه - " كأنه رؤوس الشياطين " فهل رأى أحدنا الشياطين ؟! لا لم يرههم ، فكيف شُبّه ثمر الزقوم بما لم نره ولم نعرفه؟! فالجواب أن نفوس الناس تتصور الشياطين برؤوسهم القبيحة المنقرّة وإن لم يكونوا مرئيين لأنهم مثال كل خبث وسوء وقبح ، كما أن الطيبة والخير والجمال تتمثل في نفوس الناس بالملائكة . ألم يقل صواحب يوسف في وصف جماله حين طلع عليهم " ما هذا بشراً ، إنّ هذا إلاّ ملك كريم ؟ " فهذا تشبيه تخيلي . والناس يتشاءمون من الغول وليست مرئية أو موجودة ، فيصفون قباحة الأسنان بها : مسنونةٌ زرقٌ كأنياب الغول لما يُتصور من قبحها وشناعة منظرها . وبعض العرب تنهياً لهم الشياطين كالحيات ، لها رؤوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها .

لما نزلت هذه الآية سخر فرعون هذه الأمة ، وقال : أتدرون ما الزقوم ؟ إن محمداً يعدنا أن في جهنم الزقوم ؛! إنما هو الثريد بالزبد والتمر . فبين الله خلاف ما قال .

" إن شجرة الزقوم طعام الأثيم " . كم يأكلون منها؟ أقليلاً أم كثيراً على شدة مرارتها؟ " فإنهم

لأكلون منها ، فمالتون منها البطون " يأكلون منها بشره لأنهم لا يصلون إليها متى شاءوا ، ولا يأتونها إلا جائعين ، والجائع حين يرى الأكل يهيم فيه أكان الأكل طيباً أم خبيثاً ، والزقوم طعامهم وفاكهتهم ، وشجرة الزقوم التي خلقها الله تعالى في جهنم سماها القرآن " الشجرة الملعونة ... " فحين يأكلها أهل النار تغلي بطونهم كما يغلي الماء الحار ، وشبهه ما يصير منها إلى بطونهم ب " المهل " : وهو النحاس المذاب .

كما أن الضريع طعامهم . " ليس لهم طعام إلا من ضريع " فما الضريع ؟ إنه نبت ذو شوك لاصق بالأرض ، لا تقربه دابة ولا بهيمة ، ولا ترعاه ، وهو سمّ قاتل ، من أخطب الطعام وأشنعه ويسمى الشبرق حين يكون رطباً . وقال ابن عباس : إنه شجر من نار ، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها . وروى القرطبي في تفسيره عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الضريع شيء يكون في النار يشبه الشوك ، أشد مرارة من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأحر من النار ، سماه الله ضريعاً " وقال بعض المفسرين : هو طعام لنتنه يضرعون عنده ويدلون ، وقيل : " إن الغسلين " ولا طعام إلا من غسلين " هو الضريع . هذا الضريع يأكله أهل النار فلا يشبعون " لا يُسمن ولا يُغني من جوع " فكأنه للعذاب فقط والعياذ بالله .

" ثم إنّ لهم عليها لشوباً من حميم " والشّوب : الخلط . والحميم : الماء الحار المغلي . .. قال المفسرون : يُمزج لهم الزقوم بالماء المغلي الذي يقطع الأمعاء ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ، تغليظاً لعذابهم وتجديداً لبلائهم ،

أما شراهم فهو بلية أخرى ، فماذا يشربون ؟ وما أثر الشرب على الجسم ؟! يقول تعالى " وسقوا ماءً حميماً ، فقطع أمعاءهم " ويشاب هذا الماء المغلي بغساق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم " هذا فليذوقوه ، حميم وغساق " .. إذا ليس هناك ماء يروي الظمأ بل حميم يُلهب الأجساد ، ويمزق الأمعاء " لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً " .

ثم يأتي دور العذاب الشديد المتجدد " فالكفار ليس لهم مساكن كمساكن الدنيا بل ينتقلون كقطعان البهائم ، تساق بين أطباق النار السبعة ، فهل أسوأ من عيش البهائم ؟! بل إن البهائم في الدنيا لها حظائر لوقايتها من البرد والحر ، ويقدم لها ما يناسبها من الأعشاب وغيرها ، ويعتني بها أصحابها ،

ويحافظون عليها فهي مالمهم وتجارتهم وعليها تقوم حياتهم .

أما أصحاب النار فهم قطعان تساق إلى الزقوم لتأكل منه في مكان غير مكان إقامتهم ، ثم يُعادون إلى جهنم " ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم " والدليل على ذلك قوله تعالى " يطوفون بينها وبين حميم آن " فلأكل مكان ، وللشرب مكان ، فبعد أكلهم الزقوم يُدفع المجرمون إلى جهنم بقسوة ، ويجرون إلى جهنم مهانين محتقرين " خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم " والعتل أن يُجذب المعاقب جذباً عنيفاً دون رحمة . يجرونه إلى منتصف النار . وهناك يبدأ العذاب بفنونه " ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم " يضرب الملك من الزبانية رأس الكافر فيفتته ثم يصب فيه حميماً قد انتهى حره إلى غايته ، فيقع في بطنه " يصب من فوق رؤوسهم الحميم " وكأنه يصب في قارورة ، فيملؤها فماذا يحصل؟! " يُصهر به ما في بطونهم " فيسلت ما في الجوف حتى يمزق من القدمين . وهل ينصهر ما في البطن فقط ؟ لا بل الجلود كذلك تحترق ، أو تُشوى " والجلود .. " ، ثم يُعاد كما كان . فما هذا الطعام وما هذا الشراب ؟ وما هذه الحياة المقيتة ؟ نسأل الله العافية وحسن الختام .

روى القرطبي عن قتادة أن الآية الكريمة في سورة الدخان " ذق إنك أنت العزيز الكريم " نزلت في أبي جهل ، وكان قد قال : ما فيها - مكة - أعز مني ولا أكرم ، فلذلك قيل له تلك الآية السابقة . وقد التقى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو جهل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى " قال أبو جهل : بأي شيء تهددني ! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه . فقتله الله يوم بدر وأذله ، وقيلت له هذه الآية على لسان سيد ملائكة العذاب " مالك " خازن النار الذي يضربه على رأسه بمقمع من حديد ، فيفتت رأسه عن دماغه ، فيجري دماغه على جسده ثم يصب فيه الماء المغلي ويقال له على سبيل السخرية والتوبيخ " ذق ؛ إنك أنت العزيز الكريم " .

أما لباس الكفار في جهنم فهو النار - والعياذ بالله منها - دليل ذلك قوله تعالى " والذين كفروا قُطعت لهم ثياب من نار " فخيطة وسويت . وشُبَّهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ، وتأمل قوله تعالى " قُطعت " وهو فعل ماض لما يستقبل من الزمان لأن الموعود منه محقق كالواقع لا محال ، ولعلها أعدت الآن ليلبسها أصحابها وقت دخولهم النار - اللهم عفوك ورحمتك - .. قال سعيد بن جبير : " من

نار " من نحاس قد أذيب وهي السراويل المذكورة في " قَطْران " وليس أحمى من النحاس إن أذيب . . . وقيل : إن النار حين تحيط بهم كإحاطة الثياب إذا لبسوها عليهم . صارت من هذا الوجه ثياباً . ألم يقل الله تعالى : " وجعلنا الليل لباساً " .

وتصوّر مقامع الحديد التي تقهر وتذل ، وهي بيد الزبانية ملائكة العذاب وتسمى سياطاً كذلك " ولهم مقامع من حديد " وفي الحديث : " بيد كل ملك من خزنة جهنم مرزبة لها شُعبتان ، فيضرب - أي الملك - الضربة ، فيهوي بها سبعون ألفاً - من أهل النار - " .

ويحاول الكفار - حين تجيش النار بهم وتنفور فتلقي من فيها إلى أعلى أبوابها - أن يفرّوا منها إلى الخارج ، فتعيدهم الخزنة إليها بالمقامع المصاحبة بالتوبيخ والسخرية " كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق " .

فما هذه الحياة التي يعيشها الكافر العاصي ؟ يأكل النار ، ويشرب النار ، ويلبس النار ، ويعذب بالنار . . . وهل تستحق هذه الحياة الفانية القصيرة أن يفسق فيها الإنسان لحظاته وسويعاته ، ويتكبر ويتعبر ويكفر بربه ، فيغضب منه الجبار ، فيخلد في النار ؟!

اللهم نعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا نخصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم نلقاك وأنت راض عنا .

اللهم صل على عبدك ونبيك محمد ، وشفّعه فينا .

اللهم لك الحمد حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .



تأملات تربوية في سورة ص (٢)

- ليس الكفار في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بدعاً من غيرهم ممن هم على شاكلتهم ، فملة الكفر واحدة . إنهم حين دعاهم عليه الصلاة والسلام إلى الإيمان بالله وحده - كما ذكر في هذه السورة تكبروا عن قبول الحق ، وأخذتهم العزة بالإثم ، فتعجبوا أن يكون النذير البشيراً رجلاً منهم وكانوا يظنون أنه - إن صدق بما يقول - أن يكون ملكاً ، ثم رموه بالسحر والكذب ، " وقال الكافرون هذا ساحر كذاب " وكيف اختزل - بسفاهة رأيهم - الآلهة كلها في إله واحد - وقد كان حول الكعبة أكثر من ثلاث مئة صنم ، كما أن لكل واحد منهم إلهاً يحمله معه ينصبه بين يديه ثم يعبده ! ثم لو كان الرسول من البشر فلماذا اختار الله تعالى محمداً من بينهم؟! فتساءلوا متعجبين " أنزل عليه الذكر من بيننا؟! " . فلما أصروا على النأي عن الإيمان ، وصابروا بعضهم بعضاً في التمسك بباطلهم كان من البدهي أن يصبر الداعية الصادق على دعوته فهو أولى بذلك ، وأهل الحق أجدر أن يصبروا على رسالتهم التي كلفهم الله بها . ولا بد من الحث والمصابرة والتخلق بأخلاق الدعوة السابقين ممن سلكوا طريق الدعوة الشائك ، فصبروا ، وهم قدوة لنا جميعاً " فبهدهم اقتده " فنبه الله تعالى رسوله الكريم - في هذه السورة - إلى عدد منهم ، بدأهم بكلمة " اذكر "

أ- فكان أولهم شيخ الصابرين من أنبياء الله أيوب عليه السلام " واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب " فكرمه الله تعالى على صبره إذ شفاه من مرضه ووهب له أهله ومثلهم معهم ، وأغناه من فضله .

ب- ثم واسأى نبيه بأبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب عليهم السلام ، ومدحهم الله على صبرهم " واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار " . فجعل قلوبهم معلقة بالآخرة يعملون لها وجعل ذكرهم على لسان أهل الدنيا طيباً زاكياً .

ت- كما واساه بذكر إسماعيل واليسع وذي الكفل عليهم السلام ووصفهم بالخيرية لصبرهم على الدعوة فكان هذا شرفاً لهم في الدنيا يُذكرون به " واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل ، وكلّ من

الأخيار " .

وكل من سار على درهم وأتسى بهم فهو ذو ذكر طيب مشهودٌ له بالتقوى وله الجنة مأوى " هذا ذكر، وإن للمتقين حُسْنَ مآب جناتٍ عدن مفتحةٌ لهم الأبواب " .

- أما داوود عليه السلام فقد أُفرد له في هذه السورة اثنتا عشرة آية ، فقد وصفه الله تعالى بصفات عدة رائعة أولهنّ : أنه عبد لله تعالى ، وصفة العبودية لله أسمى وسام على جبين الرجل ، وأغلى تاج على رأسه " واذكر عبدنا داوود " .

وثانيهنّ : القوة في الجسم والطاعة والعلم والعمل " ذا الأيد " فقد كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر . " وقد ثبت في الصّحیحین عن رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ " أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا وَلَا يَفِرُّ إِذَا لاقَى " .

وثالثهنّ : " إنه أواب " ، والأواب أن يرجع المرء إلى الله تعالى في كل شؤونه وأموره . وهذا غاية التعلق بالله تعالى والالتصاق به .

ورابعهنّ : أَنَّهُ تَعَالَى سَخَّرَ الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ عِنْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ وَأَخِرَ النَّهَارِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ " يَا جِبَالِ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ " وَكَذَلِكَ كَانَتْ الطَّيْرُ تُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ وَتُرْجَعُ بِتَرْجِيعِهِ ، فَإِذَا مَرَّ بِهِ الطَّيْرُ وَهُوَ سَابِحٌ فِي الْهَوَاءِ فَسَمِعَهُ وَهُوَ يَنْزِمُ بِقِرَاءَةِ الزُّبُورِ لَا يَسْتَطِيعُ الدَّهَابُ بَلْ يَلْفَ فِي الْهَوَاءِ وَيُسَبِّحُ مَعَهُ وَتَجِيهَهُ الْجِبَالُ الشَّائِخَاتِ تُرْجَعُ مَعَهُ وَتُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ ، وهذا دليل على عظيم إيمانه وتقواه عليه السلام " إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ، والطير محشورة كلُّ له أواب " .

وخامسهنّ : أنه على ورعه وتقواه - فهو نبي - كان أقوى ملوك الدنيا في زمنه له الكثير من الجند " وشددنا مُلْكَهُ " وكانت مملكته أقوى الممالك يهابه الملوك وتخشى بأسه .

وسادسهنّ : أنه ذو فهم وعقل وفطنة وعادلٌ في حكمه - وهذا دأب الأنبياء ، فقد رباهم الله تعالى على عينه ، واصطفاهم من خيرة خلقه . " وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب " .

قصة الخصمين اللذين دخلا عليه خلوته

يروى القرآن الكريم القصة التالية :

كان داوود عليه السلام يصلي الليل وحده إذ دخل عليه مجموعة من الناس فيهما رجلان متخاصمان يشتكي أحدهما الآخر " وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب " فالخصم اسم جنس يدل على واحد واثنين وأكثر ، وكلمة تسوّروا دليل على أن جمعاً جاءوا يشهدون قضية هذين الرجلين المتخاصمين وكذلك كلمة دخلوا فالتسوّرون الداخلون كثيرون ، ... ولا ننس أسلوب التشويق " هل أتاك " إن القصة لا يعرفها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم يخبره بها ، إلا أن الاستفهام يجذب الانتباه ويشوق لمعرفة الخبر .

يفزع النبي داوود عليه السلام من فجأة دخولهم ، وهو الذي أمر أن لا يدخل عليه أحد ، والحرس يحيطون به من كل مكان ، فكيف ظهر هؤلاء فجأة ، ومن أين دخلوا فلم ينتبه إليهم أحد؟! إنه لأمر مخيف حقاً ولعل هؤلاء يريدون به الشر ، وهو وإن كان قوياً وحده في بيته يصلي بأمان ولا يحمل سلاحاً ، إنهم متحلّقون حوله ، ويرون فيه الفزع فيطمئنونه إلى أنهم يريدون أن يحكم بالحق بين رجلين منهم ، ظلم أحدهما الآخر وبغى عليه ، ولن يعترف أحد منهما بأنه باغ قبل الحكم ، فمن الذي كان يتكلم إذا؟ إن هذا دليل على أن المتكلم حتى الآن غير الخصمين " خصمان بغى بعضنا على بعض " ثم يطلب كبيرهم من داوود أن يحكم بالحق بلا زيادة ولا نقصان ، وأن يرشدهم إلى السبيل القويم ، فذكر أموراً ثلاثة ينبغي أن تكون في الحاكم وقاضيه " الحكم بالحق ، والبعد من الشطط ، وأن يدل المخطئين إلى الطريق المستقيم ، فهو داعية " .

وتقدم المتظلم فقال : إن أخاه يملك تسعاً وتسعين نعجة بينما يملك هو واحدة فقط ، ويريدها أخوه ليكمل بها المئة ، وقد شدد عليه وضايقه في الطلب ، أفليس هذا ظلماً ما بعده ظلم ، وتعدّياً كبيراً يدل على الأنانية وحبّ الذات وعدم مراعاة الآخرين؟! فأسرع داوود يحكم له إذ تعاطف معه فوراً " لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه " .

وكان الخطأ الذي وقع فيه داوود - عليه السلام - أنه لم يسأل الطرف الآخر عن صدق دعوى أخيه وسرعان ما حكم بظلم أخيه له ، وكأنه عليه - وهو القاضي العادل أن يسمع الطرف الآخر ، فقد يكون الأول كاذباً . وكان عليه أن يسمع حجته في ذلك إن كان المدعي صادقاً . لا بد من البيّنة أو الإقرار ، ولا بد من الاستقصاء إن لزم الأمر .

وينظر داوود عليه السلام حوله بعد أن نطق بالحكم متسرعاً ، فلا يرى أحداً ، لقد اختفوا فجأة كما دخلوا فجأة ، فيعلم أن من كان عنده قبل قليل ملائكة جاءت بأمر الله تعلمه كيف يكون قاضياً عادلاً ، وأنهم ما اختفوا فجأة إلا حين عدل عن الصواب في حكمه هذا ..

ويعترف بالخطأ - وهذا سمت الصالحين الذين يقرون بخطئهم ويسرعون للاستغفار ويعلنون التوبة ، ويطلبون الصفح " وظن داوود أنما فتناه ، فاستغفر ربه وخر راکعاً وأناب " .

ومن يسرع إلى الاعتراف بزلاته ويلجأ إلى ربه ويعلن توبته يقبله الله عز وجل ويسد خطاه بعد ذلك ، وهذا ما أكرم به الله تعالى عبده داوود عليه السلام ، أفلا يكون المؤمن كذلك فيقتدي بالصالحين ويسير على هدايتهم ؟.

يروى المفسرون عن الأخبار الإسرائيلية قصة غريبة تقول : إن داوود الملك - فهو ليس نبياً عندهم - رأى من نافذة قصره امرأة جميلة فأعجبته ، فأراد أن يضمها إلى نسائه ، فلما قيل له : إنها زوجة قائده " أوريا " اغتم ، وقرر أن يتخلص من هذا البطل ، فأمره أن ينطلق إلى مدينة عمّان القريبة من عاصمته القدس - وكانت حصناً متين الأسوار ، وأوصاه أن يهاجمها بجيش قليل العدد ، وأن يدق أبوابها بنفسه وأن لا يعود إلا فاتحاً أو يلقي ربه شهيداً ، فقتل أمام حصونها القوية ، فتخلص منه وتزوج امرأته ، فجاءت الملائكة تعاتبه بطريقة مهذبة ، ففهم ذلك اللوم والعتاب وأحس بخطئه فتاب ..

والقصة لا تجوز في رجل عادي فيه بقية من شهامة ، أفتصح في نبي كريم من أنبياء الله تعالى ، وقد ذكرنا قبل قليل ما مدحه به الله تعالى من صفات كريمة ؟!

إن في وسط إيطاليا وفي مدينة فلورنسا وفي حي من أحيائها الجنوبية المطل على النهر الذي يتوسط المدينة فيشطرها شطرين وفي مكان مرتفع من هذا الحي تمثال كبير يمثل النبي داوود رجلاً قويا عارياً ذا عضلات متناسقة التقاطيع ، تظهر عورته بشكل بارز يدل - حسب زعمهم - على الخصب والنماء .

وحاشا لنبي كريم من نبياء الله تعالى أن يتصرف بما لا يليق برجل عادي ، فهو الذي نذر نفسه لله وعاش مثلاً للأخلاق وحسن السيرة والعدل في القضاء ، وما جاءته الملائكة تمتحنه إلا لتعلمه كيف يقضي بالحق . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي شَرْحِ الْآيَةِ - كَمَا ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ - : إِنَّ إِرْتَفَعَ لَكَ الْخُصْمَانِ فَكَانَ لَكَ فِي أَحَدِهِمَا هَوَى ، فَلَا تَشْتِهِ فِي نَفْسِكَ الْحَقُّ لَهُ لِيَنْفُجَ عَلَى صَاحِبِهِ ، فَإِنْ فَعَلْتَ

مَحْوُوثُ إِسْمِكَ مِنْ نُبُوتِي ، ثُمَّ لَا تَكُونُ خَلِيفَتِي وَلَا أَهْلَ كِرَامَتِي . فَدَلَّ هَذَا عَلَى بَيَانِ وُجُوبِ الْحُكْمِ بِالْحَقِّ ،
وَأَلَا يَمِيلُ - الْقَاضِي - إِلَى أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ لِقَرَابَةٍ أَوْ رَجَاءِ نَفْعٍ ، أَوْ سَبَبٍ يَقْتَضِي الْمِيلَ مِنْ صُحْبَةٍ أَوْ
صَدَاقَةٍ ، أَوْ غَيْرِهِمَا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّمَا أُبْتَلِيَ سُلَيْمَانُ ابْنَ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لِأَنَّهُ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ خَصْمَانِ
فَهَوِيَ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ لِأَحَدِهِمَا .

فَلَا يَكُونُ حَكْمٌ بِهَوَى ، وَإِلَّا ضَلَّ الْحَاكِمُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَكَانَ الْعَذَابُ الشَّدِيدَ عِقَابًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا
بَدَّ مِنَ التَّحَرِّيِّ عَنِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ لِيَرْضَى اللَّهُ عَنِ الْقَاضِيِ وَالْحَاكِمِ الْعَادِلِينَ " وَمَا أَعْظَمَ أَنْ نَضَعَ هَذِهِ الْآيَةَ
الْكَرِيمَةَ نَصَبَ أَعْيُنِنَا لِنَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ثُمَّ خَافَ اللَّهُ
فَلَمْ يَظْلَمْ أَحَدًا : " يَا دَاوُودَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ "



تأملات تربوية في سورة ص (٣)

- الهبة كما يقول اللغويون : عطاء دون مقابل ، وهي - الهبة - نوع من الإكرام يحظى به الموهوب
- أ- إما مكافأة على نجاحه في اختبار كما حصل لسيدنا إبراهيم عليه السلام " فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ، وكلاً جعلنا نبياً " ومثله سيدنا داود حين وهبه الله تعالى ابنه سليمان " ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد إنه أواب "
- ب - وإما استجابة لدعاء حين وهب الله سيدنا زكريا ابنه يحيى " فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه " واستجاب دعاء سليمان حين سأله ملكاً يخصه به وحده دون البشر " قال : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي " . ودعاء المسلمين بهم " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب " .
- ج - وإما عوناً وإزرماً إذ طلب موسى عليه السلام أن يؤازره أخوه في دعوته فأجابه الله تعالى إلى طلبه " ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً " .
- د- وإما للتفضيل والاختيار ، والله يفعل ما يشاء " يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً " ومنها اختياره سبحانه عيسى عليه السلام نبياً " إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً " ففوجئت السيدة مريم بهبة ربها لها ولداً طيباً زكياً .
- هـ - وإما أن تكون الهبة تقرباً من أدنى لأعلى كما فعلت المرأة حين وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم " وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي " .
- من سعادة الأب أن يكون أبنائه صالحين بارزين تفر بهم عيناه ، وينشرح بهم فؤاده ، ومن سعادة الابن أن يرث عن والده الصالح صفاته ، وتزداد سعادته حين يرث النبوة عنه ، وهي أعلى درجات البشر عند الله تعالى " ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد ، إنه أواب " والأواب كثير الطاعة والعبادة والإنابة لله عز وجل . والأنبياء لا يورثون مالا ولا عقاراً إنما يرث السعيد عن والده تلك المكانة العليا " مقام النبوة وقد أخبرنا تعالى أَنَّهُ وَهَبَ لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ فَجَعَلَهُ نَبِيًّا كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ " وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ " فِي نَبُوَّتِهِ وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ لَهُ بَنُونَ غَيْرِهِ فَلَهُ مِنَ الزَّوْجَاتِ مِائَةٌ امْرَأَةٌ حَرَائِرٌ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى " نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ " ثناءً عَلَى

سَلِيمَانَ بِأَنَّهُ كَثِيرُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ رُوي أَنَّهُ لَمَّا وَهَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِداوُدَ سَلِيمَانَ قَالَ لَهُ يَا بُنَيَّ مَا أَحْسَنُ؟ قَالَ سَكِينَةُ اللَّهِ وَالْإِيمَانُ . قَالَ فَمَا أَقْبَحُ؟ قَالَ كَفَرُ بَعْدَ إِيمَانٍ . قَالَ فَمَا أَحْلَى؟ قَالَ رُوحَ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ . قَالَ فَمَا أَبْرَدُ؟ قَالَ عَفْوُ اللَّهِ عَنِ النَّاسِ وَعَفْوُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَنِ بَعْضٍ . قَالَ داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَنْتَ نَبِيٌّ . فالذكاء الشديد كان صفة في سليمان عليه السلام نفاذة .

وصفة ثانية كانت مدحاً لسليمان عليه السلام ، إنه مجاهد في سبيل الله تعالى يجب كل ما يعينه على القتال في سبيله وإعلاء رايته . ومن ذلك أنه يجب الخيول الأصيلة - سلاح الفرسان ، وهي القوة الضاربة في قتال العدو ، فأمر أن تعرض عليه الخيول ليستمتع بها ويطمئن إليها ، فعرضت أمامه وهو يتابعها شغوباً بها حتى غابت عنه " حتى توارت بالحجاب " فلم يبرد شوقه لها ، فأمر أن يعيدها إليه ، ثم نزل إلى ساحة العرض يتلمس الخيول ويمسح أعناقها وسوقها ، ويتحجب إليها ، والمقصود بقوله تعالى " إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي " أن حبه للخيل صادر عن أمر الله تعالى . وهذا هو المعنى الحقيقي لهذه الآية . أما الرواية الإسرائيلية فتدليس واستخفاف بعقول الناس لأسباب عدة هي :

أ- إن التأويل عادة يتبع الكلام الذي بين أيدينا ، فما التي توارت بالحجاب ؟ إنها الخيول التي غابت عن ناظره إذ مرت أمامه وهو يستعرضها حتى غابت عن عينيه ، لا الشمس التي تعسفتها التأويلات الإسرائيلية ، إذ قالوا : أنه انشغل بالخيول حتى غابت الشمس ففاته صلاة العصر .

ب - إن سليمان عليه السلام شعر أنه لم يف الخيول حقها بالاستعراض السريع ، فأمر أن يردوها إليه ليلمسها بيديه ويكرمها بالترتيب على أعناقها وسوقها ، لأنه لو جاز أن يكون الضمير في " توارت بالحجاب " عائداً على الشمس لوجب أن يكون الضمير في " ردها علي " عائداً على الشمس نفسها، أما القفز هنا وهناك للوصول إلى الشمس فلا يليق بنص رزين ، ناهيك عن كتاب الله الكريم .

ج - وهل تتصور عاقلاً كان يُعد ماله ، فانشغل به حتى ضيع صلاته ، فأحرق المال يعاقب بذلك نفسه؟! فإذا كان ما يفعله سفهاً وطيشاً فالنبي سليمان عليه السلام منزه عن قطع أعناق الخيول وسوقها لأنها - على زعم الإسرائيليات - شغلته عن الصلاة !! ما ذنب الخيول المسكينة لتذبح وتقتل ، والخطأ ليس خطأها؟!!

والصفة الثالثة كانت مدحاً له - عليه السلام - وهي الإنابة والطاعة ، إذ اختبره ربه سبحانه فأخطأ ،

فلما عرف ذلك استغفر ربه وأتاب إليه طائعاً ، فما هو الخطأ ؟

فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (قَالَ سُلَيْمَانُ لِأَطُوفِ اللَّيْلَةَ عَلَيَّ تَسْعِينَ امْرَأَةً كُلَّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ قُلْ إِنَّ شَاءَ اللَّهِ ، فَلَمْ يَقُلْ "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ ، وَابْنُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرَسَانًا أَجْمَعُونَ) فقد كانت رغبته جامحة في أن يكون له أبناء رجال يجاهدون في سبيل الله ، فلما نسي مشيئة الله تعالى لم تستجب دعوته ، ولم تحمل منه نساؤه إلا واحدة جاءت به (سقط) ووضعت على كرسيه تريبه إياه . فما من أمر إلا بيد الله سبحانه " ولا تقولن لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت " وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أسئلة فوعد أن يجيب عنها في الغد ، ولم يقل : (إن شاء الله) فلم يأتته جبريل أياماً عدة. وكذلك قال موسى عليه السلام لفتاه " لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً " ولم يقل إن شاء الله فنسيا حوتهما . ، وعودة إلى تأملاتي التي كتبتها تحت عنوان (تأملات تربوية في قصة موسى والخضر) توضح الفكرة بإسهاب .

أما ما روته الأساطير الإسرائيلية في شرح قوله تعالى " ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً ، ثم أناب " فدليل على الخرافات التي ملأت عقيدة اليهود وعقولهم ، فماذا تروي أساطيرهم ؟ !
الأساطير في ذلك كثيرة ، نذكر منها واحدة :

كَانَ سُلَيْمَانٌ قَدْ وَضَعَ خَاتَمَهُ تَحْتَ فِرَاشِهِ ، فَأَخَذَهُ الشَّيْطَانُ مِنْ تَحْتِهِ . وَقِيلَ : أَخَذَهُ الشَّيْطَانُ مِنْ يَدِ سُلَيْمَانَ ؛ لِأَنَّ سُلَيْمَانَ سَأَلَ الشَّيْطَانَ ، وَاسْمَهُ صَخْرٌ : كَيْفَ تُضِلُّونَ النَّاسَ ؟ فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ : أَعْطَيْتَنِي خَاتَمَكَ حَتَّى أُخْبِرَكَ . فَأَعْطَاهُ خَاتَمَهُ ، فَلَمَّا أَخَذَ الشَّيْطَانُ الْخَاتَمَ جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ ، مَتَشَبِّهًا بِصُورَتِهِ ، دَاخِلًا عَلَى نِسَائِهِ ، يَأْتِيهِنَّ فِي حَيْضِهِنَّ . يَقْضِي بَعْضُهُنَّ الْحَقَّ ، وَيَأْمُرُ بَعْضَهُنَّ بِالصَّوَابِ ، وَزَالَ عَنِ سُلَيْمَانَ مُلْكُهُ فَخَرَجَ هَارِبًا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ يَتَضَيَّفُ النَّاسَ ؛ وَيَحْمِلُ سُمُوكَ الصَّيَادِينَ بِالْأَجْرِ ، وَإِذَا أَخْبَرَ النَّاسَ أَنَّهُ سُلَيْمَانٌ كَذَّبُوهُ . ثُمَّ إِنَّ سُلَيْمَانَ بَعْدَ أَنْ اسْتَنَّكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حُكْمَ الشَّيْطَانِ صَادَ سَمَكَةً فَلَمَّا شَقَّ بَطْنَهَا وَجَدَ خَاتَمَهُ فِيهَا ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ زَوَالِ مُلْكِهِ ، وَجَدَ الْخَاتَمَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ الَّذِي أَخَذَهُ أَلْقَاهُ فِي الْبَحْرِ ، فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ شَيْطَانًا أَقْلًا مِنْهُ أَوْ مِثْلَهُ . وَكَانَ مُلْكُ

سليمان في خاتمته . ولما رد الله على سليمان ملكه أقبَلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح ، وهرب الشيطان، فأتى جزيرة في البحر ، فبعث إليه الشياطين فقالوا : لا نقدر عليك ، ولكنه يرد عيناً في الجزيرة في كل سبعة أيام يوماً ، ولا نقدر عليك حتى يسكر ! قال : فنزع سليمان ماءها وجعل فيها خمراً ، فحاء يوم وُروده ، فإذا هو بالخمير ، فقال : والله إنك لشراب طيب إلا أنك تُطيشين الحليم ، وتزيدن الجاهل جهلاً . ثم عطش عطشاً شديداً ، فأتاه فقال مثل قائلته ، ثم شربها فغلبت على عقله ؛ فأزوه خاتم الاستدعاء فقال : سمعاً وطاعة . فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل ، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا : إن الدخان الذي ترون من نفسه ، والماء الذي يخرج من الجبل من بؤله . وأما قصة الجسد فإنه ولد سليمان الذي كرهته الشياطين ؛ وقال بعضهم لبعض : إن عاش له ابن لم ننفك نحن من السخرة والذل ، فتعالوا نقتل ولده أو نحبله . فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب ، وغداً ابنه في السحاب خوفاً من مصرة الشياطين ، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع ولده على كرسيه ميتاً . فهو الجسد الذي قال الله تعالى : " والقينا على كرسيه جسداً "

ولا يخفى على المسلم هذه الخرافات العجيبة في عقيدة اليهود ، فسليمان عليه السلام يأمن للشيطان ، فيعطيه خاتمته ، وهو ملك وليس نبياً ! وملكه في خاتمته ، ولا حرمة للنبي حين يزي الشيطان بنسائه ويأتيهن كذلك في حيضهن ، ويهرب سليمان من الناس الذين أنكروه هائماً على وجهه ، ثم يرى خاتمته في بطن سمكة يصطادها! وحين يضع خاتمته في إصبعه يعرفه الناس والطير والجن!! وانظر إلى الطريقة التي استجر بها الشيطان مع أن سليمان يقتل الجني أو الشيطان كما جاء في الأثر بقوله بسم الله الرحمن الرحيم ويشير إلى الشيطان ، فيموت ، كما أن دخان الجبل من زفير الشيطان المحبوس وماء الجبل بوله!! .. إنها قصة من قصص ألف ليلة وليلة ليس فيها من الصدق قيد أنملة .. فالحمد لله على نعمة الدين الصحيح (الإسلام) .

ومن المضحك المبكي : أنني كنت أحاضر في أحد مساجد عمان في تأملات تربوية في قصة النبيين الكريمين داوود وابنه سليمان عليهما السلام رمضان ١٤٢٨ للهجرة ، وتطرق للروايات الإسرائيلية الخرافية ووجوب النأي عنها وتحري الروايات الصحيحة . ففوجئت بعد يومين بإمام المسجد

يخبرني بأن إدارة الأوقاف تطلب مني التوقف عن الخواطر والدروس بحجة أنني أتحدث في السياسة التي
تخالف التوجه العام للسلام في أيامنا هذه !!!



تأملات تربوية في سورة ص (٤)

١- لا بد من الثواب والعقاب لأسباب منطقية ، منها :

أ- أن يأخذ العدل مجراه ، فيعاقب المقصر والمهمل ، ويثاب المجد والملتزم .

ب- أن لا يتساوى المتضادان في المعاملة فيُصاب الإيجابي بالإحباط ، ويزداد السلبي تقاعساً .

ت- أن يتأثر المحسن بالثواب فيزداد في الإحسان ، ويرتدع المسيء عن إساءته .

ولهذا جاءت القاعدة الإلهية " أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كالمفسدين في الأرض ، أم

نجعل المتقين كالفجار " توضح وجوب الثواب لمن أحسن ، والعقاب لمن أساء .

٢- خلق الله تعالى الإنسان ذا عقل وفؤاد ليتحمل المسؤولية المناطة به " إنا هديناه السبيل ، إما

شاكراً وإما كفوراً " ولم يُترك الإنسان ليصل بنفسه إلى الحق - فهو ضعيف - فأرسل الله الرسل وأنزل

معهم الكتب الهادية ليكون الطريق إلى الله تعالى بيئاً لا لبس فيه . وهنا يأتي دور التفكير والتدبر واتخاذ

القرار ، فلم يعد عذر لمعتذر ، ولا حجة لمقصر : " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته ، وليتذكر

أولو الألباب " فلئن حوسب الإنسان - إذا استبان الطريق ، ووضّح السبيل - بعد هذا فلا يلومن إلا

نفسه " من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها " .

٣- لو دخل أحدنا إلى بناء شامخ كبير ، فيه نظام دقيق يدل على حكمة وحكمة وحسن

تقدير ، وفيه ترتيب رائع لكل ما يحتاجه الداخل من أدق الأمور وأصغرهما إلى أعظمها وأكبرها فلا

شك أنه لن يتساءل عن سبب هذا ، فالبداهة تعرف أن من أنشأ هذا المكان وصرف عليه المال

الكثير ، واعتنى بمدخله ومخارجه ، وحاول تأمين رغبات الناس يسعى من وراء ذلك إلى كسب ثقة

الزبائن وتحقيق الربح الوفير . والله المثل الأعلى حين نعرف أنه سبحانه خلق السماوات والأرض فأحسن

كل شيء خلقه ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم وهياً له كل وسائل الحياة ، ثم بين له سبب خلقه

والحكمة من خلقه " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " وهداه السبيل ، ثم ترك له الخيار في الإيمان

والكفر ، ومن كان له عقل ولب تحمّل مسؤولية تصرفه ، وخاض الامتحان لينجح أو يرسب . لكنّ

رحمة الله في امتحانه للبشر أنه وضع الأجوبة إزاء أسئلتها - على خلاف اختبارات الدنيا - فما على

الإنسان إلا أن يلتزم الأجوبة المقررة الواضحة ، فإن لم يفعل فقد ظلم نفسه وكان رسوبه نهائياً وجزاؤه

عسيراً " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار "

٤- ألم يقل الله تعالى محذراً من الشيطان وأحاييله " إن الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزيه ليكونوا من أصحاب السعير؟ " فما على العاقل إلا أن يجذر هذا العدو الأزلي الذي عصى الله تعالى، وآلى على نفسه أن يُغوي البشرية كلها ليكونوا معه في النار، فأقسم بالله ليسلكن كل سهل وصعب ليفسد الناس ، ولن ينجو من حبائله سوى اللاتذ بالله المتمسك بشرعه القويم . وتعال معي أخي الكريم نقرأ هذا الحوار بين رب العالمين الذي خلق الإنسان فأكرمه حين أمر الملائكة ومن كان معهم بالسجود لآدم عليه السلام ولذريته من بعده ، واستكبر إبليس أن يسجد فكان ملعوناً .. إنه حوار يدل على مكانة الإنسان المسلم في ميزان الله "

إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين

فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين

فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين

قال: يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ أستكبرت أم كنت من العالين؟

قال : أنا خير منه خلقتني من نار ، وخلقته من طين .

قال: فاحرج منها ، فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين

قال : ربّ ؛ فأنظرني إلى يوم يُبعثون

قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم

قال : فبعزتك ؛ لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين "

قال : فالحقُّ ، والحقُّ أقول : لأملأنّ جهنّم منك وممن تبعك منهم جمعين "

فمن أسلم قياده للشيطان أدخله النار معه . إن العاقل من اتعظ، وعرف عدوه فنأى عنه ، ولن

ينفعه الندم حين يقع في مصيدة الشيطان ويموت على ذلك .. إن الشيطان نفسه سيخبره - في جهنم

حين يُلقى معه - أنه كان يكذب عليه ليكون من الهالكين أصحاب السعير " وقال الشيطان لما قُضي

الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم ، فأخلفتكم .

وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم ، فاستجبتم لي ،
فلا تلوموني ، ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرحكم ، وما انتم بمصرحي ،
إني كفرت بما أشركتموني من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم . "

٥- التوسط في الأمور ، وعدم التكلف سمة المسلم ، هذا حبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول: (لِلْمُتَكَلِّفِ ثَلَاثَ عِلَامَاتٍ : ١- يُنَازِعُ مَنْ فَوْقَهُ ، ٢- وَيَتَعَاطَى مَا لَا يَنَالُ ٣- وَيَقُولُ مَا لَا يَعْلَمُ) . وَرَوَى الدَّارِقُطَنِيُّ مِنْ حَدِيثِ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَسَارَ لَيْلًا فَمَرُوا عَلَى رَجُلٍ جَالِسٍ عِنْدَ مَقْرَآةٍ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمرُ : يَا صَاحِبَ الْمَقْرَآةِ أَوْلَعْتَ السَّبَاعُ اللَّيْلَةَ فِي مَقْرَاتِكَ ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (يَا صَاحِبَ الْمَقْرَآةِ لَا تُخْبِرُهُ ، هَذَا مُتَكَلِّفٌ ، لَهَا مَا حَمَلَتْ فِي بُطُونِهَا ، وَلَنَا مَا بَقِيَ شَرَابٌ وَطَهُورٌ) . وَفِي الْمَوْطِئِ عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبٍ : أَنَّ عُمرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ فِي رَكْبٍ فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ حَتَّى وَرَدُوا حَوْضًا ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ هَلْ تَرِدُ حَوْضَكَ السَّبَاعُ ؟ فَقَالَ عُمرُ : يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ لَا تُخْبِرْنَا فَإِنَّا نَرُدُّ عَلَى السَّبَاعِ وَتَرِدُ عَلَيْنَا ، فَكَانَ عَمْرُو تَلْمِيزًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُجِيًّا . (المقرة : حوض فيه ماء) .

وعلى هذا تأتي القاعد البسيطة المريحة " وما أنا من المتكلفين " . والقاعدة القرآنية في عدم التكلف مشهورة . يقول الله تعالى " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. "

٦ الإخاء في الله وحده الذي يدوم . وما عداه زائل . بل ينتقل عداوةً شديدة في الدنيا قبل الآخرة . ألم يقل الله تعالى " الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ؟ " فتعال معي إلى هذه المحاورة بين من كانوا يداً واحدة في الدنيا تقتل وتبطش ، فلما تداركوا في النار كانت الخصومة بينهم على أشدها ، لننظر إليهم في النار وهم يتخاصمون وتعلو أصواتهم :

" هذا فوج مقتحم معكم . لا مرحباً بهم ، إنهم صالوا النار " فيسمع هذا القول من جاء ، فيتحفر للجواب القوي المناهض يردون عليهم موبخينهم ، فالأولون سبب دخول من بعدهم النار " قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم ، أنتم قدّمتموه لنا ، فبئس القرار " ويشدد خصامهم ، فلا يبقى لهم إلا أن يدعوا بعضهم على بعض " قالوا ربنا ، من قدّم لنا هذا فردّه عذاباً ضعفاً في النار " أما أهل الجنة من إخوان الإيمان

والتقوى فهم " على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزَفون ... " جعلنا الله من أهل الجنة الفردوسِ الأعلى .

٧- وأخيراً نجد في هذه السورة المباركة تكراراً لاسم الإشارة " هذا " مع اختلاف القصد والمعنى . وهذا التكرار نوع من جذب الانتباه وتثبيت المعنى في الذهن والقلب ليتمثل القارئ الأفكار ، ويعرف أي صنف ينبغي أن يكونه :

" هذا ذكر . وإن للمتقين لحسن مآب " هذا الذي قصصناه عليك يا رسول الله ...

" هذا ما توعدون ليوم الحساب " هذا جزاؤكم الذي وُعدتم به في الدنيا تلقونه الآن .

" إن هذا لرزقنا ما له من نفاذ " هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة ، لا ينفد .

" هذا وإن للطاغين لشرّ مآب " هذا بمعنى أما بعد ، فقد انتهى حديثنا بها عن أهل الجنة .

" هذا فليذوقوه ، حميم وغساق " هذا هو العذاب ، فليذوقوه .

" هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم " هذا جمع كثيف أدخل النار لا مرحباً به .

وعودة إلى كتابي (من أساليب التربية في القرآن الكريم) يوضح للدارس اثني عشر هدفاً للتكرار بصيغ مختلفة .

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبله منا ، إنه سبحانه خير مسؤول .

اقول مستعيناً بالله :

ياربنا

سعادة وخصنا	هيى لنا من امرنا
في الأفق من تقصيرنا	بالفضل منك إن بدا
وأنت يا سيدنا	زلُّ ، فنحن الضعفا
رضاك مفتاح الهنا	بر رحيم غافر
هذي الحياة عمنا	وبرك الفائض في

تأملات تربوية في سورة الزخرف (١)

- سورة الزخرف في الجزء الخامس والعشرين ، وترتيبها في القرآن الثالثة والأربعون . آياتها تسع وثمانون ، قبلها (الشورى) وبعدها (الدخان) . واكتسبت اسمها الذي خصها الله تعالى به منذ الأزل من الآية الخامسة والثلاثين المتابعة لمعنى الآيتين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين في قوله تعالى " ولولا أن يكون الناس أمة واحدة وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا "

- أورد القرطبي في معنى الزخرف : " الذهب " (وَزُخْرُفًا " أَي وَذَهَبًا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ . ثُمَّ بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ ، فَعَجَّلَ بِجَسَنَاتِ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ وَمَلْبَسٍ لِيُؤَفِّقُوا الْآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَسَنَةٌ يَجْزِيهِمْ بِهَا كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ " لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَقَى مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ " وَفِي رِوَايَةِ الطَّبْرَانِيِّ يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَوْ عَدَلَتْ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا أُعْطِيَ كَافِرًا مِنْهَا شَيْئًا " وَأَكَّدَ ذَلِكَ سُبْحَانَهُ حِينَ قَالَ : " وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " ثُمَّ صَرَّحَ سُبْحَانَهُ أَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ الْعَظِيمِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْأَتْقِيَاءِ فَقَطْ ، فَقَالَ : " وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ " فَالثَّوَابُ لَهُمْ خَاصَّةٌ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ . وَلِهَذَا نَفَهُمُ قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ صَعِدَ إِلَيْهِ فِي الْمُشْرَبَةِ لَمَّا آلَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نِسَائِهِ فَرَأَهُ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ بِجَنْبِهِ فَاثْتَدَرَتْ عَيْنَاهُ بِالْبُكَاءِ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كِسْرَى وَقَيْصَرٌ فِيمَا هُمَا فِيهِ - مِنَ النِّعَمِ - وَأَنْتَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِنًا فَحَلَسَ وَقَالَ " أَوْ فِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ " ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ الدُّنْيَا " وَفِي رِوَايَةٍ " أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ ؟ " وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا وَغَيْرُهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ " وَإِنَّمَا حَوَّلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا لِحِقَارَتِهَا .

والأساليب التربوية في هذه السورة المباركة كثيرة ورائعة نقف على ثمانية منها

في هذا المقال الأول مستعينين بالله سبحانه ، فنقول :

- الأسلوب التربويّ الأول : جذب الانتباه كي لا يضيع شيء مما يقال ، فلا نبدأ بالحديث قبل أن ينتبه الحاضرون فلا تفوتهم فكرة ولا جملة ، وأساليب التنبيه كثيرة كما مرّ معنا في التأمّلات السابقة ، نذكر منها السؤال الذي لا يحتاج جواباً ، وتثبيت النظرات في وجوه السامعين مع التحية والسلام ، الجمل المفتاحية التي اعتاد الآخرون سماعها في بدء الحديث ، ،،، وهنا نجد الآية الأولى التي حملت حرفين تكررًا " حم " في سور سميناها " الحواميم " كما يجتمع في " حم " أسلوب آخر هو التعظيم ، لما ورد أنّها من أسماء الله الحسنى قالها بعض المفسرين .

- الأسلوب التربويّ الثاني : القسم ، ونجد القسم في القرآن الكريم عشرات المرات ، ووظيفته التأكيد ودفع الشكّ والريبة . ويؤيّد القسم أكله حين يصدر عن عظيم لا شك في صدق قوله وصواب حديثه " والكتاب المبين " والله سبحانه أن يحلف بما شاء فهو خالق الأشياء ومبدعها ، وهنا يحلف الله تعالى بالقرآن الكريم كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل ، المنزل على رسوله الكريم بالوحي الصادق المتعبّد به ، الذي عرفنا بالله تعالى فآمنّا به وأقرنا بربوبيته وألوهيته فرضينا به رباً . وللعبد أن يقسم فقط بالله الخالق سبحانه لقول النبي صلى الله عليه وسلم " من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت " فلا يُحلف إلا بالعظيم لتأكيد الصدق أولاً وليخاف الإنسان من الكذب حين يقسم بمن يعلم السرّ وأخفى ، فيتجنب الكذب . أما كثرة الحلفان بسبب وغير سبب فدليل النفاق والادّعاء الكاذب . وأما الحلف بغير الله كالشرف والمروءة والغوالي وما شابه ذلك من أمور تخالف الشرع فلا قيمة لها عند المسلم الحق .

- الأسلوب التربويّ الثالث : أن تخاطب الآخرين بلغة يفهمونها وكلام مناسب لأفهامهم . فمهمة الحديث الإعلام والإفهام وتقريب المراد والوصول إلى الإيمان به وتصديقه ثم العمل له والدعوة إليه . ولن يكون هذا إلا بمراعاة مقتضى الحال ، وهذه حقيقة البلاغة . وتقول الحكمة " خاطبوا الناس بما يفهمون " ، ولكل سنّ أسلوب خطاب ، ولكل مستوى أسلوب حديث ، فلا يُبسّط الحديث ولا يُكرّر مع الذكي فيمِلّ ، ولا يُجترأ مع البسيط فيُغلق عليه . والداعية الناجح من عرف كيف يخاطب الناس جميعاً فيجذبهم ويتفاعلون معه . يقول تعالى " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه " لماذا أرسل النبي بلسان قومه؟ " ليبيّن لهم " .

- الأسلوب التربوي الرابع : التعظيم والتوقير هذا ما وجدناه قبل قليل في الأسلوب الأول حين أشرنا إلى عظمة الحرفين " حم " ونجد التعظيم كذلك في قوله تعالى " " وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم " فقدم القرآن الكريم للسامع بطريقة فيها هيبة وتعظيم وتوقير ، فهو مثبت في اللوح المحفوظ عند رب العالمين ، فلا يتطرق إليه الفساد والبطلان والتحريف والضياع ، ولا التغيير والتبديل ولا الاختلاف والتناقض ، وقد وصفه بالعلوّ والحكمة ، كيف لا وهو عند الله تعالى في أم الكتاب؟! . وبهذا التعبير الواضح البين يقدمه للبشر قاطبة معظماً مكرماً .

- الأسلوب التربوي الخامس : المتابعة وعدم اليأس . إن من يؤمن بهدف كريم مفيد يعمل على إيصاله للناس ليستفيدوا منه ، فكيف لا يبذل جهده في ذلك وقد كُلف به ؟ والذي كلفه به رب العزة سبحانه ؟ هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى نجد من يزهد في أمرٍ مهمٍّ لجهله به ، فيضيعه عليه . وعلى المسلم الداعية أن يعمل جاهداً لتعريف هؤلاء الزاهدين بخطأ انصرافهم عن الخير وتضييعهم إياه، وهناك ناحية ثالثة لا بد من توضيحها ، فالداعية حريص على الناس يريد لهم أن يعرفوا الحق فيلتزموه في الدنيا لينجوا في الآخرة من عذاب أليم . وليبين لهم أنه " أنذر فأعذر " فلا يعتذرون حين تقع الواقعة أنه لم يأتهم نذير ، ولم ينصحهم ناصح ، ولم يدلهم على الخير محب شفوق . كما أنه - أخيراً - لا ينبغي لأحد أن يئس من الدعوة إلى الحق ولو كان المدعوّ مجافياً مجانباً لا يهتم ولا يكثرث " أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين؟ " .

- الأسلوب التربوي السادس : التحذير من الخطأ . يقول تعالى " وكم أرسلنا من نبي في الأولين " هذه كم الخبرة التي توضح تتابع المصلحين يحذرون وينبهون ويدعون البشرية للصواب وإلى النهج الحق . فلما استهزأ الكافر المدعوّ وأبى الإجابة وقع في المحذور وندم حيث لا ينفع الندم . " فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً " ولعلّ القويّ المغرور بقوته وماله يظن الحال المؤقتة - التي هو فيها من عز وغنى - دائمة فيبتر ويتكبر على الحق ويشتط في الضلال ، فيئبّه إلى أن من سبقه كان أعتى منه وأشدّ ، فانتهى إلى خزي وعار ، فلا يقعنّ فيما وقع فيه سابقوه ، والعاقل من اتعظ بغيره ، والغبي من اتعظ بنفسه ، فسقط في الهاوية على أمه فلا نجاة .

- الأسلوب التربوي السابع : الحوار الهادف . ويكون الحوار هادفاً حين يبدأ من المسلمات

، ويتدرّج إلى غيرها ، فالكفار يعرفون أن الله تعالى خالق السموات والأرض وهو الذي ملأهما بالخير الذي يعيشه الناس وأن الله تعالى خلق في الأرض من كل شيء زوجين للتكاثر وخلق ما يستعمله الناس وما سخره الله لهم وهم يقرون بذلك ، فينتقل الحوار إلى وجوب شكر المنعم وحده وعدم ظلم الله في وحدانيته وفي عبادتهم إياه ونرى هذا جلياً في الآية التاسعة إلى الآية الرابعة عشرة ، وفي آيات بعدها متفرقة إلى آخر السورة لا تخفى على النبيه .

- الأسلوب التربوي الثامن : الذي يؤكد القرآن فيه وهو يحاورهم على التفكير المنطقي

الذي يقود صاحبه العاقل إلى الحق فيلتزمه ، مثال ذلك أن من بيده الأمر لا يرضى لنفسه الدونية ولا يترك لعباده الاستئثار بما يريدون فالكافر يجعل الملائكة إناثاً ويفتتتها بنات الله ، ويطلب في الوقت نفسه الذكور ويكره الإناث ، فإذا كان الإنسان يكره الإناث ويطلب الذكور - وهو العبد الضعيف - فلماذا يرضى الله لنفسه الإناث التي يمتتها العبد الضعيف؟ ولماذا يعبد الإنسان الملائكة وهم في ظنه إناث وهو يكره الإناث؟ بل إن الله تعالى يؤكد أن الملائكة عباد الله ليسوا من جنس البشر ولا يتوالدون كتوالدهم ، وهم خلق آخر لا علاقة لهم بكل أوهام البشر وتهميؤاتهم . وهذا ما نجد بعضه في الآيات الخامسة عشرة إلى الآية العشرين ، وقد يشوب الحوار تهديد كما في قوله تعالى في عبادة الملائكة وتأنيتهم " سئكتب شهداتهم ويسألون " " ما لهم بذلك من علم إنهم إلا يخضون " . وفي نقاش الكافرين فيما يعبدون لأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون دون التدبر والتفكير فيما يعبدون حتى نهاية الآية الخامسة والعشرين .. إن التفكير المنطقي يقود إلى فهم الحقيقة ومن ثم يقود إلى الإيمان الصحيح بالحقيقة الثابتة



تأملات تربوية في سورة الزخرف (٢)

١- الأسلوب التربوي الأول : العدل قوام الحياة ، فلا ينبغي أن يكون للمحبة أثر في العطاء – وإن كان هذا دأب الناس لأنهم عاطفيون – فللناس حقوق لا يصح أن نمنعها عنهم لكرهنا لهم ، أو أن نزيد في عطائهم على حساب غيرهم لحبنا إياهم ، فهذا ضد العدل الذي أمرنا المولى سبحانه أن نسير على هديه ، فقد قال تعالى في الآية الثامنة من سورة المائدة أمرًا بالعدل " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون " فالعدل أساس الحياة ، وبه تقوم الممالك وتستقيم أمور الدنيا ، وبالعدل نمتلك قلوب العباد ونواصيهم ، والأكبر من ذلك أننا نرضي المليك سبحانه . ومن أساسيات العدل أن الكافر إنسان فيه نوازع من الخير ينبغي أن يُثاب عليها في الدنيا ، فما له في الآخرة من نصيب ، وعلى هذا نجد غير المسلمين – في الغالب – أكثر أموالاً ، يعيشون في بجموحة ويسر جزاء هذا الخير الذي يعملونه ، ويخبرنا المولى سبحانه أنه لولا أن يُفتن الناس فيما بين أيدي الكفار – في الدنيا – من وسائل العيش المتقدمة والرخاء الذي يرفلون فيه لأعطاهم أكثر وجعل بيوتهم قمة في الترف والهناء الزائل بعد حين " وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِيُؤْتِيَهُمْ آبُوتًا وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُتَّكِنُونَ (٣٤) وَزُخْرَفًا ۗ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) " يقول القرطبي رحمه الله تعالى : ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حَقَارَةَ الدُّنْيَا وَقَلَّةَ خَطَرِهَا ، وَأَنَّهَا عِنْدَهُ مِنْ الْهُوَانِ بِحَيْثُ كَانَ يَجْعَلُ بُيُوتَ الْكُفْرَةِ وَدَرَجَاتِهَا ذَهَبًا وَفِضَّةً لَوْلَا غَلَبَةُ حُبِّ الدُّنْيَا عَلَى الْقُلُوبِ ؛ فَيَحْمَلُ ذَلِكَ عَلَى الْكُفْرِ . وَقَالَ الْحَسَنُ : الْمَعْنَى لَوْلَا أَنْ يَكْفُرَ النَّاسُ جَمِيعًا بِسَبَبِ مِيلِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا وَتَرْكِهِمُ الْآخِرَةَ لِأَعْطَيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا مَا وَصَفْنَاهُ ؛ لِهَوَانِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

٢- الأسلوب التربوي الثاني : درء المفاتن والمفاسد في المقابل نجد رحمة المولى تعالى في تثبيت قلوب المؤمنين الذين يرون الكفار يمتلكون وسائل الرفاهية في الدنيا – وهم كفار – فلا يمد للكافرين ما كان يودّ زيادتهم فيه خشية أن يفتن المسلم ما يراه عندهم ، فيظن أنهم على حق ، فيتفنن شيطانه في

غوايته ويزين له الكفر والعصيان ، والدنيا - كما نعلم - مرحلة الاختبار والفتنة ، وموطن الامتحان فلا بد أن يمتحن الإنسان بما يناسب قدرته في التحمل . إذ يضعف حين يُحْمَل ما لا طاقة له به . فيُعْطَى الكافر نصيبه في الدنيا - كما ذكرنا آنفاً - بما يناسب صبر المسلم على لأواء الحياة وشدتها . ولن ينجح أحد في امتحان أكبر من إمكاناته .

٣- الأسلوب التربوي الثالث : الرجل المناسب في المكان المناسب . كبير مكة : الوليد ابن

المغيرة ، وكبير الطائف : عروة بن مسعود الثقفي كانا ثريين يقصدهما الناس لغناهما ومكانتهما في قومهما ، ويظن الناس أن كثرة المال تكريم لصاحبه ، وقتله إهانة له ، ونسوا أن العطاء قد يكون محنة ، وقد يكون منحة وقد صوّر القرآن مفهوم الناس هذا في معرض التصويب حين قال في سورة الفجر " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمَن، وأما إذا ما ابتلاه ، فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانَن، كلاً " . فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن ذا مال اعترضوا " وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) " يقصدون الرجلين الوليد وعروة . وغاب عنهم أن الرزق أنواع ، فقد يكون مالاً وقد يكون فهماً أو جمالاً في الصورة أو الأخلاق أو كليهما أو في كل ما ذكرناها . ورحم الله الشاعر حافظ إبراهيم إذ تنبه لهذا الأمر فقال :

فالناس هذا حظه مال وذا علم وذاك مكارم الأخلاق

وقد ربى الله تعالى نبيه الكريم على الشمائل الحميدة وجعله كاملاً المظهر والمخبر أهلاً لحمل الرسالة العظيمة . وما لأحد أن يفرض ما يريد ، فله سبحانه الأمر كله يصطفي من يشاء من عباده لما يريد من الكرامة وحمل الأمانة " أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۗ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) " . وما على العباد إلا أن يقولوا " سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " .

٤- الأسلوب التربوي الرابع : الاستكبار يمنع اتباع الحق : وقرأ معي هذا الحوار القصير الذي

يدل على العناد والاستكبار عن الحق والتمادي في الضلال الذي يقود إلى الهلاك : " بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ (٢٣) قَالَ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا

وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)"

فهم يناون عن الإيمان لما جاءهم حين يأتون اتباع الحق ومخالفة كفر الآباء ، ويدعون أنهم
" مهتدون " و بهم " مقتدون " . والمترف - في كل زمان - يقود من دونه إلى الكفر والضلال
وسوء الخاتمة ، " وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا
هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) سورة " المؤمنون " فَلَوْلَا كَانَ مِنَ
الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، واتبع الذين ظلموا
ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ١١٦ " سورة هود " وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) " سور سبأ

" إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) سورة الواقعة " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا
فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) "

إن الترف مفسدة أي مفسدة ، والغنى - إلا من رحم ربيك - قد يقود إلى الطغيان والجبروت ،
ألم يقل الله تعالى مقررًا هذه السمة " إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى " سورة العلق .

فهؤلاء المترفون لا يرومون البعد عن ضلال آبائهم ، فإذا ما نبههم الرسول الكريم إلى أن آباءهم
كانوا على ضلال وأنه يدعوهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ردوا بصلف واستعلاء : إنهم سادرون في
غيهم ولن يبرحوا ما كان عليه آباؤهم . فكان في تدميرهم هلاكهم . وهذا مصير مل متكبر عنيد .

٥-الأسلوب التربوي الخامس يداك أوتكتا وفوك نفخ : من سار على درب تحمّل تبعته ، ومن
طلب الهدى أعين عليه ومن أراد الغواية سهّلت له . هذه قاعدة قرآنية نجدها في قوله تعالى " وَمَنْ
يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) " ويعضدها قوله تعالى في سورة الإسراء "
مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا
(١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا تُمَدُّ هُؤْلَاءُ
وهؤلاء مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۖ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) " فمن طلب الدنيا أعطي منها بما يقدره
الله تعالى ، ومن طلب الآخرة وعمل لها أدركها ، والله يمد الطرفين بما يطلبان . ومن يتعاطل ويتعافل

وَيُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ يُوَكَّلُ إِلَى شَيْطَانٍ رَجِيمٍ يَقُودُهُ إِلَى هَلَاكِهِ ، وَيَسْتَمِرُّ مَعَهُ إِلَى النَّارِ ، فَهُوَ قَرِينُهُ فِي الدَّارَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ " وَكَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ " وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ " . فَإِذَا مَا سَقَطَ فِي الْهَاطِيَةِ تَنَبَّهَ حَيْثُ لَا يَفِيدُ التَّنَبُّهُ ، وَنَدِمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ " حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) " إِنَّهُ رَضِيَ بِصَحْبَةِ الشَّيْطَانِ وَسَارَ عَلَىٰ رَأْيِهِ فَاسْتَحَقَّ صَحْبَتَهُ فِي النَّارِ شَاءَ أَمِ أَبِي . فَبِئْسَ الْقَرِينُ .

٦- **الأسلوب التربوي السادس : القرآن شرف المؤمن :** أراد الله تعالى أن يعلي من شأن المؤمن فكان القرآن أداة الشرف والسؤدد والكرامة ، ألم يقل الله تعالى " لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ، أفلا تعقلون ؟ " الأنبياء (١٠) والذكر علوٌ في المكانة وسموٌ فيها ، فمن عمل بما فيه فقد استوى مسلماً رضيعاً ، وكان سيد الأمم . كانت العرب قبائل متفرقة متناحرة فجمعها الله بالقرآن وأعزها به فسادت الدنيا ، فلما تركته ذلت وتناولتها الأمم تمزيقاً وتقسيماً . ومن عجيب التعبير ذلك القسم الرائع في سورة (ص) إذ يقسم الله تعالى بالقرآن الذي يرفع قدر صاحبه " ص ، والقرآن ذي الذكر " وهنا - في سورة الزخرف - يؤكد القرآن القاعدة نفسها حين أنزله بلسان العرب " إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) " ثم أعلن أن هذا القرآن يرفع ذكر من عمل به ودعا إليه ، ولسوف يحاسب الناس عما فعلوه في خدمة هذا الكتاب الكريم . وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۗ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)

إن العاقل من يسعى للشرف والمكانة السامية ، وهذا القرآن يقدمها له على طبق من نور فيسرع إليه وليتخذها نبراساً .

٧- **الأسلوب التربوي السابع : وجوب التفكير والتدبر :** الفرق بين الإنسان والحيوان أن للأول عقلاً ولثاني غريزة ، وأن الحر يفهم ويتدبر ، والعبد يسبر وراء كل ناعق . هذا سيدنا موسى يدعو قومه إلى توحيد الله سبحانه ، ويعلن أنه رسول الله إليهم ، فيؤمن به القلة ، ويسخر منه الهالك ذو الهوى ، فيأتيهم بالأدلة والبراهين ، فيزدادون بعداً وسفاهة ، فيأخذهم الله بشيء من العذاب - القمّل والضفادع والدم - لعلهم يراعون ، فيراوغون ويسوفون ، ويسمونهم بالسحر والشعوذة ويتعالى فرعون مدعياً الألوهية ، ويطالبه بحقير من الأدلة على رسالته "

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)، " والبراهين الدامغة تترى من حوله دون أن يعقل، أو يفهم الغاؤون حوله ، لقد أسلموه قيادهم فاستحكم فيهم، واستعلى عليهم ، ولو أنهم تدبروا الآيات والبراهين التي يعيشونها - ليل ونهار وشمس وقمر وماء وشجر وحياة وموت- لوصلوا إلى الحق الأبلج . ولكنهم استجابوا لكبيرهم فرعون وخافوا سلطانه وهيمنته فأطاعوه ، وسكنوا إليه . وتخلوا عن الهداية وغاصوا في لجج الفساد والهوى " فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) " وما يطغى طاغية إلا بذل أتباعه وتخليهم عن آدميتهم ، وانغماسهم في الفساد والرذائل . فكانوا معه في وهدة الباطل وحمأة الجهالة . لن ترى أمة قوية إلا إذا قالت للظالم يا ظالم ، وكان أفرادها بعضهم عوناً لبعض في السير على النهج القويم .



تأملات تربوية في سورة الحجرات

يا أيها الذين آمنوا: لماذا ناداهم ولم ينادِ غيرهم؟ حين يكون في الأمر شرع ونظام للمسلمين ينادون وحدهم لأنهم المكلفون بالتنفيذ ، وقد ورد النداء (يا أيها الذين آمنوا) في القرآن تسعاً وثمانين مرة ، وحين يكون الدعاء للدعوة والإيمان بالله نسمع (يا أيها الناس).

- إطاعة الله والرسول فرض ن وهذا ما رأيناه في جوابه للرسول صلى الله عليه وسلم حين أرسله إلى اليمن حاكماً : بم تحكم يا معاذ؟ فقدم القرآن ثم سنة النبي ثم يقول برأيه الذي لا يخالف الشرع والسنة .

- ولا يرأي لاحدٍ خلاف السنّة ولا يُقال بين يديه صلى الله عليه وسلم قبل كلامه.

- الإدلاء بالرأي بعد الإذن / نحن أتباعه ونصدر عن سنته وشرعه/ فلا يتكلم أحد من أصحابه صلى الله عليه وسلم إلا بإذن رسول الله ، ومن بعده لا رأي إلا بما يوافق سنته.

- التقوى من سمات المسلم، وقد كرر ذكر التقوى في هذه السورة دلالة على التحلي بها.

- مراقبة الله تعالى فهو يرانا، ومن الإحسان أن نعبد الله كأننا نراه فغن لم نكن نراه فإنه سبحانه يرانا

- عدم رفع الصوت أمام النبي وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، عمر يكاد يضرب غريبين علا صوتهما في المسجد.

- احترام العلماء والكبار ، وخاصة الآباء والأمهات ومن فوقهم. من فعل ذلك نال الأجر الكبير.

- علا صوت الصديق والفاروق في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم حين جاء بنو تميم فاقترح

الصديق أن يكون الققعاع بن معبد أميرهم وقال الفاروق بل الأقرع بن حابس ، فنزل قوله سبحانه

يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي. فكان الصديق لا يتحدث إلا كأخي

السرار وكان الفاروق يهمس حتى يستبين الرسول كلامه مرات ومرات.

- والأنصاري ثابت بن قيس (صوته جهوري): هو من أهل الجنة قتل يوم اليمامة ، ترك مجلس النبي

صلى الله عليه وسلم خوف أن يحبط عمله ، فلما افتقده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف

السبب أدناه وقال له: تعيش حميدا وتموت شهيداً .

- قد يجبط العمل دون الإحساس به. (أن تحبب أعمالكم وأنتم لا تشعرون.) فعلى المرء أن يكون حذراً
- في انتظار العالم للاستفادة منه والصبر عليه أجر كبير، وهذا ما رأيناه في قوله تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم.
- البحث عن الحقيقة ووضوحها (إن جاءكم فاسق) - هذا ما نراه في عودة الوليد بن عقبة الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق يجي زكواتهم وصدقاتهم فعاد خائفاً منهم يقول غير الحق فقدم ضرار بن الحارث والد أم المؤمنين جويرية وزعيم بني المصطلق يحمل الزكاة ، ويوضح خطأ الوليد ، فمن حكم دون دليل قد يندم إذ يقع في الخطأ، ويقدم صورة غير حقيقية لما يجري.
- طاعة المسؤول المسلم واجبة فما يصدر منه بعد الاستشارة إلا الحكم الأقرب للصواب " ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون " وعلى المرءوس أن يطيع الحاكم المسلم فتقوم الحياة بالقسط والراحة والأمان.
- عن أبي رفاعة الزرقني عن أبيه قال لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " استووا حتى أثنى على ربي عز وجل " فصاروا خلفه صفوفا فقال صلى الله عليه وسلم " اللهم لك الحمد كله اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قربت اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق " ورواه النسائي.
- كل الخير من الله ، وهو سبحانه يعلم الهداة من الضالين (فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم). ومن اطاع ربه نال الخير في الدارين.

- قد تتخاصم ففتان من المسلمين فيجب الإصلاح بينهما، فإن فجرت إحداهما فإنه ينبغي قتالها لتعود إلى الحق وتخضع له، ولا بدّ من العدل والعمل به فالله يحب العدل وأهله. " إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا " ولا ينبغي للحاكم أن يجابي في الحق أحداً .
- (لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا (الزيادة في ثمن السلعة لا يُريد شراءها)، ولا تباعضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عبادَ اللَّهِ إخواناً المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يحقره التَّقوى ههنا ويشيرُ إلى صدره ثلاثَ مرَّاتٍ بحسبِ امرئٍ من الشَّترِ أن يحقرَ أخاهُ المسلمَ ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ ، دمهٌ ، ومالهٌ ، وعرضُهُ وفي روايةٍ : قَالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ دَاوُدَ ، وَزَادَ ، وَنَقَصَ وَمِمَّا زَادَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ.)إنها تعاليم الحق التي تبني مجتمعاً مسلماً منظماً متآلفاً.
- النهي عن السخرية : السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " الكبر بطر الحق وغمص الناس - ويروى - وغمط الناس " والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ؛ ولهذا قال تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن " فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء وقوله تبارك وتعالى " ولا تلمزوا أنفسكم " أي لا تلمزوا الناس والههاز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى " ويل لكل همزة لمزة " والهمز بالفعل واللمز بالقول كما قال عز وجل " هماز مشاء بنميم " أي يحتقر الناس ويهمزهم طاغيا عليهم ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال ولهذا قال ههنا " ولا تلمزوا أنفسكم "
- البعد عن اللمز من سمات المسلم " ولا تلمزوا أنفسكم " أي لا يطعن بعضكم على بعض وقوله تعالى " ولا تنازروا بالألقاب " أي لا تداعوا بالألقاب وهي التي يسوء الشخص سماعها قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا داود بن أبي هند عن الشعبي قال حدثني أبو جبير بن الضحاك قال

فيما نزلت في بني سلمة " ولا تنابزوا بالألقاب " قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت " ولا تنابزوا بالألقاب "

- وهناك تهديد ووعيد (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان .) وينبغي للمرء أن ينادي أخاه بما يجب ويرضى، وهذا يقرب النفوس ويُذهب الأحقاد والضغائن.
- الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله لأن بعض ذلك يكون إثما محضا فليُجتنب كثير منه احتياطا . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه " ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا وأنت تجد لها في الخير محملا ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول " ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا "

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن " فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم " إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض " ويقول " إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " ما أروع هذه الكلمات المضيئة.

- ولا تجسسوا " على بعضكم بعضا، والتجسس غالبا يطلق في الشر ومنه الجاسوس وأما التجسس فيكون غالبا في الخير كما قال عز وجل إخبارا عن يعقوب أنه قال " يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله " وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " وقال الأوزاعي التجسس البحث عن الشيء والتجسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم

- وفي السورة النهي عن التدابر : وهو الصرم . رواه ابن أبي حاتم عنه وقوله تعالى " ولا يغتب بعضكم بعضا " فيه نهي عن الغيبة . قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : صلى الله عليه وسلم " ذكرك أخاك بما يكره " قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال صلى الله عليه وسلم " إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته " والبهتان : الكذب الشديد .
- عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم حسبك من صفية كذا وكذا قال غير مسدد تعني قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم " لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " فكم نفع هذه الأيام في بحار الغيبة !؟
- قالت وحكيت له إنسانا (قلَّدتُه) فقال صلى الله عليه وسلم " ما أحب أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا " وكم نفع هذا قصداً ومن غير قصد حتى صارت فينا والعياذ بالله عادة .
- والغيبة محرمة بالإجماع لا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله صلى الله عليه وسلم لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر " ائذنوا له بئس أخو العشيرة " وكقوله صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم " أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه " وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها على التحريم الشديد وقد ورد فيها الزجر الأكيد ؛
- ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عز وجل " يجب أحذكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه " فكما تكرهون هذا طبعاً فأكروهوا ذاك شرعاً فإن عقوبته أشد من هذا . وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال صلى الله عليه وسلم في العائد في هبته " كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه " وقد قال " ليس لنا مثل السوء "
- قال صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع " إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " ورواه الترمذي وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا

تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته
يفضحه في بيته "

- قال النبي صلى الله عليه وسلم قال " من أكل برجلٍ مسلمٍ أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم
ومن كسا ثوبا برجلٍ مسلمٍ فإن الله يكسوه مثله في جهنم ومن قام برجلٍ مقام سمعة ورياء فإن الله
تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة "

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون
وجوههم وصدورهم قلت من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في
أعراضهم "

- حدّث عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن
رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن ههنا امرأتين صامتا وإنهما كادتتا
تموتان من العطش أراه قال بالهاجرة فأعرض عنه أو سكت عنه فقال يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا
أو كادتتا تموتان فقال " ادعهما " فجاءتا قال فجيء بقدرح أو عس فقال لإحدهما " قيئي " فقاءت
من قيح ودم وصديد حتى قاءت نصف القدرح ثم قال للأخرى " قيئي " فقاءت قيحا ودم وصديدا
ولحما ودم عبيطا وغيره حتى ملأت القدرح ثم قال " إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما
وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس " وهكذا
رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي كلاهما عن سليمان بن صعوان التيمي به مثله
أو نحوه ثم رواه أيضا من حديث مسدد عن يحيى القطان عن عثمان بن غياث حدثني رجل أظنه في
حلقة أبي عثمان عن سعد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أمروا بصيام فجاء رجل في
نصف النهار فقال يا رسول الله فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد فأعرض عنه مرتين أو ثلاثا ثم قال "
ادعهما " فجاء بعس أو قدرح فقال لإحدهما : قيئي فقاءت لحما ودم عبيطا وقيحا وقال للأخرى
مثل ذلك ثم قال " إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما أتت
إحدهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيحا " قال البيهقي كذا قال

- وعن سعد كنا مع النبي الله فارتفعت ريح جيفة منتنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس ؟ " " طريق أخرى " قال عبد بن حميد في مسنده حدثنا إبراهيم بن الأشعث حدثنا الفضيل بن عياض عن سليمان عن أبي سفيان وهو طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فهاجت ريح منتنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم " إن نفرا من المنافقين اغتابوا أناسا من المسلمين فلذلك بعثت هذه الريح " وربما قال " فلذلك هاجت هذه الريح "

- قال الجمهور من العلماء طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع وأن يتحلل من الذي اغتابه ، وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك

- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ومن رمى مؤمنا بشيء يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من امرىء يخذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته وما من امرىء ينصر امرأ مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله عز وجل في مواطن يحب فيها نصرته " . وهذا ما ينبغي فعله ليرتدع الفاسق أن يذكر أخاه بسوء.

- وقد خلقنا الله تعالى من ذكر وأنثى : من رجل وامرأة فكلكم لآدم وآدم من تراب قعلام التكبر؟ .
وعلام التعاضم على الآخرين!؟

- الادّعاء والامتنان مذمومان (قالت الأعراب آمنا ..) فعلمهم التواضع والوقوف على الحق ، يكون الإسلام أولاً ، فإن التزم المسلم أمر الله وعمل بما يُرضيه صار مؤمناً وإن اجتهد في الخير والتزمه صار محسناً . إنه التدرُّج في الارتقاء ولعلنا نذكر الحديث الثاني في الأربعين النووية الذي رواه

الفاروق رضي الله عنه حين جاء جبريل يعلم الصحابة دينهم، فسأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان.

- لا ينقص الله من ثوابنا شيئاً ، قال تعالى: (وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً " أي لا ينقصكم من أحوركم شيئاً كقوله عز وجل " ولعلنا نذكر قوله تعالى يؤكد هذا في سورة الطور حين قال عز من قائل: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) .

- من هم المؤمنون الصادقون؟ "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) الإيمان الصادق والثبات عليه ثم الجهاد في سبيل الله بالمال والنفوس . إذ ذاك يستحق المرء صفة (الصادق) .

- ما ينبغي لأحد أن يتعالم بشيء لا يحسنه ولا يعلمه ، إنما يحيل العلم لصاحبه والأمر لذويه ، والله تعالى الذي نزل الكتاب هو العالم بالأمور يعلم نبيه وهو صلى الله عليه وسلم يعلمنا ، والدين دين الله وهو صاحب الأمر والنهي (قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) " والله بكل شيء عليم " .

- " يمينون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم " من الأعراب بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فردَّ الله تعالى عليهم " قل لا تمنوا علي إسلامكم " فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، والله المنة عليكم فيه " بل الله يمين عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين " في دعواكم ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار يوم حنين " يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضاللاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ " كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمئ . فالمنُّ لله ورسوله .

- جاءت بنو أسد إلى رسول الله الله فقالوا يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن فقهم قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم " ونزلت هذه الآية " يمينون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمين عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين " .

تأملات تربوية في سورة القمر

" اقتربت الساعة وانشق القمر " ... لقد انشق القمر فلقتين حقيقة حين سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آيةً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن فعلتُ تؤمنون ؟ " قالوا : نعم . وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر فلقتين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي المشركين : " يا فلان يا فلان اشهدوا " . فما بقي أحد في مكة إلا رأى نصف القمر على أبي قبيس ، ونصفه الآخر على ثُعَيْقُعَان . فقال الكفار : هذا من سحر ابن أبي كبشة - يريدون النبي صلى الله عليه وسلم - سحركم ، فاسألوا السفّار ، فلما قدم المسافرون سألهم أهل قريش هل رأوا القمر فلقتين في يوم انشقاقه ؟ قالوا : قد رأينا . فثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وازداد الكفار عتوّاً واستكباراً وقالوا " سحرٌ مستمر " أي شديد ، سحركم محمد بسحره القوي المتمكن ... وقد روى بعض المؤرخين العرب في العصر الحديث اعتماداً على مؤرخ صيني قديم روى في تاريخه - وقد عاصر النبي صلى الله عليه وسلم - أنهم في الصين تعجبوا من رؤية القمر قسمين أحدهما في الشرق والآخر في الغرب فترة من الليل ثم عاد قسماً واحداً بل إن دارسي جيولوجيا القمر يعتقدون أن القمر قسمان ملتصقان .. فسبحان الله العظيم .

انشق القمر ، ولما تبدأ الساعة ، ولكنها قريبة كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام . ولو ربنا الأمر حسب حدوثه أو تسلسل الحدوث حين تقوم الساعة لقلنا " انشق القمر واقتربت الساعة " . فلماذا قدم الساعة - ولم تحدث - على انشقاق القمر وقد حدث ؟. والجواب أنه تقدم ذكر الساعة - أ : لأهمية اليوم الآخر وضرورة الإيمان به .

- ب : ولأن من شق القمر - سبحانه - صادق في وعده بمجيء اليوم الآخر .

- ج : ولتنبيه الناس إلى خطورة الأمر ، والاستعداد لما هو آت .

لكن من ينظر ببصره لا ببصيرته ويتبع هواه لا يرى الحقيقة أبداً إنما يركب رأسه ويزداد عتوّاً واستكباراً وبعداً عن الحق وكفراً به . أعرضوا عن الحق واتبعوا أهواءهم وكذبوا الرسول فضلوا وزاغوا " وكذبوا واتبعوا أهواءهم " ومن تبع هواه ضيّع الطريق وتاه ، وغاص في أحواله " و من أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من

الله " .

وما أرسل الله من رسول إلا ونبّه إلى مصارع الكافرين ليعتبر الناس ويرعوا ، ويتفكروا ويتدبّروا . وقد قص الله تعالى في هذه السورة الكريمة قصة نوح وهود وصالح ولوط وموسى مع أقوامهم . وحدد نهاية الكافرين المخيفة ليعتبر الإنسان ويختار الطريق الذي يرتتبه ، فإذا نال القصاص العادل والعذاب الذي ينتظر الكافر فقد أعذر من أنذر .

فالكفار من قوم نوح أغرقهم الله ، ونجّى المؤمنين .

وقوم هود الكافرون اقتلعتهم الريح الشديدة ، وطوّحت بهم .

وقوم صالح المستكبرون أخذتهم الصيحة - الصاعقة - فكانوا كالقش اليابس المتفتت .

والكافرون قوم لوط طمس الله أعينهم ، ورجمهم ملائكته بالحجارة ثم قلبت بهم الأرض .

أما فرعون وجنده فأغرقهم الله تعالى في البحر ، فلم ينجُ منهم أحد .

وتدبر معي الجملة المكررة عند نهاية كلِّ من قصص قوم نوح وهود وصالح " فكيف كان عذابي ونذرٍ " للدلالة على شدة أذى ربك للعاصين المتمردين حين يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فيستأصلهم ، ويقطع دابرهم ، وكأنهم ما كانوا . وتأمل الآية حين تأتي بأسلوب آخر " فذوقوا عذابي ونذرٍ " فالتذوق قمة السخرية والاستهزاء من قوم لوط فإن فعلتهم شنيعة مقرفة تستحق قبل الاستئصال أن يذوقوا العذاب ألواناً ، فطمس الله أبصارهم ، ثم رجموا بحجارة من سجيل منضود مسومة عند الله الممنتقم ، ثم جعل الله الجبار عالي قراهم سافلها .

وتدبّر كذلك الآية الرائعة المكررة أربع مرات بعد القصص الأربع الأولى " ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدبّرٍ " ليحث الله تعالى الناس على قراءة القرآن ودراسته وفهمه للعمل به . فقد يسره للناس وأعانهم على فهمه ، وقص عليهم أنباء الأمم الغابرة مع أنبيائهم ، وعقبى أمورهم وأمور المرسلين ، لتكون حجة عليهم ، والتكرار أسلوب تربوي رائع لتثبيت المعنى في النفوس وتأصيله فيهاو" هل " حرف استفهام قال العلماء فيها : اللام للاستعراض ، والهاء للاستخراج . فالمفروض على أولي العقول أن يستعرضوا مصير الأمم فيؤمنوا بالله ، وينالوا الخير في الدارين . .. إن المسلم لا يرقى في درجات الفضل والكرامة إلا إذا أمعن في الفهم والتدبّر .

وقد يخطر في بال أحدهم حين يقرأ " فتولَّ عنهم " أن يتركهم فلا يدعوهم إلى الله ، وهذا فهم خاطئ ، إن واجب الدعوة أن لا يوفروا طريقة في الدعوة إلى الله تعالى إلا سلكوها ، هذا واجبهم . لكن ليس عليهم أن يفرضوا على أحد أن يؤمن ، فالإيمان هبة من الله تعالى للسعداء " إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء " كيف هذا؟! فالجواب : " وهو أعلم بالمهتدين " وهذا أمر دقيق ينبغي أن نفهمه فهماً صحيحاً .. فالله تعالى يعلم من يستجيب للإيمان ويتقبله فيهديه إليه . ولهذا كانت القاعدة الدعوية الواضحة " لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي " . وسيعلم الكفار سوء صنيعهم حين يخرجون من الأحداث استجابة للنفخ الثاني في الصور - ولات حين مندم - " يوم يدعو الداع إلى شيء نُكِرٍ " و" التُّكْرُ " هنا على قول بعض المفسرين : العذاب الشديد ، وأعتقد - كذلك - أنه يوم القيامة الذي كان الكفار ينكرونه ويأبون الإيمان به ، فيرون أنفسهم فيه فيخشعون ويدلون حين يعرفون الحقيقة " يقول الكافرون : هذا يوم عسر " وتأكيده في سورة المدثر " فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير " . ويؤيد ذلك قراءة مجاهد وقتادة " نُكِرٌ بصيغة المبني للمجهول .

وتصور ذلك الخروج الرهيب من القبور الذي يقشعر له جلدي كلما ذكرته وعشت في ظلاله - جعلنا الله من الآمنين - ففي هذه السورة " كأنهم جراد منتشر " وفي سورة القارعة " يوم يكون الناس كالفراس المبتوث " نجد موقفين مختلفين ، أحدهما : عند الخروج من القبور ، يخرجون فرعين لا يهتدون إلى أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم في بعض ، فهم حينئذ كالفراس المبتوث بعضه في بعض ، لا جهة له يقصدها . ثانيهما : فإذا سمعوا المنادي قصده فصاروا كالجراد المنتشر ، فالجراد جهة يقصدها .

وتأمل كلمتي خشعاً... ومهطعين أما الخشوع فالذلة في النظر والخضوع للأمر والاستسلام لما هو آتٍ . وأضاف الخشوع للأبصار لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان . قال الله تعالى " خاشعة أبصارهم " وقال كذلك حين تظهر لهم النار ويعرفون أنهم إليها صائرون فلا يتجرؤون أن ينظروا إليها : " خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي " . وأما الإهطاع فالإسراع إلى مصدر الصوت مع فتح الآذان ومد العنق وتصويب الرأس والنظر إلى مصدر الصوت . . . مرحلة لا بد أن يجتازها الثقلان من إنس وجن . نسأل الله السلامة والنجاة .

حين دعا نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام " أني مغلوب ، فانتصر " جاءه الفرج .. وهكذا يكون

المسلم مع ربه محباً له ، عائداً به ، معتمداً عليه . وقد نادى إبراهيم عليه صلوات الله ربه حين ألقاه الكفار في النار ، فصارت عليه برداً وسلاماً . وقال موسى واثقاً بربه متوكلاً عليه - حين أبدى قومه يأسهم من النجاة " إنا لمدركون " لما رأوا فرعون يجد إليهم السير بجنوده - " كلا ، إن معي ربي سيهدين . " فنجاهم الله وأغرق فرعون وجنده . وهذا الحبيب المصطفى عائداً من الطائف بعد أن طرده أهلها وآذوه ينادي ربه ، ويخاطبه بالدعاء المعروف الذي يأخذ بالقلوب " اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس برحمتك يارب العالمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي سخطك أو ينزل علي غضبك لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك "

فيرسل الله تعالى إليه جبريل مع ملك الجبال يستأذنه أن يطبق على أهل مكة الأخشبين ... ينادي النبي الكريم نوح ربه فيأتيه الفرج " ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً ، فالتقى الماء على أمر قد قُدِرَ ، وحملناه على ذات ألواح ودسرٍ " وتصور معي بقلب بصيرتك كيف تدفق الماء من السماء بما لا يتخيله البشر ، وأن الأرض كلها تفجرت أنهاراً ضخمة تخرج ما في بطنها من ماء يعلو ويعلو .. إن أكبر السفن لتغوص مهما كانت ضخمة الحجم ومحكمة الصنع حين تتجاوزها أمواج كالجبال ، بل تكسرهما بلطمة من موجة عملاقة فتحطمها ، فكيف وأنهارٌ بل بجازٌ من ماء السماء تتصل ببحار الأرض؟! وأنى لهذه السفينة البدائية إذا ما قورنت بسفن هذا العصر العملاقة أن تظل فوق الماء وبين الماء دون أن تتلاشى؟! ... إن رب الماء والأرض والسماء يقول : " فاصنع الفلك بأعيننا ووحينا " وقال في مسير الفلك بأمانه سبحانه " تجري بأعيننا " إنها رعاية الله وعنايته ورحمته بالمؤمنين .. ألم يقل الله تعالى لموسى عليه السلام " واصطنعتك لنفسي " ألم يقل له كذلك : " ولتصنع على عيني " ألم يقل لحبيبه محمد : " واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا؟! " فمن كان الله معه فممن يخافُ ولم يخافُ ، وعلام يخافُ؟ .

وتأمل معي الرد القاصم على تحرصات المشركين حين وصفوا نبي الله صالح بالكذب والتكبر والتعاضم في قوله تعالى : " ... بل هو كذاب أشترٌ ، سيعلمون غداً من الكذاب الأشرُّ " إنه تهديد ووعيد ، وصفعة أليمة على وجوههم .. ثم هو رد اعتبار لنبي كريم افترى قومه عليه .

وانظر معي إلى شديد العذاب الذي كرر مرات عديدة بأسلوب مخيف " فكيف كان عذابي ونُدْرٍ " إنه والله عذاب شديد وقاس جداً بما لا يُتصور .

وما أقوى التهديد في قوله تعالى بلغة مهيمنة صادرة عن قوي جبار

" سيهزم الجمع ويولون الدُّبُر ، بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وامرّ إن المجرمين في ضلال وسُعْر يوم يُسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مسّ سقر "

وما دامت آثار الأقبام الغابرين واضحة فلم لا يعتبر أصحاب العقول ؟ ألم يقل الله تعالى منبهاً أهل مكة وغيرهم إلى بقايا عاد وقوم شعيب يمرون عليها في أسفارهم وتجاراتهم " وإنهما لبإمام مبين " وهذا القرآن لنا وللعالم أجمع ، أفلا ينتبه الغافلون ويتدبر بنو البشر ؟

لنضع في شغاف قلوبنا قوله تعالى في إحصائه لحركاتنا وسكناتنا وتصوير كل أعمالنا :

" وكل شيء فعلوه في الزُّبُر "

وكل صغير وكبير مستطر "

فهل يخفى على الله شيء ؟ حاشا وكلا .. فمن كان ذا لب وقلب سليم وعقل حكيم كان من المتقين .. فما للمتقين يارب ؟

" إن المتقين في جنات ونهر " والجنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .. "

في مقعد صدق عند مليك مقتدر " . فهنيئاً لمن كان للرحمن مصيره في رضا منه وفضل ورضوان ...



لقاء للدكتور عثمان قدرى مكنسى في قناة بغداد الفضائية آب ٢٠٠٩

برنامج (بين السطور)

تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم

المقدم : تحية طيبة لكم مشاهدينا الكرام واهلا وسهلا بكم في حلقة جديدة في برنامج بين السطور نناقش اهل الثقافة والفكر نطلع على مكونات مؤلفاتهم نسلط الضوء على ما بين كتبهم وبين سطورهم انحاورهم ولنقدم لكم ايضا مشاهدينا الكرام الجديد والمفيد عبر المكتبة الاسلامية كتابنا في هذه الحلقة تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم للأستاذ الدكتور عثمان قدرى مكنسى والدكتور عثمان من مواليد حلب سنة سبعين وأربعمئة وتسعة مئة والى له اجازة في اللغة العربية من جامعة حلب وله ماجستير في اللغة العربية من جامعة البنجاب وكذلك دكتوراه في اللغة العربية من معهد الاستشراق في باكو أذربيجان .

له مؤلفات عديدة مشاهدينا الكرام في الشعر ديوان نبضات قلب وكذلك ديوان وميض قلب وديوان دفعه قلب وله ايضا مؤلفات في القصة : مدفع الافطار وقصص رواها النبي (صلى الله عليه وسلم) وقصص رواها الصحابة رضوان الله عليهم وفي رياض المصطفى (صلى الله عليه وسلم) كما أن له أيضاً كتباً - مشاهدينا الكرام - في التربية ، منها :

١- التربية النبوية ٢- ومن أساليب التربية في القرآن الكريم ٣- وصور من تأذي النبي في القرآن الكريم ٤- وتأملات في سور من القرآن . وها هي المجموعة التي سنناقشها في الحلقة من برنامج بين السطور وينشر ايضا في العديد من المواقع مثل موقع رابطة أدباء الشام وموقع صيد الفوائد . وله الكثير من المقالات في مواقع عديدة أمثال المختار الاسلامي ورابطة ادباء الشام والمركز الاعلامي للإخوان المسلمين السوريين واخبار الشرق ،ومركز الدراسات العربية والشرقية وجريدتي العروبة والزيتونة ونال جائزة جمعية المعلمين في الامارات سنة ١٩٩٥ عن كتابه التربية النبوية .

فرحبوا مشاهدينا الكرام بالأستاذ الدكتور عثمان مكنسى ...حياك ضيفا في برنامج بين السطور ...
دكتور ؛ (تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم) استقصيت في هذا الكتاب مجموعة من السور بلغت ١٤ سورة ، سلطت فيها الضوء على جوانب تربوية في البداية نحب ان نسال عن احتواء الجوانب التربوية للسور المكية .

الدكتور عثمان قدرى: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على حبيبنا محمد اللهم صلي على سيدنا محمد.. يا اخي الكريم كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) حينما بعث في مكة يربي الناس لم يكن هناك دولة وانما كان هناك مجموعات تزداد واحداً اثر واحد يربيهم النبي (صلى الله عليه وسلم) على الدين الجديد يربيهم كيف يكونون مسلمين يعلمهم كيف يكونون مؤمنين ، فكان التركيز على التربية والتركيز على الإيمان والتركيز على الإحسان ، وعلى هذا نجد السور المكية إنما كانت محتشدة بالسور التربوية والمعاني التربوية فاذا ما انتقل النبي (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة المنورة كان هناك دولة وكان هناك مجتمع اسلامي لا بد لهذا وهذا من تربوية ، ثم من تشريع وكان هناك توازن ، وكان هناك تشريع اكثر ليواكب هذه الدولة الاسلامية الناشئة وبهذا لا غر وأنا نجد المرحلة المكية مليئة بالسور التربوية والأساليب التربوية .

المقدم: دكتور انت استقصيت في هذا الكتاب الذي أسميته تأملات تربوية عرضت فيه كثيراً من السور ابتداء من سورة هود ، يوسف ، مريم ، طه ، القصص ، الحجر وغيرها من السور سناتي اليها في درج الحديث عن هذه الجوانب التربوية . ولنبدأ من طوفان نوح وما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة هود ، فقد ذكرت في هذا الكتاب أن الانبياء كلهم رحماء بأقوامهم ، فاين هذه الرحمة من سيدنا نوح (عليه السلام) عندما دعا على قومه ؟ وأين نجد هذا الملمح التربوي الذي أشرت اليه في كتابك .

الدكتور عثمان قدرى: لعلك سيدي قصدت أن سيدنا نوحا عليه السلام قال " رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يجدوا الا فاجرا كفارا " هذا ما قاله سيدنا نوح عليه السلام حينما شعر انهم كانوا معاندين وهذا ما يقوله أي انسان عندما ينزعج ، فيدعو لكننا نستشف رحمة الأنبياء بأقوامهم ان لم يكن بالجمل الصريحة فإننا نلمحها في قول الله سبحانه وتعالى لنوح " ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون " والله عز وجل ما ذكر هذه الآية الا لأنه سبحانه وتعالى - وهو يعلم الغيب - يعلم أن نوحا في اللحظة الاخيرة قد يتشفع فيهم حين يراهم يغرقون في الأمواج المتلاطمة واذا اراد الله عز وجل امرا فلا بد أن يكون . قال " ولا تخاطبني في الذين ظلموا " بماذا يخاطبه سيقول يا ربي هؤلاء قومي الذي عشت فيهم هؤلاء الذين دعوتهم ، فكانوا معاندين وكانوا كفارا ، إنهم قومي يارب فيا ربي أرجو ان تمدد لهم في الأجل لعلهم يراعون هبهم فترة من الزمن وهكذا الانبياء وعلى رأسهم سيدنا نبينا

عليه الصلاة والسلام ، ولو نظرنا في سيرته المطهرة صلى الله عليه وسلم وجدنا الكثير من الرحمة فهو نبي الرحمة ولسوف آتيك بمثال في غزوته صلى الله عليه وسلم وهو يريد ان يفتح الطائف (بلاد ثقيف) ولم يستطع في بداية الامر أن يفتحها بل جاءه أهلها بعد عشرة اشهر مؤمنين مسلمين حاربه ولم يؤمنوا . قال له اصحابه يا رسول الله ادعُ عليهم ، قال : لقد بعثت داعيا ، ولم ابعث لعاناً ، وهكذا كان أخوه سيدنا نوح (عليه السلام) كان رحيمًا بقومه بل إنه بقي فيهم تسع مئة وخمسين عاما وهذا الزمن الذي قضاه بينهم طويل ، كفروا به وآذوه ، ولم يدعُ عليهم ، وهذا من أعظم الدلائل على رحمته بهم ، صلى الله عليه وسلم

المقدم : هو انت ايضا استدعيت نماذج من خطابه ربما بعد ان اسنفذ كل الطرق حين دعاهم ليلا ونهارا ولم يزد هم دعاؤه لهم الا فرارا

الدكتور عثمان قدرى: " وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في اذانهم " هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لقي منهم الأمرين ، ولكن ما قاله دليلُ رحمة الانبياء بأقوامهم .
المقدم : تريد أن تقول : إن الدعاء بالخير للناس ورجاء الرحمة لهم أسلوب تربوي
الأستاذ الدكتور عثمان قدرى مكانسي : لا شك في ذلك ، لا شك في ذلك وأنا في كتاب " من أساليب التربية في القرآن الكريم " استنبطت من القرآن تسعين أسلوبا تربويا ولكن بعد ذلك حاولت ان أقرب القريب فصار في الكتاب سبعون اسلوبا .

المقدم : هل الاهتمام بالتربية اختصاصك الدراسي ؟

الدكتور عثمان قدرى مكانسي : الحقيقة اني مختص بالأدب وأحب اللغة العربية كثيرا واهتمامي بها شديد إلا انني اتجهت الى دراستي التربوية لأنني تربوي وظللت مدرسا أكثر من ثلاثين سنة .

المقدم : طيب دكتور، من خلال استدعاء النصوص التي ظهرت من خلال تأملات تربوية في صور من القرآن الكريم يستوقفنا ايضا شيء في سورة يوسف (عليه السلام) هذا الشيء يتعلق بما جرى بين سيدنا يوسف وإخوته من جهة وبينما جرى من سيدنا يعقوب وأبنائه الباقين واخذ الحظوة ربما يوسف الاخ الثاني بنيامين اريد ان اسال عن معاملة الاخوان على قدر المساواة التي اشرت اليها في كتابك كيف نجد الملمح التربوي من هذا المنطلق

الدكتور عثمان قدرى: بسم الله الرحمن الرحيم ، الحقيقة أن أحد الآباء سئل : أيّ أبنائك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والبعيد حتى يعود ، والمريض حتى يشفى . فهو يحبهم جميعا وقلبه معلق بهم ، ولا شك انه اظهر حبه ليوسف واخيه بنيامين أكثر مما أظهره من حبه للآخرين ، وربما زاد هذا الامر فما كان منهم إلا أن أرادوا أن يزعموه ، أو يأخذوا حقهم ، فسلكوا طريقا غير صالح ، وحينما يرى الإخوة ان اباهم يحبهم جميعا على قدر المساواة فانهم يحب بعضهم بعضاً ويتآلفون أكثر ، أما حين يجدون أباهم يفضل أحداً عليهم لسبب ما فقد يأكلهم الحسد ، وتراهم يحاولون ان يستعيدوا ما فقدوه بكل السبل ، وحينما يفكر الكبار بأن يقتلوه او يبيعوه فما هذا الا تأكيد على احتدام الامر في نفوسهم ، فهم يريدون ان ينتقموا باي طريقة كانت ، بكل تأكيد لا ينبغي لنا ان نتحدث بمقام النبوة لكنني استشف ان هؤلاء لم يفعلوا ما فعلوه ، ولم يفكروا بما فكروا فيه إلا لأنهم وجدوا من أبيهم اهتماما أكثر بغيرهم ، وبدأ الحسد وبدأت البغضاء ، وعلى هذا - يا أخي الكريم يفضل دائما أن يعدل الإنسان من أبنائه . والنعمان ابن بشير رضي الله عنهما يذكر أن أباه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بطلب من أمه التي قالت له أريد ان تعطي ابني هذا جارية واشهد على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فماذا قال له المربي العظيم صلى الله عليه وسلم ؟ أكلّ ولدك نخلته مثل هذا ؟ قال لا قال انا لا اشهد على ظلم . انا لا اشهد على زور . وعلمه ان يعطي جميع أبنائه على قدم المساواة . فاذا كان هناك عدل بين الأبناء كانت هناك أسرة متحابة

المقدم : لكن هناك بعض الاحيان قد تكون ثمة فروق فردية بين هؤلاء الأبناء تجعل الأب ينظر لهذا الابن نظرة ربما تختلف عن الثاني .

الدكتور عثمان قدرى: هذا لا اشك فيه ، غير أنه لا ينبغي أن يشعر أحدهم بالغبن فيقول انا مظلوم ويحاول ان يؤذي الآخرين الذين يعتبرهم قد اخذوا نصيبه ، وكأنني مقتنع ان يعقوب عليه السلام مع جليل فضله كان منحازا بقلبه إلى يوسف ، واعطاه الكثير من الحب والاهتمام فأثار إخوته وكان ما كان .

المقدم : دكتور ايضا ، دعنا نذهب إلى موضوع آخر ذكرته في كتابك متعلق بسيدنا زكريا عليه السلام وذكرت قصته في سورة مريم كما نعرف ، فذكرت ملامح تربوية وتأملات تربوية يمكن ان يستفيد منها الإنسان في واقعنا العملي من هذه القصة التي وردت في القرآن الكريم ، فأين الأساليب التربوية التي تناولتها في قصة سيدنا زكريا عليه السلام ؟

الدكتور عثمان قدرى: جزاك الله خيرا ؛ إن في قصة سيدنا زكريا ملامح تربوية مثيرة جدا ، منها أنه

نادى ربه نداء خفيا . احد الصحابة يقول للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ؛ أريك بعيد فنناديه ، ام قريب فنناجيه ؟ فأجابه : انه قريب ، وقرأ قوله تعالى " واذا سالك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعان " فهنا نجد سيدنا زكريا عليه السلام ينادي ربه نداء الأدب ، إن القرآن يعلمنا أن الذين نادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الجدار أكثرهم لا يعقلون . فكيف الحديث مع الله سبحانه وتعالى جل جلاله ؟ إن سيدنا زكريا لما رجا ان يكون له ولد ماذا قال ؟ ذكر كلمة ربي ست مرات ف " قال ربّ إني وهن العظم مني ، واشتعل الرأس شيباً ولم اكن بدعائك ربّ شقيا .. " وهكذا ذكر كلمة ربي كثيرا ، وهذا نوع من التذلل والتحبب الى الله سبحانه وتعالى . إن الانسان إذا أراد أن يتقرب إلى إنسان وأن يطلب منه شيئا تحبب اليه . فلما عرض حاله ولم يطلب شيئا في البداية انما عرض حالته يريد ان يستحدي الإشفاق والعطف عليه ، والله عز وجل عالم بحاله ، أقول إنك تطلب من مثيلك بعد أن تُبدي ضعفك وقلة حيلتك فماذا قال زكريا لله الكريم سبحانه؟ " قال ربي اني وهن العظم مني " فبين حقيقة ولم يكذب فيها ، صدق حين ذكر أن الكثير من عظمه وهن وضعف ، لكن فيه بقية لم تضعف . وكان صادقا كذلك حين أعلن أن كل رأسه قد شاب " واشتعل الرأس شيبا " إن كل رأس الإنسان يصبح ثعاماً أبيض حين يتجاوز السبعين على الأغلب ومنهم سيدنا زكريا ، ثم تدلل قائلاً " ولم اكن دعائك ربّ شقيا " وتذلل العبد لربه قمة العبودية ..

ولم يطلب النبي زكريا أمورا عادية كأن يقول : أريد ربي ان ترزقني بناء أو سيارة لا لا لم يطلب هذا وانما طلب امرا فيه فائدة المسلمين . فماذا قال " واني خفت الموالي من ورائي " فهو داعية يهمله أمر الدعوة ويريد ان يكون هناك من يحملها من بعده ، وعلى الرغم أنه بلغ من العمر العتيّ وامراته اصبحت عاقرا فلم يبئس من رحمة الله وفضله ، فقال " فهب لي من لدنك وليا " .. لم يقل : هب لي من لدنك ولدا فالولد قد يكون عاقا وقد يكون صالحا ، فطلب الولي المناصر والمؤيد فالولي حصرا هو الانسان الصالح .. إن زكريا عليه السلام عرف كيف يدعو، وعرف ماذا يطلب " يرثني " بكل شئ " ويرث من آل يعقوب " الدعوة ، فلم يقل : " ويرث آل يعقوب " فالرجل لا يرث من قريبه البعيد كل شيء ، إنه يرث كل شيء من أبيه وولده ، يرثه في كل شيء ويرث من آل يعقوب العلم والادب والاخلاق والدعوة ثم بعد ذلك

طلب الى الله عز وجل ان يكون ابنه "رضيا" لم يقل راضيا ولم يقل مرضيا ، فلم يأتِ باسم الفاعل ولم يأتِ باسم المفعول وانما جاء بكلمة "رضيا" التي تجمع بين هذا وذاك .

هنا نجد ان الله سبحانه وتعالى الجواب سريعا ومباشرا ، فلم يقل : قلنا يا زكريا انا نبشرك .. إنما جاء النداء سريعا مع البشرى بالغلام " يا زكريا انا نبشرك بغلام " وسماه الله تعالى يحيى ، وأنعم به من اسم " بغلام اسمه يحيى لن نجعل له من قبل سميا "

إنّ الانسان مهما سما وعلا فانه يبقى انساناً ، وانظر معي ما قاله سيدنا زكريا ابتداءً ، قال ابتداءً اشتعل شيب راسي وكانت زوجتي عاقرا ، فقدّم عذره على عذر امرأته ، ولما بُشِّرَ بيحيى تعجب وقدّم عذر امرأته على عذره قائلاً " أتى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ؟ " ولعله ظنّ أن عليه أن يتزوج امرأة صغيرة تنجب له طفلاً ، فزوجته اجتمع فيها خصلتان تجعلانها لا تنجب : عاقر وعجوز ، فنبهه الله تعالى أنه قادر على كل شيء وعلى الإنسان المسلم وغير المسلم أن يعلم أن من خلقك من نطفة قادر على أن يفعل ما يريد " قال ربك هو عليّ هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . " إن الله عز وجل يفعل ما يشاء

هذه بعض الملامح التربوية الرائعة ، وقصة سيدنا زكريا رائعة ماثرة ... بقي شيء أريد ان اقله : إن العامل قد يأخذ إجازة يرتاح فيها من وعناء العمل لكن الداعية لا يعرف الراحة في إجازته ، بل إن العمل بالدعوة ديدنه وزكريا عليه السلام حين لم يستطع أن يتكلم حين حملت زوجته - وهذا إيذان بحملها - قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً " لم يسترح بل ظل يدعو بالإشارة " فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا " هو ما يزال في عمل ، وفعله هذا لا يكون إلا من الانسان الذي سكن الايمان قلبه .

المقدم : وهذا ما جرى لسيدنا زكريا كان قمة الادب وقمة المناجاة مع الله سبحانه وتعالى بأسلوب قرآني فريد عبّر عنه الله سبحانه وتعالى - ...دكتور هناك أمور كثيرة تتعلق بسيدنا موسى عليه السلام هناك أمور تتعلق بسيدنا داود وسليمان أشرت اليها في كتاب تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم سنأتي اليها إن شاء الله ، لكن اسمح لنا بفواصل مشاهدين الكرام ثم نواصل ابقوا معنا .

من جديد أهلا بكم مشاهدين الكرام لنناقش في هذه الحلقة من برنامج (بين السطور) كتاب

تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم للأستاذ الدكتور عثمان مكانسي. - دكتور قبل الفاصل قلنا سنتطرق إلى أمور ذكرتها في كتاب تأملات تربوية ، من هذه الأمور التي أشرت إليها والتي ركزت عليها في الكتاب حوارٌ جرى بين موسى وفرعون ، وكما نعلم فإن هذه الحوارات التي جرت في سور كثيرة وفيها تفصيلات كثيرة لكن لماذا استهدفت سورة الشعراء في هذا الحوار وما جرى بين سيدنا موسى (عليه السلام) وبين فرعون

الدكتور عثمان قدرى : بسم الله الرحمن الرحيم ، قلت ك إن الحوار أسلوب تربوي رائع وتناولته في مواقف عدة في القرآن الكريم ، لكنني هنا رايتته رائعا جدا وكل القرآن رائع طبعا ، اخي الكريم إذا أردت أن ترسل إنسانا فلا بد من أن تختاره ولا بد من تحديد الهدف ولا بد من تحديد المرسل اليه لذلك قال الله تعالى فأتيا فرعون الحديث لموسى وهارون (عليهما السلام) حدد الرسولان وهم اثنان ، وقال : ائتيا فرعون ، فالمرسل اليه فرعون ، فقولا إنا رسول رب العالمين ، فالذي ارسلنا رب العالمين ، ما الأهداف ؟ إنها : أن ارسل معنا بني اسرائيل .

وبدأ الحوار الظالم المستبد ، يريد أن يتصيد ، يريد أن يكون عاليا دائما ، فماذا قال ؟ " ألم نربك فيك وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين " ؟فاجأه فرعون بطلقات كثيرة ، فالأولى أننا نعرفك فمن أين جئت بهذه الرسالة ؟ نحن الذين ربيناك هذه واحدة ، ونعرف أخلاقك نعرف من أنت لأنك عشت معنا سنين طويلة ، ثم قابلت العمل الحسن والتربية بان قتلت واحداً منا . والفرق بين فعلتك بفتح الفاء وفعلتك بكسر الفاء كبير فالأولى تدل على الفعلة المعروفة - قتل القبطي - والثانية مصدر للفعل قتل ، وفتح الفاء " فعلتك " أشد وقعا وإيلاما لقتلت فرعون يصفه بالقاتل الذي عمل فعلاً شنيعاً وفرذ هارياً ، ومن يفعل جرماً كهذا لا يستحق أن يكون نبياً ويدعى صفات لا ينبغي أن تكون له !

ثم قال : وانت كافر تريد الان أن تكون رسولا لإله لا نعرفه؟! أنا الإله هو الإله ! وهاجمه هجوما عنيفاً . " ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ! " فماذا كان جواب سيدنا موسى ؟ " قال فعلتها اذاً وانا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين " إن الاعتراف بالخطأ فضيلة وفي سورة القصص " قال ربي إني ظلمت

نفسى فاعفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم " إلا أنه ردّ التهمة بذكاء نبوي رائع فقال : لم أكن كافرا إنما كنت ضالا والفرق كبير بين الضال والكافر، فالضال هو الذي يبحث عن الحقيقة والني عليه الصلاة والسلام كان ضالا ووجدك ضالا فهدى فهو يبحث عن الحقيقة إلى أن هداه الله إليها ودلّه عليها ، كما هدى الله عز وجل الأنبياء جميعا وفي مقدمتهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .. وانا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم ، ولمّ خاف ؟ لان فرعون كان ظالما ، يقتل دون تبين للحقيقة . " فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين " وما يوهب الحكم - النبوة والحكمة - الا حينما يكون الانسان مؤهلا ويملا قلبه الايمان . ثم ثنى عليه قائلاً " وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني اسرائيل؟! " إنني قتلت واحداً خطأ أما أنت فاستعبدت بني اسرائيل جميعا ، وقتلت عشرات الآلاف منهم ! أفكّل الذي فعلته أنت يا فرعون من الظلم يُنسى وأنا الذي قتلت هذا الفتى دون قصد أعاقب؟! هذا يذكرني بقول الشاعر

قتل أمرئٍ في غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

هذا ما يفعله المجرمون في بلادنا من الشرق الى الغرب هذه الأيام ... إن موسى عليه السلام رد عليه فافحمه ، ورأيناه يعرف من أين يؤكل الكتف .

ويريد فرعون أن يهزأ بموسى وربّ موسى ، وهذا دأب الفارغين المتسلطين ، فيسأل : " وما رب العالمين " فاستفهم بما - وهي لغير العاقل - ولم يقل : من رب العالمين ، وتناسى موسى الأمر ، فهولا يريد أن يفتح أبواباً من اللجاج لا حاجة لفتحها، بل يريد أن يصل إلى هدفه ، فقال بجيياً : " رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين " فاذا كان الله عز وجل رب السموات والأرض وما بينهما لم يبق شيء لفرعون ، وعلى هذا فموسى أفحم فرعون وعزّاه ، فجعله عبدا حينما قال إن الله هو رب السموات والأرض وما بينهما ، ثم قال ان كنتم موقنين وهو يريد من الناس ان تفكر بعقلها ، وان تتحدث بقلبها ، فلو كانوا موقنين لعرفوا أن الله هو الله . وهنا نرى فرعون يستنجد بعبده! وإله يطلب النجدة من عباده ليس إلهاً . فالتفت إلى ملئه يقول لهم ألا تستمعون ، هذه القضية قضيتكم ، فأجيبوه . يريد أن يستشير هذه الغوغاء حوله ليكونوا معه في صف واحد ضد موسى لا يريد ان يكونوا متفرجين ، فالضعيف دائما يريد أن يكون الآخرون معه ، أما القوي الحجة فانه يقف صامدا ولو كان الجميع امامه وضده ، فسيدنا

موسى عرف ذلك من موقفهم ومن استعانة فرعون بهم فأردف : " قال ربكم ورب آبائكم الأولين " فالله تعالى ليس ربكم فقط ، إنه عز وجل رب الآباء جميعا ...

لم يبقَ لفرعون شيء يقوله هنا ، فبدأ يسخر من موسى ، ويتهمه بالجنون - دأب كل مفلس خانه الفهم وسقط في مضمار الحوار " قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لجنون " وفرعون بدّعي أن موسى يريد أن يزلّ الناس عن عبادة فرعون - الإله الحق!! وأن فرعون يعرف أساليب موسى في إضلال الناس فلينتبهوا !! انا اعرفه انا الله او انا الرب هو يريد ان يغير دينكم لذا فانه رسولكم الذي أرسل إليكم !

لم يرد موسى عليه مباشرة ، اتجه إلى الملاء يخاطبهم كما فعل فرعون حين خاطبهم ، ولو قال له - مباشرة - بل انت مجنون لانتهى القاء فوراً كما يخطط فرعون أن ينتهي ، لقد رد له الصاع صاعين بطريقة أخرى ، فماذا قال ؟ " قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون " ولم يق : إن كنتم تدرّون أو ان كنتم تعلمون فأعطى المعنى نفسه فقال : إن كنتم تعقلون . ولا يقابل الجنون إلا العقلانية ، فقال ان كنتم تعقلون ، فاعقلوا واعلموا أن فرعون ليس إلها .

المقدم : دكتور ، عفوا، انّ من طبيعة موسى (عليه السلام) أنه كان ربما حاداً في التعامل مع فرعون فأتعجب أنه لم يرد عليه في حين انه في بعض المواقف قال : " إني لأظنك يا فرعون مثبورا " عندما قال له مسحور، فلماذا؟.

الدكتور عثمان قدرى: هي مواقف يا سيدي و ليست موقفاً واحداً بين فرعون وموسى (عليه السلام) وهارون (عليه السلام) وما قال اني لأظنك يا فرعون مثبورا إلا حينما غسل يده منه ، فهنا حتى اللحظة الأخيرة كان يدعو بالعقل لأنه يريد من الناس أن يؤمنوا قلبا وعقلا .

لم يستعمل موسى عليه السلام المعجزتين اللتين جاء بهما دليلاً على نبوته إلا حين رأى من فرعون وملئه جحوداً وإنكاراً ، ولم تتحرك القلوب ولم تتفكر العقول ، إنه كان يريد أن يؤمنوا قلوباً وعقولاً ، لا تعجباً لمعجزة أو خوفاً منها ، ولما هدد فرعون موسى بالسجن إن دعا إلى معتقده الجديد وسار على هديه اضطر موسى أن يخرج الآيتين اللتين تسلّح بهما ، لقد قال فرعون بعنجهية : " لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين " ولم يقل سأسجنك . إنه يسجن الكثير من الناس دون أن يأبه لحقوقهم الآدمية أو يكثرث لها ، لقد علم موسى رأى موسى (عليه السلام) أن الناقد والحوار لم يصلا الى نتيجة ، فلا بدّ

من آية مبينة ، إنني أريد أن أقول : ما ينبغي للداعية إذا كان معه حجة قوية غير عقلية أو منطقية أن يظهرها فوراً ، بل فليدعها للأخير ، ربما لا يحتاج إليها ، ف " قال أولو جنتك بشيء مبين " هنا توقف فرعون كاجماً شططه وكبرياءه ، " قال فأت به إن كنت من الصادقين " حتى هذه اللحظة يكذبه صراحة ، وهذا أسلوب المتكبر المتعجرف . " فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين "

إن المنطق يقول : بعد ذلك النقاش الحر العقلاني ان يكون إيمان وبعد هذه الحجة المبهرة أن يكون إيمان لكن المتكبر لا يلقي سلاحه فوراً ، فالكفر معشعش في قلبه ، إن فرعون بعد رأى المعجزتين الباهرتين وصم موسى عليه السلام بالسحر ، " إنه لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون " وانظر معي إلى الإله " الديموقراطي " الذي يستشير جماعته ويقول ماذا تأمرون ، رب يستعين بمخلوقاته ليس إلهاً ...

و تبدأ القصة الأخرى ويبدأ الحوار الآخر فأنظر يا اخي الكريم هذا الحوار الذي اخترته لك لترى أن موسى عليه الصلاة والسلام في هذه الآيات كان يجيب إجابات تدل عن ذكاء لا نقول عبقرية ، فالعباقرة غير الأنبياء ، إن الأنبياء لا يتكلمون إلا كلام الله وبعلم الله سبحانه وتعالى لأنهم لا ينطقون عن الهوى .

المقدم : طيب دكتور بعد كل هذا الحوار الذي جرى بين سيدنا موسى عليه السلام وبين فرعون و ما كانت النتائج ؟ تجد أن خطاب سيدنا موسى قمة في الادب وكان في قمة العقلانية وأتى بالحجة تلو الحجج لكن الإنسان كما ذكرت قفل عقله ولا يستطيع أن يدرك ما يريد منه القائل ... فإذا انتقلنا - دكتور- من خلال كتابك وانتقالك من سورة لأخرى لهذه التأملات التربوية التي أشرت اليها في كتابك أيضاً استوقفنا قصة تتعلق بنبيين من أنبياء الله عز وجل هما داوود وسليمان عليهما السلام وطلب أن يجعل أحدهما خليفة أن تكون له تلك المكانة عند الله سبحانه وتعالى خليفة في الارض وبعد ذلك استجاب الله سبحانه وتعالى أين نجد الملمح التربوي الذي أشرت اليه في كتابك في هذه القصة

الدكتور عثمان قدرى : هي ملامح وليس ملمحا واحدا تبدأ بان داوود عليه السلام كان يتعبد

وحوله الجند لا يدخلون أو لا يسمحون بان يدخل أحد عليه

المقدم: سيدنا سليمان؟

الدكتور عثمان قدرى : سيدنا داوود عليه السلام تسألني عن سيدنا داوود

المقدم : اذا بدأنا بداوود او سليمان ما في مشكلة

الدكتور عثمان قدرى : سيدنا داوود عليه السلام كان يتعبد فدخل عليه أناس " وهل أتاك نبأ

الخصم إذ تسوروا المحراب " ، ليس الداخِل واحداً واحداً والخصم اسم جنس والدليل على ذلك قوله " تسوروا " المحراب فجاءوا مجموعة بأمر من الله يختبرونه لانه خليفة في الارض فلا بد أن يحكم بالعدل فأمره أن يحكم به ولا يشطط وقالوا اهدنا الى سواء الصراط ، فطالبوه أن يستمع اليهم وان يحكم بالعدل وان لا يميل يميناً أو شمالاً .. من الذي كان يتكلم هذا الكلام لم يكونا اثنين فقط ، وكانوا مجموعة جاءت جاهة ، وتصور أن هناك جاهة خمسة ستة ، رئيس القوم يتكلم فلما انتهى جاء الأول يتكلم ويشتكى أخاه فله تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقط وطمع بالواحدة يضمها إلى قطيعه وشدد عليّ في الطلب .. قبل قليل قيل له اعدل ، ولا تشطط ، وادرس الأمر دراسة جيدة ، فنتسي تلك الوصايا ، وحكم قائلاً : " قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه " والمعروف لدى القضاة أنه إن جاءك رجل فقئت عينه فلا تحكم له إلا بعد أن ترى الخصم وتسمع له ، فلربما فقئت عيناه . فأن كثير من الخلطاء ليظلم بعضهم بعضاً.

لم يستفد داوود من النصيحة ، فحكم فرل في حكمه ، وخرج الجميع سريعاً كما دخلوا سريعاً فعرف أنهم ملائكة جاءوا يختبرونه ، فخر ساجداً يسأل الله تعالى العفو والمغفرة ، إن على القاضي او الحاكم ان يكون عادلا ، أذكر ان أحد التابعين اختصم إليه اثنان أحدهما صاحب له أو قريب ، فتمنى ان يكون الحق لقريبه أو صاحبه ، وحكم بالحق دون أن يميل إلى صاحبه فكان الحق للآخر ، إلا أن القاضي كان يشعر أن ميله هذا كان خطأ جسيماً .

المقدم : طيب دكتور بالانتقال الى السور التي ذكرتها في الكتاب ضمن تأملات تربوية هناك سؤال

فعلا استوقفني أثناء قراءتي لهذا الكتاب يتعلق بقضية علاقة بين التصوير والتربية

الدكتور عثمان قدرى : التصوير الفني هو جزء من البلاغة وكلما كانت الصورة جلية واضحة وصل

من تكلمه إلى الفكرة ببساطة وسهولة . إنك في التصوير تعرض الموضوع بالصورة والصوت والحركة . ولتوضيح أثر الصورة في التربية تعالّ معي سيدي الكريم إلى وصف المنافقين في سورة البقرة : " مثلهم

كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون " ذلك أن المنافقين امنوا ، فوصلوا إلى مستوى مضيء من الإيمان ولكنه سرعان ما ذهب وهنا يمثل هذه الومضة الإيمانية بضوء تلاشى فأعقب ظلاماً شديداً ، وانظر إلى سورة أخرى في وصف المنافقين " كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق فتكاتف على الإنسان امور ثلاث أتعبته ، يومض البرق فلا يرى لأن الإنسان يغمض عينيه في البريق الشديد الضوء الذي يكاد يعميه ، فإذا ما ذهب البرق اشتد الظلام فالإنسان ان كان يرى في الظلام قليلاً ما عاد يرى مطلقاً لأن الشبكة تكبر وتصغر و وقد يصاب بالعمى فهذا المنافق في هذه الحال التي يعيش فيها من نفاق وكذب وافتنات على الله سبحانه وتعالى مثله في ذنوباته بين الإيمان والكفر قبل أن يستقر على الكفر كهذه الصورة التي ترسم البرق والظلام والرعد ، فيعيش حياة ظلم وفساد مخيفين.

المقدم : وهذه التصويرات القرآنية في الجوانب التربوية لها وقع أكثر من جانب تربوية ربما يكون مجرد

لتشبيه صورة معينة تكون اقرب الى ذهن القراء ولهذا يستخدمها القرآن

الدكتور عثمان قدرى : ونحن نعيشها ، نعيش البرق والرعد ونعرفه فعندما يصور القرآن حالة المنافق

بصورة قريبة إلينا نعرفها ، ولعلنا عايشناها كثيراً ، عرفنا نفسية المنافق وفهمناها واضحة .

المقدم : دكتور بالانتقال الى سورة اخرى من سور القرآن الكريم التي أشرت اليها بكتاب " تأملات تربوية في

سور من القرآن الكريم " وهي سورة النور ما كنت أظن في يوم من الأيام أن أقرأ في كتاب من الكتب أن

الإثارة تعتبر أسلوباً تربوياً من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم وجاءت آيات في سورة النور تدل على

هذا الشيء وأنت ذكرت هذا في كتابك

الدكتور عثمان قدرى : نعم يا سيدي نعم هناك آيات كثيرة منها مثلاً " لولا جاءوا عليه بأربعة

شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون " فحينما قال الله فأولئك عند الله هم الكاذبون

قلت : لا أحب أن أكون كاذباً فهذه الجملة أثارت فيّ حباً للصدق ، واخترت الصدق لنفسي " ولولا اذ

سمعتوه قلت ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا مثله ان كنتم

مؤمنين " ان كنتم مؤمنين !! ينبغي عليكم ان لا تعودوا مثله .. يا رب نحن مؤمنون ، ولن نعود مثله هذا

الذي أحببت أن أوصله للقارئ ، إنه فنّ الإثارة " ألا تحبون أن يغفر الله لكم " بلى يارب نحب أن تغفر

المقدم : يعني التساؤلات كثيرة ، وللسامع أن يجد إجابة مقنعة .

الدكتور عثمان قدرى : لا بد إن لم يجد الإجابة في الآية أن يجد الإجابة في نفسه لان الانسان المؤمن دائما حريص على إرضاء الله سبحانه ألا ترانا حين نقرأ قوله تعالى " الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات " قلت في نفسك يا ربّ إني أرجو أن لا أكون من الخبيثين، وأود من كل قلبي أن أكون من الطيبين . إن للإثارة دورها في التربية فهي تجعلك ترفض السوء وتبحث عن الصواب ، إنها نوع من التحديس ، أو من التهيج كما يقول القرطبي رحمه الله

المقدم : طيب دكتور ايضاً في كتابك وانت تتحول بين سور القران الكريم استوقفتك في الكتاب سورة الفرقان ليس معظم سورة الفرقان وانما استوقفتك الجزء الاخير من سورة الفرقان الذي يذكر الله سبحانه وتعالى فيه صفات عباد الرحمن الملامح التربوية نريد ان نتمثل هذه الصفات التي ذكرتها في الكتاب والتي علقت عليها يعني هنالك من يقول ان الانسان المسلم يقوم بالعبادة و" خلص " ويروح يجلس في بيته فهذه الصفات كيف يمكن ان ننزلها على ارض الواقع ان تكون قرانا يشمي على الارض .

الدكتور عثمان قدرى : حقيقة في هذا الزمن الكئيب يرضى الانسان بالقليل ، الا يقول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتهما واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

يعني لو سألتني الآن أو سألت أي إنسان : كيف انت ؟ قال : الحمد لله ويقبل يده ويضعها على راسه ويقول بخير أعمل واصرف على نفسي ، ولا أحتاج أحداً سوى الله تعالى ، وعندني أولادي ن وبيتنا ملك ولا أريد أكثر من هذا ... ونسي دور المسلم دور المسلم ان يكون انسانا يدعو الى الله عز وجل يظهر الصورة الايجابية المشرقة للإنسان المسلم ، فيساعد إخوانه ، ويساعد الناس ، ويقدم المعونة ، ويكون له اثر كبير في هذا المجتمع ... هكذا ينبغي ان يكون الانسان المسلم .. فأين نحن من هؤلاء يا أخي الفاضل؟!!

المقدم : وجمالية النسبة كما اشرت في كتابك جمالية النسبة الى الله سبحانه وتعالى عباد الرحمن تأتي

الى صفاتهم نأخذ صفة صفة.

الدكتور عثمان قدرى : لتتذكر أن كلمتي الرحمن والرحيم جذرهما واحد ، إلا أن من جمال اللغة

العربية - لغة القرآن - أن كلاً منهما تعطي معنى آخر ، فالرحمن تعطي معاني القوة والجبروت والعظمة والجلال واليمنة والسيطرة .. وكلمة الرحيم تعطي معاني اللطف والحنان والرحمة واللين والغفران ... وعلى هذا لم يقل وعباد الرحيم ، إنما قال عباد الرحمن . وكأن الرحمن تساوي كلمة الله في معناها الكبير .؟

المقدم : دكتور سوف نأخذ صفتين بسبب ضيق الوقت

الدكتور عثمان قدرى : صفتين نمسك الأولى مثلاً " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً "

فليس المقصود بالهون التهاون والتماوت فالمسلم عزيز الجانب ، كما أنه ليس من الأدب أن يشمخ المسلم فيمشي باستعلاء يضرب الأرض بقدميه ، وما أجمل قول المعري يخاطب المسلم الواعي العاقل :

خفف الوطأ ، ما أظنّ أديم ال أرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدّم العهد هواناً الآباء والأجداد

سر إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

أول صفة لعباد الرحمن أنهم لطيفون يمشون دون تكبر، هوناً على الأرض ، وقد يقول أحدهم : وهل

يمشي الإنسان على غير الأرض فأقول : أرى ذكر كلمة الأرض يوحي باننا منها خلقنا وإليها نعود ومنها

نبعث . فهي أمانة الكبيرة التي ينبغي أن لا نتكبر على ظهرها .

والصفة الثانية أن الجاهلين حين يُخطئون بحقهم يصفحون عنهم ويحسنون صحبتهم ، فإن قيل إن

بدء الحديث من الداعية ، فنحن الدعاة نبدأ دعوة الناس ومنهم الجاهلون ، فلماذا ذكر القرآن أن الجاهلين

هم الذين يخاطبون الداعية المسلم - ابتداء- ويغلظون له القول ؟ أقول : إن للجاهل بداوة أحياناً قبل ان

تدعوه ، فيسمعك قارص الكلام ويسب ويشتم فاذا بدا منه ذلك فاصمت إلى أن ينتهي ، فإنك إن

نزلت إلى مستواه كنت مثله ، ولم تستطع بعد ذلك أن ترقى إلى أن تكون داعية يسمع لك .

المقدم: دكتور ، إننا مضطرون لإنهاء هذه الحلقة بسبب انتهاء الوقت لكن هناك تأملات كثيرة

اشرت إليها في كتابك ضمن ١٤ سورة التي تعرفت إليها كنا نتمنى ان نتكلم عن التصوير المخيف وكنا

نتمنى ايضاً ان نتكلم عن التكرار ... إنه كتاب ممتع ومفيد استمتعت خلال هذه الفترة وانا اقرا هذا

الكتاب الدكتور عثمان مكانسي شكراً جزيلاً لك على هذه المشاركة

الدكتور عثمان قدرى : شكر الله لكم وأحسن اليكم وبارك الله فيكم .

الفهرس العام

٣ المقدمة
٦ ❖ تأملات تربوية في سورة هود (١)
١٢ ❖ تأملات تربوية في سورة هود (٢)
١٨ ❖ تأملات تربوية في سورة هود (٣)
٢٤ ❖ تأملات تربوية في سورة يوسف (١)
٣١ ❖ تأملات تربوية في سورة يوسف (٢)
٣٦ ❖ تأملات تربوية في سورة يوسف (٣)
٤٣ ❖ تأملات تربوية في سورة يوسف (٤)
٤٧ ❖ تأملات تربوية في سورة الحجر (١)
٥٢ ❖ تأملات تربوية في سورة الحجر (٢)
٥٩ ❖ تأملات تربوية في سورة الكهف
٦٠ ● المحور الأول: تأملات تربوية في قصة أهل الكهف
٦٥ ● المحور الثاني : تأملات تربوية في (صاحب الجننتين)
٦٩ ● المحور الثالث: تأملات تربوية في قصة موسى والرجل الصالح
٧٦ ● المحور الرابع: تأملات تربوية في قصة ذي القرنين
٨٣ ❖ تأملات تربوية في سورة مريم (١)
٨٩ ❖ تأملات في سورة مريم (٢)
٩٤ ❖ تأملات تربوية في سورة مريم (٣)
٩٨ ❖ تأملات تربوية في سورة مريم (٤)
١٠٣ ❖ تأملات تربوية في سورة طه (١)
١٠٩ ❖ تأملات في سورة طه (٢)
١١٤ ❖ تأملات تربوية في سورة طه (٣)
١١٩ ❖ تأملات تربوية في سورة طه (٤)
١٢٥ ❖ تأملات تربوية في سورة الأنبياء (١)

١٣٠	❖ تأملات في سورة الأنبياء (٢)
١٣٤	❖ تأملات تربوية في سورة النور (١)
١٤٤	❖ تأملات تربوية في سورة النور (٢)
١٥٢	❖ تأملات تربوية في سورة الفرقان (١)
١٥٨	❖ تأملات تربوية في سورة الفرقان (٢)
١٧٣	❖ تأملات تربوية في سورة الشعراء (١)
١٨١	❖ تأملات تربوية في سورة الشعراء (٢)
١٨٩	❖ تأملات تربوية في سورة النمل (١)
١٩٩	❖ تأملات تربوية في سورة النمل (٢)
٢٠٤	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (١)
٢٠٩	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (٢)
٢١٣	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (٣)
٢١٧	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (٤)
٢٢١	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (٥)
٢٢٥	❖ تأملات تربوية في سورة ص (١)
٢٣١	❖ تأملات تربوية في سورة ص (٢)
٢٣٦	❖ تأملات تربوية في سورة ص (٣)
٢٤١	❖ تأملات تربوية في سورة ص (٤)
٢٤٥	❖ تأملات تربوية في سورة الزخرف (١)
٢٤٩	❖ تأملات تربوية في سورة الزخرف (٢)
٢٥٤	❖ تأملات تربوية في سورة الحجرات
٢٦٢	❖ تأملات تربوية في سورة القمر
٢٦٧	❖ لقاء للدكتور عثمان قدرى مكناسي في قناة بغداد الفضائية آب ٢٠٠٩
٢٨١	الفهرس العام

تأملات تربوية
في سور من القرآن الكريم
(الجزء الثاني)

الدكتور
عثمان قدرى مكانسي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

ما أروع العيش في ظلال القرآن الكريم !!

تنهل من معينه الادب والاخلاق

وتغوص في معانيه مستنبطاً متذوقاً

تضع يدك على بعض كنوزه ،

ترتوي من ينابيعه الثرة غذاءً الروح الذي يخلق بك في سماوات الفهم، وروعة التفكير والتدبر

يأخذ بيدك إلى حدائق رياضٍ فتشعر باقترابك من جنة الرضوان ونعيم الخلود!!!

تحيط بك أنوار الرحمن ، فيأنس قلبك في محرابه ، وترتاح نفسك إلى ضيائه.

تشتاق رؤية الحبيب وصحبه وصالحى المسلمين ،

بل أنت معهم في ضيافة الرحمن ..

وأكرم بصحبة الأخيار في ضيافة الرحمن ..

مع سورة الفاتحة (١)

عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {الحمد لله رب العالمين} أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني"

وهي الوافية والكافية قرأها رسول الله ثم قال : هي سبعٌ يا أم سلمة . أي سبع آيات وأخرج مسلم والنسائي وابن حبان والطبراني والحاكم عن ابن عباس قال "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وعنده جبريل إذ سمع نقيضا من السماء من فوق، (جلبة قوية) فرجع جبريل بصره إلى السماء فقال: يا محمد هذا ملك قد نزل ، لم ينزل إلى الأرض قط، قال: فأتى النبيّ فسلم عليه فقال: أبشّر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ من قبلك. فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفا إلا أوتيته". وأخرج أبو عبيدة وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية ثلاثين راكبا، فنزلنا بقوم من العرب، فسألناهم أن يضيفونا فأبوا، فلدغ سيدهم فأتونا فقالوا: أفيكم أحدٌ يرقى من العقرب؟ فقلت: نعم أنا. ولكن لا أفعل حتى تعطونا شيئا قالوا: فإننا نعطيكم ثلاثين شاة فقال: فقرأت عليها {الحمد} سبع مرات فبرأ، فلما قبضنا الغنم عرض في أنفسنا منها، فكففنا حتى أتينا النبي، فذكرنا ذلك له قال "أما علمت أنها رقية! اقتسموها واضربوا لي معكم بسهم".

وأخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان بسند جيد عن عبد الله بن جابر أن رسول الله قال له "ألا أخبرك بأخير سورة نزلت في القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: فاتحة الكتاب. وأحسبه قال: فيها شفاء من كل داء".

وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: أمرني رسول الله ، قال "كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج". (والخداج النقصان)

عن أبي هريرة قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل "قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرءوا... يقول العبد {الحمد لله رب العالمين} فيقول الله: حمدني عبدي. ويقول العبد {الرحمن

الرحيم} فيقول الله: أثنى علي عبدي. ويقول العبد {مالك يوم الدين} فيقول الله مجدي عبدي، ويقول العبد {إياك نعبد وإياك نستعين} فيقول الله: هذا بيني وبين عبدي، أولها لي وآخرها لعبدي وله ما سأل. ويقول العبد {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} فيقول الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل". (من الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي)

يقرأها الإنسان في اليوم عشرات المرات

- يقرأها في الفرض سبع عشرة مرة .
- يقرأها في السنة المؤكدة عشر مرات .
- يقرأها في السنة غير المؤكدة ست مرات .
- يقرأها في النوافل ما شاء الله له أن يقرأها .
- يقرأها في غير الصلوات ما شاء الله له أن يقرأها .

بسم الله

- كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بسم الله فهو أقطع.
- الاسم من الوسم أو من السمو ، وكلا الأمرين حقيق بالاسم.
- من السمو: (فع) ومن الوسم (عل) .
- الله : من (ألّه) والوزن : (العال) ، حذف فاء الإله . وتصوروا أن الوزن الصرفيّ يدل على

العلوّ (العال)

- الإله من يستحق العبادة فهو الخالق العظيم.

الرحمن الرحيم

إن جذر كلمتي " الرحمن والرحيم " هو -رحم - ومع ذلك فإن كل واحدة تمتاز بسمات خاصة ، وهذا من جمال اللغة العربية وروعيتها ، ولهذا مدح الله تعالى هذه اللغة مرات عديدة في كتابه الكريم . قال تعالى " نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين " وقال " إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون".

فالرحمن : كلمة تدل على القوة والعظمة ، والقدرة والقهر ، والسيطرة والهيمنة . ونجدها تردُّ مع

العذاب وتهديد العصي والمشرک وتهديد الکافر ، وترد مع الدعوة إلى الإيمان بالرحمن والسجود له .. مثال ذلك:

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً
إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب
ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقیض له شيطاناً فهو له قرين
أمّن هذا الذي ينصرکم من دون الرحمن ؟
قل : هو الرحمن آمنّا به ، وعليه توکلنا .

وهي الكلمة الوحيدة من أسماء الله الحسنى التي تقوم مقام كلمة " الله "

والرحيم : كلمة تدل على اللطف والرحمة ، والعطف والغفران ، والسماح والصفح .. ونجدها في كل الآيات الداعية إلى الإيمان والاستغفار والتوبة ، تردّ مع الحلم والمغفرة والعفو و..... مثال ذلك في الآيات التالية:

فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم
فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم
أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم
واستغفروا ربکم ، ثم توبوا إليه ، إن ربی رحيم ودود
إن ربکم لرؤوف رحيم
وقد تردان معاً لتدلا على الأمر كله :

إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم

وإلهکم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم

- والملاحظ أن الصفتين حين تجتمعان ترى كلمة الرحمن قبل كلمة الرحيم . فهو الذي يفعل

ما يشاء ويقدر عليه ولا يحتاج لأحد (هو الصمد) ، وهو رحيم بعباده حين يقبلون عليه سبحانه .

الحمد لله رب العالمين :

- ال: الحمد (للاستغراق. ال: الجنس) .. كل الحمد لله تعالى وحده.
- لماذا لا أقول : حمدي لله. (ابن قيم الجوزية رحمه الله ينبه إلى أن تعظيم الله أن أخاطبه باسم البشرية كلها وأنا واقف أمامه ، وكل منا يستحضر إخوانه ويخاطب ربه بألستهم جميعاً . والدليل على ذلك في هذه السورة مخاطبة العبد ربه بصيغة الجمع (إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم)
- لماذا لم أقل : أحمد الله رب العالمين. بالفعل المضارع.؟ إن الحمد اسم يدل على الثبات واستغراق الأزمنة كلها ، والفعل يدل على الحدوث في الحاضر ، والثبات أقوى من الحدوث وأعم .
- الفرق بين الحمد والشكر :
- الشكر على الخير " وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم.
- الحمد على السراء والضراء ، فهي أعم من الشكر .
- والسور الخمس في القرآن التي بدأت بالحمد هي: (الفاحة الأنعام الكهف فاطر سبأ) .
- ففي الفاتحة : (الحمد لله رب العالمين)
- وفي الأنعام (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)
- وفي الكهف (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً)
- وفي فاطر (الحمد لله فاطر السماوات والأرض)
- وفي سبأ (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير)
- اللام لام الملكية (لله) فالذي يستحق الحمد هو الله تعالى ، والحمد كله لمولانا.
- ربّ من الربوبية فهو الخالق والرازق والمنعم والمتفضل.
- ومن التربية والتنمية والعطاء .
- ولأنه رب العالمين (من الربوبية) . وأغلب الناس حتى الكفار يقرون لله بربوبيته ويعترفون أنه خالقهم ورازقهم والمتفضل عليهم .

- لكنّ المسلمين فقط يقرون له (بالألوهية) وأنه وحده يستحق العبادة ، ولا تكون العبادة لله إلا بالطاعة والعمل بشرعه سبحانه ، فنعمل بما أمر و ننتهي عما نهى .

العالمين :

- أهنالك عالم واحد أو أكثر من عالم ، فقد قال : رب العالمين ...
- قد يكون المقصود بالعالمين : عالم الأنس وعالم الجن وعالم الحيوان وعالم الجماد ، وعالم الحركة وعالم السكون.

- وقد يكون المقصود عوالم أخرى غير السموات والأرض . استدلالاً بقوله تعالى في سورة فصلت: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين)

- موسى يقول : يارب لو أنهما لم تأتيك طائعتين ما أنت فاعل بهما؟
قال : أسلط عليهما دابة من دوائيّ فتبتلعهما .

قال يارب : فأين دابتك؟

قال: في مرج من مروجي .

قال : يارب : فأين مروجك ؟ .

قال : في علم من علمي .

(من تفسير القرطبي)

سبحانه من إله .

- ولا ننسَ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو ذر وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة " ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، و فضلُ العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة"

- ملاحظة: الحلقة: الدائرة . جمعها حلق ، وحلقات .

والحلقةُ بفتح اللام: مجموعة الذين حلّقوا الشعر.

- كنت أقرأ في السبعينات من القرن الماضي في مجلة حضارة الإسلام أن قطر السماء الدنيا

سبعون مليار سنة ضوئية ، ونعلم أن سرعة الضوء في الثانية ثلاث مئة ألف كيلو متر فإذا ضربت هذا العدد بستين علمت سرعة الضوء في الدقيقة ،

فإذا ضربت الناتج بستين علمت سرعة الضوء في الساعة ،

فإذا ضربت الناتج بأربعة وعشرين علمت سرعة الضوء في يوم ،

فإذا ضربت الناتج بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً علمت سرعة الضوء في سنة ،

واضرب الناتج بعد ذلك بسبعين ملياراً ،

ثم قال العلماء : وقد يكون قطر السماء الدنيا أضعاف ذلك والله أعلم .

- وفي السنة الثانية من هذا القرن قدر العلماء قطر السماء الدنيا بمئة وأربعين مليار سنة ضوئية وقالوا : قد يكون قطرها أضعاف ذلك والله اعلم .

- وفي السنة الخامسة اكتشف العلماء مجرة جديدة قطرها خمسون مليار سنة ضوئية ، ولا ننس المسافة الهائلة بين المجرات وبين كل مجرة ومجرة سديم عظيم من الظلام. ..

- وهذا فقط في السماء الأولى .. فماذا نقول عن السماء الثانية التي تحيط بها ؟ وماذا نقول عن الثالثة التي تحيط بالثانية ؟ ... وعن السابعة التي تحيط بالسادسة ؟

" وما قدروا الله حق قدرة والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون"

فسبحان الخالق العظيم. ... سبحان الخالق العظيم....

مالك يوم الدين:

- هناك مالك وملك

- قد يملك المالك ولا يحكم .

- وقد يحكم الملك ولا يملك .

- لكن الله مالكٌ يملكُ وملكٌ يحكم .

- يوم الدين : يوم الخضوع لحكم الله تعالى : وسمي المدين هكذا مديناً لأنه يخضع للدائن.

وذلك اليوم (أطول يوم في الحياة) مقداره خمسون ألف سنة (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر

يومئذ لله .)

- وهذا تنبيه إلى الحساب والعقاب
- وأسلوب فيه ترغيب وترهيب.

إياك نعبد وإياك نستعين:

- نعبدك ونستعينك غير إياك نعبد وإياك نستعين.
- في الثانية أسلوب القصر، فلا عبادة إلا لله . وليست الأولى كذلك.
- وقدم ضمير النصب المنفصل على الفعل لقصر العبادة والاستعانة على الله تعالى .
- وقدمت العبادة على الاستعانة ، فَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ حَقَّ العبادة لم يستعِن بغيره.
- إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله .
- ولا ننس أن العبادة أفراد الله بالطاعة أمراً ونهياً . فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

اهدنا الصراط المستقيم:

- يأمرنا الله تعالى أن نضرع إليه في الهداية مراراً وتكراراً؟
- والمضحك أن نصرانياً سخر من المسلمين في إحدى غرف (البالتوك) إذ قال : إننا معشر النصارى هادون مهديّون . وأنتم يا مسلمون ضالون مضلون. والدليل على ذلك أنكم تطلبون الهداية بإلحاح في الفاتحة، ولو كنتم تشعرون بالهداية في جوانحك ما دأبتم على طلب الهداية !.
- فكان جوابي مختصراً: إن الهداية في أمور عدة وهي مطلوبة باستمرار ما دمنا على

أ- قيد الحياة ..

ملاحظة: القيد: بفتح القاف - ما يكبل به ويُقيّد.

والقيد بكسر القاف : القدر : قيد أملة (قدر)

١- فالهداية إيمان بالله لا ينقطع ،

٢- وطلبٌ من الله تعالى أن يحفظ علينا إيماننا فالإيمان يزيد بالتقوى ، وينقص بالخطايا ،

والقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ،

٣- ونحن ندعو بدعاء نبينا صلى الله عليه وسلم " يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا

على دينك " .

٤-ومن معاني الهداية أن نعمل بمقتضى الإيمان عبادة وسلوكاً فلا إيمان بلا عمل ولا عمل بغير الإيمان.

٥-وفي الغرّة نسأل الله أن يميّتنا على الإسلام .

ب بعد الموت ..

١-تكون الهداية بالثبات في سؤال القبر عن الإيمان بالله تعالى والإسلام ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

٢-ثم بالبعث مطمئنين إلى عفو الله الكريم حيث لا شمس ولا قمر وإنما لكل إنسان نور منبعث منه حسب قوة إيمانه في ظلام البعث والنشور ، قال تعالى: " يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير." .

٣-ويقول " يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ينادونهم : ألم نكن معكم؟! قالوا بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ، وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله ، وغرکم بالله العرور.

ملاحظة: الظرف : يوم: يستحضر الصورة من المستقبل إلى الحاضر وكأنها رأي العين ، للترغيب والترهيب ، ومثال ذلك قوله تعالى:

" يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم"

"يوم نقول لجهنم : هل امتلأت، وتقول : هل من مزيد؟"

" يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا ..."

٤-ومن الهداية أن يستظل المرء بظل عرش الرحمن في ذلك اليوم الطويل حين ترسل الشمس

قريبة من رؤوس الخلائق،

٥-ومن الهداية ذلك اليوم أن يأخذ المرء كتابه يمينه فيفوز فوزاً عظيماً ويحاسب حساباً يسيراً.

ملاحظة: كنت أتساءل : كيف يستطيع المرء حمل كتبه وهي من الضخامة بمكان؟! حتى جاء يوم رأينا فيه (الفلاش ميموري والسديوهات تحمل مكينات ضخمة برقائق بسيطة ، وهذا اكتشاف المخلوق ، فكيف بعظمة الخالق!؟

٦-ومن الهداية في ذلك اليوم أن تكون حسناته بفضل الله أكثر من سيئاته فينجو من النار .

٧-ومن الهداية أن يجوز الصراط المستقيم فينجو من السقوط في جهنم بفضل الله سبحانه .

٨-وأعظم هداية في الحياة كلها أن يفوز بجنة عرضها السموات والأرض وأن يحظى برؤية وجه

الله الكريم سبحانه ..

اللهم بلغنا ذلك يارب العالمين .

صراط الذين أنعمت عليهم :

- تعريف بالصراط الذي ينشده المسلم :
- هو الصراط المستقيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.
- إن الذين نالوا النعمة هم المؤمنون الموحدون
- والله تعالى هو الذي أنعم علينا بنور التوحيد ، ولولا الله ما هتدينا ولا صمنا ولا صلينا .
- ولا يدخل أحد الجنة بعمله حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر الحديث الشريف " ما منكم من أحد ينجي عمله ، قالوا : و لا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته.
- ولم يقل (غير الذين غضبت عليهم) تأدباً مع الله تعالى ، فلا ينسب الخير إلا إليه ، فقال: (أنعمت عليهم) ولم يقل (غضبت عليهم) .
- ومن هذا الأدب قوله تعالى(وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) والذي يريد الأمرين هو الله تعالى ، ولكن دُكرت إرادة الشر بضمير الغائب وذكر الخير بالفعل المبني للمعلوم.

- وفي قصة موسى مع الخضر (الرجل الصالح) نجده يقول (وما فعلته عن أمري) مع أنه نسب القتل لنفسه والإبدال لله ، وقال (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) فنسب الخير إلى الله تعالى ، مع أنه قال في نهاية الحديث : " وما فعلته عن أمري " فنبهنا إلى أن كل شيء بأمر الله ، وهذا أدب رائع للعبد مع الله تعالى .

غير المغضوب عليهم:

- من رضي الله عنه وأيده كان الجميع معه واقراً معي قوله تعالى (وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير) ولن يحتاج الله سبحانه لمؤيد وظهير ، إنما هو متابعة لما يريد الله تعالى من إعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم . ومثاله كذلك قوله تعالى : " من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكايل فإن الله عدو للكافرين " وكان يكفي أن يصل المعنى " من كان عدواً لله ... " ولكن جميع عباد الله يسلمون أمرهم لله ويرون أنفسهم عباداً لله يمشون كما يأمر ويريد ويرضى .

- إن في المبني للمجهول تهوداً على من غضب الله عليه وكرهه .

غير المغضوب عليهم ولا الضالين:

- الضال من حاد عن درب الهداية وفقد البوصلة فتاة في سراديب الكفر والضلال . ومنهم النصارى

- المغضوب عليه من خالف الحق وهو يعلمه ورضي الكفر وهو يستسيغه ، وهؤلاء اليهود عرفوا وأصروا على الكفر .

- وعلى هذا كان النصارى ضالين وكان اليهود مغضوباً عليهم .

- من هنا نفهم في آيتي الملاعنة لماذا لعن من رمى زوجته بالزنى وهو كاذب وغضب الله على المرأة التي ألحقت بزوجها ولداً من الزنى ليس هو أباه ، فهي تعلم أبا الطفل فطمست الحقيقة . " والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء ... والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين " ويدراً عنها العذاب أن تشهد والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . فكانت اللعنة له والغضب عليها .

بقي أن نقول : إن في فاتحة الكتاب أركانَ الإيمان :

- بالله تعالى وقد ذكر الله تعالى باسمه وبصفات أخرى في هذه السورة ، فهو الله الرحمن الرحيم ، الرب ، مالك يوم الدين .

- باليوم الآخر: في قوله مالك يوم الدين، فإنه نُقلب وهو يوم الحساب الذي لا بد من حصوله .

- بالرسل: من الذي عرفنا بالله تعالى وأوصل إلينا هذا الدين كاملاً وشهدنا له بالصدق

- بالملائكة: ومن الذي كان الصلة بين الخالق عز وجل وبين النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

إنه جبريل عليه السلام

- بالكتب: وما هذه السورة التي قرأناها وعشنا في ظلالها إلا سورة كريمة في كتاب ربنا سبحانه والإيمان بها يستدعي الإيمان بالكتاب الكريم الذي نزلت في ثنياه .

اللهم علمنا التأويل وفقهنا بدينك الرائع المبين

وقفه في: (الصراط المستقيم) (٢)

قرأ الجمهور " اهدنا الصراط المستقيم " بالصاد وقرئ السراط وقرئ بالزاي قال الفراء وهي لغة بني عذرة وبني كلب . وكان الثناء على المسئول تبارك وتعالى تقدّم في سورة الفاتحة ، وهذا الثناء المتقدم يسبق السؤال ، فقد ذكر المولى تعالى " فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبي ما سألت " .

ومن أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : " اهدنا الصراط المستقيم " لأنه أنجح للحاجة وأبجع للإجابة وقد أرشد الله إليه لأنه الأكمل .

١- وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه كما قال موسى عليه السلام " رب

إني لما أنزلت إلي من خير فقير "

٢- وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسئول كقول ذي النون " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت

من الظالمين "

٣- وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول كقول الشاعر :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أتى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا الإرشاد والتوفيق وقد تُعدى الهداية بنفسها كما هنا "اهدنا الصراط المستقيم" فأخذت مفعولاً به مباشراً، فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو اعطنا "وهديناه النجدين" أي بينا له الخير والشر

أ- وقد تُعدى بإلى إضافة إلى المفعول الأول كقوله تعالى: "اجتبه وهداه إلى صراط مستقيم" "فاهدوهم إلى صراط الجحيم" وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله: "وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم" وفي هذه الآية حذف المفعول الأول للعلم به.

ب- وقد تُعدى باللام كقول أهل الجنة "الحمد لله الذي هدانا لهذا" أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وذلك في لغة جميع العرب فمن ذلك قول جرير بن عطية الخنفي:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر. قال الإمام بن جرير: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامة أو اعوجاج فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه.

أما الصراط فقد اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسيره وإن كان يرجع معناها إلى شيء واحد وهو المتابعة لله وللرسول فروي:

١- أنه كتاب الله. فقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الصراط المستقيم كتاب الله" وقد تقدم في فضائل القرآن موقوفاً على علي رضي الله عنه.

٢- وقيل هو الإسلام. قال ابن عباس: قال جبريل لمحمد عليهما السلام "قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم" يقول ألهمنا الطريق الهادي وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس في قوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم" قال ذاك الإسلام وقال إسماعيل بن عبد

الرحمن السدي الكبير عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي " اهدنا الصراط المستقيم " قالوا هو الإسلام وقال عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر اهدنا الصراط المستقيم قال هو الإسلام أوسع مما بين السماء والأرض . وقال ابن الحنفية في قوله تعالى : " اهدنا الصراط المستقيم " قال هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم اهدنا الصراط المستقيم قال هو الإسلام . وعن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه - فإنك إن تفتحه تلجه - فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم " . وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث الليث بن سعد به . ورواه الترمذي والنسائي جميعا عن علي بن حجر عن بقية عن بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفيير عن النواس بن سمعان به . وهو إسناد حسن صحيح والله أعلم .

٣- وقال مجاهد " اهدنا الصراط المستقيم " قال الحق وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم .

٤- وعن أبي العالية " اهدنا الصراط المستقيم " قال هو النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه

من بعده قال عاصم فذكرنا ذلك للحسن فقال صدق أبو العالية ونصح .

وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة فإن من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم واقتدى بالذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا والله الحمد .

ويقول الإمام الطبري رحمه الله: " اهدنا الصراط المستقيم " - معناه: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل وذلك هو الصراط المستقيم لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام

وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمره الله به والانزجار عما زجره عنه واتباع منهاج النبي صلى الله عليه وسلم ومنهاج الخلفاء الأربعة وكل عبد صالح وكل ذلك من الصراط المستقيم. " فإن قيل " فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟ فالجواب أنّ العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها فإن العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمهده بالمعونة والثبات والتوفيق فالتسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار وقد قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل " الآية فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك .

وقال تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يقولوا " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب " وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرا فمعنى قوله تعالى : " اهدنا الصراط المستقيم " استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره ، والله أعلم.



في محراب موسى عليه السلام (١)

- ١- ألقى موسى في التابوت خوفاً أن يقتله فرعون... وحملته أمواج النهر إلى قصر فرعون ليعيش في حمايته وأكنافه .
- ٢- لم يدّخر فرعون وسعه في الحفاظ على ملكه ،فبدأ يقتل الأطفال تحسباً لكل طارئ ، وظن أنه قضى على غريمه أو كاد ، ولم يكن يدري أن قضاء الله يكمن في قصره.
- ٣- قد يأتي الأمان من قلب الخوف : "وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه ... إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ...وعدّ بعودته إلى أمه آمناً ، ووعدّ لها أن يكون رسولاً ، فعرفت أن لابنها شأنًا عظيمًا في النبوة ، فلا بدّ إذاً أن يحفظه الله ليكبر ويصبح نبياً رسولاً .
- ٤- أغلب الظنّ أن أم موسى أخبرت ابنها أن الله أوحى إليها أنه سيكون نبياً رسولاً . ورثته على الإيمان والتوحيد. ليكمل المهمة حين يستوي عوده.
- ٥- أمرها الله تعالى أن ترضعه قبل إلقائه في اليمّ ليتعرف عليها من بين عشرات المرضعات، فكان للرضعة الاولى بصمة اللقاء المرتقب.
- ٦- لا بأس من الخوف فهو سمة إنسانية ،على أن لا يشل التفكير ولا الحركة، وهذا لا يتأتى إلا بتقوية الإيمان وتثبيته في القلب. " وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إنّ كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين".
- ٧- متابعة الأمر وقوة الإيمان والرضا بالقدر يوصل للهدف : "وقالت لأخته قُصّيه" فلا ينبغي التهاون في العمل. فعلى الرغم ان الله تعالى وعدّها بإعادته إليها أمرت أخته أن تتابع مسيره في الماء والمكان الذي قد يقف عنده
- ٨- حسنُ التصرف والذكاءُ وسرعة البديهة مطلوبان فيمن يوكل بمهمة ما، فقد تدخلت الأخت في الوقت المناسب للدلالة على أمها مرضعةً مباركة مع التعليل الذكي المرضي والمقنع " ... وهم له ناصحون" في الوقت الذي احتارت فيه زوجة فرعون في تأمين المرضع المناسبة.
- ٩- وعدّ الله حق لا مرأ فيه ، هذا عند صاحب القلب المؤمن الذي يعلم أن ما قدره الله

كائن، فيرتاح إلى قضاء الله وتخطيطه " ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون " وسبب الجهل بهذه الحقيقة بعدُ الناس عن الله .

١٠- في قصة يوسف عليه السلام نقرأ قوله تعالى " ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً " وفي قصة موسى نجد كلمة " استوى " بعد كلمة " أشدّه " للدلالة أن يوسف نال النبوة فتي ، أما موسى فقد نالها شاباً بعد أن استوى ونضج . وقد وصف الله النبيين كليهما بصفة الإحسان . فما ينال الخير الصراح إلا من وصل في إيمانه درجة المحسن .

١١- ما دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها إلا لأنه كان مطروداً من قصر فرعون حين رفض عبادته وأعلن عبوديته لله ، وتابعه رجال الأمن خوف أن يلتقي بالناس فيؤثر في أفكارهم واعتقادهم . وهذا دأب الطغاة في كل زمان ومكان .

١٢- والداعية المؤمن يغتنم الفرص لإيصال الخير إلى الناس كلما سنحت له الفرصة ، ولا ننسى أن زكريا عليه السلام حين حملت زوجته فخفت صوته ثلاثة أيام كان يدعو الناس إلى التسبيح والذكر بالإشارة إذ كان صوته حبيساً .

١٣- مساعدة الضعفاء وإغاثة اللهفان واجب الجميع وخاصة القوي المتمكن حين يقع الظلم عليهم، ولكن بطريقة واعية مدروسة لا تترك أثراً سلبياً على أيٍّ من الطرفين المتنازعين .

١٤- الفيئ إلى الحق والاعتراف بالخطأ فضيلة المسلم الذي إن زلّ عاد إلى الصواب واستغفر الله وأصلح زلته ، فلما وكز موسى القبطي قتله دون ان يقصد ذلك فاستغفر ربه مقرأً بخطئه ، وعلم الله تعالى فيه الندم الصادق فغفر له .

١٥- إن الشيطان ليحري من ابن آدم مجرى الدم في العروق ، يهيّجه ويدعوه لكل مساءة ، فإذا زل أحدنا أو أخطأ ذكر الله وتاب وأناب، وعاهد الله أن لا يعود لزلته واجتهد في ذلك ، فإن عاد لضعفه واجترح خطيئة كان الاستغفار ديدنه والندم رفيقه والإقلاع عن الذنب هدفه .

١٦- بعض المفسرين يقولون : لم يكن موسى إذ ذاك نبياً ، فكيف عرف أن الله تعالى غفر له؟ " فغفر له إنه هو الغفور الرحيم " فالقول الاول أنه كان من " المحدّثين " تحدّثه الملائكة ، وكان هذا الأمر شائعاً في الصالحين من الأمم قبلنا ، وليس في المسلمين " محدّث " . أكدّه النبي صلى الله عليه وسلم في

الحديث الشريف الذي روته عائشة رضي الله عنها " قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يك في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب " المصدر: صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم: ٤٣٧٧ وبعضهم يقول إنه كان نبياً بدليل قوله تعالى : " ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ، ولم يكن رسولاً ، وصار رسولاً حين كلمه رب العزة وموسى عائد من فلسطين .. وأنا أميل إلى هذا القول لوجهته وما فيه من قوة الدليل.

١٧- يستعطف القبطي الثاني - على ظلمه - موسى حين رأى قوته وعلم أنه قتل قبطياً بالأمس، ويصف موسى بالجبروت والبعد عن الإصلاح ، وتناسى أنه ألجأ موسى إلى مساعدة اليهودي لأن القبطي يصر على استخدامه دون وجه حق. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يصور الإنسان راغباً بمصلحته دون مصالح الآخرين ، ويرى عيوبهم دون عيبه فيقول " يرى أحدكم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه"

١٨- المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه ولا يحقره ، فهذا الرجل الصالح من الأقباط ومن آل بيت فرعون يرى قومه يأترون لقتل موسى فينطلق إليه مسرعاً يحذره ، ويطلب إليه أن ينجو بنفسه، ولو استطاع أن يدافع عنه لفعل ، ويفعل المرء ما يقدر عليه ويُحسنه.

١٩- اللجوء إلى الله تعالى دأب المسلم ووسيلته في النجاة ، كما أنه يتخذ قراره السليم المناسب إما المواجهة وإما المدارة وإما التواري حتى حين ، فلا يجوز وهو في موقف ضعيف أن يستأسر ويتهاون، ينطلق موسى بعيداً عن سلطان الظالم إلى مدينة آمنة إلى أن يبسر له الله تعالى عودة آمنة ونصراً مؤزرًا.

٢٠- يصل موسى إلى المأمن القريب - مدين - جائعاً متعباً فريداً فارق الأهل والوطن ، يسأل الله التوفيق والهداية ، ولن يُضَيِّعه الله ، لأنه العبد الملتزم والمسلم المطيع، ولعل الله يُسَخِّر له أمراً يعبر منه إلى بر الأمان، وشاطئ السلامة.

٢١- المروءة التي يتحلى بها المرء باب إلى كل خير، وسلّم إلى المجد. والمسلم - وهو في حالة التعب والإرهاق والجوع - يأبى التعاضى عن سلبية تخدش مروءته ، ولئن رأى موسى بعض الرعاة يستأثرون بالماء دون امرأتين شريفتين ضعيفتين تذودان أغنامهما إنه لبيدل جهده في خدمتهما دون أن تطلباً مساعدته ، ولن تفعلا ، فهو غريب ، وقد يكون أنانياً على شاكلة الرعاة. هكذا ظننا ، ولعلهما

لم تراه ابتداءً.

٢٢- يسألها بأدب عن حالهما فتجيبانه باختصار غير مُخِلٍّ " لا نسقي حتى يُصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير" فليس لهما إخوة ذكور يرعون الماشية، وأبوهما كبير ضعيف ، ولا قدرة له على استئجار الرعاة ، فلا بد أن تقوما بالعمل، والشريفة تتحمل التأخر حتى المساء ، والعمل بجهد مُضنٍ على ان تفتح باباً ينفذ منه أولو النفوس المريضة.

٢٣- يسقي لهما دون أن يكلمهما ، ويأوي إلى ظل شجرة ، يستريح تحتها من وعثاء السفر، وتعودان مبكرتين - أو قل - في وقت مريح على غير الزمن الذي اعتاد أبوهما أن يراهما عائدتين فيه ويلجأ الشاب المؤمن إلى ربه يستغيثه " ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير" ، ولا ملجأ إلى الله في كل آن.

٢٤- ويأتيه المدد ، ويلوح له الفرغ ، فقد أخذ بالسبب إذ سقى للمرأتين ، وحين أخبرتا أباهما بما رأتا من حاله علم أنه غريب فأرسل إحدى ابنتيه إليه يستزيره، ولعله يستخدمه في رعي الماشية فتستريح ابتناه، فالمرأة للبيت والرجل للسعي والعمل خارج البيت.

٢٥- حياء الفتاة واضح في مشيتها نحوه، وليست هي الداعية إنما هو أبوها الذي أراد أن يجزيه أجر ما سقى لهما، وحرِيٌّ به أن يجيب دعوة الرجل.. ويكون بينهما حديث مستفيض ليس فيه سرٌّ يخفيه " قصّ عليه القصص" والقصص بفتح الصاد (القصة من أولها إلى آخرها)، فقد رأى موسى في الرجل سمات النبل والأخلاق وحسن الضيافة . والمصارحة سبيل الثقة والأمان، فنسمع كلمتين خفيفتين في اللفظ مليعتي المعنى " لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين."

٢٦- التقيا قلباً وحاجة ، فجمعهما الإيمان بالله والأخوة فيه ، وحاجة موسى للاستقرار والزواج والعمل، وحاجة الرجل الكبير لشاب أمين قوي يعتمد عليه في تحمل مسؤولية العمل ، ورأى كل منهما في الآخر مبتغاه .

٢٧- يختار الرجل لابنته الزوج الصالح كما يختار لولده الزوجة الصالحة سواء بسواء، فهو حريص على سعادة ابنته، ويرتأخ أن يصطفي لها من يضمها إليه بحب وحنان ورجولة . والعاقل من يختار ذا الخلق والدين " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه" ويتزوج موسى إحدى ابنتيه فيكون

واحداً من أسرته.

٢٨- أما المهر الذي دفعه موسى على مدى ثمانية أعوام - وإن جعلها موسى عشرة - فالعمل في خدمة الأسرة الكبيرة " إني أريد ان أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج " كان الرجل يود أن يكون المهر عشر سنوات لكنّه طلب ثمانية لأنه يعلم أن حب الوطن كبير ، وأن المرء حين يُمكن له العودة إلى وطنه ثم يجد عائقاً يتألم ، وقد يضعف عمله تبعاً لحالته النفسية " فإن أتممتَ عشرًا فمن عندك " فلمَ كان هذا التخيير؟

٢٩- حين يهرب الجاني خارج سيطرة الحاكم - في قانون فرعون - ثماني سنوات يسقط الحكم عليه بسبب التقادم فإن عاد فهو حرًا، والشيخ حريص على أن يعود موسى إلى وطنه وأهله في الوقت المناسب ، فالغربة قاتلة ، والغريب سجين في غرته وإن كان حرًا . لكنّ موسى أكمل السنوات العشر ، وهكذا الانبياء والدعاة ، يحبون الكمال.

٣٠- فماذا تقول في فراعين العصر الذين يبطشون ويقتلون ويدمرون، ولا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلوبهم السوداء المربدة؟ يحكمون على المسلم بالظن ، ويطاردونه عشرات السنين في كل أصقاع العالم، ويضيقون عليه في الحركة والرزق والاتصال، ويؤذونه في أهله وأقاربه وماله؟!



(... فَغَفَرَ لَهُ ...)

رأى موسى عليه السلام قبطياً وإسرائيلياً يقتتلان حين دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فاستغاثه الإسرائيلي - وكان أقباط مصر إذ ذاك يستدلون اليهود - فما كان من موسى عليه السلام - وهو شاب قويّ - إلا أن وكز القبطي فمات على فوره ، ولم يكن موسى عليه السلام يريد قتله ، لكنّ وكزته القوية كانت السبب في انتهاء أجله ،

شعر موسى الكرمُ بالحزن والأسى لأمر لم يكن يقصده ، إنه أراد أن يمنع أذى القبطي المعتدي عن الإسرائيلي ليس غير، فوجد نفسه يقتله ، فأقر أن هذا التسرع من عمل الشيطان عدوّ البشرية ، فهو يهيج في الإنسان غضبه فيفقد السيطرة على نفسه فيرتكب أخطاءه

" قال هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضل مبين "

فاستغفر ربّه نادماً من فعلته العفوية هذه:

" قال ربي اغفر لي "

قالها مخلصاً في دعائه واسفه ، وتوجه إليه سبحانه أن يقبل عثرته ويغفر ذنبه فجاءه الفضل من ربه

سريعاً

" فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. "

إن صاحب القلب المتصل بالله إن يخطئ فيتّب يقبل الله توبته ويقبل عثرته ، ويستشعر موسى فضل الله عليه فيعاهده تعالى أن لا يكون ظهيراً للمجرمين ، وأن يكون معيناً للمظلومين ، " قال ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين. "

عدت إلى التفاسير أستجلي الطريقة التي علم فيها موسى عليه السلام أن الله تعالى قد غفر له ،

فوجدتها في أكثر من جواب:

أولها : أن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن في الأمم قبلنا رجالاً صالحين كانت الملائكة تحدثهم وتسدد خطاهم وتؤانسهم أما في أمتنا فليس فيها هذا الصنف . والسبب في ذلك أن الإسلام دين كامل أتمه الله علينا " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي رضيت لكم الإسلام

ديناً " فلا مجال مطلقاً لزيادة المتخزّصين ، وكذب المدّعين ،

يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما ترويه السيدة عائشة رضي الله عنها:

" قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يك في أمّتي أحد منهم فهو عمر بن

الخطاب " صحيح الجامع للألباني الصفحة أو الرقم: ٤٣٧٧

وعلى هذا فلا نقبل دجالين يقولون : حدثني قلبي عن ربي ، ويعتبر نفسه موصولاً بالله يتلقى الوحي

عنه بقلبه الطاهر !!! ويتقول على الله الأقاويل ، فيفتن الناس ويدلّس عليهم دينهم.

ومن الأحاديث التي رأينا الرجل ممن قبلنا يسمع الملائكة تتحدث ما جاء في الحديث الذي رواه أبو

هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينا رجل بفلاة من الأرض ، فسمع صوتاً في

سحابة : اسق حديقة فلان . فتنحى ذلك السحاب . فأفرغ ماءه في حرة . فإذا شرجة من تلك الشراج قد

استوعبت ذلك الماء كله . فتنبع الماء . فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته . فقال له : يا

عبدالله! ما اسمك ؟ قال : فلان . للاسم الذي سمع في السحابة . فقال له : يا عبدالله ! لم تسألني عن

اسمي؟ فقال : إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان . لاسمك . فما

تصنع فيها ؟ قال : أما إذ قلت هذا ، فإني أنظر إلى ما يخرج منها ، فأصدق بثلثه ، وأكل أنا وعيالي ثلثاً،

وأرد فيها ثلثه " رواه مسلم.

فعرف الرجل سبب إكرام الله تعالى لهذا المزارع المؤمن الذي يتصدق بثلث ماله على الفقراء ،

ومن الأحاديث التي تظهر الملائكة تكلم المسلم فيما قبلنا ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال:

" زار رجل أخاه في قرية ، فأرصد الله له ملكاً على مدرجته ، قال : أين تريد ؟ قال : أخا لي في

هذه القرية ، فقال : هل له عليك من نعمة تربها ؟ قال : لا ، إني أحبه في الله قال : فإني رسول الله إليك؛

إن الله أحبك كما أحبته "

أما موسى عليه السلام فقد يكون أفضل المحدّثين الذين كانت الملائكة تكلمهم وتسدد خطاهم ،

سيّما أن الله تعالى هيّأه ليكون من الرسل أولي العزم . فعلم أن الله تعالى غفر له لحديث الملائكة إياه صلى

الله وسلم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ثانيها : أنه صار نبياً - لا رسولاً- وهو شابٌ قبل هروبه إلى مدين، فقد قال الله تعالى في سورة القصص: " ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين "وقد قال سبحانه في حق يوسف عليه السلام : ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً " فيوسف عليه السلام صار نبياً حين بلغ مبلغ الرجال - صار أهلاً للزواج في سن الثالثة عشرة إلى الخامسة عشرة ، أما موسى فإزاد كلمة (استوى) ، فنقول : لعله صار نبياً في العشرين أو أكثر بقليل . وهذا ما أراه مناسباً واقرب إلى الصواب ، إن لم يكن الصواب عينه.

لقد كان موسى وهو فتى ثم شابٌ ثم رجل يعلم أنه سيكون نبياً رسولاً وأن الله تعالى رباه على عينه ، واصطفاه لنفسه

" ولتُصنع على عيني " واصطفيتك لنفسي . "

وقد يتساءل أحدهم كيف يعلم الأمر ولم يصِرْ نبياً بعدُ ؟ فالجواب أن أمه كانت تعلم منذ ولادته أنه سيكون رسولاً وقبل أن ترضعه الرضعة الأولى إذ أوحى الله إليها ذلك الأمر فيما نقرؤه في بداية سورة القصص:

" وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين "

فقد وعدنا سبحانه أن يعيد رضيعها إليها وأخبرها أن ابنها سيكون ذا شأن في المستقبل ، إنه سوف يكون رسولاً. ولا شك أنها أخبرته أنه سيكون نبياً ورسولاً ، ورتته على الإيمان وهيأته ليكون ذاك النبي العظيم.

ثالثها : أنه صار رسولاً في عودته إلى أهله بعد غياب عشر سنوات أمضاها في الغربة يعمل راعياً عند الرجل الصالح في مدين ، وبعد أن صار حراً لغيبه أكثر من ثماني سنوات أمضاها بعيداً عن سجن فرعون أو النجاة من القتل . وكلمه الله تعالى في سيناء قرب الشجرة وتوجّه رسولاً إلى بني إسرائيل وإلى فرعون نفسه.

والرسالة درجة أعلى من النبوة ففيها بالإضافة إلى الدعوة رسالة جديدة وكتاب منزّل يخص الرسول نفسه والله اعلم.

(ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي)

كلمة قالها سيدنا موسى عليه السلام حين أمر قومه بقتال الكفار ، فخافوهم وأبوا القتال ، فلما ذكّرههم بأمر الله تعالى فجروا وقالوا كلمة العناد والكفر " اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون " كلمة تدل على استهتار وقلة أدب ، أما ما قاله الصحابي الجليلان سعد والمقداد في غزوة بدر فدل على صدق إيمان أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعميق فهمهما للرسالة ، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم ، وحشرنا معهم في زمرة الحبيب المصطفى .

فمن أطاعك وصدّقك اتبعك ولزمك ، فكأنك ملكته ، وهذا لا يكون منه إلا حين يجد فيك أسوة حسنة وقدوة صالحة ، ويكون هو من أصحاب القلوب الصادقة والعقول الواعية ، ولو لم يكن الداعية والمدعُو كذلك فلن يطيعك ، فهو إذ ذاك يمنعه أن يطيع ويتبع على الرغم أنه يرى الحق عياناً والصدق وضوحاً لا لبس فيه .

قال بعضهم : في قوله " إني لا أملك إلا نفسي وأخي " : أنا أملك نفسي عن هواها ، وأخي يملك نفسه عن هواه ، فاجتمعنا على الحق ، فأسلس قياده لي . وهذا معنى جميل يدعم المعنى الأول ويعضده . فلماذا قال سيدنا موسى : " فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين " ؟

وبأي وجه سأله الفرق بينه وبين هؤلاء القوم ؟ ففيه - كما قال القرطبي رحمه الله تعالى - جوابان ؛ الأول : بما يدل على بعدهم عن الحق ، وذهابهم عن الصواب فيما ارتكبوا من العصيان ؛ ولذلك ألقوا في التيه .

الثاني : بطلب التمييز عن جماعتهم وجملتهم ، فقد طلب النبيان الكريمان أن لا يلحقهما بهم في العقاب ، وكان موسى وهارون سألاً رهماً تعالى قائلين : فاقض بيننا وبينهم بعصمتك إيانا من العصيان الذي ابتليتهم به ، وقد يكون طلب الفراق بينهما وبين قومهما في الدنيا وقيل : إنما أرادا في الآخرة ، أي اجعلنا في الجنة ولا تجعلنا معهم في النار .

ومن المؤلم للداعية أن يرى قومه لا يستجيبون إلا بمقدار ما يعجبهم ، أو يعاندون في الأمور البديهية ، أو يميلون عن الحق وهم يعرفونه .

فلما طلبا ذلك أجاب تعالى سريعاً - والدليل على السرعة فاء الترتيب و التعقيب - ، وهذا دليل على غضب الله تعالى على من يعصي أمره ويخالف تعاليم نبيه " فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين " فقد كانت الثمرة (القدس الشريف) بين أيديهم ، وعلى مرمى سهم منهم ، فحرمها الله تعالى بمخالفتهم أربعين سنة ، وكلمة السنة غير كلمة العام ، إن كلمة السنة تدل على الحياة القاسية والشح في الموارد ، والضنك في المعيشة والدليل على ذلك قوله تعالى " فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً " لقد عاش نوح عليه السلام تسع مئة وخمسين سنة يلقي فيها الصّدّ والعناد فدعا ربه " أني مغلوب فانتصر " وجاء الخير في الأعوام التالية الخمسين وما تلاها من أعوام طيبة بعد انتهاء الطوفان . استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التيه أربعين سنة ، وأصل التيه في اللغة الحيرة ؛ يقال : تاه يتيه تيتها وتوها إذا تحير . وتيهته وتوهته بالياء والواو ، والياء أكثر ، والأرض التيهاء التي لا يهتدى فيها ، فلم يخرجوا من تيه المكان وتيه الضلال حتى مضت أربعون سنة مات فيها الكثير منهم .

قال القرطبي: واختلف هل كان معهم موسى وهارون ؟ فقليل : لا ؛ لأن التيه عقوبة ، وما كان النبيان الكرمان موسى وهارون ليعاقبا . وكانت سنيّ التيه بعدد أيام العجل ، فقبلوا على كل يوم سنة . لا ننس أنّهما دعوا ربهما : " فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين " ، وقيل : بل كانا معهم ، لكن سهل الله الأمر عليهما كما جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ، فكانا يشعران بمعية الله تعالى فيرتاح قلباهما لهذه المعية الجليلة والنعمة العظيمة .

ومعنى " محرمة " أي أنّهم ممنوعون من دخول الأرض المقدسة ، كما يقال : حرم الله وجهك على النار ، وحرمت عليك دخول الدار ، ولن ندخل في تفريع الفقهاء من أنّ هذا التحريم كان تحريم منع أو تحريم شرع أو تحريم تعبد ، فالأمر الذي يعيننا أنّ هؤلاء اليهود تاهوا عن الوصول إلى دخول الأرض المقدسة وامتنعوا عنها أربعين سنة ، وكأنهم بدو رُحّل يطوفون حول هدفهم فلا يصلون إليه ولا يقدرّون عليه ، ولا يهتدون إليه .

ولا يظنّ احد أنّهم هذه الأيام مهتدون . إنّهم يتخبطون تخبط من يعلم أنه سيغرق بعد حين في وحل الموت ، ولكنّ التكبر المتأصل فيهم والعناد المستحكم بنفوسهم سيرديهم بعد حين ، ولن ينفعهم أحد بعد ذلك ، وسيقول الخونة والعملاء الذين باعوا لهم أنفسهم ما قاله المخدوعون بقارون وغناه كلمة " وي "

ولن ينفعهم اعتذارهم هذا ، فهم وأسيادهم ماضون إلى هلاك محقق .

فلما قَضُوا ومات أكثرهم في هذا التيه بسبب ذلهم وخوفهم واستكبارهم عن الجهاد الذي هو فريضة مهمّة من تركها خاب وخسر ، وذلّ وامتهن - وهذا هو حالنا اليوم مع الأسف لابتعادنا عن شرع ربنا - دخلها أولادهم الذين تربّوا على الحرية والأمان والقوّة ، ولم يبق منهم إلا يوشع ، فخرج هذا النبي الكريم بذرياتهم إلى تلك المدينة وفتحوها ودخلوها .

وروي عن ابن عباس أن موسى وهارون ماتا في التيه . قال غيره : ونبأ الله يوشع وأمره بقتال الجبارين ، وفيها حبست عليه الشمس حتى دخل المدينة ، وفيها عاقب الذي وجد الغلول عنده ، وكانت تنزل من السماء - إذا غنموا - نار بيضاء فتأكل الغنائم ؛ وكان ذلك دليلا على قبولها ، فإن كان فيها غلول لم تأكله ، وجاءت السباع والوحوش فأكلته ؛ فنزلت النار فلم تأكل ما غنموا فقال : إن فيكم الغلول فلتبايعني كل قبيلة فبايعته ، فلصقت يد رجل منهم بيده فقال : فيكم الغلول فليبايعني كل رجل منكم فبايعوه رجلا رجلا حتى لصقت يد رجل منهم بيده فقال : عندك الغلول فأخرج مثل رأس البقرة من ذهب ، فنزلت النار فأكلت الغنائم .

في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (غزا نبي من الأنبياء) الحديث أخرجه مسلم وفيه قال : (فغزا فآدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريبا من ذلك فقال للشمس أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علي شيئا فحبست عليه حتى فتح الله عليه - قال : فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار لتأكله فأبت أن تطعمه فقال : فيكم غلول فليبايعني من كل قبيلة رجل فبايعوه - قال - فلصقت يده بيد رجلين أو ثلاثة فقال فيكم الغلول) . والحكمة في حبس الشمس على يوشع عند قتاله الكفار وإشرافه على فتح المدينة عشي يوم الجمعة ، وإشفاقه من أن تغرب الشمس قبل الفتح أنه لو لم تحبس عليه حرم عليه القتال لأجل السبت ، ويعلم به عدوهم فيعمل فيهم السيف ويبتاحهم ؛ فكان ذلك آية له خص بها بعد أن كانت نبوته ثابتة ، وفي هذا الحديث يقول عليه السلام : (فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا) ذلك بأن الله عز وجل رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا .

روى مسلم عن أبي هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال : " أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت " قال : فرد الله إليه عينه وقال : "

ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة " قال : " أي رب ثم مه " ،
قال : " ثم الموت " قال : " فالآن " ؛ فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ؛ فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : (فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر) فهذا نبينا
صلى الله عليه وسلم قد علم قبره ووصف موضعه ، وراه فيه قائما يصلي كما في حديث الإسراء ، وأخفى
الله عن الخلق قبر موسى ولم يجعله مشهورا عندهم لئلا يعبد ، والله أعلم .



إيت القوم الظالمين

عدت قبل قليل من صلاة العشاء والتراويح ليوم الجمعة الرابع عشر من رمضان ١٤٣٠ وقد قرأ الإمام من أول سورة الشعراء ، فكان من أهم ما طرق سمعي وملاً قلبي وعقلي - والقرآن كله نور وضياء - قوله تعالى في الآيتين العاشرة وأختها من سورة الشعراء :

" وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، قَوْمٌ فَرَعُونَ ۗ أَلَا يَتَّبِعُونَ " إن في هاتين الآيتين الكريمتين بعض الأمور التربوية والدعوية ، أذكر من أهمها :

١- أن القرآن من عند الله تعالى ، وهو - سبحانه - يخبر نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بما جرى مع النبيين قبله ومنهم موسى عليه السلام ، وما الظرف الدال على الزمن الماضي " إذ " إلا تنبيهاً ودعوة للإنصات والتفكير والتدبر ، والله تعالى يهون على نبيه الكريم ما يلقي من العنت والصد من قومه حين ينبئه أنه ليس بدعاً من الأنبياء والرسل الذين كذبتهم أقوامهم ، وصبروا ، فليصبر كما صبر أولو العزم منهم .

٢- ونسمع بأذن القلب والضمير نداء الله تعالى لنبيه الكريم موسى يكلفه بالتصدي للظلمة القساة الذين استعبدوا العباد ، وأكثروا في الأرض الفساد ، ولا شك أن الدعاة هم الصفوة المختارة التي أكرمها الله تعالى إذ اختارها لنشر النور والهدى في البشرية وقيادتها إلى السبيل القويم والصرراط المستقيم . ومن كانت الهداية مهمته فهو أول الهداة وأسوة الإنسانية وما أعظمها من مكانة ، وما أكرمها من حظوة عند خالقها.

٣- إن كلمة " ربك " تدل على أن الذي أرسل موسى إلى فرعون ونصره هو من كلف الحبيب المصطفى بهداية الناس ، وسييسر له الدعوة وينصره على من خالفه ، ولسوف تعلق كلمة الله على يديه كما علت على يدي سلفه موسى عليه الصلاة والسلام . فالرب واحد والدعوة واحدة : لا إله إلا الله ولا معبود سواه ، رضي من رضي وكره من كره .

٤- من سمات الداعية المؤمن الجرأة والشجاعة ، فهو جريء بما يحمل من اعتقاد قوي وإيمان ثابت، وشجاع لأنه على الحق ومن كان على الحق فلا يخاف أهل الباطل مهما كثروا وكانت إمكاناتهم

المادية فالله تعالى معه ، ومن كان الله معه رجحت كفته وانتصر إما بإحقاق الحق وإما بنيل الشهادة ، فالنصر الحقيقي أن يرضى الله تعالى عنا ويكرمنا بالنجاة من النار والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

٥- يقول الله تعالى: " أن أت القوم الظالمين " وفعل " ايت " يعني الاختلاط والدعوة ، ولا تنجح الدعوة مهما كانت صافية قوية وصاحبها يطل على الناس من برجه العاجي ، ويتحاشى الاختلاط بهم على زعم " التمايز " عن القوم ، إن التمايز بالاعتقاد والالتزام بما تؤمن به فتعيش بين الناس جسماً وعقلاً وتمايز عنهم روحاً وعملاً ، إنك حين تدعو القوم لا بد أن تعايشهم وتحسس آلامهم، وتتعرف رغباتهم ، وتلمس معاناتهم ، لتكون أقدر على معالجتهم من أوصابهم ، وأعلم بحالهم، فتعرف من أين تأتيهم وتدخل قلوبهم ، أما أن تنفصل عنهم وتنقطع ، فقد جهلتهم وأخطأت السبيل القويم لدعوتهم فكان هذا مقدمة الفشل في الوصول إلى الغاية .

٦- ولم يقل الله تعالى إئت فرعون وملاه الظلمة ، إنما قدم صفتهم التي كرهها الله منهم واكتوى الناس بنارها، إنها صفة الظلم ، فقدمها الله عز وجل ليُعرفوا بها ، وليُعرف السبب الذي بعث لأجله ذلك النبي الكريم موسى إليهم " إئت القوم الظالمين " إن الله تعالى لا يحب الظلم وأهله ، ونفى عن ذاته الجلييلة هذه الصفة الكريهة المدمومة وأمر الناس أن يجتنبوها " فعن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال " يا عبادي ! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً . فلا تظالموا . " وأشار تعالى إلى الظالمين حين قال بعد ذكر صفة الظلم " قوم فرعون " ، وما أصدق قول الشاعر إذ يقول:

لا تظلمنّ إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم يرجع عقباه إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين " .

٧- ولا يكون الابتعاد عن الظلم إلا بالعدل ولا يكون العدل إلا بالتقوى ولهذا كانت دعوة

موسى عليه السلام لفرعون وملئه أن اتقوا الله " أَلَا يَتَّقُونَ " إن السلام والأمان في الدنيا يتحققان بالتقوى ، كما أن رضا الله والفوز بالجنة طريقهما التقوى ، والقرآن يفيض بالآيات الداعية إلى التقوى، الباسطة ثمارها ومغانمها .. جعلنا الله من أهلها



إسرائيليات في قصة موسى عليه السلام

من تفسير ابن كثير

عن سعيد بن جبير - رحمه الله تعالى - قال :

سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام : وفتنك فتونا ، فسألته عن الفتون ما هو ؟ قال : استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثا طويلا : فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون ، فقال :

تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكا ، فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ، ما يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم ، فقال فرعون : فكيف ترون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجلا معهم الشفار ، يطوفون في بني إسرائيل ، فلا يجدون ، مولودا ذكرا إلا ذبحوه ، ففعلوا ذلك ، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجلهم ، والصغار يذبحون ، قالوا : يوشك أن تفنوا بني إسرائيل ، فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم ، فاقتلوا عاما كل مولود ذكر ، يقلّ أبناءهم ، ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا ، يشبّ الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكائدهم إياكم ، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم . فأجمعوا أمرهم على ذلك . فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة . فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام ، فوقع في قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه في بطن أمه ، مما يراد به . فأوحى الله إليها أن : لا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين . فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم . فلما ولدت فعلت ذلك ، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان ، فقالت في نفسها : ما فعلت بابني ، لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه . فأنتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقى جوارى امرأة فرعون فلما رأيته أخذته فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن : إن في هذا مالا ، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيته لم يُخرجن منه شيئا حتى رفعنه إليها . فلما فتحته رأته فيه غلاما ،

فألقي عليه منها حبة لم يلق منها على أحد قط ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء ، إلا من ذكر موسى . فلما سمع الذباحون بأمره ، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليدبحوه: وذلك من الفتون يا ابن جبير ، فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه ، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم أملككم . فأتت فرعونَ فقالت قرّة عين لي ولك . فقال فرعون : يكون لك . فأما لي فلا حاجة لي فيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي يُخلف به لو أقر فرعون أن يكون قرّة عين له ، كما أقرت امرأته ، لهداه الله كما هداها ، ولكن حرّمه ذلك . فأرسلت إلى من حولها ، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئرا ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق وجمع الناس ، ترجو أن تجد له ظئرا تأخذه منها ، فلم يقبل ، وأصبحت أم موسى والهيا ، فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه ، هل تسمعين له ذكرا ، أحيّ ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيّت ما كان الله وعدّها فيه ، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون - والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد ، وهو إلى جنبه، وهو لا يشعر به - فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فأخذوها فقالوا ما يدريك ؟ وما نصحهم له ؟ هل يعرفونه ؟ حتى شكوا في ذلك ، وذلك من الفتون يا ابن جبير . فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤرة الملك ، ورجاء منفعة الملك . فأرسلوها فانطلقت إلى أمها ، فأخبرتها الخبر . فجاءت أمه ، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه ، حتى امتلأ جنباه ريا ، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها : أن قد وجدنا لابنك ظئرا . فأرسلت إليها ، فأتت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع بها قالت : امكثي ترضعي ابني هذا ، فإنني لم أحبّ شيئا حبّه قط . قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي ، فيكون معي لا آله خيرا فعلت ، وإلا فإنني غير تاركة بيتي وولدي . وذكرت أم موسى ما كان الله وعدّها فيه ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجز وعده ، فرجعت به إلى بيتها من يومها ، وأنبتة الله نباتا حسنا ، وحفظه لما قد قضى فيه . فلم يزل بنو إسرائيل ، وهم في ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم ، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أتريني ابني ؟ فوعدتها يوما تريها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤها وقهارمتها لا يبقين أحد منكم إلا

استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك، وأنا باعثة أمينا يحصي ما يصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون ، فلما دخل عليها نخلته وأكرمه ، وفرحت به ، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ، ثم قالت : لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه ، فلما دخلت به عليه جعله في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون يدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه ، إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك ، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه . وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به ، وأريد به . فجاءت امرأة فرعون فقالت : ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترى أنه يزعم أنه يصرعني ويعلوني . فقالت : اجعل بيني وبينك أمرا يعرف فيه الحق ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين ، فقرهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين فاعرف أنه يعقل وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ، فاقرب إليه ، فتناول الجمرتين ، فانزعجها منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت امرأة فرعون: ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به ، وكان الله بالغا فيه أمره . فلما بلغ أشده وكان من الرجال ، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع ، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة ، إذ هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى غضبا شديدا، لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع ، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره . فوكز موسى الفرعوني ، فقتله وليس يراها أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي ، (١) فقال موسى حين قتل الرجل : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . ثم قال : رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم ، فأصبح في المدينة خائفا يترقب الأخبار ، فأتى فرعون ، فقيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم . فقال : أبغوني قاتله ، ومن يشهد عليه ، فإن الملك وإن كان صغوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت ، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم . فبينما هم يطوفون ولا يجدون ثبنا ، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلا من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكزه الذي رأى ، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، فقال

للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم : إنك لغوي مبین . فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف أن يكون بعدما قال له إنك لغوي مبین أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده ، وإنما أراد الفرعوني ، فخاف الإسرائيلي وقال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم ، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاقتصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره ، وذلك من الفتون يا ابن جبير . فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حُسْنُ ظنه بربه عز وجل فإنه قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان يعني بذلك حابستين غنمهما فقال لهما : ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم ، فسقى لهما فجعل يغترف في الدلو ماء كثيرا حتى كان أول الرعاء ، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفَلًا بطانا فقال : إن لكما اليوم لشأنا ، فأخبرتاها بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته فلما كلمه قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ، ولسنا في مملكته ، فقالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ قالت : أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا ، لم أر رجلا قط أقوى في ذلك السقي منه ، وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أنني امرأة صَوَّبَ رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ، ثم قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين ، فسري عن أبيها وصدَّقها وظن به الذي قالت ، فقال له : هل لك أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ففعل فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة وكانت سنتان عدّة منه ففضى الله عنه عدّته فأتمها عشرا . قال سعيد هو ابن جبير: فلقيني رجل من أهل النصرانية من

علمائهم قال : هل تدري أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذ لا أدري ، فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له فقال : أما علمت أن ثمانيا كانت على نبي الله واجبة لم يكن لنبي أن ينقص منها شيئا ، ويعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التي وعده فعدته التي وعده فإنه قضى عشر سنين ، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك قلت : أجل وأولى . فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن ، فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتل وعقدة لسانه ، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأتاه الله سؤاله وحل عقدة من لسانه وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه ، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليهما السلام فانطلقا جميعا إلى فرعون فأقاما على بابه حين لا يؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا إنا رسولا ربك قال : فمن ربكما ؟ فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن ، قال : فما تريدان ؟ وذكره القتل فاعتذر بما قد سمعتَ (٢)، قال : أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل ، فأبى عليه وقال ائت بآية إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها قاصدة إليه خافها فافتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص ثم ردها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ حوله فيما رأى ، فقالوا له : هذان ساحران يريدان أن يخرجاك من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى يعني مُلكهم الذي هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب ، وقالوا له: اجمع لهما السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما ،

فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعلم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بم يعمل هذا الساحر ؟ قالوا: يعمل بالحيات ، قالوا : فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، وما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربي وخاصتي ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتهم ، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، قال سعيد بن جبير : فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء .

فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر لعنا نتبع

السحرة إن كانوا هم الغالبين يعنون موسى وهارون استهزاء بهما ، فقالوا : يا موسى لقدرتهم بسحرهم إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك ، فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها ، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جزرا إلى الثعبان ، تدخل فيه ، حتى ما أبتقت عصا ولا حبالا إلا ابتلعت (٣) ، فلما عرفت السحرة ذلك قالوا ، لو كان هذا سحرا لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكنه أمر من الله عز وجل ، آمنا بالله وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق ، وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى .

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا مضت أخلف مواعده وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ويوثقه على أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا كف ذلك عنه أخلف مواعده ، ونكث عهده . حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا ، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين ، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة ، وأوحى الله إلى البحر : إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التفت على من بقي بعد من فرعون وأشياعه . فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله . فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ، افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدني أن إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة ، حتى أجاوزه : ثم ذكر بعد ذلك العصا (٤) فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفلق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى

فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه ، التقى عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه . فدعا ربه

فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه . ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى ، اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قد رأيتم من العبر وسمعتهم ما يكفيكم ومضى . فأنزلهم موسى منزلا وقال : أطيعوا هارون فإنه قد استخلفته عليكم ، فإنه ذاهب إلى ربي . وأجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها ، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن ، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ، ربح فم الصائم ، فتناول موسى من نبات الأرض شيئا فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان : قال : يا رب ، إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح . قال : أو ما علمت يا موسى أن ربح فم الصائم أطيب من ربح المسك ، ارجع فصم عشرا ثم اثني . ففعل موسى عليه السلام ما أمر به ، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ، ساءهم ذلك : وكان هارون قد خطبهم وقال : إنكم قد خرجتم من مصر ، ولقوم فرعون عندكم عوار وودائع ، ولكم فيهم مثل ذلك ولا تمسكوه لأنفسنا ، فحفر حفيرا ، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقه ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم . وكان السامري من قوم يعبدون البقر ، جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل ، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، ففضى له أن رأى أثرا فقبض منه قبضة ، فمر بهارون ، فقال له هارون عليه السلام : يا سامري ، ألا تلقي ما في يدك ؟ وهو قابض عليه ، لا يراه أحد طوال ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا ألقيتها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد . فألقاها ، ودعا له هارون ، فقال : أريد أن يكون عجلا . فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلا أجوف ، ليس فيه روح ، وله خوار قال ابن عباس : لا والله ، ما كان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه ، فكان ذلك الصوت من ذلك . ففرق بنو إسرائيل فرقا ، فقالت فرقة : يا سامري ، ما هذا ؟ وأنت أعلم به . قال : هذا ربكم ، ولكن موسى ضل الطريق . وقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فإننا نتبع قول موسى ، وقالت فرقة : هذا عمل الشيطان ، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل ، وأعلنوا التكذيب به ، فقال لهم هارون : يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن . قالوا : فما بال

موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أحلفنا ؟ هذه أربعون يوما قد مضت ؟ وقال سفهاؤهم : أخطأ ربّه فهو يطلبه ويتبعه .

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال : أخبره بما لقي قومه من بعده ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا فقال لهم ما سمعتم في القرآن ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح من الغضب ، ثم إنه عذر أخاه بعدره ، واستغفر له ، وانصرف إلى السامري فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : قبضت قبضة من أثر الرسول ، وفطنت لها وعميت عليكم ، فقذفتها وكذلك سولت لي نفسي قال : فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إهلك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا ، ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه ، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتنبوا الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى ، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها ، فيكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك ، لا يألو الخير ، خيار بني إسرائيل ، ومن لم يشرك في العجل ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض ، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل ، فقال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أهلكنا بما فعل السفهاء منا وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به فلذلك رجفت بهم الأرض فقال : ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فقال : يا رب سألتك التوبة لقومي ، فقلت : إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة ، فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول . ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف ، فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقرؤا بها ، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيامهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمرا عجيبا من

عظمتها ، فقالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون قيل ليزيد : (٥) هكذا قرأه ؟ قال : نعم ، من الجبارين آمننا بموسى ، وخرجنا إليه فقالوا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، ويقول أناس : إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون بنو إسرائيل يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك ، لما رأى منهم المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم فاسقين ، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية ثلاث أعين ، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس

١- بل قتله في السوق ورآه كل من كان فيه ، والقبطي الثاني هو الذي قال لموسى : أتريد أن

تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس .

٢- ذكّره فرعون بقتل القبطي ، وكان موسى قد استغفر ربه فغفر له ، وتناسى فرعون أنه قتل

الآلاف من قوم موسى - عمداً وإصراراً - وما يزال ، وصعب عليه أن يقتل موسى القبطي خطأ

٣- الذي أراه أن العصا التي انقلبت حية ابتلعت السحر وأبقت الحبال والعصي لتظهر الأمور

على حقيقتها ، وهذا أبلغ من ابتلاعها كلها (عثمان) .

٤- لالا . لم ينس موسى عليه السلام لقوله تعالى حين قالت بنو إسرائيل " إنا لمدركون " قال

على لسان موسى " كلا إن معي ربي سيهدين " ، وهذا دليل على أن موسى عليه السلام واعٍ يفعل

بالوحي كما أمر الله - ولم ينس .

٥- الرجلان اللذان يخافان هما من قوم موسى عليه السلام كانا تقيين ، وما ورد أنهما من

العمالقة تخريف إسرائيلي .



مع سليمان عليه السلام في سورة النمل (١)

نقرأ قوله تعالى: ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين.. فنجد :

١- العلم : سمة أهل الفضل ومناط التشريف ونور الفكر الذي يكرم صاحبه على غيره.

٢- شكر الله وحمده: فهما عليهما السلام يحمدان الله تعالى أن أكرمهما بالعلم (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكثيراً ما نجد الأرزاق متنوعة فهذا يعطى مالاً وذاك علماً والآخر وسامة وغيره أخلاقاً ، فنجد العلم والأخلاق سيدي الموقف . وقد أحسن الشاعر حافظ إبراهيم في قوله:

فالناس هذا حظه مال وذا علم ، وذاك مكارم الأخلاق

فالمال إن لم تدخره محصنا بالعلم كان نهاية الإملاق

والعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفاق

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يُتَّوَجَّ ربه بخلاق

٣- الهمة العالية : فقد علما أن النبوة والعلم والحكمة رفعتهما على كثير من عباد الله المؤمنين

٤- الإرث: قال تعالى : وورث سليمان داود . وقد نعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة. ، فما الذي ورثه سليمان من أبيه داود عليهما السلام؟
نقول: إنَّ الإرث هنا في النبوة والعلم – وهذا ما نجد في دعاء زكريا عليه السلام يسأل الله تعالى ولداً صالحاً يرثه في الدعوة والعلم والنبوة:

- وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا .

وهذا ما نفهمه من قول يعقوب عليه السلام حين أخبره ابنه يوسف برؤياه فأول الرؤيا بالنبوة والمكانة العالية الرفيعة الموصلة بجديه إبراهيم وإسحاق عليهما السلام ، وبهذه النبوة تتم النعمة على آل يعقوب وتكتمل فضائل الاجتباء:

- وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ

كَمَا أَمَّتْهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

٥- الاعتراف بالفضل: " إن هذا هو الفضل المبين. " واعتراف سليمان بفضل الله يرفع مقامه ،

وتأمل في قوله عليه السلام " (- عُلِّمْنَا منطلق الطير .. ، وَأوتِينَا من كل شيء) وهما الإعلان المبينان للمجهول يدلان على إسناد الفضل إلى الله ، فمنه الخير كله. فهو سبحانه من علم وهو سبحانه من أعطى، فله الخير وله المنّ الكرم .

أما قارون فقد شقي حين جحد فضل الله سبحانه عليه وادّعى الذكاء والقدرة في جمع المال ولم يزرع ذمة الله ولا أدى حقّ المال ، وعاش مستكبراً يأبى النصيحة ويزدري الناس:

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ
- وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۗ وَلَا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۗ وَأَحْسِنْ ۗ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۗ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

- قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۗ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ .

وكيف لا يُسأل الجرمون عن ذنوبهم؟! هذا ما سألتنيه أحدهم فقلت له : يا هذا ؛ هؤلاء أهون على الله أن يحاسبهم إنما تلتقطهم ألسنة النيران إلى سواء الجحيم بالذلة والصغار . ونجد في المقابل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن الله عز وجل يكرم خاصة المؤمنين الصالحين بدخول الجنة دون حساب ولا عقاب وقرأت معي قوله صلى الله عليه وسلم : (سبعون ألفاً يدخلون الجنة دون حساب ولا عقاب)

الترتيب في الحديث:

وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، فهم يوزعون. ذكر الأقوى (الجنّ ، ثم الإنس ، ثم الطير) ذكر الأهمّ فالأقل أهمية . وهذا من أساليب التربية القرآنية

إننا نجد هذا الترتيب في القرآن كثيراً كقوله تعالى: " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث" فذكر من الشهوات أشدها : النساء، ثم البنين ثم المال الذي يُصرف على النساء والبنين ، ثم ذكر من المال أفضله : الذهب ، وأتبعه بالفضة . أما

الخيل فهي عند العرب أفضل من الأنعام (الإبل والبقر والغنم) وهذا الحيوانات بأنواعها أفضل عند العرب من الزرع. إنه ذكر الأهم فالأقل أهمية.

ولا ننس الكلمتين (يوزعون، وأوزعني) من وزع ، فالأولى تعني أن أوائل الجيش ينتظرون في أماكنهم حتى يكتمل مجيئ أواخرهم ، والثانية: أوزعني تعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي (من الإلهام والعون).
وجمال الكلم القرآني ذلك الجناس اللفظي المختلف المعنى المؤتلف المبني .

واقراً قوله تعالى : " ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين" وهذا يذكرنا بالرجل الصالح في سورة الأحقاف " ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه كرها ووضعته كرها حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربّي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك وإني من المسلمين" فالدعاء واحد يختلف قليلاً بين نبي ورجل صالح .. وأصلح لي في ذريتي.. إن الكلام في جله واحد

علمنا منطوق الطير

- فَرَّقُ بَيْنَ عُلْمِنَا مَنْطِقِ الطَّيْرِ وَفَهْمِنَا لُغَةَ الطَّيْرِ، فَالْفَهْمُ قَدْ لَا يَعْنِي الْقُدْرَةَ عَلَى الْحَدِيثِ أَمَا الْأُولَى (عُلْمِنَا مَنْطِقِ الطَّيْرِ) ففِيهَا الْقُدْرَةُ عَلَى الْحَدِيثِ بِلُغَةِ الطَّيْرِ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمُرَادِ ، وَسَبْحَانَ مَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى نَبِيِّهِ عَرَبِيًّا بَيْنًا لَا لِبَسِّ فِيهِ.

- وداوود كذلك علم منطوق الطير(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۗ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۗ وَآلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ .

- إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۗ كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ .
وهذا لم يختص به داوود وسليمان به وحدهما فهناك آثار تدل على فهم الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فقد ورد في الأحاديث أن جملاً شكاً صاحبه الذي يتعبه في العمل ويحمّله فوق طاقته. فنبهه النبي صلى الله عليه وسلم فاعتذر وأعلن أنه سيعامل جملة معاملة طيبة .

- كما أن الحصا يُسمع تسييحها في كف الرسول صلى الله عليه وسلم

٨- الطيور والحيوانات أمم أمثالنا:

ويجتمع جيش النبي سليمان ويحشده ثم يسير به .. حتى إذا أتوا على وادي النمل.
والحيوانات والطيور والحشرات أمم متكاملة لها نظامها وحياتها الخاصة المنظمة "وما من دابة في
الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم."

نملة عاقلة تنصح (ولا بد للعاقل أن ينصح غيره وهذا واجبه.) فتنادي شعبها خائفة عليهم أن يبياد
تحت وطأة جيش سليمان فتنادي بملء فيها " يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان
وجنوده"

فلا حاجة للمجابهة لسبب الضعف ، أو الضالة ، أو توقع الخسارة الكبيرة . وقد يسيء البعض لعدم
معرفتهم أو انتباههم { وهم لا يشعرون } وهذا النصح من حسن التدبير .

إنّ الحاكم أو الوجيه (النملة) تخاف على قومها من الإبادة. فهي (رحيمة بهم) .

والنبي سليمان عليه السلام حريص على الرحمة بالحيوان ، فتبسم ضاحكاً من قولها ، وأوقف جيشه
حتى غار النمل في الأرض

فماذا تقول بمن يقتل الناس بمئات الآلاف ليبقى حاكماً لمن يبقى حياً من الأمة بعد إذلالها لا سمح
الله.؟! هؤلاء الحكام أسوأ من الشياطين وألعن من الأبالسة وأحقر من الروبيضات فهل يعقلون أم على
قلوب أقفالها!؟

٩- انتماء الرجل الصالح للصالحين

" ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني
برحمتك في عبادك الصالحين"

نجد البر بالوالدين ، طلب العون من الله على شكر النعمة.

وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين

نجد في سورة يوسف " رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات
والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين. "

ونحن نقول : اللهم احشرنا في عبادك الصالحين .

١٠ - الاهتمام بالجنود

النبي القائد سليمان عليه السلام يتفقد الطير.

هناك حذف في قوله : (مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) وكأنه يقول: (أهو موجود لا أراه) أم هو غائب فعلاً؟ ولعله يريد أن يقول : لا أود أن يكون واحد من جندي غائباً دون إذن ولا عذر.

ونرى الحزم في التعامل مع الجنود. لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتيه بسُلطان مبین (والسُلطان المبین هو الدليل على سبب الغياب. العقوبة أولاً إن كان مهملاً متهاوناً ، والقتل ثانياً إن تجاوز في غيابه حد الجندية على مبدأ درهم وقاية خير من قنطار علاج فالتسيب إذا غاب الحزم مشكلة يصعب حلها، ولا عقوبة إن كان من غيابه فائدة مرجوة.

إن الحزم دون ظلم يحفظ النظام

١١ - الجندي شجاع ذكي

تصور أن الجندي الصغير (الهدهد) يقول لقائده على مسمع من الجند: عندي من المعلومات ما ليس عندك. ومعلوماتي يقينية ليست ظنية.

وقد يكون العلم عند صغير الحجم ضعيف البنية ، الفقير الذي لا يملأ العين .

وما يقولها إلا في حضرة القائد الذي هدد بالعقوبة وما أدراك ما العقوبة لكنه يعلم أن القائد وقافٌ على الحق ويجب الجندي الماهر الذي يخدم قضيته بإخلاص وسوف يتجاوز عن غيابه لما فيه من فائدة كبرى

١٢ - التقرير الضافي المفصل

حدد الهدهد المكان الذي ذهب إليه وجاء بخبره ، وذكر نوعية الحاكم - فهي امرأة - وبين قوتها وشرفها - والدليل (عرش عظيم) ونبه إلى عبادتهم فهم يعبدون الشمس من دون الله تعالى لقد أضلهم الشيطان في عبادة غير الله تعالى.

ثم إننا نلاحظ التوجيه إلى عبادة الله سبحانه ، فهي العبادة الحقة . وهو سبحانه من يستحق العبادة فقط. " ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله

إلا هو رب العرش العظيم" .. إنه تقرير ضاف تام.

١٣ - تحقق القائد من الخبر

لا يؤخذ القائد بالكلام المعسول فلا بد من التحقق من هذا الخبر قال: (سننظر...).
يجب أن تكون ثقة القائد بجنوده أكبر من سوء ظنه بهم. (أصدقت أم كنت من الكاذبين) فقدم
احتمال الصدق على الكذب ففي صفة الصدق خاطبه بضمير المفرد وفي احتمال صفة الكذب حذره أن
يكون من جملة الكاذبين! واستبعد الكذب ابتداء حين ذكر الفعل الماضي (كان) .
كلفه أن يأخذ كتابه فيلقيه على القوم ، وهو في هذه الحالة مراقب بطريقة ما .
وعلمه كيف يرمي الكتاب ويتلقت الخبر دون أن يعلموا بوجوده (فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر
ماذا يرجعون) .

ولعلمهم إن جهلوا من ألقاه عليهم لم يتابعوه واستوهلوا الأمر، فاستعظموه.
ولن يظن البشر أن طيراً كان رسول سليمان إليهم .

١٤ - ذكاء الملكة وحسن تدبيرها.

كرّمت الملكة الكتاب (الرسالة) لأسباب عدة ، أولها : أنها تلقتة وهي فوق عرشها العظيم ، وثانيها
أنّ صاحب الكتاب الملك سليمان المعروف بقوته وعظمته ، وأما ثالثها فقد بدأ الكتابُ بالبسملة ، وأعظمُ
بالبدء بسم الله الرحمن الرحيم ورابعها : أن الكتاب نهي واحد وأمر واحد (ألا تعلوا عليّ واتوني
مسلمين.) ، ولا يكون النهي إلا من الممكن ، ولا الأمر إلا من القوة ، وخامسها : ذلك الاختصار
فالكتاب خمس كلمات.

ذكرني هذا الاختصار وتلك القوة بكتاب نقفور ملك الروم لهارون الرشيد خليفة المسلمين يهدده
ويتوعده، فما كان من هارون رحمه الله إلا أن كتب على ظهر رسالة نقفور: (إلى نقفور كلب الروم ؛
الجواب ما تراه ، لا ما تسمعه) وسيّر إليه جيشاً كسر به ظهره .

على الرغم أن الملكة أخذت بالكتاب وهالها ما فيه من ثقة صاحب الكتاب بنفسه أحببت أن لا
تستأثر بالجواب وأن تحمّل رؤساء قومها مسؤولية اتخاذ القرار ، فطلبت آراءهم : (يا أيها الملاء أفتوني في
أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) ولا بد من أخذ الرأي والمشورة ، فهذا دأب الحاكم اللبيب .

رأى مَلَّوْها أدبها فأخبروها بقوتهم وقدرتهم على القتال ، وتركوا لها البتّ في الحكم حين رأوها لم تستأثر به ابتداءً .. وأراهم أخطأوا حين تركوا لها اتخاذ القرار فقرار الحرب لا يتخذه الفرد وحده. وكأن العرب منذ القديم اعتادوا ديكتاتورية الفرد فأذعنوا لذلك ألم يقل الشاعر مخاطباً شيخ قبيلته:

لك المرباع منا والصفايا وحكمك والنشيطه والفضولُ

فالمرباع : ربع المغنم يأخذه رئيس القبيلة .

والصفايا : جمع صفي . وهو ما يصطفيه الشيخ لنفسه من المغنم ،

والنشيطه : ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغهم إلى الموضع الذي قصدوه ، فكان يختص به رئيس

القبيلة دون غيره. والفضول : ما يفضل من الغنيمة عند القسمة . وعلى هذا فللقائد أو الملك والرئيس كل

شيء .

وإننا نرى دولنا فقيرة معدمة ترزح تحت كاهل الديون بينما يسلب الحاكم كل شيء ويهربه إلى خزائن

الغرب وبنوكها ليأكلوه بعد أن يسقط الحاكم السارق .. أليس هذا ما نراه كل يوم؟!!

ولعلمهم – إن أحسنا الظنّ رأوا في حديثها رغبة في الصلح والمناورة التي قد تأتي بحل مناسب فرضوا

بذلك . (نحن أولوا قوة وألو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين)

من ذكائها وحسن تدبيرها أنه أرادت أن تجنب مملكتها التهدم والتدمير حين يدخلها ملك قوي

بالحرب والقوة . جنوده الجن والإنس والطير فأرسلت حكمة حفظها الدهر بأحرف من نور: (إن

الملك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون) ...



مع سليمان عليه السلام في سورة النمل (٢)

نقرأ قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام (أن لا تعلوا عليّ واتوني مسلمين) فنتشهي طرباً وفهماً لكلام نبي كريم يعلم أن :

اتباعه واجب إنساني ، فهو لا يريد للكفر أن يعلو على الحق الذي جاء به
ونلاحظ عزة القائد المسلم في النهي : (لا تعلوا عليّ) .. ومن يعلو على صاحب الدعوة الحقّة
ومثلها؟!!

وفي هذه الدعوة تهديد قريب من الصراحة - وإن اكتسى النصح المطلوب في الداعية - والنهي دليلٌ
على التهديد الذي فهمته بلقيس تماماً فتحاشته.

وما بعد التهديد إلا الأمر (واتوني مسلمين) فحصرها وقومها (بالنهي والأمر) . فكان الخطاب على
إيجازه واضحاً وقويّاً .

لم يقل : (ائتوني صاغرين ولا أذلاء خاضعين أو مسلمين) ، فهو لا يريد السيطرة عليهم ليستغلهم
ولا ليقهرهم ، إنه يريد أن يُسلموا لله رب العالمين ، ومن كان هذا ديدنه ومهّمته فقد أراد العزة للناس في
الدنيا والآخرة . ، وهذا دأب الدعاة المصلحين.

كانت الملكة عاقلة لبيبة قرأت الكتاب وعلمت مرماه ، فتدرّجت في ترويض قومها للأمر الذي
أزمنت أن تنفذه :

خاطبت أشرف قومها وكبارهم بالاحترام والتقدير (يا أيها المأ) والمأ : كرام الناس وسادتهم .
استشارتهم وطلبت رأيهم (أفنوني) والإفتاء تغليب أوجه الرأي وتمحيص الأمر للوصول إلى القرار
الصائب على الرغم أن الأمر عائد إليها في آخر المطاف (في أمري) ولم تقل في الأمر . والشورى ملزمة هنا
(ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) . ولم تقل ما كنت لأقطع أمراً ، إنما قالت : (ما كنت قاطعة)
فاستعملت الصفة وهي أقوى من الفعل في التأكيد .

حين تكون الشورى ملزمة يشعر أهل الرأي بعظم مكانتهم وأهمية أمرهم ودقة دورهم، فيخلصون في
المشورة ويبدلون رغبين مهتمين ، فينتج القرار السليم الأقرب للصواب .

إنهم أخلصوا لها في الجواب حين أعلنوا أنهم يجمعون بين أمرين مطلوبين لقوة الدولة : نحن أقوياء بما فيه الكفاية لرد أي عدوان . والقوة هنا كثرة العتاد والعدة . أما الثاني فالبأس الشديد والتدريب المحكم . (نحن أولو قوة وألو بأس شديد) .

يقدم المستشار مشورته واضحة ثم يترك تقدير الأمر للقائد والملك ليتحمل مسؤولية قراره عن قناعة ويُعدّ له العدة المناسبة . (والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) ولا أظنهم خرجوا عن المؤلف ، فللقيادة آفاق من المعرفة أشمل لورودها معلوماتٍ أكثر وأدقّ كما ذكرنا في مقدمة الفكرة.

كتاب سليمان عليه السلام القوي الذي وصفته الملكة بالكتاب الكريم يدل على إصرار صاحبه أن يصل إلى هدفه ما لم يستجب المرسل إليه إلى أوامره ، وهو - سليمان - الملك المرهوب الجانب القوي السلطان لن يتوانى في مهاجمة مملكة سبأ ويجعلها أثراً بعد عين .

قالت حكمتها التي سجلها القرآن بأحرف من نور (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون)

والمقصود بالإفساد الخراب والدمار ، فالحرب لا تبقي ولا تذر ، ألم يقل الشاعر الحكيم :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجّم

قتل وإهلاك وسلب ونهب وإذلال واستعباد .. وتنقلب الحياة المأ وحسرة وتشرداً ويتمماً وفقراً وضعة ... هذه نتيجة المعركة وهي - ملكة سبأ - أضعف من أن تقف أمام ملك قويّ ذي هدف يسعى إليه، ولن تضيّع شعبها في عمل غير محمود العواقب.

وهي تعلم نفسية الملوك حين يغضبون ، لهذا قالت متأكدة مما تقول : (وكذلك يفعلون).

والرائع في الأسلوب القرآني في هذه الآية الكريمة مجيء جواب: إذا الشرطية المتعدد في صيغة الماضي (أفسدوها وجعلوا) للتعبير عن مستقبل مشهود كأنه حاصل ابتداءً فالملوك حين يغضبون لا يرحمون أحداً، والتاريخ شاهد على ذلك .

ولكن الملكة الحكيمة تستبق الأحداث بحس النبض عند العدو ، فإن كان تهديده لمال يريده أعطيناه، وكفينا أنفسنا مؤونة التصدي له ، وما أكثر الذين يجيشون الجيوش لاكتناز ما يستطيعون في هذه الدنيا، وقد يكون سليمان - على رأي الملكة - واحداً منهم ، وهي لا تعلم حقيقته ، فلم لا تتقي شره بهدية

مناسبة؟! (وإني مرسله إليهم بهدية ، فناظره بم يرجع المرسلون) واستعملت الصفتين (مرسله وناظره) بدل الفعلين (سأرسل وأنظر) للوقوف على أمر سليمان بحكمة وتأناً دالين على فهم ثاقب للأمر .
فإن رضي بالهدية الثمينة كان كغيره من الملوك البطرين فاكتفينا أمره بالهدايا المتواترة وأزحنا عن أنفسنا ضرره وأذاه ، وإن كان غير ذلك نزلنا على أمره فأتيناه كما أمر . وهذا ما يفعله المغلوب على أمره الواعي لواقعه .

وتصل الهدية الفخمة الى نبي الله سليمان عليه السلام ، فيفهم مراد الملكة بلقيس وهدف أهل سبأ منها ونلاحظ ما يلي :

أن سليمان عليه السلام يستصغر ما فعلوه ، فهو ليس من هؤلاء الذين يطربون لما يغنمون من حطام الدنيا ولعاعها ، إن الله تعالى أعطاه من كل شيء ، وعطاء الخالق يغطي على عطاء المخلوق ، فهو - سبحانه يعطي عن جود وكرم ، وهي تعطي عن خوف وتقلق ، (وشتان ما بين السماء والأرض...) .
(أتمدونَ بمال؟! فما آتاني الله خير مما آتاكم) وإذا كان عطاء الله تعالى لسليمان أفضل مما أعطاه فإن عطاءها لسليمان يتقزم كثيراً ..

(بل أنتم بهديتكم تفرحون) كلمة قالها سليمان عليه السلام لرسل الملكة فوصلت إليها قاصمة للظهر مخيفة ، إنه تهديد بالهجوم الكاسح الذي حاولت جهدها أن تتحاشاه ، فهو عليه السلام لم يرسل لها الكتاب مبتزاً أو مستكثراً... فأسرعت إليه لا تلوي على شيء .

ويُفهمُ من قوله عليه السلام : (بل أنتم بهديتكم تفرحون) تظنون أنكم ملكتم مني ما تريدون وحصلتم على ما رسمتم ، وهيئات هيئات لما خططتم ، فأمركم مكشوف وهدفكم واضح لا يخفى عليّ .
وكأنه حين قالها كانت إعلان حرب تأكل الأخضر واليابس إن لم تتدارك ملكة سبأ الأمر.. (ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) .وتأمل معي قوله المفاجئ (إرجع إليهم) لتقيس نبض الرسول المتسارع وهو يسمع هذه الكلمة ، وتأمل التفاتة سليمان عليه السلام إلى قادة جيشه - ورسول الملكة حاضر يسمع التهديد المخيف (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) فيسرع هذا المسكين إلى ملكته يلقي عليها النبأ الصاعق ، فتسرع إلى سليمان تسابق الريح .

وكان سليمان عليه السلام يعلم أن النصر من عند الله لا من كثرة جيشه وقوته ، فقد ذكرنا في المقال السابق أنه كان يعزو كل الفضل لله تعالى ، لكنه حين يهدد العدو يخاطبه بما يفهم ليس غير . ولهذا قال مهدداً (فلنأتينهم بجنود لا قبيل لهم بها) . وعزز بقوله (ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون) خوفاً من حربه عليه السلام ، وهذه الحرب الإعلامية الاستباقية .

ونشعر بالقسم المؤكد باللام في (لنأتينهم ، لنخرجنهم) يؤزم الموقف ويرسم موقف التحدي في إثبات الذات والصورة المعبرة عن اتخاذ موقف التحرك نحو سبأ .

أما مجيء الآية التالية : (قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل ظأن يأتوني مسلمين .) فانتقال سريع إلى موقف آخر سبقته مواقف عديدة خفت من التأزم السابق حتى رأينا صورة مختلفة ، فيها النبي سليمان عليه السلام ينتظر ملكة سبأ بين لحظة وأخرى تدور فيها محاورة بينه وبين مستشاريه من الجن والإنس :

نجد النبي الملك سليمان يتبسط مع الحاضرين في الحديث ويستعين بأصحاب القُدرات في إظهار المملكة بمظهر القوة أمام الضيف القادم ، وهذا (بروتوكول) مطلوبٌ يحشد فيه القائد دلائل القوة والعظمة ليعت رسائل معلومة وواضحة لضيفه المنافس .

وأعظم ما عند المرأة عرشها المصنوع بإحكام يدل على الأبهة (ولها عرش عظيم) ، فإن كان لضائفها مثله فقد ساواها ، وإن جلبه إليه بقوة قادر فقد فاقها في السلطة والمكانة . (أيكم يأتيني بعرشها) قبل مجيئها يحوطها وفدّها .

بدأ عفريت قويُّ القول : أنا آتيك به قبل أن ينتهي لقائك مع مجلس شوارك - والمسافة آلاف الأميال - إنه لعرضٌ مغرٍ يدل على التمكن والقوة (وإني عليه لقوي أمين) . وجميل أن يعرض المرء قُدراته حين يطلب عملاً ، وهذا سيدنا يوسف قال للملك (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) ولهؤلاء الجن قوة لا تُضاهى تفوق قوة الإنس بمراحل لا تُقَدَّر . .. فهل من عرض آخر؟!

يعرض أحد الرجال من الإنس مقرب من ربه أعطاه الله سر اسمه الأعظم و(عنده علم من الكتاب) عرضاً تغيضُ أمامه قُدرات ذلك الجني العفريت وتتلاشى : أنا آتيك به بأقل من الثانية - في لمح البصر - (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرْفُك) ومهما كان المخلوق ضعيفاً أمام المخلوقات الأخرى فإنه بعون الله

وتيسيره يفوق الآخرين قَدْرًا وقُدْرَات. " فكن مع الله تر الله معك " ومن كان ولياً لله علّمه الله ، وما اتخذ الله ولياً جاهلاً ، ولو اتخذ له لعلّمه .

ما كان لذلك الجني أن يعرض ما عنده لو علّم ما عند الإنسيّ من إمكانيات مكتسبة وموهوبة ف :

ملك الملوك إذا وهب لا تسألنّ عن السبب

الله يعطي من يشاء فقف على حدّ الأدب

إنه اسم الله الأعظم الذي إن سألت به وصلت، وإن طلبت به أُجبت. وعرضَ هذا الرجلُ ما عنده بعد عَرْضِ الجنيّ ليعلم الجميع أن الله تعالى قادر أن يفعل ما يشاء ، وأن يهب ما يشاء لمن يشاء. .. سبحانك اللهم ملك الملك ، هبنا رضاك والجنة ...

علمنا سيدنا سليمان شكر الواهب . إنه حين ذكر نعمة الله عليه وعلى والده قال " إن هذا هو الفضل المبين " وحين سمع النملة تحدث قومها قال مبتسماً ضاحكاً " رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ .. " وقال ابتداءً مع والده داوود عليهما السلام " الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين " وهنا يقول حين رأى العرش مستقراً عنده: (هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم) . إن العطاء ابتلاء واختبار كالمنع سواء بسواء.. ألم يقل الله تعالى (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول لربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقد ربه عليه رزقه فيقول ربي أهاننّ) ففي الحالتين - المنع والعطاء ابتلاء واختبار، فلنح ذلك ولنفهم.

من شكر ارتد الشكر لصالحه - هكذا قالت الآية آنفاً - لكنّ الأدب الذي نتعلمه من النبي الصالح سليمان عليه السلام أنه لم يقل : ومن كفر فإنما يكفر على نفسه ويضرها. وهذا كلام لا يُلام المرء عليه فهو تحصيل حاصل. إنما أراد أن يعلمنا أن الله تعالى غني عن العباد وعبادتهم كريمٌ في نفسه ، فإن لم يعبد أحد فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد . وهذا كما قال موسى مخاطباً قومه " إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد " وفي صحيح مسلم " يقول الله تعالى : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا

نفسه " .

ولعل سليمان تعجّب أن يرضى أهلُ سبأ بامرأة تحكّمهم ، فأراد أن يختبر فهمها وذكاءها ، فأمر بتغييرٍ في عرشها ليرى حُكْمَها فيه حين تراه .

ورغب كعادته التي علمناها في حسن الخلق الذي يتحلى به صلوات الله عليه أن تتعرف على عرشها بعد تنكيره فقدم الهداية وذكر ضميره (أهتدي) وأخّر عدم الهداية وجعله مجهولاً حين قال " أم تكون من الذين لا يهتدون " ولم يقل : أهتدي أم تضل . وهذا ما رأيناه في خطابه للهدهد (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) ولم يقل أصدقت أم كذبت ، وفي هذا المعنى أدب جم من سليمان عليه السلام وحنكة قيادية فذة حين توقع الهداية لبليقيس وأخبر الهدهد أنه يميل إلى تصديقه .

ينبغي التعرف على قدرات من تعاشرهم حتى تنزلهم منازلهم .. يروى أن رجلاً جسيماً يرتدي حلة فاخرة جلس بوقار إلى حلقة أبي حنيفة النعمان وهو بين تلاميذه يناقشهم في بعض المسائل ، وكان يمدّ رجله متعباً في جلسته متباسطاً معهم ، فجمعها إليه حين جلس هذا الرجل بينهم ، ثم بدا للرجل أن يتكلم فسأل سؤالاً لا يدل على ذكاء وفهمٍ ، فضحك ابو حنيفة ، وقال : آن لأبي حنيفة أن يمدّ رجله .. وهنا نجد نبي الله سليمان يريد أن يختبر الملكة لبليقيس ، ويتعرف جدارتها في حكم أهل سبأ ، فقال لمساعديه : " نكروا لها عرشها ننظر أهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون " فغيّروا في عرشها بعض معالمه ، فلما وصلت واستقبلها أشار إلى عرشها يسألها بذكاء الأنبياء ولباقتهم : " أهكذا عرشك " ولم يسألها أهذا عرشك؟ والفرق بين الطريقتين واضح . فالأول فيه شك وجواب الثاني نفي أو إثبات . فكان جوابها على قدر السؤال حين قالت : " كأنه هو " فلم تنف ولم تثبت . وتركته في دائرة الشك . هذا كان الاختبار الأول .

أما الاختبار الثاني فكان أن طلب إليها دخول الصرح المبني بصفائح الزجاج فوق الماء ، فلم تتبين الزجاج ، فكشفت عن ساقها تظن أنها ستخوض لجُثته ، فلما قيل لها " إنه صرح مرمّد من قوارير " علمت أنه يريد أن يربها ملكاً أعظم من ملكها ففطنت إلى مراده فاستسلمت ، وأذعنت ثم أسلمت بعد أن أقرت بما كانت عليه من الكفر . وقيل كما في القرطبي - بتصرف - : عمله ليختبر قول الجن فيها : إن أمها من الجن، ورجلها رجل حمار؛ قاله وهب بن منبه . فلما رأّت اللجة فرعت وظنت أنه قصد بها الغرق :

وتعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن لها بد من امتثال الأمر. "وكشفت عن ساقها
" فإذا هي أحسن الناس ساقاً؛ سليمة مما قالت الجن، فلما بلغت هذا الحد، قال لها سليمان بعد أن
صرف بصره عنها " إنه صرح ممر من قوارير" والممرد المحكوك المملس
ولما رأى سليمان عليه السلام قدميها تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام.



آداب في قصة (نوح عليه السلام) في سورة هود

- ١- أوحى إلى نوح أن المؤمنين به بعد مكوثه بينهم تسع مئة وخمسين سنة لن يزدادوا ، فلا داعي لتضييع الوقت دون فائدة ، فالعمل يستمر إن كان مفيداً
- ٢- على الإنسان أن يبذل ما استطاع في سبيل دعوته وأن لا يدخر وسعاً في ذلك، وأن لا يئس، فما ينبغي لمؤمن أن يئس.
- ٣- يبدأ الداعية بدعوة الناس عبر دوائر تتسع شيئاً فشيئاً (الأسرة ، الأرحام ، الأقارب ، الحي والأصدقاء ثم القوم جميعاً) قال تعالى " وأندر عشيرتك الأقربين " .
- ٤- يُفهم من قوله تعالى: (.. لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) أن الله تعالى وهو العالم بالغيب لم يقض عليهم أن يكفروا وإلا لم يحاسبهم ، إنما علم أنهم لن يؤمنوا فكتب ذلك كتابة علم لا جبر.
- ٥- يحزن المرء حين يرى الناس صادّين عن الحق بعيدين عنه ، ويكون ألمه أشدّ حين يكون ذا إحساس شفاف وقلب حيّ (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون) فحين قضى المولى أن يغرق الكافرين جزاء وفاقاً نبه نبيه نوحاً بلطف أن لا يحزن عليهم (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون).
- ٦- وحزنُ الداعيةِ الكبير سيدنا نوح - ويعلم الله تعالى أن نوحاً سيحزن - يدلُّ على حبه لقومه ورغبته في إيمانهم، ألم يقل له سبحانه (ولا تُخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) فلا يُجأجج عن أحد منهم.
- ٧- رحمة الله وعنايته تتابع الداعية في كل أحواله (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) فنوح عليه السلام ليس نجاراً ولا صانع سفن ، بيد أن الداعية يشرف على كل ما يفيد الدعوة ،ومن أخلص لله اصطفاه مولا.
- ٨- يصيب قلب النبي نوحٍ الألم المتواصل من سخرية قومه منه وهو يصنع السفينة ويصوّر ذلك الألم الشرط (كلّما) إذ تُسمعنا قهقهاتهم وكلماتهم الجارحة في غدوهم عليه ورواحهم، ولو علم قومه ما يُعدُّ لهم من العذاب الدنيوي والأخرويّ ما سخروا من نوح حين بدأ بصنع السفينة ، إنما بكوا وتضرّعوا وسارعوا إلى

الإيمان ، ولكن ما تقول في قوم صدّوا عن سبيل الله واران على قلوبهم ما كسبوا فلم ينتبهوا إلى شدة العقاب.

٩- إن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً ، (إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يُجزّيه ويحلُّ عليه عذابٌ مُقيم) إنه تهديد صريح لمن كان يعي ويعقل.

١٠- التنور بيت النار . أمّا أن يخرج الماء منه - على غير العادة- فيأيدان بتغيّر الناموس الكوني وبدء العقاب الموعود، فليسارع المؤمنون إلى السفينة التي تحملهم إلى برّ الأمان. إنها الشارة المتفق عليها ونقطة الصّفْر لبَدْء العقوبة المغرقة.

١١- لن ينجو سوى المؤمنين الذي يركبون السفينة وحدهم مع الحيوانات أزواجاً لاستمرار الحياة بعد الطوفان، لن يكون معهم أحد غير المؤمنين ولو كانوا ذوي قربي فالرحم رَحِم الإيمان ليس غير (قلنا حمل فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك - إلا من سبق عليه القول - ومن آمن).

١٢- (وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين) هذه سنّة الحياة فأصحاب القلوب الواعية نادرة ، إن الذين يعلمون الحياة ويفهمونها قلائل (وما آمن معه إلا قليل)

١٣- السفينة كبيرة لكنها سارت أياماً وليالي في المحيط الغامر برحمة الله تعالى وحفظه (بسم الله مجراها ومرساها) فهو سبحانه لطيف بعباده يحفظهم من الغرق في هذا المحيط اللجج من الجبال المائية العاتية وأمواجها المتلاطمة ، "وكل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه باسم الله فهو أقطع" وعلى المسلم أن يكون ذكرُ الله في قلبه وعلى لسانه، "إن الله يُسبِّرها"، وهو يضعها في المكان الآمن.

١٤- ولشدّ ما تصيبني النشوة وأنا أتمعن في فواصل الآيات المناسبة للمعنى ، مثالها هنا (إن ربي لغفور رحيم) فمن اعتمد على الله وآمن به غفر له ذنوبه رحمه . ولعلنا نلاحظ انتماء نوح إلى ربه إذ قال (إنَّ ربي) فكان التلازم بين المضاف والمضاف إليه دليل اللجوء إلى الله واللياذ به. إن الملجأ في السفينة التي أحاطها الله سبحانه بعنايته (اركبوا فيها).

١٥- إنه إبحار مخيف يدل عليه (وهي تجري بهم في موج كالجبال) تجري بقوة يُحركها من أسفل - ارتفاع بحار الأرض - ومن أعلى - تدفق محيطات السماء - فوقها ماء وتحتها ماء، غارقة هي إذأ بالماء الذي يعلوها ويُعليها ،وتراهم يذكرون الله ويرجون السلامة - وهم فيها- والإنسان ضعيف فقير إلا من

رحمة الله وحفظه.

١٦ - الأبوة - وما أدراك ما الأبوة؟ نبع الحنان ودفء الحياة تتجلى في نداء الأب يرى فلذة كبده يغوص في الماء ويغرق فيه فيناديه : أي بني ،هلم إليّ ، فالنجاه هنا. (اركب معنا ولا تكن مع الكافرين). إنه يدعو إلى الإسلام حتى اللحظة الأخيرة يريد معه مؤمناً بالله ، فالإيمان زاد المرء وكنزه.

١٧ - ومن الوردة تولد الشوكة ، ومن الشوكة تتجلى الوردة ، "أب نبيّ وولدٌ كافر". ولن تنفع النصيحة من ارتد قلبه واسودت نفسه، ألم ينصح إبراهيم عليه السلام أباه فأبى؟ هنا ينادي نوح: (يا بُنيّ)، وفي سورة مريم يخاطب إبراهيم أباه أربع مرات: (يا أبتِ). ولا يجب إلا من كان فيه خيرٌ أو ألقى السمع وهو نبيه أريبٌ. لكن الكافر لا يرى النهاية مهما وضحت ، فرمى الموج ولد نوح، وهو يراه يتقطع قلبه عليه. واخذ الغضبُ أبا إبراهيم كلَّ مأخذٍ.

١٨ - إنها سورة الغضب الإلهي الذي جيش جنديّ الغرق فلم يذر منهم دياراً. ألم يتحرك هذا الجنديّ الغاضب تأييداً لموسى وقومه حين أخذ فرعون وجنده؟! (وما يعلم جنود ربك إلا هو).

١٩ - فإذا ما انتهى الأمر وسكنت السماء فلم ترسل سحابها ، وتوقف خروج الماء كانت الدنيا بحراً هادئاً لا تدري أين ترسو السفينة فليس من يابسة ، وكل ما حولك أو فوقك لو أن أزرق . ولعل الشمس عادت بعد غياب ترسل أشعتها على الماء ، والناس في سفينتهم يسألون الله تعالى أن يتم عليهم فضله ، فما يعيش البشر إلا على الأرض (منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى).

٢٠ - وترى الماء يتناقص ، فقد جاء الأمر الرباني للسماء والأرض كليهما أن المهمة قد انتهت فلتستعد كل منهما ماءها (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) فبدأت الأرض تعيد نصيبها من الماء إلى جوفها (ويا سماء اقلعي) وطار ماء السماء إليها حيث كان ، ألا نقول : أقلعت الطائرة إذا ارتفعت في الجو؟ وتصور الماء ينقسم قسمين على الرغم من اختلاطه وهو يؤدي مهمته، فهذا يغوص في الارض عائداً إلى مستقره وذاك يرتفع في سحاب إلى حيث كان في علم الله.

٢١ - وترسو السفينة على غير ما اعتدنا أن نراها ترسو ، إنها في أعلى جبل الجودي، وتبدو الجبال أول الأمر أرضاً منبسطة فإذا ما غاض الماء رويداً رويداً بدأت تعلو شامخة وظهر ما دونها ثم انتهى الماء في الوديان العميقة ، وعادت البحار إلى سابق عهدها وكأن شيئاً لم يكن، بيد أن الأرض طهرت من

المستكبرين والكفرة المارقين، وتسمع صوت الحقيقة (بُعداً للقوم الظالمين) وليت الناس يعتبرون بما جرى للظالمين فيرعون.

٢٢- ونجد العاطفة الأبوية مرة أخرى تظهر في مناجاة الأب ربّه في ابنه الذي غرق (ربّ إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) ويتجلى ضعف الإنسان في النبي نوح على علوّ قدر النبوة متسائلاً : كيف لا يكون ابنه من أهله فيجيبه الرحمن : إنه ليس مسلماً ، فلا يربطنا بالكافر سوى النسب أما الحب والولاء فهو الرابط الصحيح ، ألم يقاتل الصديق ابنه في بدر فيأسره ويتبرأ مصعباً من أخيه الأسير ابن أمه وأبيه " أبي عزيز " فيقول لمن أسره " اشدد عليه يا أخي فإن له أماً غنية تفديه؟ " فيقول أبو عزيز : أهذه وُصاتك بي يا أخي ، فيجيبه مصعب : صه، إنه أخي من دونك. ألم يقترح الفاروق على الحبيب المصطفى أن يقتل كلُّ مسلم قريبه الأسير كي يعلم الجميع أن الصلة المرضي عنها صلة العقيدة؟ فنزل القرآن يؤيده (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض).

٢٣- أما ما يُقال : إنه ابن زنا فهذا قدح في شرف الأنبياء. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول (ما زنت امرأة نبي قطُّ، وهذا دليل على براءة نساء الرسل والأنبياء من كل فاحشة على ولو كان بعضهنّ كافرات، فماذا تقول في الاتهام اللئيم للرافضة الفاسقين في أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها.

٢٤- ما أروع العودة إلى الحق سريعاً حين يُنبّه سيدنا نوح ، فنسمعه يعتذر منيباً إلى الله تعالى ويسأله الرحمة والغفران فالله تعالى يقول له: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) فيؤوب إليه مقرأً بخطئه (ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) ويتوب إلى ربه من خطيئته لا يقصده طالباً الرحمة والمغفرة (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) ولا يضَيِّع الله تعالى عمله بل يضمه إلى كنفه ويعفو عن زلته فيخصه بالسلام ويبارك عليه وعلى من معه.

٢٥- ونقف على قوله تعالى (..وبركات عليك وعلى أمم ممن معك) فنصحح فهم بعض المفسرين الذين ظنوا معنى " نوح أبو البشرية الثانية " أن من كان معه من المؤمنين عقيمون ، فقوله تعالى (وعلى أمم ممن معك) وقوله سبحانه (ذرية من حملنا مع نوح) أنّ نسل البشرية منهم جميعاً.

٢٦- كما نجد الدقة في هبة البركة ، فهي لا توهب للجميع إنما تخص المؤمنين ، فجاءت (من) التبعية (وعلى أمم ممن معك) تؤكد أنّ الرحمة في الآخرة تصيب المؤمنين ليس غير ، أما الكافرون فليس

لهم إلا النار والعذاب المقيم.

٢٧- وأخيراً وليس آخراً نجد الموسيقى تفرع آذاننا في كثير من آيات هذه القصة ، منه التكرار الرائع للميم ثماني مرات في قوله (وعلى أمم ممن معك) وانقلاب الباء ميماً في قوله (اركب معنا) ، فتقرؤها (اركمّنا).

٢٨- وتأمل معي ذاك التناسقَ الزمانيّ واللفظيّ بموسيقاه المنظمّة في قوله تعالى (وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك ، ويا سماءِ أقلعي ، وغيض الماء ، وقُضي الأمر واستوت على الجوديّ ، وقيل بعداً للقوم الظالمين .)
٢٩- وقد يسأل أحدنا هل غرقت الأرضُ كلها ، فإن كان كذلك قلنا : أكان قوم نوح يملأون الارض فكفروا جميعاً فأغرق الله تعالى الأرض كلها؟ أم كانوا في جزء من الأرض؟ فالإغراق لهؤلاء فقط ولم يَغْرَقْ غيرُهم . فنوح عليه السلام أرسل إلى قومه فقط ، فإن انكر بعضنا إن ترتفع الماء في أرض دون أرض قلنا وأين قدرة الله تعالى ؟ ألم يوقف الله تعالى الماء في البحر فسلك موسى عليه السلام وقومه البحر يابساً وماؤه على الجانبين بارتفاع الجبال؟

٣٠- لا بد من الصبر للوصول إلى الهدف . نجد هذه النصيحة تتكرر زهاء تسعين مرة في القرآن وفي قصة سيدنا نوح نجد نتائج الصبر في عاقبة الأمور (إن العاقبة للمتقين).

نسأل الله تعالى أن يبلغنا مرتبة الصابرين ..

والحمد لله رب العالمين



مع نوح عليه السلام في سفينته

يبدل الداعية جهده وينصح الناس ويهديهم إلى طريق الحق ولا يئس من صلاحهم فإن خامره شك في ذلك تهاون ، وهذا لا يكون فيمن فهم واجبه وعلمه تمام العلم ، وقد رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عائد من الطائف - التي آذته - إلى مكة يقول حين عرض عليه ملك الجبال إذ جاءه يعرض عليه أن يهدم جبال مكة فوق رؤوس أهلها : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، وأبى ذلك ، ونراه صلى الله عليه وسلم في حصاره للطائف - بعد فتح مكة- وقد علم أن حصونهم لا يمكن الخلوص إليها - وقد سأله أصحابه أن يدعو عليهم - يقول : " اللهم اهد ثقيفاً واثت بهم. "

ويظل نوح عليه السلام يدعو قومه لا يكل ولا يمل حتى جاءه الوحي يقول " إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن " ولعله حزن لكفرهم واستكبارهم كما حزن رسول الله محمد عليهما الصلاة والسلام فقال له الله تعالى " فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً " ويخفف الله عنه قائلاً " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات " وقال كذلك " ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون " يقول الله تعالى لنوح عليه السلام " فلا تبتئس بما كانوا يفعلون " . ويظل الإنسان يعمل حتى يطلب إليه صاحب العمل أن يقف عنه وينتهي ، وصرح القرآن أن العمل يقف فقط حين تنعدم الفائدة ، أما إذا كان منه فائدة - ولو قليلة - فينبغي أن يستمر . ويأسى المرء حين يدعو إلى الحق ليل نهار ويرى الناس منصرفين عنه إلى الهوى وحظوظ النفس..

وكان نوح عليه السلام - في إحدى حالات ضيقه من صد قومه وجحودهم - قد دعا على قومه " رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً " وكانت ساعة مستجابة . فقد حكم المولى على الكافر الذي نأى واستكبر بعد أن جاءه الهدى بالعقاب المناسب " إنهم مغرقون. "

ولا بد من العقوبة لمن ظلم نفسه وحاد عن الحق وهو يعلمه زهداً به ورغبة عنه واتباعاً للهوى، إن نوحاً ظل في قومه يدعوهم إلى الله تسع مئة وخمسين عاماً يتابعهم ، " فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً " ويلح عليهم ، ويشرح لهم وهم سادرون في غيهم ، وقد كان أحدهم يأتي بولده إلى نوح ويريه إياه قائلاً : يا ولدي لقد حذرتي جدك من هذا الرجل وتخرصاته، وها أنا أحذرك منه . وفيهم وفي أمثالهم يقول

المولى تعالى " أتواصوا به؟! بل هم قوم طاغون. "

والعقوبة في القرآن الكريم للأمم أربعة أنواع " فكلاً أخذنا بذنبه : فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " وكان عاقبة قوم نوح وقوم فرعون الغرق .

ولا بد من اتخاذ الأسباب في كل شيء ، ومنها عملية الإغراق هذه التي كتبها الله عقوبة على قوم نوح ، وإذا حُدِّثت العقوبة وجاءت ف " لات حين مناص " . لقد بدأ نوح والمؤمنون معه بالعمل المؤدي إلى تنفيذ العقوبة ، فلن يُساق الناس إلى البحار ليغرقوا ، إنما البحار هي التي تجتاحهم في عقر دارهم . ولأن الغرق لا يبقى ولا يذر من يبقى على الأرض فلا بد من صنع سفينة تحمل المؤمنين مع نبيهم بين جبال الأمواج القادمة من المجهول . ويبدأ النبي نوح يعمل عمل النجارين ، غير المهنة التي اعتادها الناس منه، فبدأوا يسخرون منه ، (نجار ، ولعلمهم يصفونه بالهبل والجنون لأنه يصنع سفينة كبيرة في مكان ليس فيه تلك البحار التي تحملها . وتصور معي الإيمان الراسخ الذي يمتاز به هذا النبي العظيم الذي يتحمل في سبيل الله كل هذه السخرية والهزء من قومه الذين يمرون به في كل آن ويسمعونه قارص الكلام وسيئه ، وهو صابر محتسب، يرى عين الرعاية الربانية تحيط به من كل جانب فيأرز إليها ، ويسكن إلى رحمانيتها ، ويعمل بمعونتها وإرشادها " واصنع الفلك بأعيننا ووحينا " وهل أكثر أماناً من حفظ الله تعالى ورعايته؟ . !

قد يسخر الناس منه بألفاظ نابية، أو تعليق قاس، أو ابتسامه ذات معنى، أو إشارة فاضحة ، أو ضحكة مهينة: " وكلما مرّ عليه ملاً من قومه سخروا منه " انقلبت الأمور فبدل أن يعتمد على قومه في مؤازرتهم ومساندتهم أمام الأعداء والغرباء يجدهم أكثر الناس إساءة إليه ، وهذا أمر يجزن ويفت في العضد في كثير من الأحيان . ألم يقل الشاعر الحكيم :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

والنبي نوح عليه السلام وهو يتلقى منهم كل هذا يجيبهم إجابة الحكيم الذي يعلم أن العقوبة للمتقين، وأن الدنيا مهما طال زمنها ذاهبة بأهلها ، والويل لمن يعصي الخالق العظيم ويشاققه ، فإنه - سبحانه - يمهّل ولا يُهمّل ، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته. إنهم يسخرون ، وسوف تُحسب عليه سخرتُّهم . ويهزأون ويُحسب عليهم هزءهم. ولكنهم حين تحق الحقيقة غارقون في لجة الماء في هذه الدنيا ولن ينجو

منهم أحد ، وسوف يكونون من أهل العذاب يوم القيامة خالدين فيه أبداً . فمن الذي يسخر من الآخر يا أولي الألباب؟. " فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ . "

وجاء وقت الحسم، لقد بنى النبي نوح عليه السلام سفينة الإنقاذ، فمن يركبها؟ إنها أزواج الحيوانات، ليكون منها التكاثر مرة أخرى ، والمؤمنون من أهله والمسلمون الذين وُحِدوا الله تعالى ، أما زوجته وبعض بنيه فمع الغارقين ، لقد كفروا به مع من كفر، وليس هناك من وساطة ورحمة إلا لمن استجاب للدعوة المباركة . ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة - وهي قرّة عينه وأقرب الناس إلى قلبه - " يا فاطمة ؛ سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً . " كان المؤمنون قلة ، وأصحاب القلوب الشفافة وأهل الهدى أقل عدداً ولكنهم أقوى أثراً ، فليست العبرة بكثرة العدد والعدة . إنها بالنوعية الرائدة الفريدة . ألم يقل الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم " وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ؟ " وقد قال الحبيب المصطفى في الدلالة على القلة الواعية الرائدة في المجتمعات " الناس كإبل المئة ، لا تكاد تجد فيها راحلة " .

وحين استوى المؤمنون في السفينة دعا القائد الرباني دعاء الحفظ والصون " وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا ۗ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " تدفقت المياه كأغزر ما تكون من الأرض ، ونزل الماء كأقوى ما يكون نزوله من السماء ، وبدأ الماء يرتفع بقوة غامراً الوديان والوهاد ، لا يترك ثقباً في الأرض إلا دخله ولا كهفاً في جبل أو تل إلا غمره ، يخطف الناس والحيوانات والأشجار ، ويأخذها أخذاً عنيفاً ، وكانت السفينة تسير بهم في موج كالجبال ، يحفظهم سيد الكائنات ويسيرهم بلطفه سبحانه ، وما الأمان والأمان إلا بمعية الله " لا إله إلا هو " ومن كان مع الله كان الله معه . ومن اتكل عليه كفاه .

كان قلب الأب الرحيم يتابع أحد أولاده ممن تنكب سبيل الهدى وخاض في الضلالة ، وهذا يحزن الأب كثيراً فهو يريد أن ينجو فلذة كبده فيكون مؤمناً ، لقد انطلق ابنه بعيداً عنه على الرغم أنه ناداه قائلاً " يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين " والإيمان شرط الركوب في السفينة ، هذا ما قرره الله تعالى وقضاه ، والفتى يقوده الغرور إلى ارتقاء جبل يظن أنه يمنعه من الغرق ، فمهما ارتفع الماء فلن يرتقي الجبل خمساً أو ربعه أو نصفه ، هكذا اعتاد الناس إذا هاجمهم الماء ، وسوف يعود عاجلاً أو آجلاً إلى الانحسار، فما لأبيه يصنع سفينة ويتعب نفسه الشهور في تركيبها ويتحمل هذا العناء كله؟! أفقد عقله يا ترى ، لعله

كذلك ، ولعل الناس صادقون في وصف أبيه بما لا يليق برجل محترم ، هكذا كان يقول في قرارة نفسه حين ردّ على نداء أبيه الرحيم يستعطفه أن يكون معه في الفلك . فكان ردّه عقوقاً ظاهراً وجحوداً متمكناً في نفسه " سأوي إلى جبل يعصمني من الماء " فكان آخر ما سمعه من والده الثاكل " لا عاصم من أمر الله إلا من رحم " ففي هذا الموقف رحمة أو غضب ، ثواب أو عقاب . ولا يعلم هذا إلا قلب المؤمن المتصل بالله " ولكن أكثر الناس لا يعلمون " فما إن انتهى الأب من دعوته لابنه أن يكون معه حتى " .. وحال بينهما الموج ، فكان من المغرقين " لم تنفعه القرابة ولا النسب . فهيم هذا مصعبُ ابن عمير حين قال له أخوه أبو عزيز ، وقد أسره أحد المسلمين في غزوة بدر : يا أخي وصّ هذا المسلم بي . فقال مصعب للمسلم : اشدّد عليه يا أخي فإن له أماً غنية تفديه . فقال أبو عزيز له : أهذه وصاتك بي يا أخي؟! قال له : صه ؛ إنه أخي من دونك .

انتهت العملية في أيام معدودة ، ولا بد من العودة إلى الحياة الطبيعية : فبلعت الأرض ماءها بأمر الله واستعادت السماء ما أنزلته ، فالإقلاع ارتفاع ، ألا نقول : أقلعت الطائرة ؟ نعم لقد استعادت السماء ماءها وعادت الأمور كما يريد المولى كي تبدأ الحياة من جديد . وإذ بالسفينة ترسو في أعلى جبل الجودي لتكون عبرة للأجيال القادمة " ولقد تركناها آية ، فهل من مُدّكر " . نزل المؤمنون سادة على الأرض بمدد من الله وعون منه ، وقد كان الكفار قبل الغرق يسرحون فيها ويمرحون وكأنهم السادة الباقون ، ذهبوا كما ذهب أسلافهم من الطغاة ، وكما سيذهب أمثالهم من طغاة العصور القادمة ، ولكن " هل من مُدّكر " . وتصور معي الاستعلاء الحقيقي لرب السماء والأرض " وقيل بعداً للقوم الظالمين " . أقالها سبحانه مقررراً أفول نجم الظلمة مهما طغوا وبغوا ، أم قالها المؤمنون وهم ينزلون من السفينة ، أم قالتها الملائكة .. بعداً للقوم الظالمين .

ولعل الأبوة حين تتملك صاحبها تخرجه أحياناً عن الصواب - ولو كان معصوماً - أو تنسيه ما أمر به قبل الصعود إلى السفينة، فيختلط عليه الأمر ، فلقد نادى نوح ربه مسائلاً : " ربّ إن ابني من أهلي " ، ألم تقرر هذا حين سمحت لي أن أحمل أهلي في السفينة ، وقد مضى ولدي فابتلعه الماء . يارب إنك أرحم الراحمين فأحبي ابني وأعدّه لي . أو لعله طلب أن لا يكون ابنه من أهل النار . فكان الجواب عتاباً أعاده إلى الصواب وذكره بقاعدة ما تزال هي القانون الأبدي إلى قيام الساعة . لا علاقة للنسب في العقيدة ، ولا

صلة حقيقية إلا في العلاقة الإيمانية . وما عدا ذلك لا يُعْتَدُّ به ، ولو كان من ذريتك. " إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح " وقد عاش نوح عليه السلام ألف سنة في أجواء الإيمان الحق ، فلا ينبغي أن يقع في مثل هذا الخطأ " إني أعظك أن تكون من الجاهلين "

وسرعان ما يفيء النبي الكريم إلى الحق ويقر بخطئه ويسأل الله تعالى العفو والمغفرة ، وهذا دأب القدوة الصالحة ترجع إلى الحق سريعاً . " قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۗ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ " فكان الاعتراف بالخطأ أولاً والتوبة ثانياً وطلب العفو والمغفرة ثالثاً سبيل الصالحين جعلنا الله منهم .

وينزل النبي الكريم ومن معه إلى الأرض بسلام من الله وتحية منه وبركات... إن من يؤوب إلى الله تعالى يجد غفران الذنوب وستر العيوب ، والتجاوز عن الأخطاء ويجد المغفرة تحوطه والراحة الإيمانية تغمره . هذا ما أخبر القرآن نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من أنباء الرسل قبله ، ولم يكن يعلم من أنبأهم شيئاً، وهذا دليل على أن القرآن من لدن حكيم عليم نزل به الروح الأمين على قلب الحبيب المصطفى ليكون نبأً للبشرية يهديها إلى الصراط المستقيم .



لا تقصص رؤياك على إختوتك

بدأ الإمام صلاة التراويح بسورة يوسف عليه السلام ، وكان صوته مريحاً ، فلم يكن صوته جميلاً ولا قبيحاً لكنّ تلاوته كانت جيدة وقراءته هادئة ، لهذا قلت إن صوته كان مريحاً ومما يزيد في راحة النفس أن مكبر الصوت يملأ المسجد دون جلبة أو ضوضاء .

قلت في نفسي وأنا أدخل المسجد : لعل الله يرزقني فكرة أدندن حولها في خواطري الرمضانية إذ لم أكن قررت الفكرة التي أدور حولها ليوم الغد . فلما قرأ الإمام قوله تعالى " يا بنيّ ؛ لا تقصص رؤياك على إختوتك " قلت في نفسي - فقد كنا في الصلاة ولا يجوز الكلام فيها بغير الصلاة - جاءت الخاطرة فلا بدّ من إنضاجها . ولعل القارئ يشاركني اليوم الحديث عنها ، ويقده زناد فكره فيها ، فهلّم إلى ما يفتح الله بها علينا من خير نحن نحتاجه جميعاً :

١- لا بد من صدر حنون ذي خبرة في الحياة يسدد خطوي ويشاركني همومي - إن صح أنّها هموم - أو يشاركني خواطري وتفكيري حين ألجأ إليه أستعين بمشورته وخبرته . وسيدنا يعقوب عليه السلام أئده الله بالحكمة وسداد الرأي وفهم الحياة ، فقد عركها وذاق حلوها ومرّها ، وهو نبي ابن نبي وحفيد أبي الأنبياء ، والله سبحانه وتعالى يلهمه الصواب ، ويسدده بالوحي ، ثم إنه الأب الحاني والصدر المشفق ، والوالد المحب ، فنعيم المستشار هو لولده يوسف عليهما السلام .

٢- لا بد من الحذر والحيطه في كل الأمور ، ولا ينبغي للسر أن يتجاوز صدر صاحبه إلا إلى الأمين، وإلا شاع وعرفه القاصي والداني ، كما أن لكل منا خصوصية يحتفظ بها ، ويخفيها عن الآخرين ولو كانوا من المقربين . والأب يهمس في أذن ولده " يا بني لا تقصص رؤياك على إختوتك . "

٣- ولكنّ الأخ - عادة - محب ويود لأخيه الخير والسعادة والهناء ، فلماذا يحذر الأب ابنه من إختوته؟! لا شك أن الأمر خطير إن عرفه إختوته فسوف يحسدونه ، ويكيدون له . إن هذه الرؤيا بشاره بالنبوة التي تهفو لها نفوس الإخوة جميعاً فأبوهم نبيّ ، ولا بد أن يرثه في النبوة واحد أو اثنان أو أكثر ، والجميع يحرصون على ذلك ، وليس الكل أهلاً لهذه المكانة العظيمة . وسيزداد الكره ليوسف حين تتجاوزهم هذه المكانة - وهم الكبار - إلى يوسف الفتى الصغير ، لا شك أن الله يختار من يشاء

ويعصفي من يريد لدعوته ، ولكن هل يعي الجميع هذا الأمر ويرضونه ؟ أم تراهم يكيدون ليوسف ويأتمرون به إيداءً وإقصاءً؟ هكذا فكر بعضهم ثم نقّده جميعهم ، والله - سبحانه - يفعل ما يشاء .

٤- " لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً " ونلاحظ فعل الكيد يتبعه المفعول المطلق ليصف نفسية إخوة يوسف وما فيها من الحسد والبغضاء لمن يعتبرونه سلبهم أمراً يظنونهم من حقهم " الله أعلم حيث يجعل رسالته " والإيمان الناقص إذا خالطه حقد وحسد دفع بصاحبه إلى التصرف المشين والحمق البين . ، والأب يعرف أبناءه وشدة مكرهم ، ويعلم أيضاً أن الله يحفظ عباده الصالحين ، إلا أنه لا بد من الحذر وأخذ الحيطة على مبدأ " اعقلها وتوكل " فالتوكل وحده نقص واضح ، والعقل دون توكل أكثر نقصاناً .

٥- ومن الذي يدفعهم إلى الكيد الشديد لأخيههم ؟ إنه الذي أقسم أن يغوي الناس أجمعين إلا من عصمه الله وحفظه ، إنه الشيطان الذي أقسم بالله ليحتكّن ذرية آدم وليضلّتهم وليزرعنّ البغضاء في قلوبهم فهو عدوّهم الأول في هذه الحياة " إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين " إنه من أخرج أباهم من الجنة وحمل على عاتقه أن يأخذ من استطاع منهم إلى النار .

٦- وهل يقدر الشيطان أن يفعل ذلك مع أبناء الأنبياء؟! وقد ربّي يعقوب أبناءه على الإسلام والإيمان ؟ ألم يوص هذا الأب أبناءه أن يكونوا مسلمين ويحيوا مؤمنين ويموتوا على ذلك " ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون " ألم يعاهدوه وهو على فراش الموت أن يعبدوا الله وحده " أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون " بلى لقد عاهدوه بعد أن تعلموا الدرس واعترفوا بخطئهم أمام يوسف في مصر واعتذروا له وأنهم كانوا خاطئين وسألوا أباهم أن يستغفر لهم ذنوبهم .

٧- وليس شرطاً أن يكون أبناء الأنبياء والصالحين مثلهم فالهداية من الله ، فهذا قابيل قتل أخاه هابيل حسداً ، وهذا ابن نوح يدعو أبوه عليه السلام أن يؤمن ويركب معه سفينة النجاة ، فأبي واستكبر وقال بلهجة الجاحد المعاند: " سأوي إلى جبل يعصمني من الماء " وتنكب طريق الهداية فكان من المغرقين أهل النار .

٨- والحياة علمتنا أن الإخوة قد يكون بعضهم أشد عداوة لبعض من الآخرين ، فكم من بيوت هُدمت وكم من دماء للإخوة أريقتم بأيدي إخوانهم لمالٍ أو أرض أو امرأة أو منصب أو جاه .
فلا بد أيها الأحباب من الحذر والحيطه ، ولا بد أن يحفظ الإنسان سرّه ، ولا بد أولاً وأخيراً أن يسأل الله تعالى العون والهداية " فالله خيرٌ حافظاً ، وهو أرحم الراحمين "



مع إخوة يوسف عليه السلام

كم قرأت الكتاب الكريم - فيا سبحان الله - يتجلى فيه لقارئه كل مرة معانٍ عظيمة ، فهو دائماً بين تفكر وتدبر واستنباط آبيّ (مُتَوَلِّد) يُدَاخِلُهُ فَيَتَعَجَّب : كيف قرأه مئات المرات بل آلافها ولم يفهم أو يخطر بباله المعنى الذي حظي به اليوم فتلذذ بمعانيه الجديدة القديمة وازداد تعلقاً به ورغبة فيه. قرأت قبل أيام هذه الآيات في قصة يوسف فبسطت بين يديّ أساليب تربوية وأخلاقية ، فارتقيت في مدارجها ونعمت بثمراتها ، وأحبيت أن أضعها بين يدي القارئ ، ولست مدّعياً أنني جئت بشيء جديد ، إنما أدعي أنني نزلها المحب الذي ذاق عسيلتها والتصق بها ساعات طويلة ، بله أياماً رائعة ضاء بنورها وقبس من شعلتها.

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ
عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ
قَوْمًا صَالِحِينَ (٩).

وهل يحتاج رب العزة للقسم كي نصدق آياته فتصل قلوبنا وأفئدتنا وهو الحق وقوله الحق ووعدته الحق؟! إن القسم الإنكاري - فيه أكثر من تأكيدين - دليل على أن القائل لا يريد أن يبقى في قلب الحر وعقله شك ولا ريب فيما يسمع أو يقرأ . وهذا أسلوب تربوي قديم جديد في تقديم الخبر وزرعه في الشغاف (فاللام ، وقد وتقديم الخبر على اسم كان، مع الجمع :آيات ، ومضاهة) تأكيدات متعددة تفتح مغاليق القلوب لسماع القصة والانتباه إليها .

وهذا القسم توطئة لشد السمع وإرهافه فلا تمر كلمة والحاضرون عنها غافلون ، كما يفعل المدرس حين يدخل الصف ولما ينتبه الطلاب فيبدأ قوله مُسَلِّماً ، فيرد الجميع - تقريباً السلام عليه ثم يبدأ متسائلاً تسأول العارف الذي لا يريد على سؤاله جواباً : أتدرن ما درسنا اليوم؟.

وكأن على الراغب في معرفة القصة أن يسأل عنها ، فالسؤال باب العلم ومنه يبدأ . ومن سأل تفتحت أمامه مغاليق المعرفة [فعلم وفهم وفكر واتعظ (آيات) ثم عمل] . كما حصر السؤال في المقصود حين قال " لقد كان في يوسف وإخوته " وكثرة السؤال والسائلين إثراء للفكرة وتناول لكل جوانبها ، فيجلبها

ويبرزها واضحة يُستفاد منها .

لقد أخطأ إخوة يوسف في أمور كثيرة نحملها فيما يلي :

١- استنكروا أن يكون حبُّ أبيهم لأخويهما الصغيرين واضحاً أكثر من حبه لهم ، ونسوا أن الأب لا يفرق بين أبنائه في حبه إياهم إلا إذا وجد بينهم بارد الإحساس أو ضعيف المروءة أو الأناني غير المبالي بأبويه ولا بإخوته

٢- إن إظهار الحب للصغار لا يعني إفرادهم بالحب أو تقديمهم على إخوتهم . وقديماً سُئل حكيم: أيُّ أولادك أحبُّ إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يشفى ، والغائب حتى يعود. ويوسف وأخوه بنيامين أصغر أولاده الاثني عشر ، فهذان طفلان أو قريبان من الطفولة وأولئك شباب ورجال. ومن العادات الإيجابية أن يحب الكبار إخوتهم الصغار ويعطفوا عليهم ويكونوا لهم آباء ، لا أن يتخذوهم أعداء أو يغاروا منهم . وما يفعل ذلك إلا ضعيف العقل ضيقُ الصدر .

٣- كما أن الآباء الذين بذلوا حياتهم وأموالهم وجهدهم في سبيل أبنائهم لا يفعلون ذلك ليقوم الأبناء - حصراً - برد الجميل لهم ، فهذه فطرة الله التي فطر الناس عليها لتعمر الأرض إلى يوم القيامة. وإن فعل الأبناء ذلك فردّوا بعض الجميل فهذا يُحسب لهم في صحائف أعمالهم وينالون الخير في الدنيا والآخرة . أما أن يفضل الآباء أبنائهم الكبار على صغارهم لأن الكبار ينصرونهم فهذا ضعف في تفكير إخوة يوسف حين قالوا " ونحن عصبية" وكأن على الأب أن يحب الكبار ويقدمهم لأنهم يدافعون عنه وينصرونه ويعملون بين يديه وهم عشرة (عصبية) ويوسف وأخوه اثنان فقط! وهما صغيران لا يستفيد منهما استفادته منهم.

٤- وحين يستعملون أسلوب التفضيل (أحبّ) فهذا يعني أنه يجبهم ابتداءً ، وليس هذا إنكارهم إنما هم يريدون الحب لهم وحدهم أو يريدون أن يكون الحب الكبير لهم ، وهذا ضعف أيضاً في النفس ونوعٌ من الأنانية ما كان ينبغي ان يكون فيهم.

٥- وتزداد وتيرة الأنانية حين يصفون أباهم بالضلال . والمقصود بالضلال هنا : البعد عن التصرف السويِّ ومجانبة الصواب ، فإنهم سيعنون إلى أبيهم النبي الكريم ذي الخصال الحميدة والشمائل الرفيعة ، قالوها المرة الأولى بصفة الغائب (إن أبانا لفي ضلال مبين)، ثم ازدادوا سفهاً وجرأة حين

وصفوه مرة أخرى بما لا يليق حين أسف على يوسف وأكثر من ذكره بعد سنواتٍ طوَالٍ من غيابه فيقولون له مشافهة وسوء أدب " تالله إنك لفي ضلالك القديم" وما الضلال القديم إلا ضعف العقل وسوء التصرف، فأى احترام للأب وتقدير له إذا جابهه أبناءه بالعقوق في القول والعمل وأيُّ مكانة لهم في قلبه؟!!

٦- وهذا يأخذنا بعيداً قليلاً ، فما نزال في السورة نفسها حين وصفت النسوة زوجة العزيز بضعف النفس وسوء الاختيار حين أحبت خادمها ، وكان لها أن تحب نبياً من النبلاء لا خادماً يباع ويُشترى " امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين " فضلاً عندهنَّ مرأودة الخادم . ولو انها راودت أحد كبار القوم عن نفسه لما كانت - في زعمهنَّ - ضالة !.

٧- قد يتنافس رجلا أعمال في مصنعين لهما ينتجان مادة واحدة فتكون الغلبة لأحدهما بسبب جودة مادّته وانخفاض سعرها مع نفاستها ، أو قد تكون معاملة هذا الرجل لزيائنه أوثق وأصدق ، فيغار الثاني منه وبدل أن ينافسه في الجودة والمعاملة الطيبة يكيد له جهرة وفي الخفاء ليقبله أو يطيح به. وقد تجد مُدَرِّسين في معهد أحدهما أكثر علماً من الآخر وأحسن خلقاً يحبه طلابه لأنه يبذل لهم وقته وحبّه ويرغبون به ، أما الآخر فإنك تجده بدل أن ينافس زميله بهاتين الصفتين يكيد له عند مرؤوسيه ليعده عن المدرسة . وهذا الكيد ما فعله إخوة يوسف حين تجدهم يتآمرون عليه فيقترحون قتله أو يبيعه لقوم غرباء يذهبون به بعيداً. وقد تتساءل : أعدموا الحب الأخوي وركبهم شيطانهم فأنساهم أنفسهم حين اقترحوا طريقة التخلص القاسية من أخيهم ، وهل يخطر ببال من في قلبه ذرة من خلق وحب وإيمان أن يفكر هذا التفكير وينفذ هذا القرار؟! . هذا ما لا يفعله الغريب بالغريب ، فكيف نجده في قلوب الإخوة لأخيهم؟

٨- وهم في تدبيرهم هذا نسوا أنهم يغرسون خنجر الألم والحزن الدائم في قلب أبيهم ،ومن يؤذ أباه فما أحبّه، ومن آذى أباه فلن يجد منه صافي المودة ، ولن يأمن له. ولسوف يخسرون ثقته ويطوّحون بمصالحهم التي حرصوا عليها وأساءوا في حفاظها. وماذا يستفيدون من خلّ وجهه لهم وهو يتهمهم بأخيهم ليل نهار؟

٩- كثير من ضعاف العقل والإيمان يسرقون وينهبون ثم يتوبون ! ويقصدون بتوبتهم الانتهاء

عن السلب والنهب والسرقة والغصب حين يجدون بين أيديهم أموالاً لا تأكلها النيران . فهل هذه توبة؟ أم إن سبيل التوبة يتجلى في أن يعيد ما سرقه واغتصبه إلى أصحابه ويعتذر إليهم ويستغفر الله مما جنت يده؟ فكيف يقولون " وتكونوا من بعده قوماً صالحين"؟! قس على هذا الامور المشابهة كلها . هؤلاء يذكروننا بـ (الميكافيلية) القديمة والحديثة .. إن من تسوّل له نفسه الإساءة إلى أخيه قتلاً أو إيذاء ليصل إلى هدف رخيص ما هو إلا شيطانٌ يريد يغش نفسه قبل أن يغش غيره ، ولسوف يعود إلى فعلته الدنيئة كلما احتاج إليها ، وما أكثر هؤلاء في عالمنا الرديء اليوم ... لا تُبنى دعائم الخير إلا نقية من الرجس طاهرة من المفاسد كلها .

إنه موقف استرعى انتباهي وأحببت أن أقدمه للقارئ لعل فيه فائدة في حياتنا تعلمنا أن الخير لا ينبغي أن يُداخله السوء .



قضي الأمر الذي فيه تستفتيان

- قد يُسجن البريء لأنه شريف ، وَيَسْرُحُ المجرم ويمرح لأنه فاسد يبيع نفسه وينغمس في المخازي والمغريات، فهو خادم لهواه أولاً وخادم لأسياده الذين هم من طينته . ويوسف عليه السلام أبي أن يفعل الفاحشة وتمسك بالفضيلة ، فشعرت النساء بصغارهن أمامه ، ثم اتقدت في نفوسهن نار الكبر والعناد) لكن لم يفعل ما أمره لِيُسَجَّنَ وليكوناً من الصاغرين) ، وفضل أن يُسجن على الوقوع في المعصية ويرتفع في الآثام. وهذا بعض الابتلاء في هذه الدنيا يمحص الله تعالى به الصالحين ، ويرفع درجاتهم في عليين.

- إن سيماء الصالحين تلازم أصحابها وتدل الناس عليهم . ويبقى الصالح صالحاً والمحسن محسناً أينما كان وحيثما حلّ . في نعمة القصور ورغد العيش أو في ظلمة السجن وغياهب المعتقلات ، يتعرف بها عليهم من يعيش معه ويلازمه . فهذان فتیان دخلا السجن يوم دخله يوسف عليه السلام (ودخل معه السجنَ فتیان) تابعا ولاحظا تصرفاته ، فإذا هو أدب وأخلاق ، وعِلْمٌ وفهْمٌ ، وذكاء وركاء، ووقر في نفسيهما أن هذا الإنسان لم يجترم إثماً ، ولم يرتكب خطأً وأنه دخل السجن بمكيدة ومكر حاكه من لا يخاف الله ليداري سوءته ويخفي جُرمه. ومثل هذا الإنسان حريٌّ أن يُستفتى وأن يُستنصح . فلما رأى أحدهما رؤيا أَرَقَّتْه جاء يعرض رؤياه عليه ويستفتيه في تأويلها، وفعل الثاني مثله، فالأول رأى نفسه يسقي سيده الخمر ، ورأى الثاني أنه كان يحمل فوق رأسه خبزاً يأكل الطير منه . ولن يجد صاحب الحاجة تفسيراً لما يورقه إلا عند من يثق بدينه وحلقه وفهمه (نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين) . فلقد كان يوسف عليه السلام من سادة المحسنين وينتمي إلى دوحة النبوة المشرقة بنور الإيمان والإحسان، (فهو النبيُّ يوسف ابنُ النبيِّ يعقوبَ ابن النبيِّ إسحاقَ ابن النبيِّ إبراهيمَ) عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه .

- قرر أن يجيبهما - وهل يملك إلا أن يجيبهما؟، فمن لجأ إليك واستعان بك فمن المروءة أن تكون عند حسن ظنه . ولكن لا بد أن يغتنم فرصة انتباههما إليه ووقوفهما بين يديه فيدعوها إلى دين الحق ويخرجهما من ظلم الشرك وظلام الكفر إلى عدل التوحيد ونور الإيمان ، فبدأ :

أولاً : بترسيخ الثقة التي أولياها إياها فأنبأها أنه يعلم بعض الأمور الغيبية التي وهبه الله تعالى علمها قبل أن تتحقق. (لا يأتيكما طعام تُرْزِقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) .

ثانياً: وأن هذا العلم ما أوتيهِ إلا لأنه يؤمن بالله الواحد الأحد، وأهل التوحيد هم أهل البصيرة الحقة . (ذلكما مما علمني ربي) . فالله هاديهم ومعلمهم .

ثالثاً : وعلمنا يوسف - كما علم الفتيين - أن القدوة الحسنة سبيل إلى الهداية وهاجٍ إلى الطريق الحق وأن على الكبار أن يعلموا الصغار دينهم، فالعلم في الصغر كالنقش في الحجر (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) .

رابعاً: وذكر أن فضل الله تعالى بالهداية مبذول للناس جميعاً ، فمن شكر ظفر (ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) .

خامساً: ثم ساءلها ليفكرا التفكير السليم ويجيبا الإجابة الصحيحة بعد تفكر وتدبر أن وجود الآلهة المتعددة مجلبة لفساد الحياة (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فكل إله يريد أن يعلو على الآلهة الأخرى ويفرض ذاته على الآخرين . (... ولعلا بعضهم على بعض ...) . وما وجود آلهة كثيرة إلا من التخرص وظن العقول القاصرة .

- لا يصاحب المسلم إلا مسلماً ولا يصادق المؤمن إلا المؤمن ، فالطيور على أشكالها تقع ، والرسول صلى الله عليه وسلم يأمرنا بهذا إذ يقول : (لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي) وبهذا نفهم قول سيدنا يوسف للفتيين مرتين (يا صاحبي السجن) فقد كتب عليه أن يلتقيهما في السجن الضيق كغيرهما فكان صاحبين له في السجن ، ولن يكونا صاحبيه خارج السجن إلا إذا آمنا بدعوته وسلكا طريقه .

- والجميل في الدعوة والإجابة أن سيدنا يوسف عليه السلام كان بليغاً في الدعوة ثم الإجابة . فلو أنه أجابهما عن سؤالهما أولاً لم يلتفتا إلى دعوته لهما إلى الإيمان لأن حاجتهما إليه تكون قد انقضت . فقدم الدعوة على الجواب . ونراه أطل في الحديث والتعليل وتقليب الوجوه كما ذكرت آنفاً فكان حديثه - في دعوته - أربع آيات آخرن أطول من الأوليات ، فقد كان فيها هدمٌ لمعتقدهم الشركي وتثبيتٌ للدين القيم الصحيح . أما الجواب عن رؤياهما فكان مبتسراً قصيراً فيه حسمٌ وقضاء لا يحتمل الاستئناف أو التطويل ، لقد كان جملتين قصيرتين (أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) ثم حين فاجأهما قائلاً (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) . وكأنه يقول لهما : هذه هي الحقيقة ، فلا تراجعاني

فيها . فهو لا يملك تغييرها .

- ونجد ذكاء نبوياً عجيباً في الجواب . فهو - عليه الصلاة والسلام- يَعْلَمُ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُ سَقَى سَيِّدَهُ خَمْرًا وَمَنْ قَالَ : إِنَّ الطَّيْرَ تَأْكُلُ خَبْزَهُ فَوْقَ رَأْسِهِ . وبتعبير أدق يعلم من سينجو ومن سوف يقتل ، فلم يشر للأول أنه ناج ولم يشر للثاني أنه سيقتل . وإنما ذكر كلمة (أحدكما) فيعرف كل منهما تأويل رؤياه دون أن يشير يوسف إلى كل واحد منهما بعينه، فقال جملة تدل على الحكمة والنباهة (أما أحدكما فيسقي ربه خمرًا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) .

- ونراه حين يبشر الأول يذكره بالفعل المبني للمعلوم (فيسقي ربه خمرًا) أما الذي يقتل فقد ذكره بالفعل المبني للمجهول (فيصلب) ولم يقل (فيقتل) فالقتل أشد وقعاً من الصلب الذي يكون بعد القتل ولا يشعر المقتول به . ألم يؤته ربه سبحانه الحكيم والعلم وهو في بداية صباه؟ (ولما بلغ أشده آتيناه حُكْمًا وعلمًا ..) .

- وتمتّع معي بفاصلتي الآية الثامنة والثلاثين والآية الأربعين اللتين جاءتا في مكانهما المناسب - وكل ما في القرآن جاء مناسباً لا يقوم غيره مكانه - ، فقد كانت الأولى (ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون) ، قد جاءت تذكر بفضل الله تعالى على الأنبياء والناس أجمعين أنّ هداهم إلى الحق فوجب شكره سبحانه . وكانت الثانية (ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) تأمر بالإخلاص لله وحده في العبادة وتؤكد أن الإسلام دين الله القيم الذي يرضاه الله تعالى للناس فضل أكثر الناس عنه ولم يعلموه، فجهلوه .

- وأخيراً رأى الأول أنه يعصر عنباً فيصير خمرًا يسقي سيده منه ، - والخمر لا يُعصر- إلا أنه مجاز مرسل علاقته باعتبار ما يكون ، وهذا التعبير غاية في الإيجاز والجمال . وحين يكون الإنسان حياً - إن وضع على رأسه خبزاً - أكل منه الطير إن أمنه ولم يخفه . لكنّه حين يلقي حتفه موتاً أو صلباً ولا يُدفن أكلت منه الجوارح ولا تبالي . والله أعلم



(اذكرني عند ربك)

للمظلوم أن يطرق كل باب ليصل إلى حقه ، وهذا سيدنا يوسف حين أوّل لعاصِرِ الخمرِ رؤيته طلب إليه أن يذكر ظلامته عند الملك - حين يجد لديه أذنًا صاغية - عله ينصفه ، فقد دخل السجنَ ظلمًا وعدوانًا على الرغم أن العزيز - زوج المرأة - حين رأى قميصه قدّ من دبر أقر أن الخطأ كان من زوجته ، وطلب من يوسف أن يتناسى الأمر كي لا ينتشر بين الناس " يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين " لكن الضعيف - في كثير من الأحيان - يكون كبش فداء لمفاسد الملائم من القوم . وهذه طبيعة البشر حين يضعف الإيمان في قلوبهم . وربما ظنّ يوسف عليه السلام أن الناجي قد يُعَدُّ تأويلَ الرؤيا دينًا في عنقه يؤديه في الوقت المناسب فطلب إليه أن يذكره عند الملك عله ينال حقه المهضوم " اذكرني عند ربك "

وعلى الرغم أن يوسف عليه السلام قال في معرض أفضال الله تعالى عليه " ذلكما مما علمني ربي " وقد علمه تأويلَ الأحاديث وكان متأكدًا من صدق تأويل الحلم فإن القرآن استعمل كلمة " ظنّ " بدل كلمة " علم " في قوله تعالى " وقال للذي ظنّ أنه ناج منهما " وهذه لفظة تربوية رائعة تفيد أن العلم يبقى ظنًا ما لم يتحقق . وكثير من الناس يخطب المرأة ويؤثث البيت ويحدد تاريخ الزفاف ويدعو الناس إلى مشاركته فرحته ، وقبل الدخول بأيام أو أقلّ من ذلك يكون الفراق موتًا أو اختلافًا .. وقد يَعِدك أحدهم بأمرٍ ما ، وتعتقد أن الأمور صارت بين يديك فإذا الأمر وهمّ وسراب .

بعض المفسرين يجعل الضمير في " فأنساه الشيطان ذكر ربه " عائداً إلى يوسف عليه السلام ظاناً أن الله تعالى عاقب هذا النبي الكريم الذي طلب العون من غير الله بالبقاء في السجن سبع سنين لأن الشيطان غلبه تلك اللحظة، وما كان له أن ينتظر الفرج من غير الله تعالى ونسي هؤلاء المفسرون أن على الإنسان أن يخطط للوصول إلى هدفه ويتخذ الأسباب، و يكلّ أمره إلى الله تعالى أولاً وآخراً .

وبعض المفسرين أعادوا الضمير إلى الذي رأى نفسه يعصر العنب ، ويقدم الخمر لسيدته ، فأنساه الشيطان وصية يوسف . وهذا التفسير الثاني هو الحقُّ بدليل قوله تعالى بعد أن طلب الملك تفسيرَ رؤياه وإعلان الملائم أنهم لا يعلمون تأويل الأحلام " وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة ... " والادّكارُ هو التذكر

بعد النسيان الذي ضربه الشيطان عليه سنوات طويلة .

في بداية الأمر أعلن المملأ أن ما رآه الملك " أضغاث أحلام " ثم استدرکوا ما قالوه . لقد كان الحلم مقلقاً للملك حتى إنه جمعهم وسألهم تأويله ، فجوابهم الأول كان تسرعاً وتخلصاً غير موفق فأتبعوه بالاعتراف بجهلهم حين قالوا " وما نحن بتأويل الأحلام بعلمين " وهذه مُحمدةٌ لهم تُحسب لصالحهم ، فنصفُ العلم " لا أدري " والاعترافُ بالواقع فضيلة .

وقتُ النجاة في علم الله ، ولا يدري أحدنا متى يأتيه الفرج . ولربما لا يجرؤ الساقى أن يشفع ليوسف ولو تذكره ، فخصامُ يوسفَ مع النبلاء ، والمملأ من القوم الذين أودعوه السجنَ لسترِ مخازيهم ووأدِ القصة التي يزعجهم انتشارها ، ولن يفرط الملك بولاء حاشيته للنظر في قضية شاب مغمور ! إنَّ الساقى لن يجد من الملك أذناً صاغية . هذا لو لم ينسَ ، فكيف وقد نسي؟ إن للفرج أوقاتاً يأذن بها الله تعالى ، فتجده بين يديك سهلاً ميسوراً بعد أن كنتَ تظنه صعبَ المنال ، وكلنا لمس ذلك بيديه ورآه بعيني قلبه ورأسه . فالساقى يرى ويسمع ، يرى تلهُفَ الملكِ لمعرفة ما رآه ، ويسمعُ ضعفَ جواب الآخرين فيتذكرُ يوسفَ الذي أول له رؤياه ، وبشره بالنجاة فقال واثقاً " أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسلون "

باختصارٍ للموقف سريعٍ ننتقل إلى السجن فنسمع الساقى يخاطب يوسف عليه السلام بأدب واحترام - وللمؤمنِ التقى مكانته الرفيعة ولو كان في السجن - " يوسف أيها الصديق.. " ومرتبة الصديق لا ينالها إلا من يستحقها عن جدارة . وقد تسمعها ممن يكرهونك في اعتقادٍ ويخالفونك في فكرة ، لكنّ دخائلهم تعترف بخُلُقك وصدقك وأمانتك . وكم سمعتُ من العُلَمانيين وفاسدي العقيدة والذمم قولَ بعضهم لبعض: " أنت رفيقي في الهدف وزميلي في المهمة إلا أنني أعرفك سارقاً ولصاً ولا آمنُ إلا للإسلاميين في الأمور المالية والحفاظ على ما بحوزتهم من أمانة ..

قد يستغل بعضهم مثل هذه الحالة للوصول إلى غايته قائلاً جاءني على قدميها . فهل أحجم يوسف عن الجواب وأباه إلا أن ينظر الملك في أمره؟! وهل كانت مساومةً بين رسول الملك ويوسفَ عليه السلام؟ لم يكن النبيُّ يوسفُ عليه السلام ليفعلَ ذلك ، فثقتة بفرج الله لا تشوبها شائبة . ومن الله ينتظر الخلاصَ ، فلم يألُ أن فسر رؤيا الملك الذي أعجب بذكاء (السجين المفسر) وعِلْمِهِ الذي لم يجد مثله في بطانته ، فطلبه إلى قصره ، يريد أن يراه وأن يكلمه .

قد يظن من لا يعرف القصة ولم يقرأها في كتاب الله تعالى أنّ يوسف يرى إعجاب الملك به الذي أخرجته من السجن غايةً المنى ، فسوف يخرج إلى النور محمولاً إلى الملك دفعة واحدة وسيخلص من سجنه . لكنه أحجم عن الخروج من السجن حين دعاه الملك وعفا عن جرمه!، وسيظل في أعين الناس مخطئاً موصوماً بجريرة كبيرة ، وستثبت إدانته إن رضي بالعفو عن جريمة لم يرتكبها . وهو - الداعية - لن يصدقه أحد إن دعاه إلى الله وأمره بالشرف والمروءة وكريم الأخلاق ، يريد أن يخرج من سجنه بريئاً . لا بد إذن من التحري عن الحقيقة التي تعيد له اعتباره وترفعه في أعين الناس " ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟ إن ربي بكيدهنّ عليم " .

إن الملك حين وجد في هذا الشاب السجين علماً ومروءة وعزة نفس ولما يره بعد- ازداد رغبة في لقائه ، وصدّقه ابتداءً فتبّنى قضيته واستقدم النساء يسألن الحقيقة ويتهمهنّ " ما خطبك إذ راودتني يوسف عن نفسه؟" اتهام مباشر يصدر عن الملك الذي اطمأن إلى صدق يوسف ، فأسقط في أيديهنّ، فليس لإحداهنّ ان تخاصم الملك أو تخفي عنه حقيقة يتحرى عنها ويسعى إلى استجلائها ، فاعترفن بخطئهنّ وبراءته " قلنّ حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء " ولم تجد امرأة العزيز بدأً من الاعتراف بالحقيقة كاملة فقالت معترفة بما فعلت " الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين " وحصحص الحق: ظهر بعد خفاء . فكيف يخون الشاب المؤمن الذي أنشأه الله تعالى على الشرف والفضيلة وكريم السمائل من ربّاه وحدث عليه؟ يقولها بلهجة الصدق وقد عزا الخير كله إلى الله تعالى ، فالنفس البعيدة عن الله توقع صاحبها في الخطأ ، وما نجّاه من الوقوع في الخطيئة إلا اللجوء إلى الله تعالى والاستعانة به ، والاعتماد عليه: " وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي .. " .

قال الملك في المرة الأولى " إيتوني به " ليراه ويتعرف عليه ، وزاد عليها في الثانية حين عظّم في عينيه " إيتوني به أستخلصه لنفسي " فجعله مستشاره بعد أن وثق به ورأى فيه سمات رائعة رفعت عنده مقامه . وكلمته وأعجب به ، فبوّأه منه مقاماً مرموقاً . " إنك اليوم لدينا مكين أمين " وما كان التمكين إلا بسبب الأمانة ، ولا يكون الرجل أميناً إلا إذا رُبي على التقوى فكانت الدنيا في يده والآخرة في قلبه. وما بعد التقوى والتمكين في الأرض إلا أجر الآخرة .. إنه فلاح في الدارين ، وسعادة في الحالين .



" إيتوني به أستخلصه لنفسي "

- رأى الملك رؤيا عجيبة، سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان ، وسبع سنبلات يابسات يأكلن سبع سنبلات خضر، فسأل أولى العلم عن تأويل ما رأى فاعتذروا قائلين " أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين " وما ينبغي لمن لا يدري أمراً أن يدلي بدلوه فيه . فكانوا صادقين فيما أجابوا، وهذا دأب المستشار الأمين ، يقول ما يعرف ويسكت عما يجهل ، وكثيراً ما كان مالك بن أنس رحمه الله تعالى عالم المدينة يجيب عن سؤال أحدهم: لا أدري، ويعقب قائلاً : نصف العلم لا أدري .

-وهنا يتذكر ساقى الملك الذي كان أحد اللذين استفتيا يوسف عليه السلام في السجن لحلم رآه أنّ يوسف قال له " اذكرني عند ربك " - الملك - فنسي الأمر سبع سنوات ، ثم تذكر الصديق يوسف ، فأخبر الملك بقصته وأنه يستطيع أن يفسر الرؤيا فأرسله الملك إلى يوسف عليه السلام يستفتيه في ذلك ، فيجيبه يوسف عليه السلام: إن سبع السنوات القادمة فيهنّ خيرٌ كثيرٌ ينبغي أن يُحتفظ بـجُلّ خيرهنّ لسبع سنوات تليهنّ شديداً يأكلن الأخضر واليابس ، ثم يعود الخير في السنة الخامسة عشرة . وهنا يودّ الملك أن يتعرّف على المفسّر القابع في السجن ليجعله من بعض خدمه كما فعل بالساقى نفسه، فقال " إيتوني به "

- فهل اغتتم الصديق يوسف عليه السلام هذه الدعوة ليخرج من السجن بعفو ناقص لا يعطيه حقه ولا يبرئه من الظلم الذي وقع عليه ؟ وليظللّ في أعين الناس رجلاً حاول ان يعتدي على شرف من آواه في بيته وعامله معاملة الابن؟! إنه إن فعل ذلك فقد أثبت التهمة عليه مدى الحياة ، ولن يستطيع بعد ذلك أن يقوم بواجب الدعوة بين أناس ينظرون إليه بريبة وشك ، وكيف يصدّقونه فيما يدعوهم إليه وهو متّهم بأخلاقه مشكوك بصدقه؟! فلن يخرج من السجن إلا بريئاً يمشي بين الناس مرفوع الرأس طاهر الثوب يعلم الجميع أنه ظلّم تلك السنوات الطويلة وأنه كان مثال الأخلاق الكريمة والسيرة العطرة ، فقال للساقى " ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ ، إن ربي بكيدهنّ عليم " وحين تعترف النساء بنصاعة أخلاقه وكريم شمائله تضطر امرأة العزيز - وقد رأت نفسها وحيدة لا يُساندها أحد - أن تقر بذنبها وتعترف بجريرتها ، فدعا الملك النسوة مشدداً عليهنّ أن يقلن الحقيقة " ما خطبُكنّ إذ راودتُنّ يوسف

عن نفسه " ولعل سائلاً يسأل : لماذا صدّق الملك دعوى يوسف بالبراءة - وهو لم يره بعد - فتبتّى موقفه واتّهم النساء بمراودة يوسف ؟ والجواب : ما من رجل يرفض عفو الملك ويأبى الخروج من السجن دون تحقيق إلا إذا كان بريئاً من التهمة التي زُمي بها ، وكان صادقاً فيما يدّعيه ومطمئناً إلى قوّة موقفه .

- حين رأت النساء أن الملك يخاطبهنّ كمن يعرف الحقيقة أقرن بها ونفين التهمة عن يوسف عليه السلام " حاشا لله ، ما علمنا عليه من سوء " ، وهنا لم يكن لامرأة العزيز بد من أن تعترف بالحقيقة ، وتبرئ المتّهم المظلوم ، وتقر أنّها المذنبة التي راودته عن نفسه " الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين " فلما تناهى اعترافها إلى الصديق يوسف وهو لما يزل في سجنه قال بلهجة الواثق من نفسه " ذلك ليعلم أيّ لم أخنه بالغيب ، وان الله لا يهدي كيد الخائنين " فيوسف عليه السلام الذي رياه الله تعالى على عينه لا يخون من رعاه في بيته وأمنه على عرضه وشرفه .

- ويكبر يوسف عليه السلام بعين الملك ، فيقول " إيتوني به أستخلصه لنفسي " . لقد قال في المرة الأولى : " إيتوني به " ، فلما عرف قدر يوسف وعظم شأنه في نفسه زاد في قوله " أستخلصه لنفسي " لقد كان يريد واحدًا من ضمن خدمه في المرة الأولى ، وأراده في المرّة الثانية مستشاراً أميناً يُعتمد عليه في كبار الأمور وجليلها ، وقربه إليه ، وقال له حين التقاه وكلمه فرأى فيه النباهة والصدق " إنك اليوم لدينا مكين أمين " إنه ذو مكانة لا تضاهيها مكانة ، مكين لأنه كريم الشمائل أمين .

- إن من أراد أن يعلو بقدره بين الناس مسموع الكلمة عظيم المكانة فليكن صادقاً مع نفسه، حافظاً للأمانة لطيف المعشر، متحجباً إلى الناس ... صلى الله على يوسف الكريم ابن الكريم يعقوب ابن الكريم إسحاق ابن الكريم إبراهيم . وعلى الحبيب المصطفى محمد وعلى الأنبياء جميعاً .



جماليات في سورة يوسف

كلما قرأت سورة يوسف تبدى لي جمال جديد فيها ، وهذا من روعة القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه .

صلى فينا الأمام صلاة العشاء أمس ، فقرأ من سورة يوسف طريقة احتجاز يوسف أخاه بنيامين وتعريفه بنفسه وعودة الإخوة إلى أبيهم معتذرين عن إخلافهم وعدهم بالعودة إلى فلسطين ومعهم أخوهم المحتجز إلى أن وصل الإمام إلى قوله تعالى (:وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِیَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84)) فقلت في نفسي : إنهم أخبروا أباهم بما حصل لبنيامين فلم يظهر يعقوب عليه السلام الحزن عليه إنما ذكر يوسف وتأسف على فراقه . فلماذا يا ترى طغى شوقه إلى يوسف على حزنه لاحتجاز أخيه بنيامين؟! مع أن هذه الحادثة جديدة ، وحادثة يوسف قديمة . ثم قلت مجتهداً :

١- لعله إذ علم أن سجن بنيامين معروف زماناً ومكاناً تأثر أن يوسف غائب في مكان لا يدره ولا يعلم الوقت الذي سيلتقيه فهو يشنقه.

٢- وقد تُظهِر المصيبة الجديدة المصيبة القديمة فتفجرها كما يتفجر البركان فجأة والناس من حوله يظنون أنه خمد.

٣- ولعله إذ علم أن بنيامين سجن في مصر فهذه توطئة أو إشارة لمعرفة مكان أخيه ، وأن الفرج قد دنا.

٤- كما أن الأخ الأكبر بقي في مصر ليكون قرب أخيه بنيامين ولم يأت إلى فلسطين " فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين " فاجتمع في مكان واحد ثلاثة إخوة ، وهذا إيذان آخر بقرب الفرج واجتماع الجميع تحت كنف أبيهم ، فقال يعقوب عليه السلام "... عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم

٥- فلما اشتد حزنه وابتضت عيناه خشى عليه أبنائه فقالوا " : قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ " (85)

حتى تكون حرصاً أي تالفا

وقال ابن عباس ومجاهد : دنفا من المرض ، وهو ما دون الموت ؛
قال الشاعر :

سرى همي فأمرضني * وقدماً زادني مرضاً
كذاك الحب قبل اليوم * مما يورث الحرصاً

وقال قتادة : هرماً

قال الضحاك : باليا دائراً

قال محمد بن إسحاق : فاسدا لا عقل لك .

قال الفراء : الحارص الفاسد الجسم والعقل ؛ وكذا الحرص

قال ابن زيد : الحرص الذي قد رد إلى أرذل العمر

قال الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم

قال المؤرج : ذائباً من المهم

وقال الأخفش : ذاهباً

وقال ابن الأنباري : هالكا

وكلها متقاربة وأصل الحرص الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم ، قاله أبو
عبيدة وغيره

وقال العرجي

إني امرؤ لـج بي حب فأحرضني * حتى بليت وحتى شفني السقم

وقال امرؤ القيس

أرى المرء ذا الأذواد يصبح محرصاً * كإحراض بكر في الديار مريض

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهُم إذا أسقمه ، ورجل حارص : أحقق

"لا تثريب عليكم"

ثرب : عير ووبخ . وأصل التثريب الإفساد ، وهي لغة أهل الحجاز.

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي الباب يوم فتح مكة ، وقد لاذ الناس

بالبيت فقال) : الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده (ثم قال) : ماذا تظنون يا معشر قريش (؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قدرت ؛ قال) : وأنا أقول كما قال أخي يوسف " لا تثريب عليكم اليوم

فقال عمر رضي الله عنه : ففضتُ عرقا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذلك أني قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة : اليوم ننتقم منكم ونفعل ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال استحيت من قولي

وفي قوله تعالى : قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) من سورة يوسف

يقول عطاء الخراساني : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيخوخ ؛ ألم تر قول يوسف " : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم " وقال يعقوب " : سوف أستغفر لكم ربي . " وقال بشر :

ف عفوت عنهم عفو غير مثرب * وتركتهم لعقاب يوم سرمد

وجمال التعبير واضح في قوله : (وانته إلى القراءة في قوله)

(لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم) ... وفي قوله

(اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين) .

ففي الأولى : لا تعبير ولا توبيخ لكم اليوم . بل أسأل الله لكم العفو والمغفرة .

وفي الثانية : لا تعبير ولا توبيخ ، (إن هذا اليوم يوم عفو وغفران) .

"قميص يوسف" :

من اللافت للنظر أن للقميص في قصة يوسف دوراً عجيباً ، فقد ورد ثلاث مرات :

الأولى " : وجاءوا على قميصه بدم كذب " ، ولم يكن القميص ممزقاً ، فبان كذب إخوته .

الثانية " : وقدت قميصه من دُبُرٍ وألفيا سيدها لدى الباب " فحكم المرافق بصدقه حين قد من دبر ،

ولو قُدَّ من قِبَلٍ لَأُنْهَموه .

الثالثة " : اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً . " فكان القميص إيذاناً بجلاء العمى

واجتماع الشمل .

فكان للقميص بإذن الله فوائد طريفة.....



تجد المرء قوياً حين يكون صادقاً.

حين أساء إخوة يوسف إليه ، فألقوه في الحب وذهبوا إلى أبيهم عشاء يبكون قالوا له : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) و (لو : حرف امتناع لامتناع) ولا أرى (لو) : حالية كما يقول بعضهم ، لقد اقرؤا - دون شعور - منهم أنهم كاذبون ، فزلة اللسان تفضح عن حقيقة الجنان ، وتفضح الكاذب ، فقد جاءوا أباهم عشاء يخفون في ظلمة الليل سوء فعلهم .

لكنهم في احتجاز " بنيامين " - في مصر - قالوا بملء الفم : (وإنا لصادقون) جاءوا على أعين الناس واستشهدوا بمن كان معهم في القافلة (وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ..)

أقرأ قوله تعالى في سورة سيدنا يوسف : " ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات لَيْسُحُنُّنَّه حَتَّى حِينَ " فأرى فيها ما يلي :

١- ليس قرار سجن يوسف صادراً بناء على أوامر الوزير الاول وحده - الذي رُئِيَ سيدنا يوسف في بيته ورعاه - إنما القرار في سجن يوسف رغباتُ النبلاء والوزراء الذين رأت زوجاتهم - في ضيافة امرأة العزيز - شاباً وسيماً خرج عليهنّ بأمرها ، تريد أن تتأثر منهنّ حين خُضْنَ في قصة حبها للشباب الجميل يوسف ، فدهشن من جماله فجرحن أيديهنّ دون أن يشعرن وهنّ مأخوذات بحسنه الآسر ، وكنّ يسخرن من حبها لفتى اشترته بمالها ، وكان ينبغي عليها أن تحب نبياً من النبلاء أو فارساً أو وجيهاً ، أما أن تحب خادمها ومتبناها فهو (ضلال مبین) وخطأ كبير لا يليق بمقامها . هذا هو الضلال بمفهومهنّ .

٢- والواو في (رأوا) دليل على أن الرجال غاروا من ميل النساء ليوسف وأتھنّ طلبنّ إليه الفاحشة كما فعلت امرأة العزيز ، ودليل طلبهنّ تصريح امرأة العزيز أمامهنّ برغبتها فيه دون مواربة (فذلكنّ الذي لُمْتُني فيه ، ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره لُيسجنتنّ ، وليكوننّ من الصاغرين) وما صراحتها الشديدة أمامهنّ إلا لأهنّ رغبن ما رغبتن ، كما أن الملك حين رأى يوسف يريد البراءة قبل خروجه من السجن - ولا يفعل هذا إلا الواثق بنفسه الصادق في حياته - تبى موقف يوسف ووثق به وقال للنساء يتهمهنّ بمراودته (ما خطبُكنّ إذ راودتُنّ يوسفَ عن نفسه) فأقررن بذلك واعترفنّ بنصاعته وطهارته

عليه السلام، وسوء دخيلتهنّ وقبح ما طلبنّ منه.

٣- لماذا قرروا السجن ولم يتخذوا قراراً آخر كأن يُباع أو يُعزّب فيتعد عن نظر النساء فينسيه ، ولعل الجواب : إن الإبعاد لا يمنع العاشقات أن ييحثن عنه ويتابعنه فكيد المرأة كبير ، هذا ما قاله العزيز حين علم الحقيقة، فقال قولته المشهورة (إنه من كيدكّن إنّ كيدكّن عظيم) أما السجن فيبقيه حبساً تحت أنظار أولي الأمر وليس للنساء أن يزرنه في السجن أو يلتقينه. وسينسيهنّ الزمنُ يوسف ، فليبقَ في السجن بضع سنين.

٤- ينبغي أن يكون السجن للخاطئ لا للشريف الطاهر ، وكان من المفروض أن يكرم يوسف لشرفه وطهارته أما أن يُعاقب بجريرة غيره فهذه وهدة الفساد ودرك الظلم وهمجية البشر حين تنقلب المفاهيم وتتمكن الأهواء في نفوسهم. فيعاقب المحسن ويكافأ المذنب ، إنها سنة الجاهلية في ترك الشريف دون عقاب ومحاسبة الضعيف وحده على ذنب اقترفه ، أو يكون ضحية النظام الفاسد وقرباناً للمتنفذين . وما أكثر ما نراه في حياتنا التافهة هذه.

٥- (من بعد ما رأوا الآيات) والآيات هنا الدلائل والبراهين على انغماس نساءهم في الرذيلة حتى أخص أقدامهنّ ، وبعد أن صار يوسف مهوى قلوب النساء وغاية أمنياتهنّ، ومدار حديثهنّ . مجتمع فاسد لا ضابط من الأخلاق يضبطه ، ومن أشد الأمور قساوة على الرجال أن يروا نساءهنّ يعزفن عنهم وينشغلن بغيرهم . وكان الأولى أن تكون التربية والأخلاق صمام الأمان في المجتمعات فيعرف كل امرئ حقه وحق غيره فيقف عند حدّه ولا يتعداه.

٥- ولأنه بريء فسوف يُسجن (حتى حين) حين تئس النساء منه - في سجنه- وينسيه ، أهي سنة أو سنتان أو أكثر بين السجناء بأنواعهم الكثيرة المتعددة؟! وعليه أن يتحمل قرار السادة ، أليس غريباً بينهم ضعيفاً لا سند له ، اشتراه سيدهم بماله ، فعليه أن يرضى بما يتخذونه دون اعتراض هكذا كان ، وطال سجنه سنوات سبعا ونسيه السادة أو تناسوه كعادتهم ، لولا لطف الله تعالى وحكمته التي أرادت للبشرية أمراً لا ندرية ... حتى كانت رؤيا الملك ، وكانت الحرية ...



مكر النساء

-قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم

ما أشد مكرها !!

ادعت الشرف والطهارة

واتهمته

وجعلت من نفسها قاضية فحكمت عليه

وحددت العقوبة.

-قال: هي راودتني عن نفسي

فدافع عن نفسه

ونفى التهمة عنه

واتهمها

ولا يجوز المؤمن أن يسكت عن حقه أو يذل لغير خالقه

لم يقل :راعية البيت او سيدي بل قال: هي . وما أدراك ما هي . فلن يكون الكافر سيذا للمؤمن

-)وشهد شاهد من أهلها

هو من أهلها.

قال الحق ولم يحابها

فالحق أحق أن يقال

والرجل الحق ولو كان مشركا تأبى مروءته وتأبى أخلاقه أن يميل إلى الظلم وأهله

والحر-أيا كان- يسعى للعدل وينصره.

والمسلم أولى بهذا.. ينصر الحق ويحارب الباطل



درس بليغ من لقمان الحكيم (١)

عن عبد الله بن الزبير قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال كان قصيرا أفطس الأنف من النبوة . وقال يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعي حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يذكر ألمه من سواده فقال له سعيد بن المسيب لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب ولقمان الحكيم كان أسود نوبيا ذا مشافر

وكان لقمان عبدا حبشيا نجارا فقال له مولاه اذبح لنا هذه الشاة فذبحها قال أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله ، ثم قال اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها قال أخرج أحب مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب فقال له مولاه :أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما وأمرتك أن تخرج أحب مضغتين فيها فأخرجتهما. فقال لقمان إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أحبث منهما إذا خبثا.

وكان لقمان قاضيا على بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام، فأتاه رجل وهو في مجلس يحدث الناس، فقال له ألسنت الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ؟ قال نعم قال فما بلغ بك ما أرى؟ قال صدق الحديث والصمتُ عما لا يعينني. وفي رواية قال: قدر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعينني. ولأن كونه عبدا قد مسه الرق ينافي كونه نبيا لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها. ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا.

ووقف رجل على لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان أنت عبد بني الحسحاس ؟ قال نعم قال أنت راعي الغنم ؟ قال نعم . قال أنت الأسود ؟ قال أما سوادى فظاهر فما الذي يعجبك من أمري ؟ قال وطء الناس بساطك وغشيتهم بابك ورضاهم بقولك قال يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك . ثم قال لقمان إن غضبي بصري وكفي لساني وعفة طعمتي وحفظي فرجي وقولي بصدق ووفائي بعهدي وتكرمتي ضيفي وحفظي جاري وترك ما لا يعينني هو الذي صيرني إلى ما ترى . وروي عن أبي

الدرء أنه قال يوماً: ذكر لقمان الحكيم فقال ما أوتي عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ولكنه كان رجلاً صمصامة (حازماً) سَكَيْتاً طويل التفكير عميق النظر، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيده إياها أحد.

وكان قد تزوج وولد له أولاد، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي . وعن قتادة قال : أتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة أو رش عليه الحكمة قال فأصبح ينطق بها،

قال تعالى " ولقد آتينا لقمان الحكمة " وهو الفهم والعلم والتعبير ووضع الأمور في نصابها والإحاطة بمجريات الأمور على قدر كبير لا يقدر عليه إلا الذين وهبهم الله سبحانه الذكاء والحكمة والنظر الثاقب . ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وكان عليه أن يحمد الله ويشكره " أن اشكر لله " ومن شكر الله تعالى ارتقى رتبة الشاكرين وعاد نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى " ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ومن شكر فإنما يشكر لنفسه " فالله تعالى يهب دائم الشكر النعمة تترى لا تنقطع . " وقوله " ومن كفر فإن الله غني حميد " غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً فإنه الغني عن سواه .

ومن ضمّ هذه السمات بلغ من المجد غايته وشاع ذكره في العالمين ونال رضا المولى فكان من الخالدين.



درس بليغ من لقمان الحكيم (٢)

العاقل من وعى دروس الحياة وخبرها وعلم الناس وأرشدهم فكان أستاذاً بحق ، بدأ بنفسه ثم أهله ثم الأقرب فالأقرب . وكان لقمان الحكيم من هؤلاء المرين الناجحين الذين ذكرهم القرآن الكريم وأعلى شأنهم. فتراه ينصح ولده متحبيلاً فيناديه بكلمة التحبب (يا بُنَيَّ) ثلاث مرات :

١ - الأولى يعظه فيها بعبادة الله تعالى وحده ، وعدم الإشتراك به سبحانه. " يا بُنَيَّ ؛ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم "

٢ - الثانية: بيان عظمة الله القادر على كل شيء العالم بكل شيء. " يا بُنَيَّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير "

٣ - نصائح لا بد منها أمراً ونهياً ترفع شأن صاحبها وتجعله في بؤرة الرضا. " يا بُنَيَّ أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور، ولا تُصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختار فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير. "

فالعظة الأولى وهي عماد الحياة توحيد الله تعالى ، فالشرك ظلم عظيم. والظلم نوعان ،

١ - أما أحدهما فظلم الإنسان نفسه في الشرك يؤدي به إلى غضب الله عليه ومعاقبته بالنار والعذاب الشديد الدائم والعياذ بالله من غضبه وعذابه.

٢ - وثانيهما أن يظلم الإنسان حقَّ ربه في إفراده بالعبادة وحده. وقد يتساءل أحدهم معترضاً : إن الظلم يكون من القوي على الضعيف ، فكيف يظلم الإنسان ربه حقَّه؟! والجواب أن اللغة العربية واسعة المعنى متسعة الافكار ، ولهذا نزل القرآن بها لأنها تتسع له وهي قادرة على توليد المعاني ، والدليل على ذلك حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم في صحيحه : " إن الله عز وجل يقول، يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضت فلم تعدني . قال: يا رب ! كيف أعودك ؟ وأنت رب العالمين . قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني . قال : يا رب ! وكيف أطعمك ؟ وأنت رب العالمين . قال : أما

علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقي . قال : يا رب ! كيف أسقيك ؟ وأنت رب العالمين . قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه . أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي " فالمولى تعالى خالق المرض والطعام والماء والزمان والمكان . وهو المحدث لكل هذا (الذي خلق الحدّث) لا يتأثر بالحدّث ومع هذا نجد الحديث الشريف يذكر الله تعالى موجوداً عند المريض - وهو الذي لا يحده مكان- ويستطعم ويستسقي - وهو المنزّه عن النقصان - ليقرب المعنى إلى عبده ، فيفهم العبد المطلوب ويعمل به ، والملفت للنظر بل الجميل في المعنى والمبنى - أيضاً- أن بين الموعظة الأولى والموعظة الثانية آيتين لهما علاقة بالبر بالوالدين ذكرهما القرآن الكريم للتأكيد على الإحسان إليهما ، فالآباء هم الذين يربون أبناءهم على الإيمان بالله ويدلوهم على طريقه . ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: "يولد الإنسان على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" فكما أنّ علينا واجب الشكر لله فمن واجبنا أن نشكر آباءنا مع شكرنا لله تعالى " أن اشكر لي ولوالديك " فالله تعالى سبب الخلق والآباء السبب المباشر لوجودنا. والشكر للطرفين واجب على أن لا يتعارض شكر الوالدين بشكر الله تعالى فشكره - سبحانه- المقدم. ويوجه القرآن الأبناء إلى معاملة آبائهم المعاملة الطيبة ولو كان الآباء مشركين فحسابهم الاعتقاديّ على الله .

والعظة الثانية تعليل لوجوب عبادة الله وتوحيده ، فهو سبحانه العالم بكل شيء المتصرف بكل شيء والقادر عليه . والقرآن يعلمنا قاعدة مهمة في الحياة : (التعليل) فمتى اقتنع الإنسان بأمر فعله والتزمه وثابر على أدائه.

والعظة الثالثة أوامر ونواهٍ . وهكذا الحياة بقوانينها وأنظمتها كما أن الأوامر عادة ما تكون أكثر من النواهي . فالنواهي هنا أربع (لا تشرك بالله ، لا تطعهما ، لا تصعّر ، لا تمش) والأوامر أكثر فهي تسع (اشكر ، صاحبهما ، اتّبِعْ ، أقم الصلاة ، وامر بالمعروف ، انه ، اصبرْ ، اقصد ، اغضضْ) وهي وإن كانت على شكل نصائح فهي قواعد لا بد من التزامها فالحياة تقوم عليها ، وهي عصارة تجارب المرء المحرب العاقل الذي خبر الحياة نظراً وتأملاً وعملاً

كما أن لقمان يذيل بعض نصائحه بحكمة مناسبة فبعد قوله: "اصبر على ما أصابك" ذيلها بقوله: "إن ذلك لمن عزم الأمور" وحين نهاه عن التكبر والتعالي على الناس ذيلها بقوله "إن الله لا يحب كل مختال

فخور " وحين نهاء عن رفع الصوت برره قائلاً " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " ومن الذي يكره نتائج الصبر ولا يخاف الله؟ ومن يجب أن يقرن صوته العالي بصوت الحمار؟

إنها وصايا عقديّة وأدبية وخلقية واجتماعية إذا التزمتموها أمة ارتقت وتصدرت ركب الحضارة .

فهل نشمر عن ساعد الجد لنكون خير أمة أخرجت للناس .

حكمة من حكم لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه

١- جالس الصالحين من عباد الله ، فإنك تصيب من محاسنهم خيرا ، ولعله أن يكون آخر ذلك أن

تنزل عليهم الرحمة فتصيبك معهم . ولا تجالس الأشرار فإنك لا تصيب من مجالستهم خيرا ، ولعله أن يكون في آخر ذلك أن تنزل عليهم عقوبة فتصيبك معهم .

٢- لا ترغب في ودّ الجاهل فيرى أنك ترضى عمله ، ولا تهاون بمقت الحكيم فيزهده فيك .

٣- كن عبدا للأخيار ولا تكن خليلا للأشرار .

٤- يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن الله تعالى ليحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي

الأرض الميتة بوابل السماء .

٥- يا بني للحاسد ثلاث علامات : يغتاب صاحبه إن غاب ، ويتملق إذا شهد ويشمت بالمصيبة .

٦- اجعل معروفك في أهله ، ولا تضعه في غير أهله ، فتخسره في الدنيا ، وتحرم ثوابه في الآخرة ،

وكن مقتصدا ولا تكن مبذرا ، ولا تمسك المال تقتيرا ، ولا تعطه تبذيرا .

٧- إذا أردت أن تواخي رجلا فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه فصاحبه وإلا فاحذره .

٨- لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء .

٩- كن كمن لا يتبغي محمداً الناس ولا يكسب ذمهم ، فنفسه منه في عناء والناس منه في راحة .

١٠- اتخذ طاعة الله تجارة تأتلك الأرباح من غير بضاعة .

١١- إياك وشدة الغضب فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم .

١٢- ليس من شئى أطيّب من اللسان والقلب إن طابا ولا أحبث منهما إن خبثا .

١٣- يا بني من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ .

١٤- ليس غنى كصحة ، ولا نعمة كطيب نفس .

- ١٥- لا تكن حلواً فتبلع ، ولا مرّاً فتلفظ.
- ١٦- اتخذ ألف صديق والألف قليل ، ولا تتخذ عدواً واحداً والواحد كثير.
- ١٧- يا بني إن الناس ثلاث : ثلث لله ، وثلث لنفسه ، وثلث للدود . فأما ما هو لله فروحه ، وأما ما هو لنفسه فعمله ، وأما ما هو للدود فجسمة.
- ١٨- شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء ، وأنت تأخذه مجاناً
- ١٩- الدنيا بحر عريض قد هلك فيه الأولون والآخرون فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله وعدتك التوكل على الله ، وزادك العمل الصالح فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك
- ٢٠- إن الدنيا قليل ، وعمرك فيها قليل ، وقد بقي قليل من قليل القليل.
- ٢١- بع دنياك بأخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً.
- ٢٢- أوصيك بست خصال ، فيها علم الولين والآخرين :
أولها: أن لا تشغل نفسك بالدنيا إلا بقدر ما بقي من عمرك.
والثانية: اعبد ربك بقدر حوائجك إليه.
والثالثة: اعمل للآخرة بقدر ما تريد المقام بها.
والرابعة: ليكن شغلك في فكاك رقيبتك من النار ما لم تظهر لك النجاة منها
والخامسة: لتكن جرائتك على المعاصي بقدر صبرك على عذاب الله
والسادسة: إذا أردت أن تعصي الله ، فاطلب مكاناً لا يراك الله وملائكته
- ٢٣- أحسن الناس مروءة وأدبا من إذا احتاج نأى ، وإذا احتج دنا.
- ٢٤- ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك.
- ٢٥- لا تمنع العلم أهله فتأثم ، ولا تحدث فير أهله فتجهل.
- ٢٦- إياك والكسل والضجر ، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق
- ٢٧- لا تركز إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها ، فإنك لم تخلق لها ، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها ، فإنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين ولا بلاءها عقوبة للعاصين.
- ٢٨- إن الذهب يجرب بالنار ، والعبد الصالح يجرب بالبلاء فإذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن رضي

فله الرضا ومن سخط فله السخط.

٢٩- إياك والدّين : فإنه ذل النهار وهمّ الليل.

٣٠- كن في الشدة وقوراً ، وفي المكاره صبوراً ، وفي الرخاء شكوراً ، وفي الصلاة متخشعاً ، وإلى

الصدقة متسرعاً.

٣١- ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة : الشجاع في الحرب ، والكريم في الحاجة ، والحليم في الغضب.

٣٢- لا تتعلم العلم لثلاث ولا تدعه لثلاث:

لا تتعلمه : لتماري به ولا لتباهي به ولا لترائي فيه.

ولا تدعه : زهادة فيه ولا حياء من الناس ولا رضا بالجهالة.

٣٣- ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل الإيمان : من إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل ، وإذا

غضب لم يخرجه غضبه من الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.



مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ
كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

فِيهِ خَمْسُ مَسَائِلَ:

الأولى - قَوْلُهُ تَعَالَى: "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ" "مُحَمَّدٌ" مُبْتَدَأٌ وَ"رَسُولٌ" خَبَرُهُ. وَقِيلَ: "مُحَمَّدٌ" ابْتِدَاءٌ وَ"رَسُولُ اللَّهِ" نَعْتُهُ. "وَالَّذِينَ مَعَهُ" عَطْفٌ عَلَى الْمُبْتَدَأِ، وَالْحَبْرُ فِيمَا بَعْدَهُ، فَلَا يُوقَفُ عَلَى هَذَا التَّفْقِيرِ عَلَى "رَسُولُ اللَّهِ". وَعَلَى الْأَوَّلِ يُوقَفُ عَلَى "رَسُولُ اللَّهِ"، لِأَنَّ صِفَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَزِيدُ عَلَى مَا وَصَفَ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَيَكُونُ "مُحَمَّدٌ" ابْتِدَاءً وَ"رَسُولُ اللَّهِ" الْخَبْرُ "وَالَّذِينَ مَعَهُ" ابْتِدَاءٌ ثَانٍ. وَ"أَشِدَّاءُ" خَبْرُهُ وَ"رُحَمَاءُ" خَبْرٌ ثَانٍ. وَكَوْنُ الصِّفَاتِ فِي جُمْلَةٍ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْأَشْبَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَهْلُ الْحَدِيثِ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ، أَيِ غَلَاظٍ عَلَيْهِمْ كَالْأَسَدِ عَلَى فَرِيستِهِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بـ "الَّذِينَ مَعَهُ" جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ. "رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ" أَيِ يَرْحَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. مُتَعَاظِمُونَ مُتَوَادُونَ.

تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا إِخْبَارٌ عَنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ. "يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا" أَيِ يَطْلُبُونَ الْجَنَّةَ وَرِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

الثانية - قَوْلُهُ تَعَالَى: "سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ" السِّيْمَا الْعَلَامَةُ، لَاحَتْ عَلَامَاتُ التَّهَجُّدِ بِاللَّيْلِ وَأَمَارَاتُ السَّهْرِ. وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ "سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ" ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِجَبَاهِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ عِنْدَ السُّجُودِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَلَّى صَبِيحَةً إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ وَقَدْ وَكَّفَ الْمَسْجِدَ وَكَانَ عَلَى عَرِيشٍ، فَأَنْصَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ صَلَاتِهِ وَعَلَى جَبْهَتِهِ وَأَرْزَبَتِهِ أَثَرُ الْمَاءِ وَالطِّينِ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: هُوَ بَيَاضٌ يَكُونُ فِي الْوَجْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ،

وَفِيهِ: [حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ]. وَقَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: يَكُونُ مَوْضِعُ السُّجُودِ مِنْ وُجُوهِهِمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: السِّمَاءُ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ السَّمْتُ الْحَسَنُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا: هُوَ الْخُشُوعُ وَالتَّوَضُّعُ. قَالَ مَنْصُورٌ: سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى " سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ " أَهْوَأُ أَثَرَ يَكُونُ بَيْنَ عَيْنِي الرَّجُلِ؟ قَالَ لَا، رُبَّمَا يَكُونُ بَيْنَ عَيْنِي الرَّجُلِ مِثْلُ رُكْبَةِ الْعَنْزِ وَهُوَ أَقْسَى قَلْبًا مِنَ الْحِجَارَةِ! وَلَكِنَّهُ نُورٌ فِي وُجُوهِهِمْ مِنَ الْخُشُوعِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هُوَ الْوَقَارُ وَالْبَهَاءُ. وَقَالَ شَمْرُ بْنُ عَطِيَّةَ: هُوَ صُفْرَةُ الْوَجْهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ. قَالَ الْحَسَنُ: إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ مَرْضَى وَمَا هُمْ بِمَرْضَى. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بِالنَّدْبِ فِي وُجُوهِهِمْ وَلَكِنَّهُ الصُّفْرَةُ. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: يُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحُوا رَأَوْا ذَلِكَ فِي وُجُوهِهِمْ، بَيَانُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسَنٌ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ]. وَقَدْ مَضَى الْقَوْلُ فِيهِ أَنْفَاءً. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كُلُّ مَنْ حَافِظًا عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ.

الثَّالِثَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى: " ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ " قَالَ الْفَرَّاءُ: فِيهِ وَجْهَانِ، إِنْ شِئْتَ قُلْتَ الْمَعْنَى ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَفِي الْإِنْجِيلِ أَيْضًا، كَمَثَلِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، فَيَكُونُ الْوَقْفُ عَلَى " الْإِنْجِيلِ " وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: تَمَامُ الْكَلَامِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ، ثُمَّ ابْتِدَاءُ فَقَالَ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هُمَا مَثَلَانِ، أَحَدُهُمَا فِي التَّوْرَةِ وَالْآخَرُ فِي الْإِنْجِيلِ، فَيُوقَفُ عَلَى " التَّوْرَةِ ". وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ مِثْلُ وَاحِدٍ، يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ صِفَتُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَلَا يُوقَفُ عَلَى " التَّوْرَةِ "، وَيُوقَفُ عَلَى " الْإِنْجِيلِ ". وَيَبْتَدِئُ " كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ " عَلَى مَعْنَى وَهُمْ كَزَرْعٍ. وَ" شَطَأَهُ " يَعْنِي فِرَاحَهُ وَأَوْلَادَهُ، وَأَخْرَجَ شَطَأَهُ " طَرْفَهُ. وَأَخْرَجَ شَطَأَهُ : نَبَاتَهُ. وَقِيلَ: إِنَّ الشَّطْءَ إِنَّهُ السُّنْبُلُ، فَيُخْرَجُ مِنَ الْحَبَّةِ عَشْرَ سُنْبُلَاتٍ وَتَسَعُ وَثْمَانٌ، وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَعْنِي أَنَّهُمْ يَكُونُونَ قَلِيلًا ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَدَأَ بِالدُّعَاءِ إِلَى دِينِهِ ضَعِيفًا فَأَجَابَهُ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ حَتَّى قَوِيَ أَمْرُهُ، كَالزَّرْعِ يَبْدُو بَعْدَ الْبَدْرِ ضَعِيفًا فَيَقْوَى حَالًا بَعْدَ حَالٍ حَتَّى يَغْلُظَ نَبَاتُهُ وَأَفْرَاخُهُ. فَكَانَ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مِثْلِ وَأَقْوَى بَيَانٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مِثْلُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِنْجِيلِ مَكْتُوبٌ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ قَوْمٍ

يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزَّرْعِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. " فَازَرَهُ " أَي قَوَاهُ وَأَعَانَهُ وَشَدَّهٗ، أَي قَوَى الشَّطْءَ الزَّرْعَ. وَقِيلَ بِالْعَكْسِ، أَي قَوَى الزَّرْعَ الشَّطْءَ. " فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ " عَلَى عُوْدِهِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ سَاقًا لَهُ. وَالسُّوقُ: جَمْعُ السَّاقِ. " يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ " أَي يُعْجِبُ هَذَا الزَّرْعَ زُرَاعَهُ. فَالزَّرْعُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالشَّطْءُ أَصْحَابُهُ، كَانُوا قَلِيلًا فَكَثُرُوا، وَضَعْفَاءَ فَقَوُوا، " لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ " وَفَعَلَ اللَّهُ هَذَا لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ.

الرَّابِعَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا " وَوَعَدَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَعَ مُحَمَّدٍ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ أَعْمَاهُمْ صَالِحَةٌ. " مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " وَثَوَابًا لَا يَنْقُطُ وَهُوَ الْجَنَّةُ. وَليست " مِنْ " فِي قَوْلِهِ " مِنْهُمْ " مُبَعَّضَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الصَّحَابَةِ دُونَ قَوْمٍ، وَلَكِنهَا بَيَانِيَّةٌ وَجَنَسِيَّةٌ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: " فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ " فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ جِنْسِ الْأَوْثَانِ، وَالرِّجْسُ أَجْنَاسٌ شَتَّى، مِنْهَا الزُّبَى وَالرَّبَا وَشُرْبُ الخَمْرِ وَالْكَذِبِ، فَأَدْخَلَ " مِنْ، وَكَذَا " مِنْهُمْ "، أَي مِنْ هَذَا الْجِنْسِ، يَعْنِي جِنْسَ الصَّحَابَةِ. وَيُقَالُ: أَنْفَقَ نَفَقَتَكَ مِنَ الدَّرَاهِمِ، أَي اجْعَلْ نَفَقَتَكَ هَذَا الْجِنْسِ. وَقَدْ يُخَصَّصُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَعْدِ الْمَغْفِرَةِ تَفْضِيلًا لَهُمْ، وَإِنْ وَعَدَ اللَّهُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَغْفِرَةَ. وَفِي الْآيَةِ جَوَابٌ آخَرٌ: وَهُوَ أَنَّ " مِنْ " مُؤَكَّدَةٌ لِلْكَلامِ، وَالْمَعْنَى وَعَدَهُمُ اللَّهُ كُلَّهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

الخامسة: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ " حَتَّى بَلَغَ " يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ". فَقَالَ مَالِكٌ: مَنْ أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ فِي قَلْبِهِ غَيْظٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَصَابَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ، قُلْتُ: لَقَدْ أَحْسَنَ مَالِكٌ فِي مَقَالَتِهِ وَأَصَابَ فِي تَأْوِيلِهِ. فَمَنْ نَقَّصَ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَوْ طَعَنَ عَلَيْهِ فِي رِوَايَتِهِ فَقَدْ رَدَّ عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَبْطَلَ شَرَائِعَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ " الْآيَةُ. وَقَالَ: " لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ " إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ، وَالشَّهَادَةَ لَهُمْ بِالصِّدْقِ وَالْفَلَاحِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: " رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " وَقَالَ: " لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا - إِلَى قَوْلِهِ - أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ "»

ثم قال عز من قائل: " وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ - إِلَى قَوْلِهِ - فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ". وَهَذَا كُلُّهُ مَعَ عِلْمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِحَالِهِمْ وَمَالِ أَمْرِهِمْ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [خَيْرٌ

النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ] وَقَالَ: [لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا لَمْ يُدْرِكْ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ] [خَرَجَهُمَا الْبُخَارِيُّ]. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: [فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ لَمْ يُدْرِكْ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ]. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مَعْنَاهُ لَمْ يُدْرِكْ مَدَّ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ وَلَا نِصْفَ الْمُدِّ، فَالنَّصِيفُ هُوَ النَّصْفُ هُنَا.. وَفِي الْبَزَّارِ عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا صَحِيحًا: [إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى الْعَالَمِينَ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَاخْتَارَ لِي مِنْ أَصْحَابِي أَرْبَعَةً - يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا - فَجَعَلَهُمْ أَصْحَابِي]. وَرَوَى عُمَيْرُ بْنُ سَاعِدَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اخْتَارَنِي وَاخْتَارَ لِي أَصْحَابِي فَجَعَلَ لِي مِنْهُمْ وُزَرَءَ وَاخْتَانًا وَأَصْهَارًا فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ

اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا]. وَالْأَحَادِيثُ بِهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ، فَحَذَارِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَقَدْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَبَّ أَصْحَابَهُ، فَالْمُكَذِّبُ لِأَصْغَرِهِمْ - وَلَا صَغِيرَ فِيهِمْ - دَاخِلٌ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ الَّتِي شَهَدَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالزَّمَمَهَا كُلٌّ مِنْ سَبَّ وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَوْ طَعَنَ عَلَيْهِ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ حَبِيبٍ قَالَ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ هَارُونَ الرَّشِيدِ فَجَرَتْ مَسْأَلَةٌ تَنَازَعَهَا الْخُضُورُ وَعَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَاحْتَجَّ بَعْضُهُمْ بِحَدِيثِ يَزِيدِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَفَعَ بَعْضُهُمُ الْحَدِيثَ وَزَادَتْ الْمُدَافَعَةُ وَالْحِصَامُ حَتَّى قَالَ قَائِلُونَ مِنْهُمْ: لَا يَقْبَلُ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ مُتَّهَمٌ فِيمَا يَزِيدِيهِ، وَصَرَّحُوا بِتَكْذِيبِهِ، وَرَأَيْتُ الرَّشِيدَ قَدْ نَحَا نَحْوَهُمْ وَنَصَرَ قَوْلَهُمْ فَقُلْتُ أَنَا: الْحَدِيثُ صَحِيحٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ صَحِيحُ النَّقْلِ صَدُوقٌ فِيمَا يَزِيدِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ الرَّشِيدُ نَظْرَ مُغْضَبٍ، وَقُمْتُ مِنَ الْمَجْلِسِ فَأَنْصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي، فَلَمْ أَلْبَثْ حَتَّى قِيلَ: صَاحِبُ الْبَرِيدِ بِالْبَابِ، فَدَخَلَ فَقَالَ لِي: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِجَابَةً مَقْتُولٍ، وَتَحَنُّطٍ وَتَكْفَنَ! فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَيُّي دَفَعْتَ عَنْ صَاحِبِ نَبِيِّكَ، وَأَجَلَلْتَ نَبِيَّكَ أَنْ يُطْعَنَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمَنِي مِنْهُ. فَأَدْخَلْتُ عَلَى الرَّشِيدِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ مِنْ ذَهَبٍ، حَاسِرٌ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، بِيَدِهِ السَّيْفُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ النَّطْعُ «١»، فَلَمَّا بَصُرَ بِي قَالَ لِي: يَا عُمَرُ بْنُ حَبِيبٍ مَا تَلَقَّانِي [أَحَدٌ مِنَ الرَّدِّ وَالِدَّفْعِ لِقَوْلِي بِمِثْلِ مَا تَلَقَّيْتَنِي بِهِ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الَّذِي قُلْتَهُ وَجَادَلْتَ عَنْهُ فِيهِ ازْدِرَاءٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إِذَا كَانَ أَصْحَابُهُ كَذَّابِينَ فَالشَّرِيعَةُ بَاطِلَةٌ، وَالْفَرَائِضُ وَالْأَحْكَامُ فِي الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ

وَالطَّلَاقِ وَالنِّكَاحِ وَالْحُدُودِ كُلُّهُ مَرْدُودٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ، فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: أَحْيَيْتَنِي يَا عُمَرُ بْنُ حَبِيبٍ
أَحْيَاكَ اللَّهُ! وَأَمَرَ لِي بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ.

قُلْتُ: فَالصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ عُذُولٌ، أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَصْنَفِيَاؤُهُ، وَخَيْرُهُ مِنْ خَلْقِهِ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ. هَذَا
مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ مِنْ أُمَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَقَدْ ذَهَبَتْ شِرْذِمَةٌ لَا مَبَالَاةَ بِهِمْ إِلَى أَنَّ حَالِ
الصَّحَابَةِ كَحَالِ غَيْرِهِمْ، فَيَلْزَمُ الْبَحْثُ عَنْ عَدَاتِهِمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ حَالِهِمْ فِي بُدَاءَةِ الْأَمْرِ فَقَالَ: إِنَّهُمْ
كَانُوا عَلَى الْعَدَالَةِ إِذْ ذَاكَ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ بِهِمُ الْأَحْوَالُ فَظَهَرَتْ فِيهِمُ الْخُرُوبُ وَسَفْكُ الدَّمَاءِ، فَلَا بُدَّ مِنَ
الْبَحْثِ. وَهَذَا مَرْدُودٌ، فَإِنَّ خِيَارَ الصَّحَابَةِ وَفَضْلَاءَهُمْ كَعَلِيِّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِمَّنْ أَتَى
اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَزَكَاهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ وَوَعَدَهُمُ الْجَنَّةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى "مَعْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا". وَخَاصَّةً الْعَشْرَةَ
الْمَقْطُوعِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ بِإِخْبَارِ الرَّسُولِ هُمْ الْقُدُوهُ مَعَ عِلْمِهِمْ بِكَثِيرٍ مِنَ الْفِتَنِ وَالْأُمُورِ الْجَارِيَةِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ
بِإِخْبَارِهِ لَهُمْ بِذَلِكَ. وَذَلِكَ غَيْرُ مُسْقِطٍ مِنْ مَرْتَبَتِهِمْ وَفَضْلِهِمْ، إِذْ كَانَتْ تِلْكَ الْأُمُورُ مُبَيَّنَّةً عَلَى الْإِجْتِهَادِ،
وَكُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ.



نظرات بيانية في بعض من آيات سورة الإسراء

هذه اجتهادات بيانية قد تصيب وقد تخطئ ، وقد تدنو أو تبعد ، وأرجو الله أن يسدد قلبي وعقلي للصواب ، إنه الميسر للخير سبحانه وتعالى .

نجد في سورة الإسراء نظرات بيانية متعددة نفق عند بعضها لنرى جمال التعبير وسحر البيان ، من ذلك قوله تعالى :

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۗ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۗ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ ۗ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۗ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۗ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۗ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۗ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۗ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۗ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا * (٢٩ . ٣٩) .

١- ابتداء من الآية ٢٩ - يخاطب جمع الإنسان نهيًا بقوله " ولا تقتلوا ، ولا تقربوا ، وأمرًا بقوله " وأوفوا ، وزنوا " ويخاطب مفرد الإنسان بقوله " لا تجعل ، لا تبسطها ، لا تقف ، لا تمش " .

فلماذا كان الخطاب هناك بالجمع ، وكان هنا بالمفرد ؟

أقول وبالله المستعان : لو نظرنا إلى من يقعون في الزنا أو يقتل بعضهم بعضاً لرأيناهم - على كثرتهم - ذوي نسبة قليلة في هذه المجتمعات . ووجودهم في الأوصياء على اليتامى أقل من سابقهم بكثير ، فكان الحديث عنهم بصيغة الجمع لقلّة نسبتهم .

لكنّ التقدير و الإسراف يكادان يُجبلان في الكثرة الكاثرة من البشر ، وقل هذا في تتبّع عورات الناس والتكبر والحيلاء ، فكان الحديث إلى كل واحد منهم أولى ليشعرَ بعضهم المسؤولية حين يرى نفسه معنيًا

بالأمر أو النهي .

٢- وقد جاءت هاء الضمير المذكور في كلمة " سيئته " - في الآية الثامنة والثلاثين - اختصاراً رائعاً لكلام كثير، فقد رأينا في الآيات التسع السابقة وصايا ، كان القبيح منه في المنهيات مكروهاً مبعوضاً عند الله تعالى ، فما من حسنٍ إلا ويقابله القبيح ، فإذا كان الحسن في هذه الآيات عدم قتل الأبناء خشية الإملاق ، فالقبيح قتلهم ، وإذا كان قرب الزنا فاحشة وسبيلاً سيئاً فالابتعاد عنه صفة صالحة وطريق مأمون للشرف والطمهارة ، وإذا كان قتل النفس قبيحاً فالحفاظ عليها قمة الإنسانية ، وإذا كان أكل مال اليتيم ظلماً وعدواناً ومنقصة فالحفاظ على ماله إيجاب وأخلاق وإيمان - وقل هذا في بقية الوصايا - تجد أن لكل حسنٍ مما ذكر يدعوننا للملك سبحانه إليه عكساً قبيحاً ينهنا إليه ويحذرننا منه . فما أروع وجود الضمير المذكور " الهاء " في كلمة " سيئه "!

٣- وقد يتساءل أحدنا قائلاً : لماذا جاءت الآية الثامنة والثلاثون " كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً " ولم يقل : محرماً ؟ فقد يظن القارئ أن كلمة " مكروهاً " تفيد الحِلَّ مع الكراهة ، وهذا يوقع في إشكالات كثيرة . وهذا تساؤل جيد يدل على فهم ودراية وذوق رفيع ممن سأل . والقرآن إنما نزل بلغة العرب الذين يرون في التلميح معاني أقوى من التصريح ، مثال ذلك في القرآن قوله تعالى في تحريم الخمر والميسر في سورة المائدة " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۗ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) " لقد أمرنا المولى سبحانه أن نجتنب الرجس من عمل الشيطان في تزيينه الخمر والميسر والأنصاب والأزلام - في الآية الأولى - فكان الأمر صريحاً مباشراً في كلمة " فاجتنبوه " والاجتنابُ بُعدٌ عن الشيء مع وجوده ، وفي الآية الثانية نُهي عن الخمر والميسر المسببين للعداوة والبغضاء بصيغة الاستفهام " فهل أنتم منتهون " وهذا أسلوب للنهي غير مباشر، كان أوقع في النفس وأبلغ ، فالانتهاه انقطاع تام لوجود المنهي عنه ، فقال المسلمون : انتهينا يا رب انتهينا ، ولم يقولوا : اجتنبنا . وفي القرآن أمثلة كثيرة في هذا الشأن تتبَّعه أصحاب البلاغة فأحسنوا . وعلى هذا كان لفظ " مكروهاً " أقوى في نفس المسلم الحرّ الملتزم من : محرماً أو حراماً . فما كرهه الله لا ينبغي أن نفعله ، وما أحبه أحببناه .

٤- كما أن كلمة " لا تَقْفُ " في قوله تعالى " ولا تقفُ ما ليس لك به علم " أقوى من : لا تَتَّبِعْ .
فقد يكون التتبع من قريب وبعيد . أما القفو فيكاد يؤدي إلى الالتصاق بالشيء وكأنه قفاه لشدة دنوه منه
. وكذلك تقول : لا أفعله قفا الدهر أي أبداً . والقفو : الرمي بالأمر القبيح فزاد عن التتبع بالفضح بما
ليس متأكداً منه . فلا تقل سمعتُ وأنت لم تسمع ، أو علمتُ وأنت لم تعلم ،
والله أعلم .



نظرة في سورة الهُمزة

قال العلماء: الويل وإِدٍ في النار يسيل من صديد أهلها وقِيحهم ، وهو - بمعنى عام - العذاب الشديد - نعوذ بالله تعالى منه أيّاً كان ولا أَحِبُّ أن أتصوره فليس لنا به طاقة. فهو العذاب بعينه وقد قيل إن حجارته تتعوّذ منه. نسأل الله العفو والعافية .

ولكن لِمَنْ أُعِدَّ هذا الوادي أو هذا العذاب ؟ يقول تعالى : إنه أُعِدَّ للهِمَّاز اللَّمَّاز (ويل لكل هُمْزة لُمزة . اختلف المفسّرون في تعريف الهُمزة اللَّمزة ' فقال بعضهم :

الهُمزة : من يأكل لحوم الناس بالغيبة والنميمة ومن يطعنهم باليد وباللسان .

اللُمزة : من يحرّك عينه مشيراً بتهكم أو يطعن أنسابهم بلسانه .

وأظنّ الهُمزة واللُمزة يتعاوران ما ذكر المفسرون من إيذاء باللسان والعين فقط ، بينما أخواتهما من (الوكز واللكز والنكز ..) إيذاء باليد والعصا وغيرهما ، يضاف إليها (اللكم واللطم واللحم..).

من صفات الهُمزة اللَّمزة الذميمة التي أدت إلى الويل والعذاب جمع المال بكلّ الوجوه حلالها وحرامها ، سلّبها ونهبها ، بيعها وشرائها ، أتاواتها ومكوسها. فالمهمُّ عند صاحبها الجمعُ كيفما كان وحيثما اتفق.

يضاف إلى ذلك البخلُّ والشحُّ ، ومن جمع المال بكل الطرق لا ينوي صرفه فيما يريد الله تعالى بل يتلذذ بعده والاحتفاظ به ، لهذا قال تعالى (الذي جمع مالا وعدده) وهذا يذكرنا بقوله سبحانه (جمع فأوعى) والمعنى هنا وهناك مؤداه واحد، من تكديس الأموال والتمتع باحتوائها وتكثيرها. ويحضّرنا قوله صلى الله عليه وسلم في النعي على أمثال هؤلاء : " ما من يوم طلعت شمسُه إلا وبجنيبها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلُّهم غير الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إنّ ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت الشمس إلا وكان بجنيبها ملكان يناديان نداء يسمعه خلقُ الله كلُّهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا " . رواه المنذري في الترغيب والترهيب.

ومن صفات الهُمزة اللَّمزة أنه ينشغل بجمع المال عن الموت والدار الآخرة ، فيحسب أنه خالد في الدنيا ، فيعمل لها غافلاً عن النهاية التي يسرع إليها كما غيّت أسلافه وستغيّب أخلافه. لكنه الحرص على الدنيا والانشغال بها يعمي القلوب ويذهب بالأبصار.

ثم تأتي كلمة (كالا) التي تفرع الأسماع وتتهز القلوب خوفاً وفرعاً لتنبّه بقوة وإلحاح إلى الحقيقة التي يتناساها الغالبية البشرية عمياء وجهلاً (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى) . فماذا بعد (كالا)؟ إنها الجملة التي تعصف بالألباب (لِيُنَبِّذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ) .

إن (النبذ) إلقاء المرء محتقراً منبوذاً في مجاهل النار المحرقة التي تَحْطِمُ الضلوع وتأكل العيون والآذان والأيدي والرؤوس ، وتذيب الصخر والجماد . وما سميت (الحُطْمَةُ) إلا لأنها تكسر كل ما يُلقى فيها وتَحْطُمُه وتَهشَّمُه . فما هذه النهاية المخيفة التي يتناساها الناس ويغفلون عنها؟! إنها والله لنهاية بئيسة مرعبة ومفرعة .

وتزداد وتيرة الخوف والهلع بصيغة الاستفهام (وما أدراك ما الحُطْمَةُ؟) وهذا الأسلوب الاستفهامي يتكرر في كثير من سور القرآن لبيان فداحة الأمر وشدة كزيه (وما أدراك ما الحاقة) (وما أدراك ما يوم الدين) .. ويجيب القرآن بأسلوب مهولٍ تقشعر له الأبدان وتهتز له النفوس : (نارُ الله الموقدة) لم يوقدها بشر ولا ملك ولا مخلوقٌ مهما جل شأنه وعظمت مكانته ، ولا تنتسب إلى ناقص وضعيف إنها نار الله الموقدة . وقد تخف النار وتضعف إلا نار الله تعالى التي تأكل الأجساد وتصل إلى القلوب فلا تأكلها بل تعود الأجساد كما كانت ليبدأ العذاب من جديد . أتدرون السبب ؟ إن القلب إذا أكلته النار مات صاحبه وارتاح من العذاب ، والكفرة أصحاب النار خالدون فيها لا يُفَقَّر عنهم العذاب .

ولا مهرب من جهنم ولا خلاص لأعداء الله منها . وأين الهروب ؟ (إنها عليهم مؤصدة) وإبصار الباب دون فروج ولا منافذ . لا هواءً بارداً يخفف عنهم حرّها مغلقةً إغلاقاتاً محكماً يزيد في الكمد والحزن المتنامي .. قد سُدَّ عليهم كلُّ أمل في النجاة (مؤصدةٌ في عمَدٍ ممددةٍ) .

[يذكر القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية، فيقول: : في حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (ثم إن الله يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار ، ومسامير من نار وعمد من نار ، فتطبق عليهم بتلك الأطباق ، وتشد عليهم بتلك المسامير ، وتُمد بتلك العمَد ، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح ، ولا يخرج منه غم ، وينسأهم الرحمن على عرشه ، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ، ولا يستغيثون بعدها أبداً ، وينقطع الكلام ، فيكون كلامهم زفيراً وشهيقاً ؛ فذلك قوله تعالى : " إنها عليهم مؤصدة . في عمَدٍ ممددة " .

وقال قتادة : " عمد " يعذبون بها . واختاره الطبري . وقال ابن عباس : إن العمد الممددة أغلالٌ في أعناقهم . وقيل : قيود في أرجلهم ؛ قاله أبو صالح . وقال القشيري : والمعظم على أن العمد أوتادُ الأطباق التي تطبق على أهل النار . وتشدُّ تلك الأطباقُ بالأوتاد ، حتى يرجع عليهم غمها وحرها ، فلا يدخلُ عليهم روح .

وقيل : أبواب النار مطبقةٌ عليهم وهم في عمد ؛ أي في سلاسل وأغلال مطولة ، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة . وقيل : هم في عمد ممددةٍ في عذابها وآلامها يُضربون بها . وقيل : المعنى في دهرٍ ممدود لا انقطاع له . [

فهل من مُدّكر؟



في رحاب آية: كل نفس ذائقة الموت

قرأت اليوم في سورة آل عمران هذه الآية الكريمة :

- ١- كل نفس ذائقة الموت ،
- ٢- وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ،
- ٣- فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ،
- ٤- وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. (آل عمران ؛ ١٨٥)

وتوقفت عند مقاطعها الأربعة فعلمت أن الحياة تدور عليها وتختصرها في هذه الزوايا التي لا بد أن يمر عليها المكلف من موت ثم الوقوف بين يدي الله يوم القيامة ، ثم الحساب ونجاة المؤمن من النار ودخوله الجنة بفض الله جل جلاله ، ثم الحكمة التي علينا أن نفقهها ونحن في الدنيا كي نعلم سبب وجودنا ، ومن عرف وفهم وعمل نجا وظفر.

١- ينبئنا المولى تعالى أن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى " كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " فهو تعالى وحده الحي القيوم . والجن والإنس يموتون وكذلك الملائكة وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخراً كما كان أولاً ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت فإذا انقضت العدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها ، قليلها وكثيرها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يُظلم أحداً مثقال ذرة ولهذا قال تعالى " وإنما توفون أجوركم يوم القيامة " وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته " كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة " إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا . فإن المصاب من حُرْم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فقال : أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام . (عن ابن كثير)

وقد قال أمية بن أبي الصلت :

من لم يمت عبطة يمت هرما

للموت كأس وإن المرء ذائقها

وقال آخر :

بابٌ وكل الناس داخله

فليت شعري بعد الباب ما الدار ؟

وللموت أسباب وأمارة ، فمن علامات موت المؤمن عرق الجبين . لقول رسول الله ﷺ : " المؤمن يموت بعرق الجبين " فإذا احتضر لقن الشهادة؛ لقوله عليه السلام: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله) لتكون آخر كلامه فيختم له بالشهادة؛ ولا يعاد عليه منها لئلا يضجر . ويستحب قراءة " يس " ذلك الوقت؛ لقوله عليه السلام : " اقرءوا يس على موتاكم " أخرجه أبو داود . وذكر الآجري في كتاب النصيحة من حديث أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: (ما من ميت يقرأ عنده سورة يس إلا هون عليه الموت) . فإذا قضى وتبع البصر الروح كما أخبر ﷺ في صحيح مسلم وارتفعت العبادات وزال التكليف توجهت على الأحياء أحكام؛ منها: تغميضه . وإعلام إخوانه الصلحاء بموته، ومنها الأخذ في تجهيزه بالغسل والتكفين والدفن لئلا يسرع إليه التغير ؛ قال ﷺ لقوم أخرؤا دفن ميتهم: (عجلوا بدفن جيفتكم) وقال : (أسرعوا بالجنائز) .

٢- والدنيا دار عمل والآخرة دار حساب ، يدل على ذلك أسلوب القصر " إنما " وإنما توفون أجوركم يوم القيامة " فحين يُجمع المخلوقات " الجن والإنس " بشكل خاص في أرض المحشر ثم في أرض الحساب وتوزع الكتب على أصحابها يتخاصم الناس فيما بينهم " ثم إنكم يومئذ عند ربكم تختصمون " ويطالب المظلوم بحقه من الظالم ، ومن عدل الله تعالى أن لا يضيع مثقال ذرة " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره" ويقول سبحانه " ولا يظلم ربك أحداً " وقال القرطبي رحمه الله تعالى: فأجر المؤمن ثواب ، وأجر الكافر عقاب ، ولم يعتد بالنعمة والبليّة في الدنيا أجرا وجزاء ؛ لأنها عرصة الفناء.

٣- ومن حُنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم " فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز " وتقدم عند قوله تعالى " ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون " ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه " . أما

وَقَعُ الفعل المبني للمجهول "زُحِرِح" فمخيف لأنه يصور المرء مندفعاً إلى النار بسبب تمكن أهوائه منه ونسيانه الآخرة وانشغاله بالدنيا فتجيء رحمة الله تعالى تزحزحه عن الهاوية ، فيبتعد عنها ، ثم يأتي الفعل الآخر المبني للمجهول " وأُدخِل " ليدل على أن دخول الجنة برحمة الله وفضله سبحانه لا بعمل المرء ، فكلنا يدخل الجنة برحمة الله وغفرانه جل جلاله .

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من سره أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويأتي إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه). وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم " فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ") .

٤- وقوله تعالى " وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى " بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى " وقال " وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى " . وفي الحديث " والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع إليه " وقال قتادة الدنيا متاع متروكة أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله . فإذا كانت متاع الغرور فلماذا يتعلق الإنسان بفانٍ ويتخلى عن باقي لولا ضعف في إيمانه وخلل في تفكيره!؟

وقد أحسن من قال:

هي الدار دار الأذى والقذى ودار الفناء ودار الغيّر

فلو نلتها بحذافيرها لمتّ ولم تقضٍ منها الوطر

أيا من يؤمل طول الخلود وطولُ الخلود عليه ضرر

إذا أنت شبت وبان الشباب فلا خير في العيش بعد الكبر

قال ابن عرفة : العُرور ما رأيت له ظاهراً تحبه ، وفيه باطن مكروه أو مجهول . والشيطان غرور ؛ لأنه يحمل على محاب النفس ، ووراء ذلك ما يسوء .



وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (١)

قرأت اليوم سورة إبراهيم ، فلما وصلت إلى قوله تعالى : " وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) " تحرك شيطان الجن فقال :

كيف تصدق أنه - سبحانه - آتاكم من كل ما سألتموه ؟ وأنت تعيش حياة مستورة ليس لك فيها كثير مال ، ولم تحظ من الشهرة ما وصل إليه غيرك؟ وفيك من القدرات العلمية ما يفوق كثيراً ممن تجدهم متصدرين ، وما يزال عطاؤك مستمراً ؟ ... وبدأ يحاول زرع الشك في نفسي - أعاني الله على وسوساته ونفثاته - ويأتيني هذا الكذاب العرورُ بصورة المشفق عليّ وهيئة الناصح الصدوق .

قلت والله لأخزينك بعونه تعالى ، ولن تجد في قلبي سوى الإيمان بالله تعالى وحبه والرضا بقدره ، والرغبة الصادقة أن أكون من عباده الصالحين المؤمنين به وبدينه ، أتعلق بأستاره وألزم راية نبيه ، ولن تجد عندي سوى الإعراض عن وسوساتك ونفثاتك ، وقرأت المعوذتين ، وقمت إلى تفاسير القرآن أرتوي من شهدها ما يطرد علقم الشيطان ويزرع الإيمان في نفسي ويقويه . وإلى أحاديث الحبيب المصطفى أستلهم الفكر السليم والجواب الشافي .

روى ابو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من دعا بدعوة ليس فيها مآثم ولا قطيعة رجم أعطاه الله تبارك وتعالى إحدى ثلاث ، إما أن يغفر له بها ذنباً قد سلف ، وإما أن يجعل له بها في الدنيا ، وإما أن يدخرها له في الآخرة . "

قلت والله هذا ما أراه في حياتي ، فما دعوت الله تعالى في أمر ذي بال إلا حققه لي أو شعرت براحة في نفسي وزالت همومي ، ولتكونن الثالثة في الآخرة محققة إن شاء الله تعالى .

وأفتح ظلال الشهيد سيد قطب رحمه الله فيشرح صدري بقوله : " وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ " من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع .. " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " فهي أكبر من أن يحصيها فريق من البشر ، أو كلُّ البشر ، وكلهم محدودون بين حدّين من الزمان : بدئٍ ونهاية . وبحدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان، ونِعْمُ اللهُ مطلقة - فوق كثرتها - فلا يحيط بها إدراك إنسان . .. " ثم يعدد بعض النعم من شمس وقمر وماء وأنهار ونبات وأشجار وأنعام ، كلها سخرت للإنسان ولخدمته ، وجعله سيداً لها . ويقول

أستاذي سيدٌ كذلك بلسان المؤمن وقلبه الحي: " أفكل هذا مسخر للإنسان ؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخرٌ لذلك المخلوق الصغير؟ السماوات ينزل منها الماء والأرضُ تتلقاه ، والثمرات تخرج من بينهما ، والبحر تجري فيه الفُلكُ بأمر الله مُسَخَّرَة والأَنْهَارُ تجري بالحياة ، والأرزاقُ في مصلحة الإنسان ، والشمس والقمر دائبان لا يفتران ، والليل والنهار يتعاقبان ... أفكل ذلك للإنسان ؟ ثم لا يشكر ولا يذكر! . "

وأقرأ مثل هذا وشبيهه عند القرطبي وابن كثير رحمهما الله ، فأردد بلساني وبقلبي : نعم آتانا من كل ما

سألناه ، فله الحمد وله الشكر دائمين دائبين . ومما قرأته في تفسيري هذين الكريمين رحمهما الله تعالى :

- أن داوود عليه السلام أنه قال : أي رب كيف أشكرك ، وشكري لك نعمة مجددة منك

علي . قال : يا داود الآن شكرتني . أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم ؛

- يقول ابن كثير : فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للمنعم . وألا يصرفها في غير

طاعته ؛ وأنشد بعضهم الخليفة الهادي وهو يأكل :

أنالك رزقه لتقوم فيه بطاعته وتشكر بعض حقه

فلم تشكر لنعمة ولكن قويت على معاصيه برزقه

فغص باللقمة ، وحنقته العبرة .

- وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد .

- وقد جاء في الحديث " إن العبد ليُحرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبه " .

وقوله " وآتاكم من كل ما سألتموه " يقول هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما

تسألونه بحالكم وقال بعض السلف من كل ما سألتموه وما لم تسألوه .

- قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد وإن نِعَمَ الله أكثر

من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول " اللهم لك الحمد غير

مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ؛ ربنا " .

- وقال الإمام الشافعي رحمه الله : الحمد لله الذي لا تؤدي شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة

حادثة توجب على مؤديها شكره بها وقال القائل في ذلك :

لو كل جارحة مني لها لغة تشني عليك بما أوليت من حسن

لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنن

وأفتح الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي رحمه الله، فأقرأ درراً ثمينة أرسم بعضها في هذه القالة

الصغيرة :

- عن بكر بن عبد الله المزني رضي الله عنه قال : ما قال عبد قط " الحمد لله " إلا وجبت له
نعمة بقول " الحمد لله ". فقيل له : فما جزاء تلك النعمة الجديدة ؟ قال : جزاؤها أن يقول " الحمد
لله " فجاءت نعمة أخرى ، فلا تنفد نعمُ الله .

- وقال سليمان التيمي : إن الله أنعم على العباد بقدره ، وكلّفهم الشكر على قدرهم .

- وروي عن بكر بن عبد الله المزني أيضاً أنه قال : يا ابن آدم ؛ إذا أردت أن تعرف نعمة الله
عليك فأغمض عينيك .

- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه
فقد قلّ علمه وحضّر عذابه.

- وقال سفيان بن عُيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أعظم من أن عرفهم " لا إله إلا الله " ،
وإنّ " لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا " .

- وروى أبو أيوب القرشي مولى بني هاشم قال : قال داوود عليه السلام : ربّ أخبرني ما
أدنى نعمتك عليّ ؟ فأوحى الله : يا داوود تنفّس . فتنفّس فقال : هذا أدنى نعمتي عليك .

- وعن وهب بن منبه قال : عبد الله عابداً خمسين عاماً ، فأوحى الله إليه أني قد غفرتُ لك .
قال : يا رب ؛ وما تغفر لي ؟! ولم أذنب ؟! فأذن الله لعرق في عنقه فضرب عليه . فلم ينم ولم يُصلِّ ،
ثم سكن العرق فنام العابد تلك الليلة ، فشكا إليه ، فقال : ما لقيتُ من ضربان العرق ؟ قل الملك :
إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون ذلك العرق .

- وعن عمر الفاروق رضي الله عنه قال : اللهم اغفر لي ظلمي وكفري . قال قائل: يا أمير
المؤمنين ؛ هذا الظلم .. فما بال الكفر؟! قال عمر : " إن الإنسان لظلومٌ كفار " .

أقول ، وأملني بالله كبير:

سألتك ربي الرضا بالقدْرُ وأن تغفر ذنبي فخطوي عثر
وتكرمني، إنَّ عفوَ الكريـم م لأهل الذنوب بهي الأثر
وأكرم أصولي وأكرم فروعـي فإن تعفُ نلنا كمالَ الوطر
وأحسن إلى المسلمين ؛ إلهي فإننا بحال طغى واستحّر
وليس سواك المحيرُ، وطني بأن الإله يُزيل الخطر



وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (٢)

أقرأ قوله تعالى في سورة إبراهيم: (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) فأقف برهنة أتمعن في هذه الآية ، وكان قد خطر ببالي أن الله تعالى أعطانا كل ما سألناه ، أو ما قد يسأله أحدنا ، ثم أرى أن هذا المعنى ليس هو المقصود لأسباب منها:

١- أن كثيراً الناس يسألون أن تطوى لهم الأرض وأن يملكوا الدنيا كلها وأن يطيروا في الجو، وكثيرٌ يطلبون الخلود والقوة الجبارة والحجم العملاق ولن يُجاب سُؤْل هؤلاء . فليس لهذا خُلُقوا.

٢- وينبغي أن ننتبه إلى (من التبعية) " من كل ما سألتموه " الدالة على أن الله تعالى آتانا مما سألناه ما ييسر لنا حياتنا التي نعيشها ، ونظمها بما يناسب حياة البشر بنظام وأمن وأمان ، فسخر كل شيء لنا أرضاً وسماً وأنهاراً وثمرات وهواء ، وحواساً وجسماً متناسقاً فيه العقل والقلب والسمع والبصر .. وقرأ الآيتين السابقتين لهذه الآية (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) فقال مفصلاً نعم الله تعالى علينا : " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ " (٣٣) سورة إبراهيم

٣- ولعل شبه الجملة (لكم) كررت أربع مرات بعد قوله (فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم)، وقدم عليها الفعل (سخر) :

أ- وسخر لكم الفلك .

ب- وسخر لكم الأنهار.

ت- وسخر لكم الشمس والقمر.

ث- وسخر لكم الليل والنهار

وكل هذه الآيات الكونية لخدمة الإنسان وتيسير حياته في المواصلات والتجارة ، والماء أس الحياة سقاية وزرعاً ، والشمس مضيئة النهار والقمر مضيء الليل وحساب الزمن والعمل والراحة كل شيء خلقه الله تعالى لجعل حياة البشر مستمرة ما شاء الله لها ان تستمر، ولنعلم فضل الله تعالى علينا أينما سرنا

وكيفما نظرنا وأينما تقلبنا .

ولهذا يذكرنا سبحانه بنعمه الجليلة التي لا تعد ولا تحصى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها) ، والعدُّ

هنا نوعان :

الأول: أن النعم تحيط بالمخلوق إحاطة السوار بالمعصم ، فهو يتقلب فيها متنعماً منها بالمزيد المتجدد، والأفضل المتصلة والخيرات المتتابعة التي لا تنفذ. ولكونها متتابعة متجددة متصلة يعيشها المرء بكل ذرة من كيانه ، فهي أعظم أن تُعدّ ، وليس لمخلوق أن يُحصي نِعَم الخالق سبحانه.

الثاني: أن شكر المنعم واجب على ذوي القلوب المؤمنة والعقول الذكية والنفوس الأربية ، ولا يطلب الله تعالى منا غير الشكر الحقيقي الذي لا يكلفنا فوق طاقتنا، فقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال (يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي ؟ فقال الله تعالى الآن شكرتني يا داود حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم) ؛

وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها. أو يشرب الشربة فيحمده عليها" رواه مسلم في صحيحه. وكلما شكرنا الله على نعمه أوجب لنا نِعماً أخرى . فما أكرم الخالق سبحانه وتعالى ، يعطي ويجود ولا يطلب من عبده بعد أن يتلذذ بنعمه إلا القليل من القول أو الفعل !

وقال الإمام الشافعي رحمه الله في المعنى نفسه : الحمد لله الذي لا تؤدَّى شكرُ نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها . فكان قوله يكتب بماء الذهب.

وقال الشاعر في المعنى نفسه :

لو كل جارحة مني لها لغة تنني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرتُ به إليك أبلغ في الإحسان والمنين



أحسن الحديث

(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد) الآية / ٢٣ / من سورة الزمر.

قرأت هذه الآية الكريمة اليوم ، فحملتني بأجنحة الزمان إلى عام ثمانية وستين وتسع مئة وألف ، في كلية اللغات بلجيب - هكذا كان اسمها إذ ذاك قبل أن يُطلق عليها بعد سنوات كلية الآداب - وكنا في امتحان صيف تلك السنة نُختَبَرُ في الإسلاميات التي كان يدرِّسُناها الدكتور نور الدين العتر حفظه الله ، وكان يتابعنا في الامتحان مع أستاذنا نور الدين الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

كان الدكتور البوطي قد أصدر قبل سنوات من ذلك التاريخ كتاباً يجوي دراسات أدبية لبعض سور من القرآن الكريم أسماء (أحسن الحديث) وكنت أسمع الدكتور " نور الدين " العتر ينبهه أن القرآن هو (أحسن الحديث) هكذا وصفه الله تعالى - كما في الآية السابقة - . ولعل البوطي يغير اسم كتابه ، وأذكر أن الشيخ البوطي وعده بتغيير الاسم في طبعته التالية ، وهكذا كان ، لقد سماه " من روائع القرآن " .

وأفتح بعض كتب التفسير - وأخص تفسير القرطبي من بينها بالاهتمام لقرب أسلوبه مما أرغب وأرتاح ، فأرى مدحاً من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم إذ يقول الله تعالى " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني " فأجد معاني جليلة كثيرة ، منها

١ - قول مجاهد يذكر أنّ القرآن كله متشابه مثاني

٢ - ويقول قتادة : الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف .

٣ - ويقول الضحاك : " مثاني " ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى .

٤ - ويقول الحسن البصري : تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها

٥ - ويقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : " مثاني " : مُرَدَّد . رُدَّدَ موسى في القرآن وصالحٌ وهودٌ

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة

٦ - ويقول سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما " مثاني " القرآن يشبه بعضه بعضاً

وَيُرَدُّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ

٧- وقال بعض العلماء ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله تعالى " متشابها مثاني " أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذان من المتشابه وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا . وهذا من المثاني كقوله تعالى " إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم " وكقوله عز وجل " كلا إن كتاب الفجار لفي سجين - إلى أن قال - كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين " " هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب - إلى أن قال - هذا وإن للطاغين لشر مآب "

٨- ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني أي في معنيين اثنين .

ويقول القرطبي رحمه الله تعالى :

وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضا فهو المتشابه. وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى " منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات " ذاك معنى آخر. أما قوله تعالى " تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله " فهذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار إذ يفهمون منه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد فتقشعر جلودهم من الخشية والخوف " ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله " لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه وهذه صفة رائعة للمؤمنين الذين يخالفون غيرهم من الفجار من وجوه :

١- " أحدها " أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الآيات من أصوات

القيينات.

٢- " الثاني " أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تبارك وتعالى " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم " وقال تعالى " والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا " فلم يتشاغلوا عنها لاهين بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها ، فهم يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

٣- " الثالث " أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى أو يسمعون تلاوة رسول الله فتتشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم بل عندهم ، إنهم يسمعون القرآن بأدب وخشية وسكون وثبات ما لا يلحقهم أحد في ذلك ، ففازوا بمدح الرب الأعلى في الدنيا والآخرة .

تلا قتادة رحمه الله " تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله " فقال هذا نعت أولياء الله نعتهم الله عز وجل بأنهم تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان

وقال السدي " ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله " وإلى وعد الله وقوله " ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده " وهذه صفة من هداه الله . أما من كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله " ومن يضل الله فما له من هاد " .

قلت: هذا والله ما نراه في جهل العامة الذين يسمعون القارئ يتلون في المقامات ويتنعم بالألحان ، فتراهم يصيحون بأصوات منكرة ، ضاع منها الأدب وغاض خوف الله من قلوبهم ليسكن فيها الأداء الجميل والصوت الرخيم ، فإذا سمعوا " الحاقة ما الحاقة " وهذا تنبيه وتخويف من يوم القيامة صاحوا متلذذين مستبشرين ، وكأنّ (الحاقة) بشرى تُعقد عليها الآمال !! وتُنال بها الرغائب !

وشتان شتان بين من يسمع ويفهم فيعي ويعمل وبين من جهل فأخطأ ولم يدر، فضاع وضيع.



السخرية في سورة (المنافقون)

في هذه السورة المباركة آيات عديدة فيها سخرية من المنافقين الذين سميت السورة باسمهم .

١- يقول الله تعالى في الآية الأولى في هذه السورة (إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) ، فقد سماهم المنافقين ، وهذه التسمية فضيحة لهم - ابتداء- فقد عزّاهم وهم يشهدون للرسول صلى الله عليه وسلم بالنبوة : إنهم منافقون كاذبون، فلا تأمن لهم ولا تصدّقهم. ولا أقوى من هذا التحذير الذي يسبق مقالتهم.

واستعمل أداة الشرط (إذا) الدالة على المستقبل، فضحهم ولما يقابلوا الرسول صلى الله عليه وسلم ليشهدوا له شهادتهم الكاذبة الدالة على خبثهم وأنهم يقولون ما لا يؤمنون به .

وللتعمية على كذبهم أكدوا كلامهم بالأسلوب الإنكاري - إذ شهدوا - والشهادة تأكيد- وأكدوا ب (إنَّ واللام المزحلقة) فاجتمعت تأكيدات ثلاث ، دحضها القرآن الكريم بثلاثة مثلها (والله يشهد إنهم لكاذبون) وتوسطها العلم بالحقيقة الأزلية - حتمية الرسالة - ولا تُقبل الشهادة إلا مسبقة بالعلم ، فقال الله تعالى (والله يعلم إنك لرسوله) . وأولئك لا يعلمون حقيقة ما يقولون لعماية قلبهم عن إدراك الحقيقة .

٢- فضحهم فالقرآن في قوله: (اتخذوا أيمانهم جنة) ولن تنفعهم أيمانهم هذه فهي مكشوفة يتسترون بها ويحتبئون وراءها كما تُخبئ النعامة رأسها في الرمال (اتخذوا أيمانهم جنة) ففي سورة التوبة يحلفون كذباً (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) الآية ٤٢ ، (ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ..) الآية ٥٦ ، (يحلفون بالله ليرضوكم ..) الآية ٦٢ ، (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ..) ٧٤ . (وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ..) الآية ١٠٧ ، والآيات كثيرة في هذا الباب.

واقراً قوله تعالى (إنهم ساء ما كانوا يعملون) لتري السخرية العميقة ممتزجة بالتهديد والوعيد ، فمن أساء لقي جزاء إساءته.

٣- في الآية الثالثة التدرج في العقوبة : ١- آمنوا - ٢- كفروا ٣- طبع على قلوبهم . ٤- لا يفقهون . ولا يكون الجهل وعدم الفهم وفقه العاقبة إلا بعد أن يطبع على قلوبهم. وكيف يكفر المرء بعد أن

ذاق حلاوة الإيمان؟! فإذا رضوا الكفر واستساغوه فليطبع على قلوبهم جزاءً وفاقاً . وجاءت كلمة (ذلك)
توضيحاً لسوء فعلهم في الآية السابقة.

٤- في الآية الرابعة نجد السخرية من المنظر الذي لا يتناسق والمخبر ، وقليلُ الخبرة بالرجال من يحكم
عليهم بمنظرهم ولباسهم ومعسول كلامهم، فهؤلاء المنافقون مظهرهم غير مخبرهم ، أجسام جسيمة عليها
الثياب الفاخرة ، خبراء في حياتهم الدنيوية يتحدثون فيسمع لهم ، ويحضرون فيجلسون في صدر المجلس ، فإذا
اختبرت معادتهم بان المستور وانجلي الغبار عن قوم لا هم لهم سوى حياتهم التي يعيشونها ، ويرجونها ، أما
القتال فليسوا من أهله ، الصيحة تخيفهم ، والنداء يكفئهم ، والجبن يحكمهم ، والجهد يربهم ، والبذل
يؤخرهم .، ولتأمل الدعاء عليهم (قاتلهم الله) إنه سخرية واضحة ، فلا يفقهون ولا يتدبرون ، بل يفخرون
بما ليس فيهم ويدعون .

٥- ومن دواعي السخرية منهم أنهم يصرون على النقيصة لا يبرحونها، فإذا دُعوا إلى الاعتراف
بالتقصير والتوبة ليدعو لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ويستغفر لهم، ويلحقوا بركب الإيمان أصروا على
ما هم فيه من الاستكبار ، وانظر إلى (لي رؤوسهم) عناداً وصدداً عن الحق (لَوُوا رؤوسهم) أنفة وكبرياء .،
فهم (منافيخ) لا وعي ولا إدراك .

٦- السخرية في الآية السادسة تتجلى في فسقهم وهوانهم على الله ، فلن يغفر الله لهم فهم لا
يستحقونه . (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم) ما السبب؟ إنهم خرجوا عن
الحق إلى الضلال واستمروا فوصلوا إلى درجة الفسق ، ومن فسق ورصي الفسق واستمرأه حرمة الله تعالى
الهداية، ورج في العماية

٧- السخرية في الآية السابعة من المنافقين سببه الإغراق في الاعتماد على المادّة في محاربة الإسلام
وأهله، فالمنافقون يعتقدون أن المهاجرين ما جاءوا المدينة إلا لأنهم وجدوا فيها سبل العيش وأدواته ، فإذا
مُنِع عنهم المأل انقطعت المعونة وعادوا من حيث أتوا (هم الذين يقولون : لا تُنفقوا على من عند رسول
الله حتى ينفضوا) ونشوا أو جهلوا أن الذي يجمع المسلمين حول رسولهم الكريم إيمانهم بالله وثقتهم به
وحبهم لدينه والعيش في ظلال الإيمان الذي دخل قلوبهم فأحيها ،

ومتى كان المنافق يتطوع ويتصدق على المسلمين كي يقطع نائله عنهم؟! إن خزائن الله تعالى لا تنفد)

ولله خزائن السموات والأرض) هو الإله الرازق، (ولكنَّ المنافقين لا يفقهون)...سخرية ما بعدها سخرية.

٨- وتتحلى السخرية في الآية الثامنة حين يعلن المنافقون كرههم للمسلمين وأنهم قادرون على

إخراجهم من المدينة (يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة لُخرجنَّ الأعز منها الأذلّ) فهم:

أ- يصرّحون بما لا يستطيعون. ويظهرون خبيثة نفوسهم ،ولن يبلغوا مآربهم .وهذا من ضعف

تفكيرهم وسوء تدبيرهم.

ب- ولو كانوا أقوياء وصادقين فيما يدّعون لأعلنوا وهم خارج المدينة عائدتين من غزوة بني المصطلق

الانفصام عن المسلمين، وحاربوهم ليمنعوهم من الوصول إلى المدينة . والتسويق دليل ضعفٍ (لئن

رجعنا..)

ج- وكيف يسمحون للمسلمين بالدخول ثم يخرجونهم ؟ ما هو إلا تنفيسٌ لحقدهم المحتدم في

نفوسهم ولقد تندُّ عن الضعيف الجبان كلمة ترسم أمنياته الخبيثة في صدره مهما رغب بالتكتم والسرية.

د- وفعلاً أخرج الأعزّ- هو رسول الله صلى الله عليه وسلم - الأذلّ- هو ابن سلول - من دائرة

العز التي ادّعاها وأتباعه حين وقف ابنه المسلم (عبد الله) يمنعه دخول المدينة إلا بإذن العزيز رسول الله

صلى الله عليه وسلم، ف(لله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ثم تجيء السخرية من المنافقين جلية مجلجلة (ولكنَّ

المنافقين لا يعلمون) ، وكيف يعلمون وقد طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون؟!.



المعجبون بأنفسهم

يقول تعالى " لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب. " وهم نوعان :

١- نوعهم الأول أولئك المرءون المفاخرون بقليل ما فعلوه أو كثيره يبتغون الشهرة بين الناس بأعمالهم هذه دون الإخلاص لله تعالى فيما فعلوه ، روى الإمام أحمد أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ، لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا " الآية ، لقد سألم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكنموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألم عنه واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما كنموه ما سألم عنه وهكذا رواه البخاري في التفسير ومسلم وغيرهما من سادة الحديث.

وعن أبي سعيد الخدري : أن رجالا من المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت " لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا " - رواه البخاري -

وروى مسلم أنّ أبا سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت قالوا : كنا عند مروان فقال : يا أبا سعيد أرايت قوله تعالى " لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا " ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل ؟ فقال أبو سعيد : إن هذا ليس من ذلك إنما ذاك أن ناسا من المنافقين يتخلفون إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا فإن كان فيه نكبة فرحوا بتخلفهم وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم وحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح

. ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله أبو سعيد وصاحباها لأن الآية عامة في جميع ما ذكر
والله أعلم .

وقد رُوِيَ أن ثابت بن قيس الأنصاري قال : يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكت
قال " لم ؟ " قال نهي الله المرء أن يُحِب أن يُحَمَد بما لم يفعل وأجديني أحبُّ الحمد، ونهى الله عن
الخيلاء وأجديني أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤٌ جهيرُ الصوت.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة "
فقال : بلى يا رسول الله . فعاش حميدا وقتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب .

٢- ونوعهم الثاني يدلنا عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " من ادعى دعوى كاذبة
ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة " وفي الصحيحين أيضا " المتشبع بما لم يُعطِ كلابس ثوبي زور " والمتشبع:
من يدعي أخذ شيء أو فعله كذبا وزورا ليرتفع في أعين الناس أو يغيظ غريمه . وكثير من يجب سماع
حمد الناس له ، ويظرب وهو يعلم أنهم متملقون كاذبون فيما يقولون ، فلا هو فعل الخير ، ولا فكر به .
أو فعل نزرا يسيرا ليصل إلى هدف رسمه ، ولولا ذلك الهدف ما قدم شيئا ، ولعلنا نجد من يرشح نفسه
لعمل أو منصب يرفع رايات المديح والحمد ، ويسعى إليها .

هذان الصنفان هددهم القرآن بعذاب أليم ، إن عملهم صنو الكذب ، بل هو الكذب بعينه
وهو الخداع الذي لا لبس فيه . ولعل قوله تعالى (لا تحسبنهم بمفازة من العذاب) نفي صريح عن
العفو ، ولا أمل لصاحبه بالنجاة ، وتهديد بالغ بالعقوبة حين ينفي الظن ، فما بالك بالأمل
واليقين؟! ثم يثني بالعقوبة الأليمة التي تناسب الموقف، بل لا بد لهم منه، فلا نجاة منه البتة ، يقول
تعالى " ولهم عذاب أليم " والله أعلم .

نسأل الله حسن العمل وحسن الختام.



{ الحسنی والزیادة }

" للذين أحسنوا الحسنى وزيادة

ولا يرهق وجوههم فتر ولا ذلة

وأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون"

علمتنا القاعدة الذهبية في حياة الثواب والعقاب أن الأجر من جنس العمل . فالله تعالى يقول : " من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها " ويقول - سبحانه - كذلك " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " . والحظ أداة الشرط في الآيتين السابقتين يتبين لك أنه لا بد للوصول إلى الهدف من الجد والعمل بما يناسب . وهاتان الآيتان الكريمتان أسلوب ترغيب وترهيب في الوقت نفسه، إنهما توضحان المقصود بأبسط لفظ وأتم معنى ، ليس فيهما لبس ولا غموض .

إن الحسنی (الجنة) دار المؤمنین في الدار الآخرة ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . نالها المؤمن جزاء وفاقاً لإيمانه بالله والعمل بأوامره والانتهاز عن نواهيه ، وهي نهاية طبيعية لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها بحق . والمولى تعالى يقول " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " ؟ وهو تقرير جاء بصيغة سؤال لا يستدعي الإجابة . فتضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً مما يعطيهم الله في الجنان من القصور والخور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين فهذا من جميل كرمه جل شأنه ، وهو الحال الطبيعي الذي ينتظره المسلم من رب كريم عطاؤه لا يُحَدِّد . ثم يأتي أفضل من ذلك وأعلاه وهو النظر إلى وجهه الكريم . والنظر إلى وجهه سبحانه أكرم وأعظم من جميع ما أعطوه ، لا يستحقونها بعملهم - فعملهم قليل - بل بجوده ورحمته .

وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب والحسن وغيرهم من السلف والخلف كثير . وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد ، قال : عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " وقال :

الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه .

فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم". وروى مسلم عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل".

والقتر سواد في عرصات المحشر يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القتر والغبرة. أما الذلة فهوان وصغار يصيب الكفار ويعتريهم. ولا يحصل للمؤمنين إهانة في الباطن ولا في الظاهر بل هم كما قال تعالى في حقهم "فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا" فالنضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم قال تعالى "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

وفي تنفسي القرطبي:

١- روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة آلاف

باب

٢- وقال يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتمطرهم من كل النواذر التي لم

يروها، وتقول: يا أهل الجنة، ما تريدون أن أمطرکم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم إياه.

٣- وقيل: الزيادة أنه ما يمر عليهم مقدار يوم من أيام الدنيا حتى يطيف بمنزل أحدهم سبعون ألف

ملك، مع كل ملك هدايا من عند الله ليست مع صاحبه، ما رأوا مثل تلك الهدايا قط؛ فسبحان

الواسع العليم الغني الحميد العلي الكبير العزيز القدير البر الرحيم المدبر الحكيم اللطيف الكريم الذي لا

تتناهى مقدراته.

٣- وقيل: "أحسنوا" معاملة الناس، "الحسنى": شفاعتهم، والزيادة: إذن الله تعالى فيها

وقبوله.



المسارعون إلى الله تعالى

قال تعالى في سورة آل عمران الآيات ١٣٣ - ١٣٦: " وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض ، أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله؟- ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ، وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين "

فما المسارعة؟ هي المبادرة والاستباق إلى ما يوجب المغفرة . وهي الطاعة . ويندرج تحتها أمور كثيرة كأداء الفرائض ، وهو قول علي رضي الله عنه . والإخلاص في التوجه ، وهو قول عثمان رضي الله عنه . وقيل التوبة إلى الله ، والبعد عن الربا ، والثبات في القتال . والآية عامة في الجميع .

وقد ذكر الحثُّ على المبادرة مرات في القرآن يدعو إلى التنافس وبذل الجهد للوصول إلى الهدف المنشود من وجودنا أحياء . يقول تعالى " فاستبقوا الخيرات " .

وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه في الاستباق والمسارة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الصلاة على وقتها: " إنما مثل المهجّر إلى الصلاة كمثل الذي يُهدي البدنة ، ثم الذي على أثره كالذي يُهدي البقرة ، ثم الذي على أثره كالذي يُهدي الكبش ، ثم الذي على أثره كالذي يُهدي الدجاجة ، ثم الذي على أثره كالذي يُهدي البيضة . " ويشجع الحبيب المصطفى على الإسراع في أداء الصلاة في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه أبو مخذومة عن أبيه عن جده " أول الوقت رضوان الله ، ووسط الوقت رحمة الله ، وآخر الوقت عفو الله . " فقال أبو بكر رضي الله عنه : رضوان الله أحب إلينا من عفوهِ . فإن رضوانه عن المحسنين ، وعفوهِ عن المقصّرين .

وإلى أين المسارعة؟.. إنها إلى مغفرة من الله تعالى تفتح آفاق النفس وتقرب العبد من مولاه .. إلى رضوان الله وكرمه ، وهذا يستدعي الإخلاص والهمة ، وبذل الجهد للوصول إلى الهدف . ومن غفر الله تعالى له نال السعادة كلها، ونال مع رضوان الله تعالى ثوابه وجوده ، إنها جنة عرضها السماوات والأرض . فهي واسعة لا يعلم مداها إلا الذي خلقها - سبحانه - وعرضُ هذه الجنة السماوات السبع والأرضين

السبع مقترنة بعضها إلى بعض مبسوطة كما تبسط الثياب . فكم عرضها يا ترى؟ . الله أعلم... وإذا كانت السماوات والأرض عرضها فكم طولها يا ترى؟! والطول أكثر امتداداً من العرض . والجنان أربعة : جنة عدن وجنة المأوى وجنة الفردوس وجنة النعيم . وكل جنة منها كعرض السماوات والأرض . وفي الصحيح : " إن أدنى أهل الجنة منزلة من يتمي ويتمي حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله تعالى : لك ذلك وعشرة أمثاله . "

قال يعلى بن أبي مرة : لقيت التنوخي رسول هرقل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمحص شيخاً كبيراً، قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل ، فتناول الصحيفة رجل عن يساره ، قال: فقلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا معاوية . فإذا كتاب صاحبي - هرقل - : إنك تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار؟ " .

لمن أعدت الجنة؟ إن أصحابها المتقون . " أعدت للمتقين " والمتقي من ابتعد عن غضب الله وعذاب جهنم . إن المتقين ذوو صفات عدة ، ذكرها القرآن في مواطن كثيرة تتعدد حسب الفكرة المقصودة في كل آية . فما صفات المتقين في هذه الآيات الكريمة ؟

بعض صفات المتقين : نسأله تعالى أن نكون منهم :

١- الذين ينفقون في السراء والضراء : من صفات الله تعالى الكرم والجود ، والسعيد من يحاول التحلي ببعض هذه الصفات التي يحبها المولى سبحانه . ومن كان جواداً كريماً كان هماماً واضح الإحساس زكي النفس ذكي الفؤاد ، يحب الخير للعباد ، ويساعد ذا الحاجة الملهوف ، يقصده الناس لقضاء حوائجهم وتفريج كربهم . " الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله " و " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة " . والكرم والجود من أخلاقه في حالاته كلها . قال المفسرون : في حالة السراء والضراء ، والعسر واليسر ، والرخص والشدة ، والرضا والغضب ، في حال الصحة والمرض . فالإنفاق - على هذا- متأصل في نفوسهم ، وسجية في طبائعهم .

٢- والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . ثلاث صفات رائعات

يتدرج المتقي فيها ليصل إلى أفضلها . أولها: كظم الغيظ - حبسه ومنعه من الثوران والتصرف الهائج - فهو الصبر إذأ...والصبر نور في البصر والبصيرة كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : " والصبر ضياء " وقال تعالى " إن الله يحب الصابرين " وعلى المسلم الداعية أن يتجاوز عن إساءات الناس إذا أراد أن يصل إلى قلوبهم ، ويلج عقولهم ، فيحبه ويتبعوه ، وقد جبل الناس على الضعف والخطأ الذي يولد الأذى فقد قال صلى الله عليه وسلم : " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم . " ولا ننس أن كظم الغيظ لا يعني نسيانه ، إنما تناسيه، والفرق بينهما واضح جلي . فإذا نجح المسلم في السيطرة على نفسه فحبس غيظه دخل في المرتبة الثانية: العفو عن الناس والعفو نسيان ما كان منهم ، ومساحتهم، وكأن شيئاً لم يكن . فقد كان الرسول الكريم يعفو عمّن ظلمه ، والسيرة مليئة بهذه المواقف النبوية الرائعة في العفو والصفح عن المسيء ، وتاريخ الصالحين من أسلافنا شاهد على ذلك . والعفو دليل سمو الأخلاق ورجاحة العقل ، ولن يكون الداعية ناجحاً إذا عامل الناس بالمثل . إنه إن عاملهم كذلك لم يتميّز عنهم . والقرآن الكريم يدعونا إلى العفو " وأن تعفوا أقرب للتقوى " ويقول : " وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم " هذا مع المسلمين . وكذلك مع غير المسلمين فإن العفو عنهم رفع مقام للمؤمن ، وزيادة في عقاب الكافر " قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون " وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " بل إن الإنسان إذا تحمّل أذى الآخرين نال ثواباً عظيماً يدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من جرعة يتجرعها العبد خيراً له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله . فإذا نجح المسلم في الدرجة الثانية جازها إلى الدرجة الأخيرة الراقية الإحسان الذي يحبه الله تعالى ويجب أهله " والله يحب المحسنين " ودرجة الإحسان أنك تعبد الله " كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " فأنت على هذا في المعية الإلهية .

قال سريّ السقّطيّ : الإحسان أن تحسن في وقت الإمكان ، فليس كل وقت يمكنك الإحسان فيه .

وقال الشاعر أبو العباس الجمني :

ليس في كل ساعة وأوانٍ تنهياً صنائع الإحسان

وإذا أمكنت فبادر إليها حذراً من تعذر الإمكان

وقد أورد القرطبي في المحسن : من صحح عقد توحيده ، وأحسن سياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شره .

٣- والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم

١- ذكروا الله

ب- فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ - ،

ج- ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون .

ما من أحد لم يقترب ذنباً ، أو يجترح إثماً فالإنسان خطاء كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، وخطاء تعني كثير الأخطاء . لكن التائب بصدق يتوب الله تعالى عليه ، وهؤلاء في هذا الصنف دون الصنف الأول ، فألحقهم الله بهم مناً منه وكرماً ، وهؤلاء هم التوابون . الذين يقعون في الفاحشة ، ثم يستدركون ويتوبون إلى الله تعالى ، فيتوب عليهم ويغفر لهم . أما ظلم النفس هنا فالخطأ دون الكبائر .. هؤلاء يذكرون الله تعالى ويعلمون أنهم أغضبوه فيسارعون للاستغفار والتوبة والأوبة إليه سبحانه فهو وحده الذي يقبل توبتهم ، ويقلل عثرتهم . فإذا كان الله وحده من يغفر الذنوب فاللجوء إليه وحده الطريق الصحيح للتخلص من الذنوب والآثام . والتوبة لها شروط ثلاث كما ذكر العلماء اعتماداً على هذه الآية الكريمة أن : ١- يقلع الإنسان عن المعصية . ٢- وأن يندم على فعلها ٣- وأن يعزم أن لا يعود إليها . فإذا كانت المعصية بحق غير الله زيد شرط رابع ٤- أن يعيد الحق لصاحبه وأن يستسمح منه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " ما من عبد يذنب ذنباً ، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله ، إلا غفر له " ثم تلا الآية الكريمة " والذين إذا فعلوا فاحشة " ومن علم أنه واقف يوماً أمام الله تعالى - " وهم يعلمون " - خاف ورجا ، ورغب ورهب ، فأسرع تائباً إلى الله عز وجل .

جزاء المتقين

أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ، وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر

العاملين ."

فهؤلاء الذين ينفقون من أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، ويكظمون غيظهم ، ويعفون عمن ظلمهم ،

ويحسنون إلى الناس، ويتوبون إلى الله ويستغفرونه ، ويعلمون أنهم محاسبون على ما يعملون فيحترسون لهم جزاء عظيم يقود إلى نتيجة عظيمة .

أما الجزاء العظيم فالمغفرة من الله تعالى ومن رضي الله عنه رضي كل شيء عنه وأحبه ، وعفا عنه وأبدل سيئاته حسنات . ومن نال هذه الفضائل العظيمة استحق الجنة ونعيمها الأبدى الخالد بأثمارها العذبة من ماء غير آسن ولبن لم يتغير طعمه وعسل مصفى وخمر لذة للشاربين .

ونال ما يتمناه من ثمار الجنة وأكلها ، وجميل حورها . وما أحسن هذا الجزاء الكريم من رب كريم . وأنعم بالخلود أبد الأبدى .



(المقتسمون الذين جعلوا القرآن عِضِينَ)

قرأ الإمام اليوم في صلاة الفجر قوله تعالى من سورة الحجر الآيتين (كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عِضِينَ)(٩٠-٩١).

فأحببت أن أعرض معنى (الاققسام والعِضِينَ):

فمما قال ابن كثير رحمه الله تعالى في معناها :

١ - هم المتحالفون أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم " قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله " ليقتلوهم ليلاً .:

٢ - وهم الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور: " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت "

٣ - ومنهم الذين أقسموا ان الله لا يرحم المؤمنين الداعين إلى الحق: " أهؤلاء الذين أقسمتم لا

ينالهم الله برحمة "

٤ - وكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء من الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين . وفي

الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل

رجل أتى قومه فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة

من قومه فأدجلوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكأنهم فصبحهم الجيش

فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من

الحق " .

ومما قال القرطبي:

اختلف المفسرون في " المقتسمين " على أقوال سبعة . وهي ستة فقد كرر القول الأول:

الأول : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاققسموا أعقاب مكة وأنقابها

وفجاجها يقولون لمن سلكها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعي النبوة ؛ فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما

قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن . وسموا المقتسمين لأنهم اقساموا هذه الطرق ، فأماهم الله شر ميتة ، وكانوا

نصبوا الوليد بن المغيرة حكماً على باب المسجد ، فإذا سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : صدق

أولئك (يقصد الستة عشر).

الثاني :هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله (من القسمة لا القسم)فجعلوا بعضه شعرا ،
وبعضه سحرا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين .

الثالث : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

الرابع : أنهم سُموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة تقصدني وهذه
السورة تعنيك .

الخامس : أنهم قسموا كتابهم ففرقوه وبددوه وحرفوه .

السادس : هم قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسُموا مقتسمين ؛ كما قال تعالى : " تقاسموا بالله
لنبيته وأهله " [النمل : ٤٩] .

أما معنى (عضين): فمما قال ابن كثير فيه:

" الذين جعلوا القرآن عضين "

١- فقد جزءوا كتبهم المنزلة عليهم فأمنوا ببعض وكفروا ببعض.

٢- وقال بعضهم : (العَصَبُ السحر) بلسان قريش يقول للساحرة إنها العاضهة .

٣- وقالوا العَضِيُّ (أصناف من الكهانة و أساطير الأولين والجنون). واحتجوا أن الوليد

بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا شرف فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر

قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا

فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا فقالوا: أقم لنا

رأيا نقول به قال : بل أنتم قولوا لأسمع. قالوا : نقول كاهن قال ما هو بكاهن قالوا فنقول بجنون

قال ما هو بجنون قالوا فنقول شاعر قال ما هو بشاعر قالوا فنقول ساحر قال ما هو بساحر قالوا

فماذا نقول ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل وإن

أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ؛ فتفرقوا عنه بذلك وأنزل الله فيهم " الذين جعلوا القرآن عضين "

أصنافا .

وأما بعض ما قال القرطبي:

- ١- واحد العُضين عضة، وعُضيت الشيء تعضية: فرقته. فأمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض.
- ٢- وقيل : فرقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا. وأهل مكة يقولون للساحر: (عاضه) وللساحرة عاضهة . وفي الحديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة، وفسر : الساحرة والمستسحرة .
- ٣- وقيل : العضة النميمة والبهتان. قال الكسائي : العضة الكذب والبهتان ، وجمعها عضون.
- ٤- ويقال : آمنوا بما أحبوا منه وكفروا بالباقي ، فأحبط كفرهم إيمانهم .
- ٥- وقالوا إنه مأخوذ من العِضاه، وهي شجر الوادي ويخرج كالشوك .
- والله أعلم



إنه يُجيب المضطرَّ إذا دعاه

كم هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى في سورة الذاريات " كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون (١٧-١٨) "؟ ولا أدعي أنني منهم ، فقيام الليل شرف عظيم لا يناله إلا أولو العزمات . وأنتي لضعيف الهمة -أمثالي- أن يكون في عدادهم ؟ وقد تعودنا الأكل الكثير الذي يستدعي النوم الثقيل . وتعودنا السهر الطويل بفائدة وغير فائدة ، ثم ننام حين ننام كما يستلقي القليل دون حراك ، فإذا ما أذن للفجر قام متكاسلاً كمن يحمل الجبال الرواسي على عاتقه . يصلي الفجر متثاقلاً - إن صلاه - لا يدري ما صلى ، ثم يسرع متمماً نوماً ثقیلاً عميقاً ...

ويعيش أحدنا همّه بطنه وفرجه ومظهره الخارجي متناسياً ما يحيطه من مصائب وويلات تكاثرت علينا تذكرنا بما قاله المتنبي مخاطباً الحمى :

أبنت الدهر ؛ عندي كل بنت فكيف وصلتِ أنتِ من الزحام ؟

أو كما قال خراش :

تكاثرت الطباء على خراش فما يدري خراش ما يصيدُ

فإذا نظر أحدنا إلى بلاد المسلمين شرقاً وغرباً وجدها ترزح تحت نير الأعداء عسكرياً أو اقتصاداً أو سياسة أو جهالة أو فكرياً وولاءً أو تحتها كلها أو بعضها ، ولا أحاشي بلداً من بلداننا ، فنحن -والحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه - غارقون حتى الشمال في التبعية للغرب أو الشرق ، قد أدمنا على أن نكون في ذيل قائمة الشعوب ، لا نرضى عن هذه الحالة بديلاً .

والقليل منا يوّد أن يكون حراً سيّداً في نفسه وحياته وبلده . ولا أصدّق أننا مغلوبون على أمرنا ، لأن الشعوب الحية تدفع ثمن الحرية ما غلا وحلا ، وتذوق العلقم لتستقي بعده الشهد ، وتبذل الغالي للوصول إلى العزة والكرامة ، فماذا فعلنا في سبيل هدفنا هذا غير الاستسلام للعدو الخارجي والعدو الداخلي على حد سواء؟! فالثاني ظل للأول ، وامتداد له وصنيعة من صنائعه .

ورحم الله الشاعر الشابي إذ قال :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وما قال الشاعر ما قال إلا حين فهم قوله تعالى : " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " ،
وقد غيّرنا ما بأنفسنا من السيادة والكرامة والعلم إلى العبودية والضعّة والجهل ، فاستحققنا ما ننعّم فيه من
الدونيّة والتبعية والانهزامية !!

ما علينا ؛؛ فقد أكثرنا من جلد الذات - كما يقول بعضهم ممن لا تستهويه هذه المعاني ولا يود
التحرك نحو الأفضل - فلنلتفت إن شئنا - ويجب أن نشاء - إلى اللجوء إلى من يأخذ بأيدينا إلى ما نريد
ونحوى ، إلى مصدر القوة والعظمة ، إلى من كان معنا حين كنا معه نلتمس العون والسداد فنحن في أزمة ،
بل أزمات تأخذنا يميناً وشمالاً وتحت و فوق ، بل إلى تحت فقط ، وإلى الأعماق السحيقة ، فلا بد من
البحث عن مخرج مما نتخبط فيه من أمواج عاتية وعواصف مدمّرة ، ولنتلمس بقوة حبل النجاة ، فلا نجاة
إلا به " أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَا اللَّهُ مَعَ الْقَلِيلِ مَا
تَذَكَّرُونَ (٦٢) " سورة النمل.

إن الله تعالى ينبه أنه هو المدعو عند الشدائد المرجو عند النوازل . ألم يخبرنا سبحانه قائلاً : " وإذا
مسكّم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه " وقال أيضاً : " ثم إذا مسكّم الضر فإليه تجأرون " وهنا
يقول تعالى " أمن يجيب المضطر إذا دعاه " فلا يلجأ المضطر إلا إليه ولا يكشف عنه الضّرّ سواه .

يروى الإمام أحمد رحمه الله أن رجلاً قال قلت يا رسول الله إلام تدعو ؟ قال " أدعو إلى الله وحده
الذي إن مسكّم ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن ضللت بأرض كفر فدعوته رد عليك ، والذي إن
أصابتك سنة فدعوته أنبت لك " قال قلت أوصني قال " لا تسبن أحدا ولا تزهدن في المعروف ولو أن
تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي واتزر إلى نصف الساق فإن
أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة " أي
الخيلاء . وفي رواية أن الإمام أحمد ذكر اسم الصحابي جابر بن سليم الهجيمي قال : أتيت رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو محتب بشملة وقد وقع هُدبها على قدميه فقلت أيكم محمد رسول الله ؟ فأوماً بيده إلى
نفسه فقلت يا رسول الله أنا من أهل البادية وفيهم جفاؤهم فأوصني قال " لا تحقرنّ من المعروف شيئاً ولو
أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا
تشتهم بما تعلم فيه فإنه يكون لك أجره وعليه وزره وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن

الله لا يحب المخيلة ولا تسبب أحدا " قال فما سببت بعده أحدا ولا شاة ولا بعيرا .

وعن عبيد الله بن أبي صالح قال : دخل علي طاوس يعودي فقلت له ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن . فقال ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . وقال وهب بن منبه قرأت في الكتاب الأول أن الله تعالى يقول : بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرض بمن فيهن فأبني أجعل له من بين ذلك مخرجا ومن لم يعتصم بي فأبني أحسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء فأكله إلى نفسه .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي قال هذا الرجل كنت أكارى (حمال) على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني فركب معي ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق عن طريق غير مسلوكة فقال لي خذ في هذه فإنها أقرب . فقلت : لا خيرة لي فيها . فقال بل هي أقرب . فسلكناهما فانتبهنا إلى مكان وعر وواد عميق ، وفيه قتلى كثيرة . فقال لي : امسك رأس البغل حتى أنزل . فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه ، وسل سكيننا معه وقصديني . ففررت من بين يديه وتبعتني . فناشدته الله ، وقلت خذ البغل بما عليه . فقال هو لي ، وإنما أريد قتلك . فخوفته الله والعقوبة . فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه وقلت إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين . فقال عجل . فقامت أصلي فأرتج علي القرآن فلم يحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفا متحيرا وهو يقول : هيه افرغ . فأجرى الله على لساني قوله تعالى : " أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء " فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي ويده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعا . فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت ؟ فقال أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالما .

فإذا أجاب الله دعاء المسلم المضطر ونحن في ضنك واضطرار ، وأخلص في الدعاء وتوجه بكليته إلى مولاه كشف عنه السوء ، ثم زاده خيراً على خير ، وسوّده على من كان عليه سيئاً . ورفع درجته بين الناس . والأمة التي تلجأ إلى الله يكشف عنها السوء ، ويرفعها بين الأمم ، فهو تعالى الرافع والخافض ، ألم يقل تعالى : " إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين " وهو سبحانه من يقول : " وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات " إنه سبحانه يقول في هذه الآية " ويجعلكم خلفاء الأرض " .

فالأمر واضح لذي عينين وذي قلب سليم ، فلماذا يتنكب المسلمون الطريق القويم ويميلون عن الصراط المستقيم؟! والحل لكل المعضلات والمشاكل معروف، أخذ به أسلافنا فكانوا سادة الدنيا وملوكها!؟



إنها لظى

لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم :

روى هبيرة بن أبي مرثد عن علي رضي الله عنه قال أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيمتلئ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تمتلئ كلها ، وعن حطان بن عبد الله أنه قال سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال : إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون - أطباقا بعضها فوق بعض .

وقال ابن جريج سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . وقال قتادة " لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم " هي والله منازل بأعمالهم

وحين أخبر الله تعالى أن لجهنم سبعة أبواب " لكل باب منهم جزء مقسوم " فقد كتب لكل باب منها جزءاً من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه - أجازنا الله منه - وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في ذلك بقدر عمله . رواه ابن جرير وقال جوير عن الضحاك " لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم " قال باب لليهود ، وباب للنصارى الذين يجعلون عيسى - وهو رسول الله - ابناً لله ، وباب للصابئين ، وباب للمجوس ، وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب ، وباب للمنافقين ، وباب لأهل التوحيد فأهل التوحيد يرجى لهم النجاة منها بعد دخولهم ، ولا يرجى لأولئك أبدا .

وعن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " لكل باب منهم جزء مقسوم " قال " إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبه وإن منهم من تأخذه النار إلى حجرتة ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم فذلك قوله لكل باب منهم جزء مقسوم " .

وقال القرطبي رحمه الله تعالى : الذي عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدرجات ، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي التي تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها . ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم سعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية .

وروي عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى : " لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم " جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا في الله ، وجزء غفلوا عن الله ، وجزء آثروا شهواتهم على الله ، وجزء شقوا غيظهم بغضب الله ، وجزء عتوا على الله .

ويروى أن سلمان الفارسي رضي الله عنه لما سمع هذه الآية " وإن جهنم لموعدهم أجمعين " فرّ ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل ، فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية " وإن جهنم لموعدهم أجمعين " ؟ فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي ؛ فأنزل الله تعالى " إن المتقين في جنات وعيون " [الحجر : ٤٥] .

وقال بلال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في مسجد المدينة وحده ، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية " لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم " فخرت الأعرابية مغشياً عليها، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم وجبتها (صوت وقوعها) فانصرف ، ودعا بماء فصب على وجهها حتى أفاقت وجلست ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (يا هذه مالك) ؟ فقالت : أهذا شيء من كتاب الله المنزل أم تقوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : (يا أعرابية ، بل هو من كتاب الله تعالى المنزل) .

فقالت : كل عضو من أعضائي يعذب على كل باب منها ؟

قال : (يا أعرابية ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل منها على قدر أعمالهم) .
فقالت : والله إني امرأة مسكينة ، ما لي مالٌ ، وما لي إلا سبعة أعبد ، أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حرٌّ لوجه الله تعالى .

فأتاه جبريل فقال . (يا رسول الله ، بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها

أبواب الجنة كلها) . (١)



.....
(١) من تفسير القرطبي للآية الكريمة ، الآية ٤٤ من سورة الحجر .

أنواع القلوب

في القرآن الكريم أنواع كثيرة من القلوب ، نذكر منها :

القلب السَّلِيمُ: هو القلب المخلص لله الخالي من الكفر والنفاق والرديلة.

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) ﴿الشعراء: ٨٩﴾

القلب المَخْبِتُ: الخاضع المطمئن الساكن لذكر الله تعالى (فَتُخِبَتِ لَهُ قُلُوبُهُمْ) ﴿الحج: ٥٤﴾

القلب المُنِيبُ: وهو دائم الرجوع والتوبة إلى الله مقبلٌ على طاعته.

(مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) ﴿ق: ٣٣﴾

القلب التَّقِيّ: وهو الذي يعظم شعائر الله

القلب الوجِلُ وهو الذي يخاف الله عز وجل ، ويخشى ألا يقبل منه العمل وألا ينجو من عذاب ربّه.

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) المؤمنون: ٦٠

القلب المِطْمَئِنِّ: الذي يسكن بتوحيد الله وذكره (وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ) (الرعد: ٢٨)

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) ﴿الحج: ٣٢﴾

القلب المَهْدِيّ: الرّاضي بقضاء الله ، المسلم لأمره. (وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) ﴿التغابن: ١١﴾

القلب الحَيّ: وهو الذي يَعْقِلُ ويتعظ . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) ﴿ق: ٣٧﴾

القلب المَرِيضُ: وهو الذي أصابه مرض الشك أو النفاق وتملكه الفجور ومرض الشهوة الحرام.

(فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ) ﴿الأحزاب: ٣٢﴾

القلب الأَعْمَى: وهو الذي لا يبصر ولا يدرك الحق ولا يعتبر.

(وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) ﴿الحج: ٤٦﴾

القلب اللاهِيّ الغافل عن القرآن الكريم ، المشغول بأباطيل الدنيا وشهواتها ، لا يعقل ما فيه.

(لَا هِيَةَ قُلُوبُهُمْ) ﴿الأنبياء: ٣﴾

القلب الآثِمُ: وهو الذي يكتم شهادة الحق.

(وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) ﴿البقرة: ٢٨٣﴾

القلب المتكبر: المستكبر عن توحيد الله وطاعته، الجبار بكثرة ظلمه وعدوانه

(قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) ﴿غافر: ٣٥﴾

القلب الغافل: الغافل عن ذكر الله ، المؤثر هواه على طاعة مولاه.

(وَلَا تُطِيع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا) ﴿الكهف: ٢٨﴾

القلب المرتاب: الشاك المتحير. (وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ) ﴿التوبة: ٤٥﴾

القلب الغليظ: وهو الذي نُزعت منه الرأفة والرحمة

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) ﴿آل عمران: ١٥٩﴾

القلب الرائع: المائل عن الحق ، الذي يتبع ما يشككه. (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ آتَى آل عمران: ٧

القلب المختوم عليه: الذي لم يسمع الهدى ولم يعقله. (وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) ﴿الجاثية: ٢٣﴾

القلب القاسي: الذي لا يلين للإيمان ولا يؤثّر فيه زجر ، المعرض عن ذكر الله.

(وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) ﴿المائدة: ١٣﴾

القلب الأعف: القلب الذي لا ينفذ إليها قول الحق ولا يتعظ بما يجري حوله ..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) ﴿البقرة: ٨٨﴾.

- اللهم اجعل قلوبنا ناطقة بذكرك ، مليئة بحبك ، خاشعة لجلالك . واكتبنا عندك من

الناجين .



ثواب الآخرة للمؤمنين وأهم صفاتهم في سورة الشورى

في ظلال القرآن للشهيد : سيد قطب

كنت أقرأ هذه الآيات في سورة الشورى اليوم ٢٩-١١-١٤٣٢ من قوله تعالى " فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى إلى قوله سبحانه ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور " فأحسست بعظم هذه الآيات في قلبي وتوقفت عندها طويلاً ، ثم عزمتم أن أترجم ما في قلبي وعقلي من ظلالها الممتدة الوارفة ، ثم رأيتني أمسك ظلال القرآن لأستاذنا سيد رحمه الله تعالى وأقرأ ما سطره قلبه الشفاف في هذه الآيات الرائعة ، فأحببت أن تعيشوا معي هذه الدقائق في معانٍ عظيمة قررها الكتاب الكريم في صفحاته الخالدة ، وقدمها الشهيد سيد رحمه الله في قالب حوارى أدبي ممتع يترجم تأثيره العملي والإيجابي بكتاب الله جل شأنه.

ولا أخفي عليكم أن الذي شدني إلى كتاب الله والالتزام بدعوته استشهاد سيد قطب رحمه الله تعالى، فقد كنت متديناً بالفطرة وأحب أهل الدين والفكر الإسلامى وعلى رأسهم الشهيد البطل سيد ، وكنت أحب بل أعظم جمال عبد الناصر الذي صورته الإعلام في الستينات من القرن المنصرم بطل العروبة ومنقذ الأمة وريان السفينة ، ولا أدري كيف اجتمع في قلبي حب رجلين مختلفي التوجه دون أن أميز في ذلك الوقت بين الحق والباطل . ربما كان هذا بسبب تحكّم العاطفة الإسلامية والعاطفة العربية القومية في وجداني ولما تنضج الأمور في قلبي وعقلي ، إلى أن حكم عبد الناصر بالإعدام على سيد ، ونفذ الحكم فيه عام ستة وستين وتسع مئة وألف . فتأثرت كثيراً وعزمت أن أقرأ كتابه (معالم في الطريق) فأحكم بينهما وأميل إلى الجانب الذي أراه صواباً . وقرأت الكتاب ، وعشت فيه أياماً تداخلت فيها العاطفة بالفكر والقلب بالعقل، وكررت القراءة مرات ومرات، ثم هداني الله تعالى إلى الحق ، فما ينبغي لرجل الدولة أن يقتل عالماً من كبار علماء المسلمين ولا يحق له أن يزهق روح رجل كان ملء العين والبصر ، وكان له رأي في الحق والحرية خالف ما يفرضه الحاكم على شعبه وأكرههم عليه. فهو إذاً طاغية ومتجبر ، ولا يرى غير نفسه ولا يتحمل أن يسمع غير التمجيد بذاته والخضوع لرغباته.

وبدأت أقرأ الظلال والمستقبل لهذا الدين ، وهذا الدين ، وخصائص التصور الإسلامى .. وإذا أنا

تلميذ محب لسيد وإخوان سيد ، وإذا بي أبحث عن الإخوان لأكون منهم بعد سنة أو سنتين ..
هذا سيد قطب الذي أقتني بعد استشهاده أن أكون من تلاميذه وأن أسير على دربه ، وأسأل الله
تعالى أن يخبيني على هذه الدعوة وأن أكون آخر أيامي أشد حباً لها وعملاً في سبيلها .

يتحدث الشهيد سيد قطب في سورة الشورى عن دروس مهمة في مسيرة الدعوة ، وهذه الآيات التي
نحن بصدددها هي الدرس الخامس من سلسلة تربوية جامعة في هذه السورة الكريمة (الشورى) يوضح فيها
تفاهة الحياة الدنيا التي يقتتل عليها البشر ، وهم يرون من سبقهم ودّعها مقهوراً قد ترك ما اقتتل عليه
فجأة دون سابق إنذار وكأن شيئاً لم يكن ، فالحياة الدنيا متاع زائل لا يدوم ، وكيف يحرص الإنسان على
أمر يتركه في أوج التمتع به؟! وهو يعلم أن هذه الحياة فانية وأن ما عند الله خير وأبقى لأقوام اتسموا
بسمات لا بد منها ليكونوا من أهل الجنان الباقية والنعيم الدائم.

وأترككم في رحاب هذه الآيات مع الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله وفي الخالدين.
يقول الشهيد : ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، وهو يلفتهم إلى أن كل ما أتوه في هذه الأرض متاع
موقوت في هذه الحياة الدنيا . وأن القيمة الباقية هي التي يدخرها الله في الآخرة للذين آمنوا وعلى ربحهم
يتوكلون . ويستطرد فيحدد صفة المؤمنين هؤلاء ، بما يميزهم ، ويفردهم امة وحدهم ذات خصائص
وسمات!

فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا، وما عند الله خير وأبقى:

- ١- (للذين آمنوا وعلى ربحهم يتوكلون .
- ٢- والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ،
- ٣- وإذا ما غضبوا هم يغفرون ،
- ٤- والذين استجابوا لربهم ،
- ٥- وأقاموا الصلاة ،
- ٦- وأمرهم شورى بينهم ،
- ٧- ومما رزقناهم ينفقون .
- ٨- والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون .

٩- وجزاء سيئة سيئة مثلها ،

١٠- فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين .

١١- ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون

الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم .

١٢- ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور . .)

لقد سبق في السورة أن صوّر القرآن حالة البشرية ؛ وهو يشير إلى أن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ؛ وكان تفرقهم بغيا بينهم لا جهلاً بما نزل الله لهم من الكتاب ، وبما سن لهم من نهج ثابت مطرد من عهد نوح إلى عهد إبراهيم إلى عهد موسى إلى عهد عيسى - عليهم صلوات الله - وهو يشير كذلك إلى أن الذين أوتوا الكتاب بعد أولئك المختلفين ، ليسوا على ثقة منه، بل هم في شك منه مريب وإذا كان هذا حال أهل الأديان المنزلة ، وأتباع الرسل - صلوات الله عليهم - فحال أولئك الذين لا يتبعون رسولا ولا يؤمنون بكتاب أضل وأعمى .

ومن ثم كانت البشرية في حاجة إلى قيادة راشدة ، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التي كانت تخوض فيها . وتأخذ بيدها إلى العروة الوثقى ؛ وتقود خطاها في الطريق الواصل إلى الله ربها ورب هذا الوجود جميعا .

ونزل الله الكتاب على عبده محمد [ص] قرآناً عربياً ، لينذر أم القرى ومن حولها ؛ وشرع فيه ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ، ليصل بين حلقات الدعوة منذ فجر التاريخ ، ويوحد نهجها وطريقها وغايتها ؛ ويقوم بها الجماعة المسلمة التي تهيم وتقود ؛ وتحقق في الأرض وجود هذه الدعوة كما أرادها الله، وفي الصورة التي يرتضيها .

وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها وتميزها . ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة: (وأمرهم شورى بينهم) . . مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة ، فهو طابع اساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة . كذلك نجد من صفة هذه الجماعة: (والذين إذا أصابهم البغي هم

ينتصرون). . مع أن الأمر الذي كان صادراً للمسلمين في مكة هو أن يصبروا وألا يردوا العدوان بالعدوان ؛ إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال . وقيل لهم:(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير). وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحي بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة ؛ وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمراً استثنائياً لظروف معينة . وأنه لما كان المقام هنا مقام عرض الصفات الأساسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة ، ولو أن الآيات مكية ، ولم يكن قد أذن لهم بعد في الانتصار من العدوان . وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام . ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا ، جدير بالتأمل . فهي الصفات التي يجب ان تقوم أولا ، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية . ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلا . . ما هي ؟ ما حقيقتها ؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعاً ؟ إنها الإيمان . والتوكل . واجتناب كبائر الإثم والفواحش . والمغفرة عند الغضب . والاستجابة لله . وإقامة الصلاة . والشورى الشاملة . والإنفاق مما رزق الله . والانتصار من البغي . والعفو . والإصلاح . والصبر .

فما حقيقة هذه الصفات وما قيمتها؟ يحسن أن نبين هذا ونحن نستعرض الصفات في نسقها القرآني.

إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهي الثابت لحقيقة القيم . والقيم الزائلة القيم الباقية ؛ كي لا يختلط الأمر في نفوسهم ، فيختل كل شيء في تقديرهم . ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة: (فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى)..

إن في هذه الأرض متاعاً جذاباً براقاً ، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائد وجاه وسلطان ؛ وهناك نعم آتاها الله لعباده في الأرض تلتفها منه وهبة خالصة ، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة في هذه الحياة الدنيا . وإن كان يبارك للطائع - ولو في القليل - ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير .

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية . إنما هو متاع . متاع محدود الأجل . لا يرفع ولا يخفض ، ولا يعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة ؛ ولا يعتبر بذاته علامة رضى من الله أو غضب . إنما هو متاع .

(وما عند الله خير وأبقى). . . خير في ذاته . وأبقى في مدته . فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله ، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المناسب . ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام . أقصى أمده للفرد عمر الفرد ، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية ؛ وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أو تكاد . وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ في بيان صفة المؤمنين الذين يذخر الله لهم ما هو خير وأبقى . . . ويبدأ بصفة الإيمان: (وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين آمنوا) . . . وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التي لا تقوم في النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء في هذا الوجود إلا عن طريقها . فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود ، وأنه من صنع الله ؛ وبعد إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه . ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير ، ولا ينحرف عن النواميس الكلية فيسعد بهذا التناسق ، ويمضي مع الوجود كله إلى بارئ الوجود في طاعة واستسلام وسلام . وهذه الصفة لازمة لكل إنسان ، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التي تقود البشرية إلى بارئ الوجود .

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية ، والثقة بالطريق ، وعدم الحيرة أو التردد ، أو الخوف أو اليأس . وهذه الصفات لازمة لكل إنسان في رحلته على هذا الكوكب ؛ ولكنها ألزم ما تكون للقائد الذي يرتاد الطريق ، ويقود البشرية في هذا الطريق .

وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والغرض والصالح الشخصي وتحقيق المغام . إذ يصبح القلب متعلقاً بهدف أبعد من ذاته ؛ ويحس أن ليس له من الأمر شيء ، إنما هي دعوة الله ، وهو فيها أجير عند الله ! وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل إليه مهمة القيادة كي لا يقنط إذا أعرض عنه القطيع الشارد أو أودي في الدعوة ؛ ولا يغتر إذا ما استجابت له الجماهير ، أو دانت له الرقاب . فإنما هو أجير .

ولقد آمنت العصابة الأولى من المسلمين إيماناً كاملاً أثر في نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم تأثيراً عجبياً . وكانت صورة الإيمان في نفس البشرية قد بهتت وغمضت حتى فقدت تأثيرها في اخلاق الناس وسلوكهم ، فلما أن جاء الإسلام أنشأ صورة للإيمان حية مؤثرة فاعلة تصلح بها هذه العصابة للقيادة التي وضعت على عاتقها .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" . عن هذا الإيمان:

"انحلت العقدة الكبرى - عقدة الشرك والكفر - فانحلت العقد كلها ؛ وجاهدتهم الرسول جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي ، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة ؛ وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى "

"حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم - بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم - وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة ، وفي اليوم رجال الغد ، لا تُجزعهم مصيبة ، ولا تبطّهم نعمة ، ولا يشغلهم فقر ، ولا يطغيهم غنى ، ولا تلهيهم تجارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله على أنفسهم أو الوالدين والأقربين . . وطأ لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا عصمة للبشرية ، ووقاية للعالم . وداعية إلى دين الله . . . "

ويقول عن تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول:

"كان الناس عرباً وعجماً يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ، ولا يعذب العاصي بعقوبة ، ولا يأمر ولا ينهى ؛ فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ؛ فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر ، وتولوا إدارة المملكة وتدير شؤونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة . فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله ، وإحالتهم خلق السماوات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ ، يقال له: من بنى هذا القصر العتيق ؟ فيسمي ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحبه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة ، لا تبعث في نفوسهم هيبة ولا محبة انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ،

ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها . آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى . آمنوا برب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، العزيز ، الحكيم ، الغفور ، الودود ، الرؤوف ، الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه . . . إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه . يثيب بالجنة ويعذب بالنار ، ويسطر الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء في السماوات والأرض ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه . فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلاباً عجيبياً . فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن . تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جرائم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلاً غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليقه بشيء غير الإيمان الكامل العميق " .

"وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ، ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ، ولا تتناوله يد القانون ، تحول هذا الإيمان نفساً لومة عنيقة ، ووخزاً لاذعاً للضمير ، وخيالاً مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً ، تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة " . . .

" . . . وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفاهة وكرامته ، يملك نفسه النزوع أمام المطامع والشهوات الجارفة ، وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً . وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف عند المغنم ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والإخلاص لله ، ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره ، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ، ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان " .

"وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع، لا يخضعون لسلطان ، ولا يقرون بنظام ، ولا ينخرطون في سلك ، يسيرون على الأهواء ، ويركبون العمياء ، ويخبطون خبط عشواء . فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان ، والأمر والنهي ، ولأنفسهم بالرعية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم المقادة ، واستسلموا للحكم الإلهي استسلاماً كاملاً ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم ، وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالاً ولا نفساً ولا تصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به، لا يحاربون ولا يصلحون إلا بإذن الله ، ولا يرضون ولا يسخطون، ولا يعطون ولا يمنعون، ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره" .

وهذا هو الإيمان الذي تشير إليه الآية وهي تصف الجماعة التي اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة .
ومن مقضيات هذا الإيمان التوكل على الله، ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويميزها:

(وعلى ربهم يتوكلون).

وهذا التقديم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضي التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد في أول صورة من صورهِ . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئاً إلا بمشيئته ، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلا بإذنه . ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه في فعل ولا ترك لمن عداه .

وهذا الشعور ضروري لكل أحد ، كي يقف رافع الرأس لا يجني رأسه إلا الله . مطمئن القلب لا يرجو ولا يهرب أحداً إلا الله . ثابت الجأش في الضراء ؛ قرير النفس في السراء ، لا تستطيره نعماء ولا بأساء . .
ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد ، الذي يحتمل تبعه ارتياد الطريق .

(والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش).

وطهارة القلب ، ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش ، أثر من آثار الإيمان الصحيح .
وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة . وما يبقى قلب على صفاء الإيمان ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها . وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت

بنوره

ولقد ارتفع الإيمان بالحساسية المرهفة في قلوب العصبة المؤمنة ، حتى بلغت تلك الدرجة التي أشارت إليها المقتطفات السابقة [ص ٧٧] وأهلت الجماعة الأولى لقيادة البشرية قيادة غير مسبوقه ولا ملحوقه .

ولكنها كالسهم يشير إلى النجم ليهتدي به من يشاء في معترك الشهوات !

والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشري ، فيجعل الحد الذي يصلح به للقيادة ، والذي ينال معه ما عند الله ، هو اجتناب كبائر الإثم والفواحش . لا صغائر الإثم والذنب . وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر ، لأنه أعلم بطاقته . وهذا فضل من الله وسماحة ورحمة بهذا الإنسان ؛ توجب الحياء من الله ، فالسماحة تحجل والعفو يثير في القلب الكريم معنى الحياء .



(وإذا ما غضبوا هم يغفرون)

وتأتي هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان في ذنوبه وأخطائه ، فتحب في السماحة والمغفرة بين العباد . وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون . وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية ؛ فهو لا يكلف الإنسان فوق طاقته . والله يعلم أن الغضب انفعال بشري ينبع من فطرته . وهو ليس شراً كله . فالغضب لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير . ومن ثم لا يجرم الغضب في ذاته ولا يجعله خطيئة . بل يعترف بوجوده في الفطرة والطبيعة ، فيعفي الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه . ولكنه في الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه ، وأن يغفر ويعفو ، ويحسب له هذا صفة مثلى من صفات الإيمان المحيية . هذا مع أنه عرف عن رسول الله [ص] أنه لم يغضب لنفسه قط ، إنما كان يغضب لله ، فإذا غضب الله لم يقم لغضبه شيء . ولكن هذه درجة تلك النفس المحمدية العظيمة ؛ لا يكلف الله نفوس المؤمنين إياها . وإن كان يجيبهم فيها . إنما يكتفي منهم بالمغفرة عند الغضب ، والعفو عند القدرة ، والاستعلاء على شعور الانتقام، ما دام الأمر في حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد .

(والذين استجابوا لربهم).

فأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول . وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها ونزواتها . عوائق من وجودها هي وتشبثها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً وموصولاً . وحينئذ تستجيب بلا عائق . تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها . . وهذه هي الاستجابة في عمومها . . ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة:

(وأقاموا الصلاة . .)

وللصلاة في هذا الدين مكانة عظمى ، فهي التالية للقاعدة الأولى فيه . قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهي صورة الاستجابة الأولى لله . وهي الصلة بين العبد وربيه . وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد ركعاً سجداً ، لا يرتفع رأس على رأس ، ولا تتقدم رجل على رجل !

ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى - قبل أن يذكر الزكاة:

(وأمرهم شورى بينهم)

والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة . وهو كما قلنا نص مكي . كان قبل قيام الدولة الإسلامية . فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين . إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد .

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراس طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية . والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية .

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكراً ، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها . إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية . وهي من ألزم صفات القيادة . أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوحاً في قالب حديدي ؛ فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان ، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة ، وليست نصوصاً حرفية ، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء . . . وليس هذا كلاماً عائماً غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية . فهذه العقيدة - في أصولها الاعتقادية البحتة ، وقبل أي التفات إلى الأنظمة فيها - تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشري، يهيء لإفراس أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ؛ ثم تجيء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها .

ولكي يقوم أي شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لا بد قبلها من وجود مسلمين ، ومن وجود إيمان ذي فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفي بالحاجة ، ولا تحقق نظاماً يصح وصفه بأنه إسلامي .

ومتى وُجد المسلمون حقاً ، ووُجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته ، نشأ النظام الإسلامي نشأة ذاتية ، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها ؛ وتحقق المبادئ الإسلامية الكلية خير

تحقيق .

(ومما رزقناهم ينفقون).

وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التي حددت في السنة الثانية من الهجرة . ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيهاً مبكراً في حياة الجماعة الإسلامية . بل إنه ولد مع مولدها . ولا بد للدعوة من الإنفاق . لا بد منه تطهيراً للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الملك ، وثقة بما عند الله . وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان . ثم إنها ضرورية كذلك لحياة الجماعة . فالدعوة كفاح .

ولا بد من التكافل في هذا الكفاح وجرائره وآثاره . وأحياناً يكون هذا التكافل كاملاً بحيث لا يبقى لأحد مال متميز . كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ، ونزولهم على إخوانهم في المدينة . حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق في الزكاة . وعلى أية حال فالإنفاق في عمومه سمة من سمات الجماعة المؤمنة المختارة للقيادة بهذه الصفات . .

(والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون .)

وذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة كما سلف . فهي تقرير لصفة أساسية في الجماعة المسلمة . صفة الانتصار من البغي ، وعدم الخضوع للظلم . وهذا طبيعي بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة . لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتحمين على حياة البشرية بالحق والعدل ؛ وهي عزيزة بالله . (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) . . فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغي وأن تدفع العدوان . وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية في مكة ، وللمقتضيات تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ، أن يكفوا أيديهم ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة .

ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسلمة والصبر في العهد المكي:

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مسيطرة على الجماعة . فالوضع السياسي والاجتماعي في الجزيرة كان وضعاً قليلاً مخلصاً . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إن كان ذا نسب ، ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه - ولم يقع إلا

في الندرة أن وقع اعتداء جماعي على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة - كما كان السادة يؤذون مواليتهم إلى أن يشترتهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيدائهم غالباً . ولم يكن الرسول [ص] يجب أن تقع معركة في كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسألة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تنور لصاحب الحق الذي يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة في صف الإسلام والمسلمين . وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشعب وحصر بني هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذي حوته الصحيفة ، ونقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف ، وأعصاب متوفرة لا تخضع لنظام . والتوازن في الشخصية الإسلامية كان يقتضي كبح جماح هذا التوفر الدائم، وإخضاعها لهدف ، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغنم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التوازن في الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق .

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسألة والصبر في مكة . مع تقرير الطابع الأساسي الدائم للجماعة المسلمة: (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون). ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة في الحياة:

(وجزاء سيئة سيئة مثلها) . .

فهذا هو الأصل في الجزاء . مقابلة السيئة بالسيئة ، كي لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لا يجد رادعاً يكفه عن الإفساد في الأرض فيمضي وهو آمن مطمئن !

(فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين) ذلك مع استحباب العفو ابتغاء

أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد . وهو استثناء من تلك القاعدة . والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة . فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدي والمسامح سواء .

فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ولم يجيء ضعفاً ينجل ويستحيي ، ويحس بأن خصمه الذي عفا هو الأعلى . والقوي الذي يعفو تصفو نفسه وتعلو . فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا . ولا كذلك عند الضعف والعجز . وما يجوز أن يذكر العفو عند العجز . فليس له ثمة وجود . وهو شر يطمع المعتدي ويذل المعتدى عليه ، وينشر في الأرض الفساد !

(إنه لا يحب الظالمين) . .

وهذا تأكيد للقاعدة الأولى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) من ناحية . وإيحاء بالوقوف عند رد المساءة أو العفو عنها . وعدم تجاوز الحد في الاعتداء ، من ناحية أخرى .
وتأكيد آخر أكثر تفصيلاً:

(ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس

، ويبغون في الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم) . .

فالذي ينتصر بعد ظلمه ، ويجزي السيئة بالسيئة ، ولا يعتدي ، ليس عليه من جناح . وهو يزاول حقه المشروع . فما لأحد عليه من سلطان . ولا يجوز أن يقف في طريقه أحد
إنما الذين يجب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق . فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه ؛ وفيها باغ يجور ولا يجد من يقاومه ويقتص منه . والله يتوعد الظالم الباغي بالعذاب الأليم . ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق .

ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة في الحالات الفردية ، وعند المقدرة على الدفع كما هو مفهوم ؛ وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لا استخذاء ؛ وتحملاً لا ذلاً:
(ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) . .

ومجموعة النصوص في هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين ؛ وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغیظ ، ومن الضعف والذل ، ومن الجور والبغي ، وتعلقها بالله ورضاه في كل حال .
وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل .

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعاً مميزاً للجماعة التي تقود البشرية وترجو ما عند الله وهو خير

وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . .

حتى إذا بلغ أشده

قال تعالى:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۗ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۗ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) سورة الأحقاف

حين ذكر تعالى في الآية التوحيد له وإخلاص العبادَة والاستقامة إليه عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في آيات عدة من القرآن كقوله عز وجل " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً " ، وقوله جل جلاله " أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير " إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة وما ذلك إلا أن الله تعالى سبب الخلق فهو المعبود بحق ، أما الوالدان فأداة الوجود، ولولاهما ما جاء الولد،. وقد أمر المولى تعالى بالإحسان إليهما والحنو عليهما لفضلهما الكبير عليه " حملته أمه كرها " فقااست بسببه الكثير إذ حملته مشقة وتعبا من وحم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة " ووضعت كرها " فكانت المشقة أيضا من الطلق وشدته " .

الحديث الشريف الذي أمر بالإحسان إلى الوالدين ذكر الأم ثلاث مرات بحسن الصحبة وذكر الأب مرة واحدة (من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ...) فلما قالت الآية (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً) ذكر الأب والأم مرة واحدة فلما أتبعه (حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) ذكرت الأم مرتين في الحمل والوضع فأكمل ذكرها ثلاث مرات . فكان التوافق بين الآية والحديث واضحاً .

وبلوغ الأشد أن يصير المرء قادراً على الزواج مدركاً أوليات الحياة ، فيوسف عليه السلام بلغ في الآية (حتى إذا بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً) ثلاث عشرة سنة أو أكثر بقليل . أما الحديث عن موسى عليه السلام في قوله تعالى (حتى إذا بلغ أشده واستوى آتيناها حكماً وعلماً) فقد زاد في الآية كلمة (استوى) الدالة على تجاوزه العشرين سنة وأكثر ، والاستواء أكثر قوة وتحملاً ومتانة .

وفي هذه الآية نرى عطف كلمة (أربعين) بالواو على قوله : (حتى إذا بلغ أشده) فدل العطف على وجود محذوف يفهم من السياق ، كأن تقدر : قوي وشب وارجل و تنهى عقله وكمل فهمه وحلمه

فصار أباً أو جدّاً وخير الحياة (وبلغ أربعين سنة)

ويخطئ من ظن أنّ الأربعين هي الأشد ، ودليل ذلك قوله تعالى في إعادة المال لليتيم الذي بلغ أشده (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) والأشد هنا حسن التصرف بالمال من بيع وشراء وغير ذلك . ومن قدر على الزواج في سن الرابعة عشرة قدر على التصرف بماله ، فليس من المعقول أن يسترد اليتيم ماله في الأربعين ! فالأربعون إذاً سن الكمال العقليّ والفهم والإدراك فكان النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السن أهلاً للرسالة التي كلفه الله تعالى بها .

ويقال إنّ الإنسان لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين . قال القاسم بن عبد الرحمن : قلت لمسروق متى يؤخذ الرجل بذنوبه قال إذا بلغت الأربعين ، فخذ حذرك . وعن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنّ العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله تعالى حسناته ومحاسناته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه الله تعالى في أهل بيته وكتب في السماء (أسيرُ الله في أرضه) " { من الدرر السنية وقالوا : إنه صالح الحُجِّيّة } ، ولعل بعضهم يضعف هذا الحديث فنحن نستأنس به ليس غير .

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياً من الناس ثم تركتها حياً من الله عز وجل ، وما أحسن قول الشاعر :

صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد

ويبدأ بعد سن الأربعين - سنّ الكمال - منحى الضعف فما بعد الكمال إلا النقص - وهذه سمة كل مخلوق - ، ولا بد من شكر المولى الذي حباناً حياة طويلة ، فيتجه الإنسان إلى مولاه سبحانه يحمده ويشكره على :

١ - النعمة التي يتقلب في أعطافها ، ويعيش في أكنافها .

٢ - وعلى ما أنعم الله به على والديه اللذين ربياه التربية الصالحة ، فيشكره عنهما وهذا غاية في

البر والإحسان إلى الوالدين .

٣ - ويسأله أن يتم نعمته عليه في ذرية صالحة تدعو له وتكمل ما بدأه من خير .

٤- ويعلن توبته عما يغضب الله تعالى ويؤوب إليه مستغفراً ، وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين

أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها

٥- أن يدعو الله تعالى أن يرشده إلى الهدى ويحفظ عليه النعمة ، فقد روى أبو داود في سننه

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد :

" اللهم ألف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا واهدنا سبل السلام ونجنا من الظلمات إلى النور

وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا وتب

علينا إنك أنت التواب الرحيم واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها أتمها علينا " .



ديننا الرائع

إضاعة :

سرق طعمة بن أبيرق درعاً وخبأها عند يهودي - ظاناً أنه سيستردها بعد أن يئس أصحابها من العثور عليها - وطعمة من الأنصار أظهر الإسلام ، هرب بعد هذه الحادثة وارتدّ.
فلما رأوها عند اليهودي ، وأنكر اليهودي أنها له ، أنكرها طعمة بدوره ورمى بها اليهودي ، وحلف طعمة أنه ما سرقها ، وقام قومه - وهم عالمون بسرّيته - يدافعون عنه ، ويسألون النبي صلى الله عليه وسلم أن يبرئ ساحته . ، فنزل على الحبيب المصطفى هذه الآيات الكريمة ليحكم بين الناس جميعاً بالحق والعدل الذي جاءه من الله تعالى ، فلا يدافع عن السارق أبيرق، بل يستغفر الله تعالى لما همّ به . ونهاه أن يجادل عن الذين يخونون أنفسهم بالمعاصي لأن وبال خيانتهم عليهم ، والله لا يحب الخيانة وأصحابها ، بل يعاقب الخائن :

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ، وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا

أما قومه الذين استحيوا من الناس ، وخافوهم ولم يستحيوا من الله ولم يخافوه ، فبيتوا ما لا يرضى من القول والفعل ، وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يدافع عن أبيرق ، وان ينفي السرقة عنه ، وحلفوا كذباً وبهتاناً ورموا اليهودي بما ليس فيه فإن الله تعالى عليهم بهم ،
لقد أساءوا التصرف حين دافعوا ظلماً وزوراً عن قريبهم ، ونسوا أو تناسوا أن الله لا يرضى الظلم ، فلئن دافعوا عنه في الدنيا ، فمن يجروا على ذلك يوم القيامة في حضرة الله تعالى؟ ، ومن الذي يدافع عنهم إذا عذبهم جزاء افتراءهم وعدولهم عن الحق ؟ :

هَأَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً . وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ

عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ، وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا .

ثم يدعوهم سبحانه وتعالى إلى التوبة عما فعلوا قبل أن يدهمهم الموت وهم على ظلمهم ، فالله سبحانه يقبل توبة التائبين ، ويعفو عن المخطئين ، فهو أرحم الراحمين ، وما يفعله الإنسان يحاسب عليه إن شراً فشر ، وإن خيراً فخير . ولا يضر أحدٌ إلا نفسه .

ومن فضل الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم أن حفظه من مكر المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضرموا الكفر وأرادوا التلبيس على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولن يستطيعوا ضرر النبي صلى الله عليه وسلم ، فالله معه يرعاه ويحفظه ويسدد قوله وفعله . وهذه بعض أفضال الله الكثيرة على الحبيب المصطفى : وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا سورة النساء من الآية ١٠٧

ما يستفاد من هذه القصة القرآنية :

١- حين ينتشر الإسلام وتقوى شوكته يظهر النفاق ، إذ يتظاهر بعض الكفار بالإيمان لأسباب عدة ، منها :

أ- الحفاظ على المكانة السابقة للمرء قبل الإسلام ،

ب- ونيل المكاسب المتوقعة من مجارة المؤمنين ،

ت- وإبعاد العيون عن الماكرين ومكربهم بالدعوة وأهلها ،

ث- واهتبال الفرص المناسبة للانقضاض على الدعوة من مكمناها ،

ج- والتعرف على ما يفعله المؤمنون عن كثب دون إثارة الشبهات .

٢- النفاق سمة إنسانية لا بد من وجودها ، فالناس ليسوا على مستوى واحد من الإخلاص أو

الفهم والعقل والدراية ، وتفعل المادية فعلها في الإنسان إذا ضعف إيمانه ، وفكر في حاضره الفاني غافلاً عن حياته المستقبلية الأبدية .

٣- إن ضعف الإيمان تُواكبه الأنانية القاصرة التي تجعل صاحبه يتصرف بهواه بعيداً عن التدبر

والتفكر في العاقبة ، وقد تجعله يقع في المحذور فينكشفُ المستور ، ويظهر على حقيقته . وهذا ما حصل للمنافق طعمة بن أبيرق الذي سرق الدرع ، واتهم بها اليهودي حين افتضح أمره ، ثم هرب إلى مكة مستجيراً بالكفار ، ثم ارتد ارتداداً كاملاً عن الإسلام ومات في منفاه الإرادي بعيداً عن المدينة المنورة .

٤- قد يدافع عن الظالم أهلوه بوعي ودون وعي ، أما دون وعي فللحمية التي تتسارع في نفوسهم تجاه قريبهم ومن يلوذ بهم ، فيقعون في الخطأ الكبير (مخافة الحق ووأذ نوره) ، والعصبية الجاهلية تعمي القلوب وتطفئ نور العقول ، فينقلب الحق باطلاً والباطل حقاً . وأما عن وعي فلأن العربي الجاهلي جبل على نصرة أخيه ظالماً ومظلوماً ، فالحق في عرفه يتجلى في الدفاع عن ابن قبيلته والالتفاف حوله مهما كانت الدوافع والأسباب .

٥- وجاء الإسلام يأمر بنصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً بالطريقة الصحيحة وتحري العدل وابتغاء الحق حين قال المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقال رجل : يا رسول الله ، أنصره إذا كان مظلوماً ، أفأريت إذا كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : تحجزه ، أو تمنعه ، من الظلم فإن ذلك نصره " فلا مكان للعصبية المقيتة ولا القراة المادية في حياة المسلم إذا منعه ذلك عن التزام الحق والوقوف في صفه .

٦- وينبه القرآن من ينحرف عن الصواب - ويجانبه فيقف في صف الباطل - إلى أنّ الموقف الذي يُرضي الله تعالى هو التخلي عن الهوى والميل إلى الحق الذي قامت به السموات والأرض ، ولن ينفع الإنسان حين يقف بين يدي الله تعالى إلا العدل والحق والميل إليهما " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون .. فيماذا يتساءلون يا رب؟ وبماذا يوزنون ؟ " فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون " فالعمل الصالح هو الميزان السليم يوم الحساب ، وهو الذي ينجي صاحبه ، وليست التكتلات القائمة على المصالح المؤقتة والمادية المتقطعة ! .

فما نهاية هؤلاء إن جهلوا وحادوا عن الصراط المستقيم ؛ يا رب ؟ يأتي الجواب سريعاً " ومن خفت موازينه ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون " إنه الخلود في النار .. قد يخسر الإنسان ماله وأرضه وأهله فيعوضهم ، أما أن يخسر نفسه ؟ .. إن هذا هو الخسران المبين .

٧- قد يكون للأصحاب والأتباع تأثير على تغيير وجهة الحكم ، وقد يميل القاضي - تحت

ضغظهم وإلحاحهم ، أو الثقة بهم - عن الحق ، درى أم لم يدُر ، وهذا أمر خطير لا ينبغي أن يفوت المسؤول أو الحاكم ، وإلا هلك وأهلك من معه باجتناّب الحق وعدم التحري عنه . والإسلام ما جاء إلا لإقامة العدل وإحياء الناس حياة طيبة تقوم على أساس من العدل قويم ، وثبات من الحق متين .

٨- وقد يكون الحق إلى جانب من نكرهه ويكرهنا ، فلا ينبغي أن يأمرنا كرهه بظلمه ، أو إلى التغاضي عن الوصول إلى الحق . فالظلم مرتعه وخيم ، والظلم يزيد الإحن ويدعو إلى التنافر ، فيزيد الشقة بيننا وبين الآخرين ، والداعية حريص على إحقاق الحق والإحسان إلى الناس ، هذا الإحسان يجعل الكاره محباً والعدو صديقاً

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم... فطالما استعبد الإنسان إحصاناً

ألم يقل الله تعالى " ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميمٌ " ثم أعقبها بقوله تعالى مبيناً أن العادل يكسب الكثير ، وأنه الرابح الحقيقي لصبره ورفيع سلوكة وحسن تصرفه " وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم " إن العدل أساس الملك . وفي تاريخنا وسيرة نبينا وسير عظمائنا الكثير من هذه المواقف المشرفة التي عصّدت رجحان الرحمة والعدل ونصرة المظلوم .

٩- هرب طعنة بن أبيرق إلى الأعداء حين لم يرض الخضوع للحق والتزام السبيل القويم ، فاستقبل بالحفاوة والإكرام - في مكة - أول الأمر ، فلما استنفدوا منه أغراضهم طردوه شر طردة ، ويقول المفسرون : إن المرأة التي استقبلته في بيتها حملت أغراضه ورمت بها في الطريق ، وهذا درس كبير يستفيد منه ذوو الأحلام وأولو الأبصار .. أفلا يرعوي من يبيع شرفه ودينه للعدو - هذه الأيام في بلادنا قاطبة - من ذلك المصير الذي ينتظرهم ، ألا يُجسّون وهم يمالئون أعداء الله أن العدو نفسه يحتقرهم - وهو يتعامل معهم - كما يحتقرهم أبناء بلدهم وشعوبهم؟! وربما أكثر. وأنهم أداة رخيصة سرعان ما يُلقى بها في مزابل النسيان ويتخلص منهم حين يستنفد غرضه منهم؟.

١٠- كما أن العودة عن الخطأ فضيلة والتوبة تجب ما قبلها " وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا " وهذا من سماحة الإسلام الذي يقر بضعف الإنسان " وخلق الإنسان ضعيفاً " ويقبل توبته إن أخلصها وأعلن ندمه ، وأقر بخطئه واعتذر عن إساءاته ، فالله غفور رحيم ، والإسلام دين السماح ، يُقبل العثرة ويعفو عن زلل التائبين، ويقبل في رحابه العائدين المقبلين عليه .

١١ - كما أن الله تعالى يحفظ الدعوة ويسد خطاهم كما فعل سبحانه حين أراد قوم الأبيرق

استدراج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدفاع عن السارق الأنصاري والعدول به عن الحق ، فأرسل جبريلَ بهذه الآيات يوضح الموقف ويدفع إلى التصرف السليم ،

١٢ - وقد يقول بعضهم : إن الله تعالى يسد بالوحي تصرّف النبي صلى الله عليه وسلم ويصوبه،

فكيف وقد انتهى الوحي فكيف يسد خطأ الدعوة ؟ والجواب أن دراسة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ودراسة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والتمكّن من الفقه وأقوال السلف الصالح مع الإخلاص في النية زاد الداعية وضياؤه في طريق الدعوة ، ومن أحب الله تعالى وأقبل عليه أقبل الله عليه وهياً له أسباب الهدى والرشاد وورقه السداد والنجاح في مسعاه . وهذا التوفيق الإلهي فضلٌ على الدعوة يشعرون به في حياتهم ويأرزون إليه في مهمتهم

أقول:

أحب إلهك ، فالسناؤه سمائه	وهو الجميل لكل خير قد حوى
من كان حبُّ الله نسغَ فؤاده	فإلى الجلال إلى الكمال قد انضوى
لا الحبُّ يذويه ويؤذيه بل السد	عند الدوام لمن أفاء ومن أوى
يا رب ، أنت الحب ، أنت ضياؤه	من عاش في نور الهداية ما غوى



قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننَّ به ، ولتُنصِرُنَّه . قال: أأقررتم ، وأخذتُم على ذلكم إصْرِي؟ قالوا: أقررنا . قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين) .

ما قرأت هذه الآية الكريمة إلا رأيت قلبي - ببصيرة من الله تعالى - صور الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه يقفون أمام نور الله تعالى يتوجههم بجلال النبوة ، ويقلدهم وسام الحكمة ، ويكلفهم مهمة الدعوة ، ثم يأخذ عليهم عهداً وميثاقاً أن يكونوا المثل والقدوة للدعاة في سبيله سبحانه ، فهم خلاصة البشر وذروة سنامهم ، رباهم الله تعالى على عينه . ألم يقل لموسى عليه السلام " ولتصنع على عيني " وقال لحبيبه المصطفى " واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا ؟

أعطاهم الحكم والنبوة ، فما من نبي إلا نزل عليه من ربه كتاب ، أو ألزمه كتاب نبي قبله ، يسير على هداية ، ورسم له الهدف الذي يسعى إليه في الدعوة إلى الله وحده " أن اعبدوا الله ربي وربكم " وينير طريق الحياة لأتباعه .

ثم نسمع بأذن البصيرة ذلك العهد المؤثّق بأن يكون كل نبي قائداً تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم إن رآه أو التقاه ، فهناك القيادة العامة للسائرين في رحاب الله تعالى ، إليه تنتهي الرياسة ، وتحت قيادته تنتهي كل الرايات ، إنه خاتم الأنبياء ، ودينه الخاتم لكل الشرائع الإلهية .

وعلى كل نبي أن يبشر أتباعه - إن عايشوا ذلك النبي الخاتم - أن ينضوا إليه ، ويدخلوا في دينه . ورحمة الله تعالى يكتبها لـ " الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويُحِلُّ لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم " .

وكما أخذ الله تعالى من الأنبياء ذلك العهد المؤثّق أن يتبعوا النبي القائد وصّى الأنبياء الكرام أتباعهم أن يؤمنوا به وينصروه ، فإن فعلوا كان النجاح حليفهم " فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون " . فلا دين بعد دينه ولا شريعة سوى الإسلام " إن الدين عند الله الإسلام

" فمن رغب عن ذلك واستمر فيما هو عليه وقع في الضلال ، وحسر الآخرة " ومن يتبع غير الإسلام ديناً
فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين " .

في التوراة والإنجيل صفة الرسول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي الكتب السابقة كذلك ،
والدليل المنطقي على ذلك أن الوصاة باتباعه يستلزم التعريف به وتوضيح صفاته .

روى ابن كثير في تفسير الآية الخامسة والأربعين من سورة الأحزاب في صفة سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم من التوراة " قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ دَاوُدَ حَدَّثَنَا فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ حَدَّثَنَا هَالَالُ بْنُ
عَلِيٍّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍوَ بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَةِ قَالَ أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ "
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا " وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ فَانْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ لَيْسَ
بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ
حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا وَقَدْ رَوَاهُ
الْبُخَارِيُّ فِي الْبُيُوعِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانَ عَنْ فُلَيْحِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ هَالَالِ بْنِ عَلِيٍّ " .

وروى في تفسير الآية نفسها صفات رائعة مفصلة عن وهب بن منبه قال: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى
نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ شَعِيَاءُ : أَنْ قُمْ فِي قَوْمِكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنِّي مُنْطِقُ لِسَانِكَ بِوَحْيِي وَأَبْعَثُ
أُمِّيًّا مِنْ الْأُمِّيِّينَ ، أَبْعَثْهُ لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْ يَمْرُ إِلَى جَنْبِ سِرَاجٍ لَمْ يُطْفِئْهُ مِنْ
سَكِينَتِهِ ، وَلَوْ يَمْشِي عَلَى الْقَصَبِ لَمْ يُسْمَعْ مَنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ ، أَبْعَثْهُ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، لَا يَقُولُ الْحَنَّا ، أَفْتَحَ بِهِ
أَعْيُنًا كُمْهًا ، وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا ، أُسَدِّدُهُ لِكُلِّ أَمْرٍ جَمِيلٍ ، وَأَهْبَ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ ، وَأَجْعَلُ السَّكِينَةَ
لِبَاسِهِ ، وَالْبِرَّ شِعَارَهُ ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ ، وَالْحِكْمَةَ مَنْطِقَهُ ، وَالصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ ، وَالْعَفْوَ وَالْمَعْرُوفَ
خُلُقَهُ ، وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ ، وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ ، وَالهُدَى إِمَامَهُ ، وَالْإِسْلَامَ مِلَّتَهُ ، وَأَحْمَدَ إِسْمَهُ . أَهْدِي بِهِ بَعْدَ
الضلالِ ، وَأُعْلِمَ بِهِ بَعْدَ الْجُهَالَةِ ، وَأَرْفَعُ بِهِ بَعْدَ الْحُمَالَةِ ، وَأَعْرِفُ بِهِ بَعْدَ النِّكَرَةِ ، وَأُكْتَرُ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ ،
وَأُعْنِي بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ ، وَأَجْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ ، وَأُؤَلِّفُ بِهِ بَيْنَ أُمَّمٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَقُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَهْوَاءٍ مُتَشَتِّتَةٍ ،
وَأُسْتَنْقِذُ بِهِ فِتْمَامًا مِنَ النَّاسِ عَظِيمَةً مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَأَجْعَلُ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، يَاأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ،
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، مُوحِّدِينَ مُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلِي ، أَلْهِمَهُمُ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ

وَالْتَنَاءَ وَالتَّكْبِيرَ وَالتَّوْحِيدَ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَبِحَالِ سَهْمِهِمْ وَمَضَاجِعِهِمْ وَمُنْقَلَبِهِمْ وَمَثْوَاهُمْ ، يُصَلُّونَ لِي قِيَامًا وَفُجُودًا، وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صُفُوفًا وَزُحُوفًا ، وَيَخْرُجُونَ مِنْ دِيَارِهِمْ إِنْتِعَاءَ مَرْضَاتِي أَلُوفًا ، يُظْهِرُونَ الْوُجُوهَ وَالْأَطْرَافَ ، وَيَشُدُّونَ الثِّيَابَ فِي الْأَنْصَافِ ، قُرْبَانَهُمْ دِمَاؤُهُمْ وَأَنَاجِيلَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، رُهْبَانَ بِاللَّيْلِ ، لُيُوثَ بِالنَّهَارِ ، وَأَجْعَلْ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ السَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ . أُمَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ، وَأَعِزَّ مَنْ نَصَرَهُمْ وَأُؤَيِّدْ مَنْ دَعَا لَهُمْ ، وَأَجْعَلْ دَائِرَةَ السَّوْءِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ أَوْ بَغَى عَلَيْهِمْ أَوْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَرِعَ شَيْئًا مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ ، أَجْعَلُهُمْ وَرَثَةً لِنَبِيِّهِمْ ، وَالدَّاعِيَةَ إِلَى رَبِّهِمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ . أَخْتِمُ بِهِنَّ الْخَيْرَ الَّذِي بَدَأْتَهُ بِأَوْلِيهِمْ، ذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيَهُ مَنْ أَشَاءَ ، وَأَنَا ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .. هَكَذَا رَوَاهُ إِبْنُ أَبِي حَاتِمٍ."

فلما أخذ الله تعالى على أنبيائه ذلك العهد ووثقته في كتابه العظيم - القرآن - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأقر به الأنبياء وعاهدوا ربهم " قال : أقررتم ، وأخذتكم على ذلكم إصري؟ قالوا: أقررتنا " ختموا ذلك الإقرار بالشهادة أمام الله تعالى أن يلتزموا ، وختم الله تعالى بشهادته سبحانه على شهادتهم " . قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين " .

ومن جميل التوثيق وأشدّه :

١- الإخبار : فالقرآن يستعمل في توثيق القصة والإخبار عن الماضي (الحاضر في الذهن)

كلمة : إذ ، التي تنقلنا إلى الشاهد المحسوس .

٢- تحديد المقصود : وهو كلمة : ميثاق النبيين ، فيأتي التركيز والانتباه للأمر المطلوب .

٣- المن والفضل : فضل الله على النبيين حين رفعهم إلى هذا المقام العظيم أن يحافظوا عليه ،

ويشكروه سبحانه عليه .. لما آتيتكم من كتاب وحكمة والأصيل يعرف الفضل ويرعاه ، ويقر به .

٤- التشوّف للأمر : بجيء النبي الخاتم والسيد المتبوع ذي المقام الرفيع جاءكم رسول فهو نبي

ورسول مثلهم .

٥- مهمة القائد الأعظم : أنه يتوج برسالته الرسالات كلها ويتممها ، مصّدق لما معكم . وهو

اللبنة الأخيرة في صرح التوحيد .

٦- الهدف المطلوب : الإيمان به ونصرته ومؤازرته . والتعريف به وتنبية الأتباع إلى الإيمان به .

لتؤمنن به ولتنصرته .

٧- الشهادة الموثقة : الممهورة بالخاتم الإلهي ، وكانت على شقين مؤكداين : أولهما : الإقرار :

أقررتم ، وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا: أقررتنا

ثانيهما : الإشهاد : قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين .



سبحانك يا غفار

قالوا: إن أرجى آية قوله تعالى في سورة الزمر الآية ٥٣ " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم : لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم " واستدلوا على ذلك من الآية نفسها بما يلي :

١- " قل " : بما بعدها من الرحمة والتلطف تفيد البشرى من الله تعالى .

٢- " يا عبادي " نداء يدل على التحبب فـ " العباد " غير " العبيد " وقد وردت العباد- في القرآن-

للتكريم ، والعبيد للتهديد . فهي إبتداء أمن وأمان وداعية للغفران

٣- " الذين أسرفوا على أنفسهم " ولو قال : أحسنوا لأنفسهم قلنا هم يستحقون اللطف والبشرى

لما قدّموا من عبادة لربهم وتفان في الإخلاص له سبحانه . لكن الخطاب لمن أساء وأخطأ وازداد عصياناً ،

وانغمس في الفواحش والمفاسد . ثم حين انتبهوا لما قدّموا تحسّروا على ما فاتهم ، وأحسوا أن زمن التوبة

تجاوزهم فأصابهم الغم والحزن ، ويئسوا من رحمة الله ، وظنوا أن مأواهم النار وغضب الله لا محالة . وأن ما

مضى من عظيم ذنوبهم لا يؤهلهم للتوبة والإنبابة . فازدادوا غمّاً على غم وهما على هم . وربما زين الشيطان

لهم - ما داموا قد سقطوا ولا نجاء لهم - أن يسرفوا في المعاصي وأن يجترئوا عليها أكثر مما اجترعوا . وعلى

هذا يطمئن الشيطان أن مصيرهم ارتبط به ، وأنهم مثله من أهل النار خالدون فيها .

٤- " لا تقنطوا من رحمة الله " فتنتعش نفوسهم ، ويحيا الأمل فيها ، ويتنبهون إلى أن القطار لم يفتهم

ما لم يغرغروا . فيتوبون إلى الله ويستغفرونه ، ويسألونه العفو والمغفرة عما مضى من ذنوبهم ، وأن يعينهم

على استدراك ما فات من عظيم أخطائهم ... ولكنها أمثال الجبال فهل يتجاوز الله تعالى عن كل ذلك؟!!

فيجيبهم غفار الذنوب وستار العيوب والمنعم المتفضل سبحانه :

٥- " إن الله يغفر الذنوب جميعاً " يغفرها كلها صغيرها وكبيرها ، خطيرها وحقيرها ، دقّها وجليلها حين

يقبل المرء عليه معترفاً بتقصيره ، مقراً بجريرته ، عازماً على التوبة ، نادماً على ما فرط . فكّرّم الجليل جليل ،

وغفران الكبير كبير ، وعفو العظيم عظيم . ولكنهم كانوا في الغي سادرين ، وفي الضلالة سائرين ! فيجيب

الرب الكريم منبهاً عن صفتين من صفاته واسمين من أسمائه يدلان على جميل نعمائه وحسن عطائه :

٦- " إنه هو الغفور الرحيم " فهو يغفر لأنه رحيم ، ويرحم لأنه غفور . ولا يسد خلل عباده وضعف حيلتهم ونقص خليقتهم إلا كمال صفاته وجليه معروفه .

هذا ما قاله العلماء وأحسن بما قالوا . إلا أنني أجد آية سبقت أختها في السورة نفسها - الزمر - الآية ٣٥ أكثر رجاء - والله أعلم - يقول المولى تعالى فيها :

" ليكفر الله عنهم أسوأ ما عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون "

وتصور معي - أخي الحبيب - أنني وإياك اجترحنا سيئات صغيرة وكبيرة ، وعملنا حسنات كبيرة وصغيرة أيضاً . ونحن بشر نصيب ونخطئ ويقوى إيماننا ويضعف . وما منا إلا مّرّ بمثل هذا " كل ابن آدم خطاء " ثم نتوب حين نعود إلى أنفسنا وينجلي غشاء النسيان ووسوسة الشيطان فنحاسبها " إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون " الأعراف ٢١٠ . فنحسن العمل خائفين راجين ، راهبين راغبين . فماذا يفعل الإله العظيم سبحانه حين يرانا عليه مقبلين ، وعن أخطائنا راغبين ؟ .. عد إلى الآية واقراها متمعناً متيقناً بما فيها تر الله تعالى - جلّ من كريم مفضل - يكرّمنا بخصلتين رائعتين رائعتين :

الأولى : أنه يمسح الذنوب العظيمة الثقيلة ، وكأنها لم تكن . فأين الذنوب الصغيرة ؟ " اللهم إنه يمسحها من باب أولى ، فإذا غفر الكبائر فانتهي أمرها ، أترأه يحاسبنا على الصغائر؟ ! بل إنها ممحوّة سلفاً قبل الموت بإذن الله ، بل في اللحظة والتو . لقول النبي صلى الله عليه وسلم " الصلوات الخمس . والجمعة إلى الجمعة . ورمضان إلى رمضان . مكفرات ما بينهن . إذا اجتنب الكبائر "

الثانية : أنه سبحانه حين يجزينا الثواب - وهناك حسنات صغيرة وأخرى كبيرة ، والعادة عند البشر أن لكل عمل ثواباً بما يناسب العمل نفسه - يجعلها كلها بأجر أفضل الأعمال . نعم يجزينا أعمالنا الحسنة بأفضل الثواب وخير الجزاء .

فما أعظم لقاء الله !

وما أكرم فضله وأعظم خيره !

اللهم إننا نحبك ، ونحب لقاءك ، ونرجو الخير في ذلك اليوم العظيم ..

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقاءك .

التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر
والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين
استوقفتني هذه الكلمة (السياحة) أكثر من غيرها ، فما قبلها - في الآية - وما بعدها يسهل معرفته
سريعاً، لكنّي توقفت أتساءل : كيف يكون المسلم سائحاً؟ تساءلت وأنا أعلم أن هناك معنى إسلامياً
للسياحة غير الذي يعرفه عوامّ الناس
"السائحون " قيل : إنهم:

١. الصائمون ؛ فعن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : الصيام. ومنه قوله تعالى : " عابدات سائحات
" [التحريم : ٥] . وقال سفيان بن عيينة : إنما قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلها من المطعم
والمشرب والمنكح . والسائحون : لا يذوقون في النهار قطرة لربهم امتثالاً لأمر ربهم ورغبة في نيل رضاه.. فعن
عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ؛ أسنده الطبري . ورواه أبو هريرة مرفوعاً عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : (سياحة أمتي الصيام) . قال الزجاج : ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض
. وقد روي عن عطاء : إنهم الذين يديمون الصيام .

٢. وقال شاعر يمدح المسلم السائح :

وبراً يصلي ليله ونهاره
يظل كثير الذكر لله سائحا ،

وقال : السائحون المجاهدون . وروى أبو أمامة أن رجلاً استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في
السياحة فقال : (إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله) . صححه أبو محمد عبد الحق .

٣. وقيل : السائحون : المهاجرون قاله عبد الرحمن بن زيد .

٤. وقيل : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم ؛ قاله عكرمة .

٥. وقيل : هم الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر والعلامات الدالة على
توحيده وتعظيمه حكاه النقاش .

وحكي أن بعض العباد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه في أذن القدح وقعد يتفكر

حتى طلع الفجر فقبل له في ذلك فقال : أدخلت أصبعي في أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى : " إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل " [غافر : ٧١] وذكرت كيف أتلقى الغل وبقيت ليلي في ذلك أجمع .

٦. قال القرطبي رحمه الله : لفظ " سيح " ، " بالياء يدل على صحة هذه الأقوال فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسبح الماء ؛ فالصائم مستمر على الطاعة في ترك ما يتركه من الطعام وغيره فهو بمنزلة السائح . والمتفكرون تجول قلوبهم فيما ذكروا . وفي الحديث : (إن لله ملائكة سياحين مشائين في الآفاق يبلغوني صلاة أمتي) . والسياحة هنا لعمل مطلوب منهم ، ليس كمفهوم السياحة لدى العامة .

٧. والسياحة في القرآن كذلك حياة الأمن والأمان لقوله تعالى يخاطب المشركين " فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله... " والمعنى سيروا أيها المشركون آمنين مدة أربعة أشهر لا تلقون من المسلمين فيها مكروهاً . وهو أمر إباحة يتضمن تهديداً بالقتال ما لم يسلموا أمرهم إلى الله .

٨. والانسياح : الاتساع . نقول سائح باله : اتسع . قال الشاعر

أُمِّي ضمير النفس إياك بعدما يراجعني بئني فينسأح بالها

- وعلى هذا فالسياحة المرغوبة (المطلوبة) عبادة الله صياماً وجهاداً وهجرة وتعلماً وتفكيراً

وتدبراً ... وقليل من يفعل ذلك .

قالوا ربنا الله ... ثم استقاموا(١)

كيف قالوا ربنا الله ؟ أقالوها بألسنتهم دون أن يدروا كنهها ، أم بقلوبهم فآمنوا مقتنعين راضين

مطمئنين ، وفي أعمالهم فحققوا وثابروا ؟



لمن كان له قلب

ديننا الإسلامي دين عقل وفكر ، يخاطب الإنسان بمنطقية ، فيضع النقاط على الحروف ، وي طرح الفكرة عليه (الإنسان) بما لا يدع مجالاً للإنكار - هذا عند أولي الفهم وأصحاب العقول - فالأفكار المعروضة متصل بعضها ببعض ، ويؤدي أولها إلى ثانيها بإحكام ، وثانيها إلى ثالثها بطواعية وسلاسة ، وهكذا ، فيعرضها الباحث عن الحقيقة على قلبه وعقله ، فيراها منطقية محكمة العرض ، متناسقة بينما نجد الأديان الأخرى تعيش في مسرح الغيبات وزوارب التناقضات .

مثال هذه المنطقية هذه الآية الكريمة في سورة البقرة :

" كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (٢٨) فذكر

القرآن الكريم أحوالاً خمسة مر الإنسان ببعضها أو مر غيره بإحداها إذ سبقه إليها ، وستمر البشرية بالأحوال كلها : ١ - وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا

٢ - فَأَحْيَاكُمْ

٣ - ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

٤ - ثُمَّ يُحْيِيكُمْ

٥ - ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

١ - فقبل مجئنا إلى هذه الدنيا أين كان البشر؟ أكانوا في مكان غير هذا المكان وحياة غير هذه الحياة ؟ أم كانوا في طور العدم ؟ ولن يدعي أحد أنه كان حياً قبل أن يولد إلا إذا كان محتل العقل أو معانداً للحق ، وهذا العدم فناءً وموتٌ ، ولن ينكر هذا العدم والفناء احدٌ أكان مشركاً أم ملحداً .

٢ - ونحن في هذه الدنيا نتحرك ونأكل ونشرب ونلبس ونسافر ويجارب بعضنا بعضاً ، ويفرض القوي على الضعيف ما يريد ، أكان حقاً أم باطلاً . ونصح ونمرض وترى البناء والهدم ، وتسمع الخبر وتراه عياناً .. أفنحن في هذه الدنيا أحياء أم أمواتٌ ؟ ولن يشك أحد ، مشركاً كان أم ملحداً طوبواً أم عاقلاً أننا في طور الحياة ، وأنه في كلتا الحالتين لا يملك لنفسه شيئاً .

وفي الحالتين الأولى والثانية خوطبنا بالفعل الماضي " كنتم ، فأحياكم " فالحالتان حصلتا ،

مرّت الأولى ، ونحن في الثانية .

٣- وفي الحالة الثالثة نجد الموت الثاني ، أليس العدمُ الأول موتاً ، فالفناء الثاني الذي سبقنا إليه الأولون من آباء وأجداد وإخوان نراهم يسارعون إليه وندفنهم بأيدينا فناءً ثانٍ لا بد منه ، وهذه أيضاً لا ينكرها أحد اكان مشركاً أم ملحداً فهو يرى الناس تموت أفراداً وجماعات في الأرض والبحر والسماء، وسنلحق بهم عاجلاً أم آجلاً . وذكر القرآن هذه الحالة بالفعل المضارع " يميتكم " لأن هذه الحالة الثالثة ستكون في المستقبل المنظور للمخاطب الذي يرى الناس ينتقلون إلى دار الفناء - البرزخ - وهو ما يزال حياً ، فهي لمن ذاق طعم الموت صارت ماضياً ، وله - من ظل حياً - أن ينتظر ، فاستعمل الفعل المضارع .

٤- أما الحالة الرابعة " يحييكم " فهي بيت القصيد الأول التي لا يصدقها إلا ذو القلب الحي والفهم الصحيح الذي عاين الحالات الثلاث الأولى وآمن بأن الله تعالى الذي صدق في الحالات الثلاث السابقات هو الذي يخبرنا عن الحالتين الرابعة والخامسة ، والله سبحانه وتعالى - ابتداءً - صادق الوعد ، ومن رأى بعيني قلبه ووجهه صدق الله تعالى ليؤمننّ بحتمية الأخيرتين ، وهو سبحانه قادر على إعادة الخلق والحياة ، وهي أهون عليه سبحانه - وكل شيء هيّن عليه - فسيحينا ، ولكن لماذا يحيينا ؟

٥- الجواب على هذا السؤال واضح في الحالة الخامسة - بيت القصيد الثاني والأهم - الصادقة كأخواتها، " إليه ترجعون " نسأل الله تعالى أن يجعل خير أيامنا يوم العرض عليه ، فتعرض الأعمال على المسلمين عرضاً ، ثم يغفر الله تعالى لعباده تقصيرهم - إن شاء - ، فقد كانوا يستغفرونه ، ويسألونه في كل حالاتهم العفو والغفران ، إنه غفار الذنوب ، ستار العيوب ، الرحيم بعباده . أما من نوقش الحساب فقد هلك - نعوذ بالله من سوء العاقبة .

ومن الملاحظ أن كلمة " أحياكم " سُبقت بفاء الترتيب والتعقيب لأن الله تعالى خلقنا ، ويخاطبنا ، فناسبت الفاء هذه الحالة ، وأن الكلمات " يميتكم ، يحييكم ، إليه تُرجعون " بينها زمان قد يطول ، فاستعمل حرف العطف " ثم " للترتيب والتراخي .

فالعاقل من يتفكر ويتدبّر ... اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيفهمونه بقلوبهم كأنهم يرونه رأي

العين، ويتبعونه .

متاع الحياة الدنيا

أقرأ القرآن الكريم - أحياناً - كما يقرؤه الكثرة الكاثرة من الناس، وأمر على الآيات أفهمها فهماً يخالطه الانشغال بالدنيا ، وبكلمة أخرى أقرأ دون وعي وتدبر في بعض الأحيان ، فأنا إنسان ضعيف تأخذني الدنيا في متاهاتها دون أن أشعر بذلك - ولعلك مثلي في كثير من هذه الحالات ، فعلى رأي الكوفيين نحن (الإنسان) من النسيان وإن كنت أرى ما تراه المدرسة البصرية من أن الإنسان من (الأانس) وهذا ما قرأناه في مسائل الخلاف للأنباري - رحمه الله تعالى - حين كنا في السنة الثانية الجامعية .

قرأت قبل يومين قوله تعالى في سورة الشورى: " فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) " مع الآيات السبع التي تليها قراءة كما ذكرت آنفاً لكنني عدت إليها أمعن التفكير فيها - وما ألدّ تدبر الآيات والتفكير فيها - فوقفت على ما يلي :

١- لا ينال أحدنا ما يريد، إنما هو فضل من الله تعالى نُؤْتَاهُ عَلَىٰ ضَعْفِنَا ، وليس لنا إلا شكر الله على نعمائه والإقرار بهذا الفضل ولسنا نقول ما قاله قارون " إنما أوتيته على علم عندي" وغاب عنه رغم تشدقه الباطل بالفهم والدراية أنه أقرّ بأنه (أوتيه) ولكن الاستكبار يفضح صاحبه من حيث لا يدري.

٢- والعطاء (أشياء) جمع شيء والآية تقول (من شيء) فما يأخذه الإنسان جزءاً من شيء . إنه قليل إذن إذا ما قورن بالحقيقة . ألم يقل الله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً). وأين ما يجوزه المخلوق من عطاء الخالق سبحانه؟ يعرف هذا من يعلم الفرق بين الخالق والمخلوق.

٣- الدنيا زائلة فانية، وما فيها متنقل بين الناس فهو متاع ، والمتاع في العربية ما ينتهي إلى أجل وهل يكون عطاء الدنيا إلا فانيا مثلها ، وهذا العطاء الدنيوي يأخذه البر والفاجر والمؤمن والكافر.

٤- وما عند الله - في جنات النعيم - دائم خالد لا ينقطع ولا يزول . فعلام يتشبث الإنسان بالزائل ويتعلق به ويفضله على الدائم المتجدد؟ إنه سوء تفكير وضعف في الفهم والإيمان لا ينتبه إليه إلا :

أ- المؤمن بالله تعالى المتصل به سبحانه وهؤلاء قليلون ، ألم يقل الله تعالى " وما أكثر الناس - ولو حرصت بمؤمنين" إن الهوى والشيطان يجرفان أمامهما من يعيش حياته غشاء ولا يعمل إلا لدنياه غافلاً

عن الحقيقة التي سوف تجبهه في يوم يندم فيه ولا ينفعه الندم.

ب- الذي يتوكل على الله ، وما يتوكل على مولاه سوى العاقل النبيه الذي يدري سبب خلقه " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" ويطيع ربه ويعمل ليوم قادم لا محالة ، إن التوكل على الله لجوء إلى حصن حصين وملاذ آمن منيع. ومن توكل على الله كفاه الله ، وما أعظم الحديث الشريف الذي علمنا إياه سيد البشر صلى الله عليه وسلم "

فعن أنس رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : " من قال (يعني إذا خرج من بيته) بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، يُقال له : هُدَيْتَ وَكُفَيْتَ وَوُقِيَتْ وَتُنْحَى عَنْهُ الشَّيْطَانُ " رواه الترمذي، وزاد أبو داود في روايته : فيقول- يعني الشيطان للشيطان آخر - : كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي؟! "

ت- (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ) والاجتناب عدم المرور به والتوقف عنده إنه الابتعاد والحذر عن كبائر الاثم أولاً وهنا نرى أن الإثم نوعان صغير وكبير ويقع المسلم في اللثم لكنه يستغفر او يتوضأ ويصلي فيمحي اللثم ، وما أضيفت كلمة الكبائر إلى الاثم إلا للتنبيه من الوقوع في الإثم الصارخ لأنه مثل الفاحشة تماماً .

ث- وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) فالإنسان يغضب وقد يثور ، وهو في ثورانه يُضَيِّعُ رَشْدَهُ ويتصرف بنزق وقد يفعل ما لا تُحمد عقباه ففي هذه الحالة ينبغي أن يملك نفسه ويعود لهدوئه ويغفر لمن أساء إليه وهذه محمداً لا يصل إليها إلا أولو العزم الذين يذكرون قوله تعالى " وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " وهذا ما فعله سيدنا أبو بكر رضي الله عنه حين سمع هذه الآية - وكان أقسم ان لا ينفذ مسطح بن أثاثة بنافعة لأنه خاض في الإفك ، فقال بلى يا رب بلى ، وغفر لمسطح . إنها درجة لا ينالها إلا المتقدمون.

ج- وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ " ولا يستجيب لأمر ربه فيلتزمه ويتعد عن المنهي عنه إلا السعداء ، وأقف عند كلمة الاستجابة فأراها سمة المؤمنين الأطهار المتصلين برهيم في كل أحوالهم ، ولا يستجيب إلا الواعي النبيه ذو القلب الزكي والعقل الذكي .

ح- وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ : إن إقامة الصلاة دليل الاهتمام بها ، وما ذكرت الصلاة إلا وسبقها كلمة

الإقامة ، وعد إلى القرآن الكريم لتتأكد من ذلك . إنّ من يؤدي صلاته بخشوع وتدبر فيطمئن بقيامه وركوعه وسجوده ويستقبل الله تعالى في صلاته فقد أقامها اما السرعة في الحركة دون الاطمئنان والتعقل في حركات الصلاة فليست صلاة على ما أعتقد .

خ- "وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ" وهل يقوم المجتمع الصالح المتماسك وهل تبني الدولة القوية إلا على أساس قويم من الشورى والعمل المشترك؟ إن البلاء الذي أصاب أمتنا ودفع بها إلى مؤخرة الأمم تجبّر الحاكم وتفرد به باتخاذ القرار ، فكأن الناس عبيد في مزرعته وملك يمينه يفعل بهم وبيلادهم ما يشاء دون وازع من إيمان ولا ضابط من شورى ، وثورات الشعوب على حكامهم ما جاءت من فراغ ، وتاريخنا المعاصر ظلم وفساد وتأخر بسبب غياب الشورى ووأد الحريات وقتل الإبداع .

د- "وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" (٣٨). وإذا سألت عن سبب تقديم : "مما رزقناهم" على "ينفقون" علمت أن الله تعالى يرزقنا ويكرمنا ويعطينا ويتفضل علينا ثم يأمرنا أن ننفق مما رزقنا فالعطاء أولاً يتبعه الاعتراف بالفضل والإقرار به فينتج عنه شكر النعمة بالإنفاق على عباد الله ، وبالشكر تدوم النعم . ولعلك ترى ان الله سبحانه لا يكلفنا شططاً حين يأمرنا أن ننفق القليل من هباته وكرمه سبحانه.

ذ- "وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ" (٣٩) ، فالله تعالى يعلمنا أن نكون أحراراً لا نرضى الدنيا في ديننا ولا حياتنا ، إن البغي مرتعه وخيم ، ومن عاش في الذل لا يستقيم ولا يستحق الحياة من رضي الهوان . وأفهم هنا أن من سمات المسلم أنه لا يظلم احداً ولا يرضى الظلم من احد . فما كان الجهاد إلا عنوان الحياة الحرة الكريمة .

ر- "وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا" رأيتم ميزان العدل؟ فما ينبغي إذا ما ظلمتُ أن أتجاوز استرداد حقي وإلا انقلبتُ ظالماً ، وما ينبغي للمسلم ان يكون ظالماً . وما يثور الحر إلا لظلم مسّه أفيكون كمن ظلمه؟! إن تجاوز الحق ظلم ، هكذا علمنا ديننا.

ز- "فمن عفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ" : وما العفو إلا عند المقدرة ، وإلا كان هواناً ، إنّ العفو عن ظلمك يأتي حين يرى الظالم أنه بين يديك وتحت رحمتك ، وهذا درس له رائع ، بل إنك حين تربه من القوة ما يُرهبه ثم تعفو عنه تملك قلبه ، فإذا ما أحسنت إليه انقلب صاحباً وصديقاً ، ونلت أجراً من الله عظيماً ، لقد علمنا الله تعالى أن نكسب قلوب العباد فقال : " ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله

وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين ، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي احسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم ، وما يُلقَّها إلا الذين صبروا ، وما يُلقَّها إلا ذو حظ عظيم" ولا ننس أن الله تعالى يكره الظلم والظالمين " إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) "

س- " وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ " (٤١) روى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من دعا على من ظلمه فقد انتصر ، إن إحقاق الحق والوصول إليه يشفي قلب المظلوم أولاً ويكسر شوكة الظالم ثانياً ويربِّي المجتمع ثالثاً فيخاف الظالم أن يظلم . لكن حين يعلم المظلوم أن القاضي أخذ بحقه وأن عقوبة الظالم مستحقة فتنازل عن حقه وعفا عن جريرة المسيء كان من الصابرين، وهذا لا يجوز سوى النبيل من الناس الذي يكظم غيظه ويعفو عمّن ظلمه قادراً عليه كما ذكرنا آنفاً .

ش- ولن يكون المدافع عن حقه الساعي إليه ظالماً ، والظالم الحقيقي من بدأ الظلم واعتدى على حقوق الآخرين وأهائهم، ولم يراع حرمة الأخوة في الله ولا حقوق المجتمع في الأمن والأمان والحياة الحرة الكريمة "إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) "

ص- إن القرآن الكريم - مع دعوته إلى الحفاظ على الحقوق الإنسانية - يريد من المؤمن أن يرتفع إلى مستوى من الصبر الجميل في تحمل أذى إخوانه لأنه داعية وقدوة ، وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم هذا إذ يقول : " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم لا يصبر على أذاهم " وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) إنه السمو في الأخلاق والسمو في الإنسانية والسمو في دعوة إلى الله.



من أطف الله بحبيبه المصطفى

في تفسير قوله سبحانه وتعالى " وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاً مستوراً "

عَنْ أَسْمَاءِ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ " تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ " أَقْبَلَتْ الْعُورَاءُ أُمَّ جَمِيلَ بِنْتَ حَزْبٍ وَهِيَ وَلَوْ لَهَا وَلَوْلَا ، وَفِي يَدَيْهَا فَهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ : مُدَّمَا عَصَيْنَا وَأَمْرَهُ أَبِينَا وَدِينَهُ قَلِينَا - تقصد بذلك الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وحاشاه أن يكون مذمماً بل هو محمد في الدنيا والآخرة - وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ أَقْبَلْتُ ، وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي) وَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَمَنَ سُورَةَ الْإِسْرَاءِ " وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا " . فَوَقَفْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي ! فَقَالَ : لَا وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكَ . قَالَ : فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ : قَدْ عَلِمْتُ فُرُشَ أَبِي ابْنَةَ سَيِّدِهَا . وَفِي رِوَايَةٍ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَمَّا نَزَلَتْ " تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ " جَاءَتْ امْرَأَةٌ أَبِي هَبٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَوْ تَنَحَّيْتَ عَنْهَا لَوْلَا تُسْمِعُكَ مَا يُؤْذِيكَ ، فَإِنَّهَا امْرَأَةٌ بَدِيَّةٌ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّهُ سَيَحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا) فَلَمْ تَرَهُ . فَقَالَتْ لِأبي بَكْرٍ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، هَجَانَا صَاحِبِكَ ! فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا يَنْطِقُ بِالشَّعْرِ وَلَا يَقُولُهُ . فَقَالَتْ : وَإِنِّي لَمُصَدِّقَةٌ ؛ فَأَنْدَفَعْتُ رَاجِعَةً . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمَا رَأَيْتَ ؟ قَالَ : (لَا مَا زَالَ مَلِكٌ بَيْنِي وَبَيْنَهَا يَسْتُرُنِي حَتَّى ذَهَبَتْ) . وَقَالَ كَعْبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتُرُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِثَلَاثِ آيَاتٍ : : الْآيَةُ الَّتِي فِي الْكَهْفِ " إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا " ، وَالْآيَةُ فِي النَّحْلِ " أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ " ، وَالْآيَةُ الَّتِي فِي الْجَاثِيَةِ " أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً " . فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَرَأَهُنَّ يَسْتُرُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قَالَ كَعْبُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : فَحَدَّثْتُ بَعْضَ رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، فَأَتَى أَرْضَ الرُّومِ فَأَقَامَ بِهَا

زَمَانًا ، ثُمَّ خَرَجَ هَارِبًا فَخَرَجُوا فِي طَلْبِهِ فَقَرَأَ بِهِنَّ فَصَارُوا يَكُونُونَ مَعَهُ عَلَى طَرِيقِهِ وَلَا يُبْصِرُونَهُ . قَالَ الشُّعَلِيُّ :
وَهَذَا الَّذِي يَرُونَهُ عَنْ كَعْبٍ حَدَّثْتُ بِهِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الرَّيِّ فَأُسِرَ بِالَّذِي لَمْ - مَكَانٍ فِي فَارِسَ - ، فَمَكَثَ
زَمَانًا ثُمَّ خَرَجَ هَارِبًا فَخَرَجُوا فِي طَلْبِهِ فَقَرَأَ بِهِنَّ حَتَّى جَعَلَتْ ثِيَابَهُنَّ لِتَلْمَسَ ثِيَابَهُ فَمَا يُبْصِرُونَهُ .

قال القرطبي رحمه الله : وَيُزَادُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ أَوَّلُ سُورَةِ يَسٍ إِلَى قَوْلِهِ " فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ " فَقَدْ خَرَجَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْتِهِ وَالنَّاسُ مَتَحَلِّقُونَ حَوْلَهُ يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهُ لِيَقْتُلُوهُ ، فَيَذْهَبُ دَمُهُ بَيْنَ
الْقِبَائِلِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ بَنُو هَاشِمٍ إِلَّا أَنْ يَقْبَلُوا الدِّيَةَ فِيهِ . فَأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فِي يَدِهِ ، وَأَخَذَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عَنْهُ فَلَا يَرُونَهُ ، فَجَعَلَ يَنْثُرُ ذَلِكَ التُّرَابَ عَلَى رُءُوسِهِمْ وَهُوَ يَنْتَلُو هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ يَسٍ
: " يَسٍ . وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ - إِلَى قَوْلِهِ -
وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ " . حَتَّى فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تُرَابًا ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى حَيْثُ
أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ .

ويقول القرطبي عن نفسه حين كان في الأندلس : وَلَقَدْ أَتَيْتُ لِي بِيَلَادِنَا الْأَنْدَلُسَ بِحِصْنِ مَنْثُورٍ مِنْ
أَعْمَالِ قُرْطُبَةَ مِثْلَ هَذَا . وَذَلِكَ أَنِّي هَرَيْتُ أَمَامَ الْعَدُوِّ وَأَخْزَتِ إِلَى نَاحِيَةِ عَنْهُ ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي طَلْبِي
فَارِسَانَ وَأَنَا فِي فَضَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ قَاعِدٍ لَيْسَ يَسْتُرُنِي عَنْهُمَا شَيْءٌ ، وَأَنَا أَقْرَأُ أَوَّلَ سُورَةِ يَسٍ وَعَظِيمٌ ذَلِكَ مِنْ
الْقُرْآنِ ؛ فَعَبَّرَ عَلَيَّ ثُمَّ رَجَعَا مِنْ حَيْثُ جَاءَا وَأَحَدُهُمَا يَقُولُ لِلْآخَرِ : هَذَا (دَيْبُلُهُ) ؛ يَعْنُونَ شَيْطَانًا . وَأَعْمَى
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبْصَارَهُمْ فَلَمْ يَرُونِي ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا عَلَى ذَلِكَ .



هل للجن رسل منهم ؟

قال تعالى في الآية ١٣٠ من سورة الأنعام

" يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ۗ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ۗ وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ "

استوقفتني كلمة " منكم " وساءلت نفسي : هل من الجن رسل ؟ وما أسماؤهم ؟ ولو لم يكن منهم رسل ما أقروا بذلك ولم يشهدوا على أنفسهم حين قالوا " شهدنا على أنفسنا " .

اطلعت على عدد من كتب التفسير ، فوجدت ابن كثير رحمه الله تعالى يستفيض في كتابه المشهور (تفسير القرآن العظيم) في توضيح هذه الآية بما يشبع نهم السائل ، ويروي ظمأه في بسط هذه المسألة .

وأنقل عن ابن كثير بعض ما أورد مع التعليق والاستنتاج الذين بدؤوا لي يوضحان الفكرة ويجليانها :
وَهَذَا مِمَّا يَقْرَعُ اللَّهُ بِهِ كَافِرِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ : هَلْ بَلَّغْتَهُمُ الرُّسُلَ رِسَالَاتِهِ ؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرٌ " يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ " أَي مِنْ جَمَلَتِكُمْ ، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ ، وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رُسُلٌ كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَعَيْرٌ وَاحِدٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْحَلْفِ ،

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَمِنَ الْجِنِّ نُذُرٌ) .

وَحَكَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مَرْحَمٍ أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ فِي الْجِنِّ رِسَالًا ، وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَفِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّهَا مُخْتَمَلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ وَهِيَ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - كَقَوْلِهِ " مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبَأْيِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ " إِلَىٰ أَنْ قَالَ " يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ " والمقصود بالبحرين ماء الأنهار والبحيرات العذبة وماء البحار والمحيطات المالحة . وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ إِنَّمَا يُسْتَخْرَجَانِ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ لَا مِنَ الخَلْوِ ، فَعَلَّبَ الْمَاءَ الْمَالِحَ عَلَى الْمَاءِ الْعَذْبِ ، كَمَا تُغَلَّبُ الذَكَرَانِ عَلَى الْإِنَاثِ ، فَتَقُولُ مَخْبِرًا عَنْهُمْ جَمِيعًا بِصِيغَةِ الْمَذْكَرِ : " الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ قَادِمُونَ " وَهَذَا وَاضِحٌ تَمَامَ الْوَضُوحِ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - . وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الْجَوَابَ بِعَيْنِهِ ابْنُ جُرَيْرٍ .

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا هُمْ مِنَ الْإِنْسِ قَوْلُهُ تَعَالَى " إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ

مِنْ بَعْدِهِ - إِلَى قَوْلِهِ - رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ " وَقَالَ تَعَالَى عَنِ إِبْرَاهِيمَ " وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ " فَحَصَرَ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ فِي ذُرِّيَّتِهِ ، سَيِّمًا أَنْ الْخِطَابَ كَانَ لِلنَّاسِ " لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ .. " فَكَانَ الرُّسُلَ مِنْهُمْ .

وَمَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ فِي الْجَنِّ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ بَيْعَتُهُ . وَقَالَ تَعَالَى " وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْتَهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ " . وَمَنْ الَّذِي يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ غَيْرَ الْبَشَرِ

وَقَالَ مَخَاطَبًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى " وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِنَّ تَبِعَ لِلْإِنْسِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَصَحِيحٌ أَنْ كَلِمَةَ رِجَالٍ تُطْلَقُ عَلَى الذِّكْرَانِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجِنِّ " وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ، فزَادُوهُمْ رَهَقًا " إِلَّا أَنْ كَلِمَةَ " أَهْلِ الْقُرَى " تَخَصُّ الْإِنْسَ لَيْسَ غَيْرَ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ :

" وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، قَالُوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ، وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ، وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى نَقُولِ :

- صَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْجِنَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ كَمَا أَرْسَلَ لِلْبَشَرِ . وَلَوْ كَانَ لِكُلِّ جِنْسٍ رَسُولٌ لَمَا صَرَفَهُمْ إِلَيْهِ .

- وَأَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ كَانُوا وَاسِطَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى بَنِي جِنْسِهِمْ ، (مِنْذِرِينَ) .

- وَأَنَّ الْجِنَّ اعْتَادُوا ذَلِكَ حِينَ ذَكَرُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَعَلَىٰ هَذَا فَقَدْ سَمِعُوا مِنْ مُوسَىٰ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ أَنْبِيَاءٌ مِنْهُمْ لَمَّا سَمِعُوا مِنْ مُوسَىٰ وَآمَنُوا بِهِ .

- وَقَوْلُ الْجِنِّ الَّذِينَ سَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ .. " أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ هِيَ الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِي إِنْذَارِ الْجِنِّ ، وَأَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ فَيَسْمَعُونَ مِنْهُمْ

ويؤمنون بهم ، وينطلقون منذرين .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ ، وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى " سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ، فَبَأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ " . فَكَانَ تَكْلِيفُهُمْ مِنْ قَبْلِ رِسَالَةِ الْبَشَرِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ لَا أَنْبِيَاءَ مِنَ الْجِنِّ بَلْ هُمْ مِنَ الْبَشَرِ حَصْرًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .



وأعدّوا

- قال تعالى: ((وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم .. لا تعلمونهم ، الله يعلمهم)) .
- ١ . لا بد من إعداد القوة لهؤلاء الذين يستبيحون بيضة الإسلام.
 - ٢ . الإعداد يرهب العدو ويُخزيه .. فيسعى لمنعه.
 - ٣ . المنافقون - وهم كفار ضمناً بنص القرآن- لُعب بيد الأعداء يحركونهم كما تحرك الدمى.
 - ٤ . عدوّنا هو عدوّ الله سواء بسواء
 - ٥ . يجب الإعداد قدر ما نستطيع ، ولو كان قليلاً ، لنكون أهلاً لنصر الله.
 - ٦ . لا يُرهب العدو ويهدم أحلامه إلا القوة المسلمة.
 - ٧ . في حالة ضعفنا لا يجد الأعداء حرجاً من إظهار حقيقتهم ، وفي حال قوتنا ينزؤون وراء كثير من الاستار ، وهم أعداء في كل حال.
 - ٨ . صيغة الجمع في (وأعدّوا) لا ترضى بأعداء المتخوّفين الجبناء الذين يدلّسون ويُرجفون.
 - ٩ . لا يجعل العدو ذليلاً سوى الجهاد ، ولا يكون السلام إلا بعد القوة . أما سلام الضعفاء فهو الذلُّ عينه.
 - ١٠ . أعداؤنا هم الكفار (ملة الكفر واحدة) والمنافقون، والمثبطون الذين يعملون لحرف الثورة وإضعافها.



وحيل بينهم وبين ما يشتهون

- وقفت اليوم وأنا أقرأ آخر آية من سورة سبأ (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) - أريد بعض معاني هذه الآية الكريمة- على تفسيرها في (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي، فوقعت على قصة إسرائيلية أوردها صاحب التفسير، وذكر قبل عرض القصة الإسرائيلية أقوال بعض التابعين والعلماء في تفسيرها .
- قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما يعني (الإيمان) .
 - وقال السدي " وحيل بينهم وبين ما يشتهون " وهي التوبة وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله.
 - وقال مجاهد " وحيل بينهم وبين ما يشتهون " من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل .
 - وروي نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن أنس " رضي الله عنهم وهو قول البخاري وجماعة .

والصحيح أنه لا منافاة بين القولين الثاني والثالث، فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه .

أما القصة الإسرائيلية فعلى الرغم من غرابتها نجد الحكمة والتدبر وكثيراً من العظات ، ولا بأس أن نتمتع فيها ، فلعلنا نجد بعض ما يترك في النفس من أثر حميد:

فقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا أثراً غريباً عجيباً جداً فلنذكره بطوله إذ قال :

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا بشر بن حجر الشامي حدثنا علي بن منصور الأنباري عن الرقي بن قطامي عن سعيد بن طريف عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل " وحيل بينهم وبين ما يشتهون " إلى آخر الآية قال :

"كان رجل من بني إسرائيل فاتحاً أتاح الله تعالى له مالا فمات ، فورثه ابن له تافه أي فاسد فكان يعمل في مال الله تعالى بمعاصي الله تعالى عز وجل فلما رأى ذلك أخوات أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ثم رحل ، فأتى عينا بحاجة فسرح فيها ماله وابتنى قصراً ، فبينما هو ذات يوم جالس إذ شملت عليه ريح بامرأة من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجا أي ريحا فقالت من أنت يا عبد الله ؟ فقال أنا امرؤ من بني إسرائيل قالت فلك هذا القصر وهذا المال ؟ فقال نعم . قالت فهل لك من

زوجة؟ قال لا . قالت فكيف يهنيك العيش ولا زوجة لك ؟ قال قد كان ذاك . قال فهل لك من بعل ؟
قالت لا قال فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت إني امرأة منك على مسيرة ميل فإذا كان غدً فتزود زاد يوم
وإثني ، وإن رأيت في طريقك هولاً فلا يهولنك .

فلما كان من الغد تزود زاد يوم وانطلق فأنتهى إلى قصر فقرع رتاجه فخرج إليه شاب من أحسن
الناس وجها وأطيبهم أرجا (أي رجحا) فقال من أنت يا عبد الله ؟ فقال أنا الإسرائيلي قال فما حاجتك ؟
قال دعني صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال صدقت . قال فهل رأيت في الطريق هولاً ؟ قال نعم ولولا
أنها أخبرتني أن لا بأس علي لهالي الذي رأيت . قال ما رأيت ؟

١- قال : أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بكلبة فاتحة فاها ففرعت فوثبت فإذا أنا من ورائها
وإذا جراؤها ينبحن في بطنها فقال له الشاب لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان يقاعد الغلام
المشيخة في مجلسهم ، ويسرهم حديثه .

٢- قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بمئة عنز حقل وإذا فيها جدي يمصها فإذا أتى
عليها وظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة . فقال لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ملك
يجمع صامت الناس كلهم حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة

٣- قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بشجر فأعجبني غصن من شجرة منها ناضرة
فأردت قطعة فنادتني شجرة أخرى يا عبد الله مني فخذ ، حتى ناداني الشجر أجمع : يا عبد الله مني فخذ ،
فقال لست تدرك هذا هذا يكون في آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر النساء حتى إن الرجل لينخطب المرأة ،
فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهم .

٤- قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل فإذا أنا برجل قائم على عين يغرف لكل إنسان من الماء
فإذا تصدعوا عنه صب في جرته فلم تعلق جرته من الماء بشيء قال لست تدرك هذا هذا يكون في آخر
الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ، ثم يخالفهم إلى معاصي الله تعالى .

٥- قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بعنز وإذا يقوم قد أخذوا بقوائمها وإذا رجل قد
أخذ بقرنيها وإذا رجل قد أخذ بذنبها وإذا راكب قد ركبها وإذا رجل يحتلبها فقال أما العنز فهي الدنيا
والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً وأما

الذي أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه وأما الذي ركبها فقد تركها وأما الذي يجلبها فبخٍ بخٍ ، ذهب ذلك بها .
٦- قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل يمتح على قلب كلما أخرج دلوه صبه في

الحوض فانساب الماء راجعا إلى القلب . قال هذا رجل رَدَّ الله عليه صالح عمله فلم يقبله .

٧- قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل يذر بذرا فيستحصد فإذا حنطة طيبة . قال
هذا رجل قبل الله صالح عمله ، وأزكاه له .

٨- قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال: يا عبد الله ادن مني
فخذ بيدي وأقعدني فوالله ما قعدت منذ خلقتني الله تعالى فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه فقال له
الفتى هذا عمُّ الأبعد نفد ، وأنا ملك الموت ، وأنا المرأة التي أتتك ، أمرني الله تعالى بقبض روح الأبعد في هذا
المكان ثم أصيره إلى نار جهنم .

قال ففيه نزلت هذه الآية " وحيل بينهم وبين ما يشتهون " الآية ... هذا أثر غريب وفي صحته نظر
وتنزيل الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا كما جرى لهذا
المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده ، فجاءه ملك الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهي .

وقوله تعالى : " كما فعل بأشياعهم من قبل " أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسول لما جاءهم
بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم " فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم
يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون " .

وقوله تبارك وتعالى " إنهم كانوا في شك مريب " أي كانوا في الدنيا في شك وريبة فلهذا لم يتقبل
منهم الإيمان عند معاينة العذاب .

قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث
عليه .



ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون

قال مستغرباً : قرأت قوله تعالى في سورة الرحمن " فوريك لنسألتهم أجمعين عما كانوا يعملون " ثم قرأت قوله تعالى في سورة القصص " ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ، فكيف نوازن بين هاتين الآيتين ؟ قلت : ليس في الآيتين تعارض ، فالإنس والجن موقوفون أمام الله ومسؤولون " وقفوهم ؛ إنهم مسؤولون " ولكن ألم تقرأ قوله صلى الله عليه وسلم يمدح بعض المخلصين الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب إذ قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما : " عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي، انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب " .. فلما دخل صلى الله عليه وسلم بيته لحاجة ، ثم خرج على أصحابه ، فرآهم يخوضون في هؤلاء ويبحثون عن السبب الذي يجعلهم بعيدين عن المساءلة قال: " ما الذي تخوضون فيه؟" فأخبروه فقال: "هم الذين لا يرقون ، ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون" رواه الشيخان .

فهؤلاء مستثنون من الحساب لأن الله تعالى أحب أن يكرمهم لإخلاصهم وعظيم إيمانهم . فالحساب هو القاعدة ، وهؤلاء مستثنون من القاعدة . وفي المقابل يُستثنى المجرمون في دخولهم النار فلا يُحاسبون لكثرة جرائمهم وشدة ظهورها . وقال بعض المفسرين : ألم تقرأوا قوله تعالى " يُعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام " ؟ هؤلاء المجرمون يحشرون سود الوجوه ، زرق العيون " .. ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً .. " فيُخدون من رؤوسهم وأرجلهم ، ويُلقون في النار بلا حساب . إن ألسنة النار تأخذهم من بين الخلائق فتلقي بهم في جوفها وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " فيخرج عنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حبَّ السمسم " وقد قال الضحاك : يُجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره حتى يندق ظهره ، ثم يُلقى في النار ليكون أشد لعذابه . وقيل : إن الملائكة تسحبهم إلى النار ، تارة تأخذهم بنواصيهم ، وتجرحهم على وجوههم ، وتارة تأخذهم بأقدامهم وتسحبهم على رؤوسهم .

وقيل في شرح الآية " ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون " : لا يُسألون سؤال استعتاب ، كما قال

سبحانه " ولا هم يُستعتبون " ، " فما هم من المعتبين " وإنما يُسألون سؤال توييح وتقريع ، ويُفضحون
على رؤوس الخلائق .

نسأل الله العافية وحسن الختام .



إنهم في كل مكان (فلنحذَرهم)

كنت أتحدث صباحاً بعد صلاة المسجد عن المنافقين الذين يتصدرون المجالس ويخطبون ودّ الناس بمعسول الكلام وبيتسمون بوجوههم . وقلوبهم - كما ذكر الحبيب المصطفى - قلوبُ الذئاب . وقد تراهم يصلون في الصفوف الأولى ليرسموا لأشخاصهم في نفوس الناس صورة غير التي هم عليها يدرؤون بها حقيقتهم ويوهمون المجتمع صلاحهم الظاهر الذي يخبئون وراءه كفراً وضلالاً.

يسأل أحد المصلين متعجباً أو مستنكراً : وهل يمكن أن ترى منا من ينطبق عليه ما تقول: وهل

يدخل المنافق المسجد ويصلي بيننا؟

علمتُ ما يقصده الشيخ طيب القلب ، فقلت له : نسأل الله تعالى أن يعافينا أن نكون منهم ، ولكنّ أما قرأت قوله تعالى " إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله ؟" فقد كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ويصلون وراءه ويظهرون التقوى والإيمان ويعلمون تصديقهم للرسالة النبوية وانضواءهم تحت لوائها. وتقرأ قوله تعالى يدمغهم بالكذب " والله يشهد إن المنافقين لكاذبون " ومن أعظم شهادة وأصدق قولاً من رب العزة سبحانه وتعالى. لقد قالوها بألسنتهم وجحدوها بقلوبهم . وكان المنافقون يملأون المدينة ويفسدون فيها ما استطاعوا حتى نزلت فيهم كثير من الآيات توضح خطرهم في سورة " التوبة" وغيرها ونزلت فيهم سورة كاملة " المنافقون"

كانوا في المدينة يتآمرون ، ومسجد الضرار شاهد على ذلك . وعهدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدُ الصلاح الأول، حوّلته خيرُ المسلمين من صحابته رضوان الله تعالى عنهم الذين نشروا الرسالة في العالم كله. أفلا يكونون موجودين في هذا الزمن الكئيب الذي يجاهر فيه الفاسد بفساده ؟

وتأمل الآية الأولى في سورة " المنافقون" وهي تبدأ بـ"إذا " الشرطية المستقبلية التي تدل على أنهم يفعلون ذلك في كل زمان، ومكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع غيره إلى أن تقوم الساعة ويكررون غشيان مجالس المسلمين ومساجدهم لينفذوا إلى أهدافهم ويُعمّوا على وسائلهم في حرب الإسلام وأهله ، وهؤلاء كما نعلم أشد خطورة من الأعداء الظاهرين ، إنهم يلبسون لباس الإسلام ويتحدثون بلسان المسلمين . ويخلفون الأيمان ليُدلّسوا على السامعين " اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ " .

قال تعالى في تحملهم للناس وطريقة حديثهم " وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ " ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم منهم ومن ذلاقة ألسنتهم التي يكسبون بها قلوب البسطاء،: [أخوف ما أخاف عليكم منافق عليم اللسان]. وهذا ينطبق بشكل واضح على علماء النظام السوري الذين يتصدرون تحت لوائه وينافحون عنه ويحلبون في إنائه ، باعوا دينهم في سبيل عَرَض زائل وأذلوا أنفسهم للنظام السافل الذي يستخدمهم كما يريد ثم يرميهم كما تُرمى الأحذية الخلقة حينما ينتهي دورهم وتنتفي الفائدة منهم. فيخسرون الدنيا قبل خسارتهم الآخرة وينطبق عليهم قول الحكيم (هؤلاء باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم). فما أشد خسارتهم وأسوأ حظهم.



بين الخليل والضليل

الحوار بين المتناقضين فكراً وهدفاً أمرٌ عادي تراه في حديث الدعاة وأصحاب المبادئ وفُرقاء السياسة وأرباب العلم والأدب . وفي القرآن أمثلة واضحة تدل على وجوب الحوار الهادف للوصول إلى الحق أو لدحض الطرف الآخر . منها ما كان بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وملك زمانه الذي أمر بطرحه في النار، فلما أنقذه الله منها كان بينهما لقاء قرأناه في سورة البقرة ، أول الجزء الثالث من القرآن الكريم :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۗ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)).

ولعلك ترى في قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ) دعوة إلى التفكير والتدبر في أمور عدّة ، منها :

- ١ - أن على المرء أن يتفكر ويتدبر فيما يجري حوله ليصل إلى الهدف المنشود.
 - ٢ - وأن على العاقل أن يمحص الأمور ويقبلها معتمداً على فهم الواقع والعظمت والعبر.
 - ٣ - وأن يكون الهدف من الحوار حضوراً أو اشتراكاً فيه الوقوف على الحق والتزامه.
- قد يعتر الإنسان بنفسه حين يغتني (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ألم يقل الرجل الغني المكابر للمؤمن الأقل منه مالاً وولداً متفاخراً (أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً) يظن أنه بكثرة ماله وولده أكرم منه وأقرب عند الله. أو أعظم مكانة من غيره ، والحقيقة أن الغنى والفقر امتحان واختبار ، وقد قال الله تعالى في هذا المعنى (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمنّ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي اهاتنّ) ويأتي الجواب (كلا ..) وهذا الملك الذي يجاوره إبراهيم الخليل عليه السلام يدُلُّ عليه أنه ملك عظيم ... وينكر على إبراهيم عبادة الله (حاجّ إبراهيم في ربه) ومن كان ملكاً استعبد الناس واستعلى عليهم، وفرض عليهم نفسه إلهاً

والملاحظ أن المستكبر لا يملك -على الأغلب - آلية الحوار والمبادرة فيه سوى الامر الواجب على الآخرين أن ينفذوه دون تباطؤ. لقد بدأ إبراهيم عليه السلام بالحوار قائلاً : إن الإله يجيبي ويميت ، وما ذكر هاتين الصفتين إلا لأنهما من أوليات الألوهية الحقة فما كان من الملك السفیه إلا ان ردّ (أنا أحیی وأمیت)

دون أن يفهم مرام الكلمة ، فمن صفات المحيي والمميت أنه أبدي سرمدي ، وأنى لمخلوق مهما علت مرتبته واشتدت قدرته أن يَحْيِي إلى الأبد ، ونسي هذا المدّعي أن له بداية ، ومن كانت له بداية لا بد أن تكون له نهاية ، فهو ميّت وعاجز مقهور [والميّت بتشديد الياء :الحي الذي سوف يموت ، وقد خاطب الله تعالى نبيه الكريم : إنك ميّت وإنهم ميّتون؟] ، وظن الملك المستكبر الجاهل أن العفو عمّن استحق عقوبة الموت إحياءً وأن قتل الغافل عن الظلم إماتة ، فجاء باثنين قتل أحدهما وأبقى على الثاني، وهذه غاية الحماقّة في المتكبرين

لا بد -إذاً - من تعجيز واضح ينهي الجولة بما لا يحتمل التاويل . فأخبره أن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فليأت بها من المغرب . وهذا الكلام جاء صاعقة على الملك المغرور ، فما كان يتوقع هذه الضربة القاصمة التي تشل تفكيره وتسكت غروره ، فانتهى الحوار سريعاً حين أخرج مُدّعي الألوهية وظهرت حجته واهية أو قلّ : تعرّى أمام ملئه حين أفحم وأبلس . لقد كانت الشمس تسير في دائرتها المخططة لها قبل أن يولد الملك والبشرية كلها وفق نظام محكم لا تحيد عنه إلى أن تقوم الساعة.

ومن اساليب الحوار المفحم ان تبادر من تحاوره بما لا يتوقعه ، فيُسقط في يده ويظهر ضعفه سريعاً فتنتهي جولة الحوار قبل أن تبدأ ، واستعمل القرآن كلمة (بُهِتَ) التي تصور صمته المفاجئ وفمه المفتوح ، وحركته المتوقفة ، وانفراج عينيه وميلان رأسه للأمام . ثم تصوّر - أخي - الصمت الذي ران على الحضور والعيون المراوحة بين إبراهيم عليه السلام والملك المفجوع بالجواب المخرس .

وتأتي القفلة الرائعة توضح سبب خسارة الملك الضليل (والله لا يهدي القوم الظالمين) .

وهل أظلم ممن ادّعى ما ليس له.؟

وهل أظلم ممن كذب على الناس؟

وهل اظلم ممن استعبدهم وأبعدهم عن الهدى؟

وهل أظلم ممن يحاول وأد النور وإشاعة الكفر والضلال.؟.

إنهم لا يتعلمون ممن سبق ويستمرون على غيهم وفسادهم ، ويقعون في الخطأ نفسه الذي وقع فيه

أمثالهم من الظلمة الجرمين ، وقد صدق فيهم قوله تعالى (ونذرهم في طغيانهم يعمهون).



صفات المكذبين في سورة (ن) نون

هل لنا أن نطيع الكذاب والله تعالى ينبه حبيبه وخليله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقع في حبالهم، فقال: " فلا تطع المكذبين " فلا خير فيهم. وهم يُعَيَّرُونَ مواقفهم في كل آن ويلبسون لكل موقف لباسه ، ونلاحظ بوضوح نوعاً من النصح المبطن بالتهديد في قوله تعالى " ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً" . والمهدّد بكسر الدال هو المولى سبحانه ، والمهدّد بفتحها هو حبيبه صلى الله عليه وسلم .

فما الصفة الفارقة الأولى للمكذّبين التي ينبغي معرفتها والبعد عنها؟ يذكر القرطبي رحمه الله

في تفسيره معاني كثيرة للصفة الأولى للمكذّبين " ودوا لو تدهن فيدهنون " : إنها المداهنة

- ١- ودوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم.
- ٢- ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك.
- ٣- لو تلين فيلينون لك . والإدهان : التلين لمن لا ينبغي له التلين ؛ قاله الفراء .
- ٤- ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيمالتونك.
- ٥- ودوا لو تكذب فيكذبون .
- ٦- ودوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك .
- ٧- ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم .
- ٨- ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم .
- ٩- لو تنافق وترائي فينافقون ويراءون .
- ١٠- ودوا لو تضعف فيضعفون ؛
- ١١- ودوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم ؛
- ١٢- طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدوا إلهه مدة.

فهذه اثنا عشر قولاً كلها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى ؛ فإن الإدهان : اللين

والمصانعة . ومجاملة العدو، وممايلته .

والمقاربة في الكلام والتلين في القول والمداهنة - في أغلب الأحيان - نوع من النفاق وترك المناصحة . فهي على هذا الوجه مدمومة . ويقال أدهن في دينه وداهن في أمره ؛ أي خان فيه وأظهر خلاف ما يضر . وقيل : داهنت بمعنى واريت ، وأدهنت بمعنى غششت .

" فيدهنون " لم تجزم لسوقها على العطف ، ولو جاء بها جواب النهي لقال فيدهنوا . وإنما أراد : إن تمنا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك ؛ عطفا لا جزاء عليه ولا مكافأة ، وإنما هو تمثيل وتنظير .

وأما الصفة الثانية للمكذّبين فكثرة الحلف . ووصف من يتخذ الحلفان دأبه بالمهانة " ولا تطع كل حلاف مهين " وصيغة المبالغة (حلاف) تكسبه المهانة عند الله تعالى وعدم تصديق السامعين له ، فمن امتهن اسم الله كان عند الله مهيناً (مُحْتَقراً) ووضيعاً لأنه لم يُرَاعِ عظمة الله سبحانه لضعف إيمانه وقلة يقينه وكان الكذب متأصلاً فيه . ومن أكثر من الحلفان كذّبه الناس ولم يصدّقوه ، فكأنه يقول لهم - على عكس ما يريد - لا تصدقوني أيها الناس .

وأما الصفة الثالثة للمكذّبين فالتحريش بين الناس والمشي بينهم بالنميمة ونقل الحديث لفساد ذات البين وقال النبي صلى الله عليه وسلم " لا يدخل الجنة قتات " وهو النمام ، وروثاً أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ألا أخبركم بخياركم ؟ " قالوا بلى يا رسول الله قال " الذين إذا رُؤوا ذكر الله عز وجل " ثم قال " ألا أخبركم بشراكم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة والباغون للبراء العنت " إن النمام والمغتتاب لا ذمام له ولا خير فيه ، مدموم محتقر لإساءته بزرع الفتنة بين الناس .

وأما الصفة الرابعة للمكذّبين فالمناع للخير المعتدي الأثيم يمنع الخير عن الناس ويحتكره لنفسه ويعتدي على حرمة الله سبحانه ويسرف في ارتكاب الموبقات، ويتجاوز حدود الحلال إلى الحرام غير آبه به . يميل إلى الباطل . ويحارب الحق وأهله ويعذب المؤمنين ويصرفهم عن الحق .

وأما الصفة الخامسة للمكذّبين (فالعُتْلُ الزنيم)

أما العُتْلُ فهو اللفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع . روى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أنبئكم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر " .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العتل الزنيم فقال " هو الشديد الخلق المصحح الأكل

الشروبُ الواحد للطعام والشراب الظلومُ للناس رحيبُ الجوف " وعن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه وأرحب جوفه وأعطاه من الدنيا هضما فكان للناس ظلوما قال فذلك العتل الزنيم "

وأما الزنيم في لغة العرب فهو الدعيّ ، قال الشاعر:

زنيم ليس يُعرف من أبوه === بغيّ الأمّ ذو حسب لثيم

وقيل: الدعي الفاحش اللثيم الملحق النسب الملقب بالقوم ليس منهم ، وعن ابن عباس هو المريب الذي يعرف بالشر.

اما الصفة السادسة فالناكر لفضل الله المستكبر عن التزام الحق ، إذا عُرض عليه الإيمان بالله وحده أباه وجحده ووصفه بالخرافات والأباطيل : " إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين " . ألم يقل الله تعالى " وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور " مختال مخادع. والمستكبر على شرع الله المخالف لأمره يتبع هواه فيرديه " ومن أضل ممن اتبع هواه بغير علم؟ "

ومن كان بهذه الصفات استحق اللعنة الأبدية وكان من أهل النار والعياذ بالله .. نسأل الله العفو

والعافية والأمن والإيمان وحسن الختام.



ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك

" ألا تسجد " منصوب بنزع الخافض ، وكأنك تقول : ما منعك من أن تسجد . و " لا " زائدة .
وفي سورة ص " ما منعك أن تسجد " .

وقيل : ليست بزائدة ؛ فإن المنع فيه طرف من القول والدعاء ، فكأنه قال : من دعاك إلى ألا تسجد ؟ كما تقول : قد أمرتك ألا تفعل كذا . وقيل : في الكلام حذف ، والتقدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألا تسجد .

قال العلماء : الذي أحوج إبليسَ إلى ترك السجود هو الكبر والحسد ؛ وكان أضمر ذلك في نفسه إذا أمر بذلك . وكان الله تعالى قد وصى أهل السماء بالسجود لآدم قبل خلقه ، يقول الله تعالى : " إني خالقُ بشرًا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين " [ص : ٧١ - ٧٢] . وقوله إني خالقُ بشرًا غير قوله : إني خالقُ بشرٍ . فمعنى الجملة الأولى انه سيخلق بشرًا ومعنى الجملة الثانية أنه خلق وأتم الخلق ، فافهم هذا وتدبر .

فكأنَّ إبليس دخله أمر عظيم من قوله " فقعوا له ساجدين " . فإن في الوقوع توضيحَ الواقع وتشريفًا لمن وقع له ؛ فأضمر في نفسه ألا يسجد إذا أمره الله بالسجود في ذلك الوقت . فأراد الله تعالى كشفَ خبيثته ليفضحه بين الملائكة ، فلما نفخ فيه الروح وقعت الملائكة سُجَّداً ، وبقي هو قائماً بين أظهرهم ؛ فأظهر بقيامه وترك السجود ما في ضميره . فقال الله تعالى : " ما منعك ألا تسجد " أي ما منعك من الانقياد لأمرى ؛ فأخرج سر ضميره فقال : " أنا خير منه . "

إذ أمرتك

. ولا ننسَ أن (إذ) ظرفيةٌ بمعنى حين . فقد أمره الله تعالى مرتين بالسجود : مرة حين أخبره وأخبر الملائكة بضرورة السجود لآدم حين يخلقه ، ومرة حين خلقه وأمر الجميع بالسجود له . فأبى إبليس في ضميره أولاً وأبى في الثانية عملاً .

قال أنا خير منه

وكان رد إبليس - كما يقول القرطبي رحمه الله - : منعي من السجود فضلي عليه ؛ فهذا من إبليس

جواب على المعنى . كما تقول : لمن هذه الدار ؟ فيقول المخاطب : مالكمها زيد . فليس هذا عين الجواب ، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب .

خلقتني من نار وخلقته من طين

فرأى أن النار أشرف من الطين ؛ لعلوها وصعودها وخفتها ، ولأنها جوهر مضيء .

قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أول من قاس إبليس ، فأخطأ القياس . فمن قاس الدين برأيه قرّن مع إبليس .

قال ابن سيرين : وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس .

وقالت الحكماء : أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين ، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هما مخلوقان فإن الطين أفضل من النار من وجوه خمسة :

أحدها : أن من جوهر الطين الرزانة والسكون ، والوقار والأناة ، والحلم ، والحياء ، والصبر . وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع ، فأورثه المغفرة والاجتناب والهداية . ومن جوهر النار الخفة ، والطيش ، والحدة ، والارتفاع ، والاضطراب . وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار ؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء؛ قاله القفال .

الثاني : أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر ، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة نارا وأن في النار ترابا .

الثالث : أن النار سبب العذاب ، وهي عذاب الله لأعدائه ؛ وليس التراب سببا للعذاب .

الرابع : أن الطين مُستغنٍ عن النار ، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب .

الخامس ، وهو أن التراب مسجد وطهور ؛ كما جاء في صحيح الحديث . والنار تخويف وعذاب ؛

كما قال تعالى : " ذلك يخوف الله به عباده " [الزمر : ١٦] . وقال ابن عباس : كانت الطاعة أولى

بإبليس من القياس فعصى ربه ، وهو أول من قاس برأيه . والقياس في مخالفة النص مردود .



الفهرس العام

٣ المقدمة
٥ ❖ مع سورة الفاتحة (١)
١٩ ❖ في محراب موسى عليه السلام (١)
٢٤ ❖ (... فَعَفَّرَ لَهُ ...)
٢٧ ❖ (ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي)
٣١ ❖ إيت القوم الظالمين
٣٤ ❖ إسرائيليات في قصة موسى عليه السلام
٤٣ ❖ مع سليمان عليه السلام في سورة النمل (١)
٥٠ ❖ مع سليمان عليه السلام في سورة النمل (٢)
٥٧ ❖ آداب في قصة (نوح عليه السلام) في سورة هود
٦٢ ❖ مع نوح عليه السلام في سفينته
٦٧ ❖ لا تقصص رؤياك على إخوتك
٧٠ ❖ مع إخوة يوسف عليه السلام
٧٤ ❖ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان
٧٧ ❖ (اذكرني عند ربك)
٨٠ ❖ " إيتوني به أستخلصه لنفسي "
٨٢ ❖ جماليات في سورة يوسف
٨٦ ❖ تجدد المرء قوياً حين يكون صادقاً.
٨٨ ❖ مكر النساء
٨٩ ❖ درس بليغ من لقمان الحكيم (١)
٩١ ❖ درس بليغ من لقمان الحكيم (٢)
٩٦ ❖ محمد رسول الله
١٠١ ❖ نظرات بيانية في بعض من آيات سورة الإسراء
١٠٤ ❖ نظرة في سورة الهُمزة
١٠٧ ❖ في رحاب آية: كل نفس ذائقة الموت
١١٠ ❖ وآتاكم من كل ما سألتموه (١)
١١٤ ❖ وآتاكم من كل ما سألتموه (٢)

١١٦ أحسن الحديث ❖
١١٩ السخرية في سورة (المنافقون) ❖
١٢٢ المعجبون بأنفسهم ❖
١٢٤ { الحسنى والزيادة } ❖
١٢٦ المسارعون إلى الله تعالى ❖
١٣١ (المقتسمون الذين جعلوا القرآن عِضِينَ) ❖
١٣٤ إنه يُجيب المضطرَّ إذا دعاه ❖
١٣٨ إنها لظى ❖
١٤٠ أنواع القلوب ❖
١٤٢ ثواب الآخرة للمؤمنين وأهم صفاتهم في سورة الشورى ❖
١٥١ (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) ❖
١٥٩ ديننا الرائع ❖
١٦٤ محمد رسول اللهوميثاق النبيين ❖
١٦٨ سبحانك يا غفار ❖
١٧٠ سياحة إسلامية ❖
١٧٢ لمن كان له قلب ❖
١٧٨ من ألطاف الله بحبيبه المصطفى ❖
١٨٠ هل للجن رسل منهم ؟ ❖
١٨٣ وأعدّوا ❖
١٨٤ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ❖
١٨٧ ولا يُسأل عن ذنوبهم الجرمون ❖
١٨٩ إنهم في كل مكان (فلنحذّروهم) ❖
١٩١ بين الخليل والضلّيل ❖
١٩٣ صفات المكذّبين في سورة (ن) نون ❖
١٩٦ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ❖
١٩٩ الفهرس العام ❖